

كولن ولسون

إل المتهة

ترجمة سامي خشبة



دار الآداب

كولن ولسن

من تعهد ترار پرنان

إله المتاهة

رواية

ترجمة : سامي خشبة

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

لدار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى

نيسان (أبريل) ١٩٧٤

كلا ، انما اريد السماء لا البحر ، افضل القبرات على
الاسماك ، وأبدا لا اغوص الى عمق بعيد ، وانما اريد ان اخطف
نظرة الى الزرقاء العالية ، استنشق الهواء الطليق . أي الفايبر
انني اذ اتعلق بالزمرد الذائب هنا ، فأنني امسك ، جدائل
الشعر القمحية المتموجة – جدائل فيفاين .

براونينج

قال : « ليحفظ الله من كل اذى ذلك الرجل الطيب الذي انقذت حياته
بأعجوبة بفضل حمالة ذكره الكبيرة الملحقة ببنطلونه الضيق . (١) ليحفظ الله من
الاذى من كان جديرا بحمالة ذكره الطويلة ، فكانت عنده في يوم واحد اكثر قيمة
من مئة وتسعة وستين الف تاج من تيجان الملوك . ليحفظ الله من الاذى ، ذلك
الذي بفضل حمالة ذكره الطويلة ، قد انقذ مدينة بأكملها من الموت جوعا . وانني
بحق الله ، لعاقد عزمي على أن اضع كتابا « حول ميراث حمالات الذكور الطويلة »
حالما يتاح لي الوقت لذلك » .

وفي الحقيقة ، لقد وضع بالفعل كتابا كبيرا، وهو كتاب جيد جدا ، فدعم بالرسوم
التوضيحية والبيانية ، ولكن هذا الكتاب لم يطبع بعد ، على قدر علمي .

وابليه ، الكتاب الثاني ، الفصل الخامس عشر .

(١) Codpiece ، في البنطلونات الضيقة في القرن الثامن عشر ، وكانت تزود بكيس لحمل
الخصيتين والعضو كله لالتصاق البنطال بالساق وعدم وجود أي فراغ آخر .

مات ايزموند دونيللي في شهر ديسمبر عام ١٨٣٢ ، بعد ان بلغ الرابعة والثمانين من عمره . وفي اواخر حياته ، كان قد اصبح مولعا بالارقام الى درجة الهوس ، وتبادل الرسائل مع العالم الرياضي العظيم جوس (١) الذي اقتبس منه كلمة ضمنها في تمهيده للطبعة الخامسة من كتابه « غرائب علم الحساب » . وفي احدى رسائله الى جوس يتحدث ايزموند عن الخصائص « السحرية » للرقم ١٣٧ - وهو رقم - بالطبع - لا يقبل القسمة . وبشكل عابر ، صادفت نسخة من هذا الخطاب في اليوم السابق ، كانت موجودة في محفوظات مستر اكسايد نوري ، وقد ثارت خواطري حينما تبين ان هذا الكتاب سوف يطبع ويصدر بعد ١٣٧ عاما بالضبط من موت ايزموند . واعتبرت هذه المصادفة علامة فال حسن .

تبدا قصة « بحثي عن ايزموند دونيللي » في اليوم العاشر من شهر ابريل من هذا العام . ففي شهر يناير ذهبت بالطائرة الى نيويورك لكي ابدا جولة محاضرات اخذتني من فلوريدا الى مين ومن نيومكسيكو الى سياتل . وكنت قد اصطحبت اسرتي معي : زوجتي ديانا وابنتي مورين التي تبلغ الثالثة من عمرها . ولكن لما لم

(١) كارل فريدريك جوس (١٧٧٧ - ١٨٥٥) عالم رياضي وفلكي ألماني شهير . ولد في برونزويك ولكنه عاش اكثر حياته في جوتينجن حيث شيد مرصدا كبيرا ونشر اغلب اعماله . الكتاب المذكور هنا هو اول كتبه وصدر عام ١٨٠١ . (هـ . م)

يكن من المفيد لهما - عمليا - ان يسافرا معي الى كل تلك المدن ، فقد بقينا مع بعض الاصدقاء في نيوهافن ، وكنت اذهب لكي اقضي عطلاتي الاسبوعية معهما اذا ما كنت في احدى مدن الشاطئ الشرقي بالقرب من نيوهافن . وبعد شهرين متواصلين من التنقل المستمر - حيث لا استقر في مكان واحد اكثر من ايلة واحدة - كنت قد بدأت اتوتر ، ورحت اكافح من اجل المحافظة على درجة بسيطة من العزلة بأن اكتب قليلا كل يوم في كراسة خصصتها للمذكرات الشخصية . وحينما شرعت اخيرا في اعادة قراءة تلك المذكرات ، خطر لي انه لن تكون هناك بداية اكثر بساطة لهذا التقرير من ان اقتبس تلك المذكرات بنفس الصورة التي كتبت بها تماما .



١٠ أبريل ١٩٦٦ .

الساعة الان الثامنة والنصف صباحا حسب توقيت الساحل الشرقي . اي انها الخامسة والنصف بالنسبة لي ، طالما انني طرت قادما من بورتلاند ، في ولاية اوريجون بالامس . انني متكئ على فراشي في غرفة الضيافة بالحرم الجامعي ، اشرب الشاي وأكل كعكا صغيرا مصنوعا من دقيق القمح . وسيكون عليّ في التاسعة والنصف ان اتحدث في الاجتماع . لقد قالوا لي ان ديلان توماس (٣) قد نام في هذه الحجرة ، واثار فضيحة حينما سمح لاعضاء فريق كرة القدم من جامعة كويوكول - وهي جامعة الشبان على الناحية الاخرى من المدينة - سمح لهم بالنوم على الارض وبأن يتقيأوا في حوض الاغتسال . ولا بد أن نشاط هذا الرجل وطاقته كانا خياليين . فبعد تسعة اسابيع من التجول عبر اميركا والقاء المحاضرات اصبحت في حالة من الاجهاد اشعر معها بأن عينيّ قد تحولتا الى زجاج بارد متجمد . انني استطيع دائما ان اشعر مقدما بما سيحدث حينما اكون على وشك الانهيار ، كأن الاشياء تكتسب فجأة خاصية عجيبة ذات اعماق غامضة . كانت ديانا قد وضعت في حقيبتي قطعة كبيرة من صابون المطبخ العادي الاخضر - فالفنادق الصغيرة لا تهيء لك سوى قطع صغيرة تنزلق من بين يديك تحت الدش - وحينما ذهبت هذا الصباح لكي آخذ قطعة الصابون من الحقيبة كان علي ان اقف في مكاني لكي احدث في الاشياء . من الصعب ان اشرح ما شعرت به . ان قطعة الصابون لم تبد لي ببساطة كأنها قطعة من حجر المالاخيست الاخضر ، ولكنها بدت ايضا رخوة ، بزخرفة ، غائمة كما لو كانت تريد ان تختفي عن الانظار.

(٣) ديلان توماس (١٩١٤ - ١٩٥٢) شاعر انجليزي حديث ، عرف بتميز شعره عن معاصريه الكبار وخاصة بامتزاج التصورات السبريالية مع عناصر من الخيالات الاسطورية الكلتية القديمة ، وبالذات عن اساطير الكلت المتعلقة ببواجس النفوس وتلبس الارواح للاجساد . لاحظ ان الرواية هنا ستقوم على تجربة مشابهة بين الراوي والبطل . (هـ . م)

أن الأشياء التي أراها في مثل تلك اللحظات ، تبدو كما لو كانت قد اكتسبت بعدا اضافيا او معنى جديدا ، سوى ما يتعاق بالصلابة واللون والرائحة والطعم ... ثمة شيء « آخر » أيضا ، يختلف تماما عن تلك الخصائص . لا بد لك ان تدعو هذا الشيء - بالنسبة للانسان - الشخصية ، او الروح .

انني امضي فأظل ادور حول الغرفة في تلك الحالة الشبيهة بالحلم ، شاعرا كأنني طفل ولد لتوه ، عاجزا عجزا غريبا ، ومع ذلك فانه سعيد سعادة غريبة . حينما قمت بصب الماء الساخن على هذا الشاي - الذي ارسلته الينا محلات « فيندلاتر » في دبلن - انتابني احساس عابر للحظة واحدة بأنني اذوب في البخار المتصاعد ، واصبحت رائحة الشاي غريبة ، تكاد ان تكون مخيفة ايضا .

تلك الجولات قاتلة . يريد وكيالي ان اقوم بجولة اخرى في العام القادم ، ولكن هذه الفكرة تثير نائرتي . ان افضل ما يمر بك من اللحظات في اثائها ، هي لحظات الجالس في المطارات ، وتناول شطائر الامبورجر وشرب عصير الفاكهة او عصير البرتقال الطازج . واحيانا في مثل تلك اللحظات ، اتمكن من الوصول الى حالة جميلة من التباعد والنظر الى الامور في انفصال كامل عن اللحظة الراهنة ، فأحس بالحجم المجرد لتلك البلاد ، واشعر فجأة بالرضا والسعادة . لقد وصلت الى تلك الحالة ايضا منذ ليلتين ، حينما كنت اجلس في مشرب الفندق الصغير في بورتلاند ، انظر الى السيارات والحافلات العامة تمرق سريعة عبر خيوط المطر السوداء ، لكي تمرق انعكاسات اعلانات النيون فتحيلها الى مزق حمراء مثل شظايا القنابل لحظة الانفجار . ولم يحدث ابدا ان غاب عني ذلك الشعور الخاص بالابتهاج حينما يحدث ان اقترب من محل بيع الكتب في احد المطارات ، حتى ولو لم يكن لدي اكثر من خمس دقائق لتغيير الطائرة ، وفي نفس الوقت يكون لدي من الكتب ذات الاغلفة الورقية (من الطبعات الرخيصة) ما يزيد على ما استطيع ان احمله . وفي مطار اوهارا بالامس ، اشترت كتاب ابولينيير (٤) « السيد الفاسق » وهو مؤلف سريالي من الادب المكشوف ، ورحت اقرا عن حياة الشيطان المسكين التعيسة بينما كنت انتظر الطائرة . حينذاك ادركت الحقيقة بوضوح كبير: ان عملي وعمل كل الكتاب : هو ان نرفض ان نكون جزءا من الحياة اليومية العادية ، ان نقف جانبا بعيدا عن تيارها ، حتى لو تطلب ذلك ان نتخذ موقفا مشبعا بالقسوة او القومية . يجب الا تمتعنا هذه الحياة ولا ان نفرق نحن فيها . هناك علاقة بسيطة كاملة بين العقل وبيئته . البيئة تحملنا معها وتدفعنا مثل التيار في المجرى السريع ، والعقل يشبه الالة التي يمكن ان تدفع القارب في اتجاه معاكس لاتجاه

(٤) جيم ابولينيير - الاسم الادبي للشاعر الفرنسي ويلهلم كوستروفيتسكي . ١٨٨٠ - ١٩١٨ - الذي كتب القصة والنقد وكان من اصل بولندي . كان من اهم شخصيات حركة الطليعة في الادب والفنون التشكيلية اوائل هذا القرن . تميزت كتاباته بالقوى والنزعة الجنسية واحتوت آخر اعماله على الكثير من عناصر النزعة السريالية التي استشهد بها انغريه بريتون فيما بعد في البيان السريالي . (هـ . م)

التيار ، او على الاقل فانها تساعده على البقاء في نفس المكان . فاذا استمرت الالة في العمل ، كان الانسان صحيح الكيان بشكل جوهري ، اما اذا توقفت الالة ، فانه لن يكون في وضع افضل من وضع قطعة الخشب الطافية فوق التيار .



مضت الاجتماعات والمحاضرات في سبيلها بشكل جيد بصورة كافية - وتحدثت كثيرا عن طبيعة الشعر والنزعة الصوفية . وبعد احدى المحاضرات ، جرتني ست فتيات الى احدى المقاهي ورحن يطرحن عليّ الاسئلة . كن جميعا قد قرأن كتاب يومياني الذي اصدره الناشر الاميركي تحت العنوان المقرز: «اليوميات الجنسية لجيرارد سورم» (وقد كلفني القضية التي رفعتها بهذا الصدد فسي يوسطون كل مليم لعين اخذته من حقوق النشر) . وكانت الفتيات الست يحملن الكثير من الاسئلة عن كانينجهام . وكان من الغريب ان ارى ان شخصية كانينجهام ما زالت تخبب الباب الفتيات حتى من خلال الصفحات غير المسلية التي كتبها عنه . كنت احب ان اراه يتجول حرا في احدى الكليات الاميركية للفتيات - واطن انه كان سيلتقي هناك بكفؤه الحقيقي . ان اكثر الدوافع الجنسية عدوانية فسي العالم ، يمكن ان يفرق في هذا البحر من العذرية الاميركية غير الناضجة . وفي الجامعة في ولاية بورتلاند ، عقدت ندوة بينما تحلقت الفتيات من حولي في حلقة مغلقة - حيث لم اعد ارى سوى هذه الشاشة العريضة اللآي بالسائقان الطويلة والجونلات البالغة القصر . ولكن حينما اخذتني مجموعة منهن لتناول الغداء ، تبينت ان الفتاة الاميركية لم تتغير منذ كتب هنري جيمس عن شخصية دبزي ميلر . ان التفاحات تبدو شهية بما فيه الكفاية ، ولكن المرء يكتشف انها قد صنعت من الخشب .

وحدثت مصادفة عجيبة . كنت اتناول طعام الغداء مع ميرفين ديللارد ، رئيس قسم اللغة الانجليزية هنا ، فسألني ان كنت اعرف اي شيء عن ايزموند دونيللي . ومن الواضح ان دونيللي كان شخصا ايرلنديا اشتهر بفسقه وخلاعه ، وكان معاصرا لشيريدان ، امضى حياته كلها في صحبة الاوغاد في منطقة « جال واي » . وقد نشرت بعض مراسلاته مع روسو في بيرن حوالي عام ١٨٠٠ تحت عنوان « افتراع العذارى » رغم انه يبدو ان اسرته قد اعلنت ان هذا الكتاب ليس الا نتيجة نوع من التزييف . والان ، كانت مؤسسة « جروف بريس » للنشر تحاول اصدار الكتاب في اميركا ، مع مقدمة يكتبها ميرفين ديللارد . وقلت لديللارد انني اقممت فسي « جال واي » لمدة سبع سنوات ولكنني لم اسمع ابدا باسم دونيللي هناك . فاما ان يكون قد نسي تماما ، واما ان تكون ذكراه قد اخملت عن عمد .

وحينما عدت الى غرفة الضيافة ، كان هناك مظروف (غلاف مفلق) جاءني من وكيلي مملوءا بالبريد ، وكان يتضمن خطابا من بعض الناس يدعون « مؤسسة ليندن للنشر » ، احب ان انقل هنا صورة له كاملة :

مؤسسة ليندن للنشر ، ٥٦٥ الشارع الخامس ،

نيويورك . ن. ي - ١٠١٦ - في ٦ أبريل ١٩٦٩ .

عزيزي مستر سورم .

عرفت من اللقاء معك الذي نشر في باب عرض الكتب في صحيفة نيويورك تايمز انك تقوم بالقاء بعض المحاضرات هنا . ويقول اللقاء المنشور انك تنوي ان تعود قريبا ، ولذلك ارجو ان يصلك هذا الخطاب سريعا .

لقد كنت من المعجبين بكتابك « اليوميات الجنسية » منذ صدوره . وقد تذكرت بالامس ، انك اشرت في المقدمة الى « موي كوللان » . وفي كتاب « مذكرات داسق ايرلندي » الذي نزمع ان ننشره في الخريف ، يصف ايزموند دونيللي عملية اغواء لكل من ابنتي القسيس غير الشرعيتين في مدينة موي كوللان ، وهو الاب ريبوردان .

وبالنظر الى معرفتك بالمكان الذي دارت فيه تلك الاحداث ، اتساءل ان لم تكن ترغب في كتابة مقدمة للطبعة التي نزمع اصدارها ؟ واحب ايضا ان اضيف انني ساكون سعيدا اذا اتفقت معك على تأليف كتاب عن دونيللي اذا شعرت باي ميل الى القيام بمثل هذا العمل .

فاذا حدث ان تسلمت هذا الخطاب قبل مغادرتك البلاد ، اتساءل ان كان سيممكنك الاتصال بي في الرقم المذكور على الفور ، حتى يمكننا ان نتناقش في امر لقائنا ؟

واذ انتظر بشوق ان اسمع صوتك فاني

المخلص لك

هوارد فليشر .

ولما كنت املك ساعة فراغ قبل ان تقلني السيارة الى المطار ، طلبت بالهاتف الرقم الذي اعطاني اياه . وبدا لي الرجل - من صوته - ودودا بما فيه الكفاية . ولم يبد عليه الاستياء من انني لم اسمع ابدا عن دونيللي قبل اليوم . وشرحت له انني لن اصل الى نيويورك قبل يوم الجمعة المقبل ، وفي وقت متأخر ، فقال انه سيقابلني في مطار كينيدي لكي ياخذني الى بيته في « لونج آيلاند » . واثرت في هذه المصادفة المتعلقة بدونيللي . ان مثل تلك الاشياء تحدث احيانا بكثرة مضحكة . فقد حدث بالامس ان سمعت اسم الشاعر الروسي لومونوسوف في مذياع السيارة ، وبعد عدة ساعات رأيت الاسم امامي في احدى دوائر المعارف حينما كنت ابحث عن شيء آخر . وتركتني هذه المصادفة وانا اتعجب ، ولذلك ففي اول مرة ذهبت فيها بعد ذلك الى محل لبيع الكتب في الحرم الجامعي ، سألت المديرية ان كان لديها اي شيء عن الشاعر لومونوسوف . فقالت لي : « من المضحك ان تسأل عن ذلك . فقد وصلني كتاب يضم الكثير من قصائده بالامس » .

واشترت الكتاب ، وقرأت المقدمة ، وعلى الفور قررت انني قد وضعت يدي على شخصية رائعة تصلح لبناء رواية . ومنذ عشر سنوات ، كنت جديرا بأن انظر الى مثل تلك العملية نظرتي الى السحر والاعمال الخرافية . اما الان ، فأنسي اقتفي اثر سبيل المصادفات بلهفة زائدة .

قبل عشر دقائق من بداية محاضرتي هذا الصباح ، سلمني رئيس قسم اللغة الانجليزية البريد الخاص بي . كان هناك خطاب من جيم سميث من سان فرانسيسكو يخبرني فيه ان هيلجا نايزي قد انتحرت - قفزت من فوق بسرج بيركلي ، بعد ان تسلقت بطريقة ما فوق الاسلاك الواقية التي وضعوها هناك لمنع مثل تلك الاشياء . كنت اشعر بالتعب ، وقد تملكني الضجر بعض الشيء حينما وصلني الخطاب ، ولكن ، حالما قرأته ، بدا لي انني استيقظت ، واصبح الاجهاد وهما غير حقيقيي .

شعرت ايضا بالذنب ، رغم انه اثم لا اساس له ولا معنى . كنت قد التقيت بهيلجا من خلال جيم الذي كان يقيم حفلات للعرافة يتناول فيها الجميع عقاقير منشطة وترسم الفتيات على اجسادهن اشكالا مختلفة . كانت طويلة القامة ، سوداء الشعر على شيء من الكسل ، وكانت قد امضت الليلة السابقة مع جيم . امضينا معا ساعتين ، نأكل السمك وشرائع البطاطس المقلية ونشرب اقداحا من نبيذ قلعة برونجهام بينما راح جيم يتحدث عن التنجيم والفلك . قال ان الحرب في فيتنام سوف تستمر على الاقل لمدة عام آخر لان النجوم تتصارع وتتصادم . وفجأة قالت هيلجا : لماذا تهتم النجوم بان تؤثر على الوجود الانساني بينما الوجود الانساني - بصورة اساسية - لا معنى له على اي حال ؟ الا يكون من الافضل ان نترك كل شيء للصدفة ؟ وحينما قلت انا انني سألقي محاضرة في بيركلن في منتصف نهار الفد ، عرضت عليّ ان تأخذني بسيارتها الى هناك .

وفي صباح اليوم التالي جاءت الى فندقي وقالت انها امضت الليلة التالية في قراءة كتابي : « وسائل واساليب الابهام الذاتي » . ومن المؤكد انني لاحظت عليها امارات السهر طوال الليل . وانا اتقن مناقشة كتبي ، ولكنني شعرت بانها كانت على وشك الانهيار وان من واجبي ان احاول مساعدتها . كان ما ادهشني - وخدعني - هو انها كانت تسلم تسليما مطلقا بان الحياة لا معنى لها . وقد قالت ني ذلك كما لو كانت تقول ان الماء مبلل بالرطوبة . وحينما حاولت ان اشرح لها انني لا اشاركها هذا الرأي ، قالت ان المعنى الذي استخلصته من كتابي هو : ان البشر عاجزون عن ان يكونوا صادقين او امناء مع انفسهم ، ولذلك فان كلا منهم يحول حياته الى مسرحية صغيرة يصبح هو فيها الشخصية الرئيسية ، انهم يخترعون الخيالات والاهام التي تدعى الاديان والفلسفات وما الى ذلك . وحاولت ان اوضح لها انها حتى تلك النقطة فان تفسيرها كان دقيقا بما فيه الكفاية ، ولكنني انما كنت اتخذ هذا الموقف التدميري فحسب لكي امهد الارض امام التفكير الحقيقي . ان ما يمارسه المتصوفون ليس هو الدين ولا الفلسفة ، وانما الحقيقة . سألتني بنفمة يائسة تكاد تكون مفعمة بالضيق : « ما هي الحقيقة ؟ » . فقلت انها ما كان لها ان تسال هذا السؤال لانها تعرف الاجابة بالفعل . انك اذا كنت ظفان ثم شربت مشروبيا باردا كبيرا ، فان احساسك بالمشروب وهو ينزل على حلقك هو الحقيقة . وهذا شيء يختلف تماما عن الحديث عن المشروب ، او التفكير في مشروب آخر .

والبشر ايضا يملكون قدرة غريبة على ممارسة نوع من الحقيقة الوجدانية (متميزة عن الحقيقة الجسدية - المادية - ومقابلة لها) . انها من ذلك النوع الذي مارسه بالامس مع قطعة الصابون ، او ما امارسه مرة واحدة على الاقل في كل عام حينما اشم رائحة الربيع لأول مرة . في مثل تلك اللحظة تهدأ الحواس هدوءا شديدا ، ويحتاجك شعور بانك ترى الاشياء حقا ، بالطريقة التي رأى بها ووردزورث جسر وستمينستر (٥) . وثمة احساس آخر يتماثل تماما مع المذاق الحقيقي للماء البارد وهو ينزلق على حلقك . وقلت لها ان احساسها بالعقم واللامعنى لم يكن سوى نوع من الجوع الى الحقيقة ، يولد نفس النوع من الاجهاد والبؤس الذي يولده الاجهاد الحقيقي او اليؤس .

والقيت محاضرتي في بيركلي ، واخذتني لجنة من الطلبة لتناول طعام الغداء ، وجاءت معي هيلجا ايضا . وبعد ذلك اخذونا الى قمة برج الساعة ، واخبرنا مرافقنا بان عددا كبيرا من محاولات الانتحار قد حدثت من هذا المكان خلال العام الماضي - وان هذه المحاولات تزيد محاولة واحدة عن مثيلاتها التي وقعت في برج ستانفورد . واعتقد ان هذا الكلام هو ما اعطاها فكرة الانتحار من ذلك المكان .

عدنا الى البلدة بالسيارة وظلت نتحدث طوال الطريق . ثم قالت انها تريد ان تقوم بشراء بعض الاشياء من السوق وطلبت مني ان اصحبها الى هناك . وقلت بحزم انني اريد ان استريح - فان ساعات طويلة من الكلام والمحاضرة جعلتني مجهدا تماما . ولكنني دعوتها للخروج لتناول وجبة من الطعام في « تشينا تاون » .

ورحت اقرا بعض اعمال هولدرلين ثم نمت حتى الساعة . وجاءت هي الى الفندق في الثامنة ، فاحتسنا بعض النبيذ في غرفتي ثم خرجنا فسرنا على الاقدام حتى الحي الصيني . قالت لي انها امضت فترة ما بعد الظهر في التجول حول المنتزهات . فبدات ادرك السبب فيما بدا عليها من الاجهاد . احتسنا شيئا من نبيذ كاليفورنيا مع وجبتنا ، فبدا عليها الاسترخاء . وراحت تتحدث عن مشاكلها من زواجها من مصاب بالشذوذ الجنسي فشلت في « اصلاحه » ، وعن تجاربها العاطفية مع عدد كبير من المدعين الزائفين - فانها لا تستطيع ان تقاوم اي شخص يشبه الشاعر او الرسام او الفيلسوف . وحينئذ بدات في رؤية المشكلة الحقيقية : الكسل ، والضعف ، والرغبة في أن « يحدث » لها شيء ما ، ان يظهر حكيم ما

(٥) ويليام ووردزورث ١٧٧٠ - ١٨٥٠ شاعر انجليزي ، كان مع صديقه كولريج احد قادة الحركة الرومانتيكية الاوائل في انجلترا ، اذ عرف بمبادئه للطبيعة ، ونزعته الانسانية ، وتعاطفه (في شبابه) مع الديموقراطية الليبرالية ، واهتمامه بدقائق حياة الناس والحياة اليومية العادية ، واستخدام اللهجات المحلية للناس العاديين ، وايمانه بفكرة وحدة الوجود على اساس افلاطوني . في مقدمته لمجموعة « البالاذ الفنائية » نادى باستخدام اللغة في الشعر كما يستخدمها الناس .

تأثر في شبابه بافكار روسو وويليام جودوين وتحمس للثورة الفرنسية . والمقصود هنا هو رؤيته اللاتية للجسر بمن عليه من السائرين (الموضوع في الشعر - موضوع ذاتي) في احدى قصائد ديوانه الشهير « الناسك Recluse » الذي لم يكتمل والذي يضم قصائد طويلة تكاد ترسم ترجمة لحياته . (هـ م)

لكي يمنحها الاجابة . وحينما بدانا في شرب الزجاجاة الثانية من نبيذ « الميدان » أصبحت فجأة رقيقة رقة بالغة ومجاملة للغاية ، وقالت لي انها كانت تحاول ان تلتقي بي منذ ان كنت هنا في شهر يناير الماضي . وقالت انها لا تطلب مني شيئا اكثر من ان اكون صديقا لها ، اكتب لها الرسائل من حين الى حين ، وما الى ذلك . وقلت انني سأبذل اقصى ما استطيع . قالت : « ليست المسألة انني اريد ان انام معك ، فانا انام مع الكثيرين » وكان شعوري هو انني لا اجد ما اشغل رغبتني فيه عن النوم معها . كنت في مساء اليوم الماضي قد ظننتها جذابة ، بل وحسدت جسيم على الليلة التي قضاها معها . ولو انني قابلتها منذ عشر سنوات لكنت قد نمت معها على اية حال ، دون تفكير في النتائج . اما الان فقد كنت ادرك بوضوح انها كانت تحاول ان تعقد معي صفقة ، بان تمنحني شيئا ما « في مقابل » شيء آخر استطيع ان امنحها اياه . ولم اشأ ان اكون دائنا لها .

امضينا ساعة في « مكتبة اضواء المدينة » وقابلنا بعضا من اصدقائها ، ثم انتقلنا الى مقهى يقع عبر الطريق لكي نشرب مزيدا من النبيذ . وفي منتصف الليل ، قلت لها ان عليّ ان اعود الى غرفتي - فقد كان عليّ ان استيقظ فسي الصباح التالي لكي القي محاضرة في « بالو آلتو » . فقالت انها تود ان تسير معي حتى حي « سائر » لانها بحاجة الى استنشاق الهواء النقي . وعند ناحية شارع سائر ، حاولت ان اقنعها بان تستقل احدى سيارات الاجرة ، فقالت انها بحاجة الى قدح من القهوة لكي تنتعش . وهكذا دعوتها الى حجرتي وانا شديد الامتناع . (كان الكاتب الليلي في الفندق صديقا لي ، ولم يفعل اكثر من ان غمز لي بعينه . ولم افكر في انها تحمل في ذهنها فكرة اغوائي - فانها لم يبد عليها اكثر من انها تعاني من الشعور بالوحدة . ولكنني كنت مصمما على الا يحدث شيء من هذا على اي حال) . امضت عشر دقائق في الحمام بينما كنت اعد القهوة ، ثم ذهبت انا الى الحمام ، وتركتها لكي تصب القهوة ، فوجدت الحمام يسبح في رائحة العطر - وحتى اللحظة لم يكن بوسعي ان اتخيل ما كانت تفعله بهذا العطر ، لانها لم تكن تحمل منه شيئا . وحينما خرجت من الحمام ، كانت راقدة على احد السريرين المتقابلين وقد اغمضت عينيها . وبدا عليها الشحوب الشديد . سألتها ان كانت تشعر بانها على ما يرام ، فقالت انها ليست كذلك ، ولكنها ستتحسن في لحظات . وضعت القهوة على المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير ، فمدت يدها تبحث عن يدي حتى أمسكت بها وقالت :

« هل تسمح بان تقبلني ، مرة واحدة ، من فضلك ؟ »

وكنت ما ازال اشعر نحوها بتلك العاطفة الابوية . فرحت اربت على رأسها وقلت : « اجل ، اجل ، بالطبع » . وانحنيت فوقها . كان فيها ليذا وجذابا ، رغم ان شفتها السفلى كانت مشققة قليلا . كان تقبيلي لها نوعا من الصدقة - شعور يشبه ما كنت احدها عنه من قبل عن ابتلاع مشروب بارد ومجرد التفكير فيه . انت هي بعد ان قبلتها ، ورقدت في مكانها دون ان تفعل شيئا ، وحينما حاولت ان اتراجع عنها ، سمعت في حلقها صوتا يشبه الانين من جديد . ولم يكن هذا

الموضع مريحا - كانت رقبتني تؤلمني - ولذلك فقد وضعت ركية واحدة على السرير . وفجأة بدات تنفّس بعمق وبانتظام ، كما لو كانت قد استراحت راحة هائلة ، وبدات يدها تمسح سروالي ، كما لو كان هذا بالمصادفة ، ثم استقرت في مكانها هناك . وحدثت الاستجابة الحتمية . وكنت اتساءل طول النهار ان كانت ترتدي جوارب او سراويل ضيقة . وكنت اعرف ان هذه هي فرصتي الاخيرة . فلو انها كانت ترتدي السراويل الضيقة ، وحتى اذا كانت ترتدي حمالة جوارب مشدودة الى سروالها الداخلي ، لامكنني ان اعيث قليلا بأدب ، ثم اطلب منها ان تحتسي قهوتها ، بينما تخبو رغباتي الطارئة وتنظفيء جذوتها . اما اذا لم يكن ذلك تباعد فخذها حينما لمست يدي ركبته ، وحينئذ لمست اللحم العاري فوق الجورب . وبعد لحظة ، وصلت يدي الى ملتقى الطرق ، فوجدت انها لم تكن ترتدي سروالا داخليا . ولا بد انها قد خلعت في الحمام . . . وفي خلال ثوان قليلة كنت قد اصبحت داخلها . ولا بد ان اعترف بأنه كانت هناك دفعة غامرة من البهجة الخالصة . كان هذا نوعا من الامتزاج المجرد بين الذكر والانثى ، دون وجود لشخصية كل منهما . وبداء لي ان دفئا ، حينما احاطتني بساقيها ، كان دفئا طال اعداده من قبل . ولكن امتزاجنا لم يستغرق سوى وقت قصير . كان كل منا مستثارا بشدة لدرجة اننا بلفنا ذروة نشوتنا في ثوان معدودة . رقدت وانا في داخلها للحظة اخرى ، وانا انظر الى وجهها ، فبدت لي مسالمة تماما وهادئة . وحينئذ قالت :

« فلنخلع ملابسنا لندخل الى الفراش » .

وكان هذا اقتراحا معقولا ، فنغذناه على الفور . ولكن ما تبقى من الليل لم يشبه تلك اللحظة الاولى . كانت قد حصلت على ما ارادت الحصول عليه ، وكنت انا قد وصلت الى ما كنت حريصا على ان اتجنبه . ولكن اكثر ما ازعجني هو انها بدت لي عاجزة عن التعاطف . كانت تستمتع بالجنس في تفان جسدي لم يتح لي ان اعرف مثله كثيرا - كان هذا برهانا جديدا لي على ان النساء اللواتي لا يميزن كثيرا في علاقاتهن الجنسية لسن بالضرورة باردات او فائزات . وأكنها في اللحظات التي تخللت دورات امتزاجنا ، كانت تريد ان تتحدث عن مشاكلها ، وعني ، وعن علم النفس ، وعن محاضرتي . . . وكان علينا ان نتبادل الحديث بالهمس حتى لا نزعج النزلاء في الغرف المجاورة .

وفي القطار المتجه الى « بالو آلتو » ، لعنت نفسي لانني لم اجلب معي كراسة مذكراتي ، لانني اكتشفت فجأة ان لدي الكثير الذي اود تسجيله . لم اكن ارجب في النوم مع هايجا لانني كنت اعرف مقدما ان هذه التجربة لن تخلف شيئا ورائها . اذن فلماذا احصل بالفعل على مثل تلك المتعة من ديانا رغم انني تزوجتها منذ سبع سنوات ؟ لقد مضت عليّ عدة سنوات حتى الان ، وانا احاول تحديد اسس الدافع الجنسي . لماذا « ينبغي » لرجل ما ان يرغب في ايللاج عضوه المنتصب داخل امرأة ما ؟ لا بد ان ثمة سببا ما ، والقول بان هذه « غريزة » ليس جوابا حقيقيا . حينما كانت موبسي (ابنتي) طفلة صغيرة ، كنت اتساءل دائما ، لماذا ترضع دائما ابهام يدها بينما تمسك اذنها بيدها الاخرى . ثم لاحظت

اطفالا آخرين يفعلون نفس الشيء . وانني لاتساءل أن لم يكن هذا مرتبطا بالرضاعة من الثدي - وما اذا كان الطفل يمد يده بصورة اوتوماتيكية لكي يمسك بالحلمة الاخرى بينما يكون مشغولا بتناول طعامه من الحلمة التي في فمه ، فهو يعامل اذنه معاملته للحلمة ؟ وهكذا لا بد ان يكون هناك تفسير مشابه للدافع الجنسي .

لقد سردت على هيلجا قصة غريبة . فحينما ذهبت الى الكلية لأول مرة ، كانت سيدة شابة مكبوتة كبتا شديدا جاءت من الغرب الاوسط وتحمل آراء متشددة حول ممارسة الجنس قبل الزواج ، خاصة وان امها كانت قد اخبرتها بان الرجل يستطيع دائما ان يخمن ان كانت زوجته عذراء ام غير عذراء ، وانه من المحتمل ان يهجرها على الفور . وطوال ستة شهور او نحوها ، ظلت تخرج مع اولاد عديدين ، وتسمح لهم ببعض الملابس القليلة ، ولكنها كانت توقفهم عند حدهم اذا حاولوا ان يخلعوا سروالها . وفي بداية عامها الاول ، انتقلت لكي تسكن مع فتاة اخرى ، اخبرتها بانها حلت المشكلة باستخدام عضو انثوي صناعي . ويثبت هذا الشيء حول الفخذين بواسطة حزام ، وكان شيئا يزيد قليلا عن انبوبة صنعت من نوع ما من المطاط تثبت فوق العظم العاني ، ويجب ان يربط مدخل الانبوبة ببعض من زيت الزيتون . وقالت هيلجا انها لا تظن انه يمكن ان يكون عمليا ، ولكن صديقها كان قد قال لها بالفعل انه سوف يقطع علاقته بها ان هي لم تتنازل عن رايها . ولكنها جربت هذا الجهاز بعد ان استعارته من صديقها . ولشد ما دهشت حينما وجدت ان الولد لم يهتم اقل اهتمام بذلك . كانا ينامان سويا في الفنادق الصغيرة اثناء عطلات نهاية الاسبوع . وكانت هي تصر على الابقاء على سروالها دون ان تخلعه ، حذرا من ان تشتعل شهوة الفتى . ولكنها قالت انه حتى لم يحاول ان يقيس بمضاجعتها بشكل طبيعي ، ولكنه كان يشيعها بعد ان يبلغ هو نشوته بان يلاطفها قليلا . وبعد ذلك استخدمت هي نفس الجهاز مع صديقين آخرين ، معتقدة انها بهذا الشكل سوف تكون فاضلة بصورة رائعة ، حتى جاءت ليلة ما فاشتعلت بالرغبة وطلبت من صديقها ان يمارس معها الجنس بشكل عادي .

وتذكرت حينذاك ان ديانا كانت قد اخبرتني بشيء من نفس النوع حول تجاربها الجنسية الاولى . فقد حدث مرة ان تشاجرت مع صديقها ، فذهبت الى الفراش مع رجل كانت قد قابلته عصر ذلك اليوم نفسه ، لكي تفيظ صديقها . ولكنها قبل ان تذهب الى غرفة الرجل قالت له انها عذراء وانها تود ان تظل كذلك . فوافق على الفور ، وظلا طوال الليل يربت احدهما على الاخر ويلاطفه ، ولكن دون ان يمارسا العملية الجنسية بشكل طبيعي .

ورابت فجأة في تلك اللحظة ان هذا يمكن ان يكون مفتاحا هاما . ان الرجل « طبعيا » لم يكن رزينا ولا محتشما . كانت هناك ديانا ، وهي فتاة جميلة ، من الطبقة المتوسطة ذات جسد رشيق واخلاق محتشمة . اما هو فيريد ان « يعرفها » . انها بالنسبة له مثل شيء وضعت في صندوق زجاجي داخل المتحف وكتب عليها : « ممنوع اللمس » . وهناك قصة لموباسان عن مجرم هرب من سجنه وتنكر في ملابس النساء ، وعمل كخادمة في منزل احدى السيدات ، وظل يساعدها على

خلع وارتداء ملابسها طيلة شهور . « هذه » هي كيفية رغبة الرجل في معرفة المرأة التي تجلس امامه في مترو الانفاق ، او تقف امام قسم العطور في احد المحلات الغالية . ان الابلج الفعلي في عضوها هو اقل اجزاء المسألة اهمية بالنسبة اليه ، انه ليس سوى الرمز النهائي للاستسلام . انه يستطيع ان ينظر اليها فيقول لنفسه : « كم اود ان احصل عليها » . لكنه يكون قد حصل عليها بطريقة تكاد تقترب من حصوله عليها اذا ما قضى معها ليلة كاملة في حجرتها ، فظل يراقبها وهي تخلع ملابسها ، وراح يتجول بيديه فوق جسدها كله ، ويشعر بيدها فوق يديه ، ويراقبها وهي ترتدي ملابسها وتمشط شعرها ، ويرى الاساليب التي تستعمل بها ادوات ومواد التجميل ، ونوع معجون الاسنان الذي تستخدمه . ان جوع الذكر للانثى هو جوع لانوثتها ، انوثتها الغريبة عنه ، والى كل شيء فيها .

مرة اخرى احب ان اقول انني كنت شديد الاعجاب على الدوام بقصة كلايست (٦) عن الماركيز فون او - حيث يفزو الجنود الروس بلدة صغيرة فيجرون الكونتيسة الشابة لكي يفتصبوها . وينقدها ضابط روسي ، فيفهم عليها بسبب ما شعرت به من الرعب . وبعد شهور قليلة تدهش جدا حينما تكتشف انها حامل ، ولكنها واثقة من براءتها ثقة كاملة لدرجة ان تعلن في الصحف مطالبة والد طفلها بان يتقدم اليها ليعرفها بنفسه . وبعد قليل ، يتقدم الوالد بالفعل - انه الضابط الشاب الذي انقدها . وكان كلايست من حسن التقدير بحيث حاول ان ينهي القصة نهاية سعيدة ، ولكن اكثر الرومانتيكيين كانوا جذيرين بان يجعلوها تنتحر فرارا من العار ، ثم يدخل الضابط الدير بدافع الندم لكي يصبح راهبا فيكفر عن ذنبه . ولكن جوته تحدث بخشونة واضحة عن قصة كلايست ، مصرحا بانها من السخف بحيث لا يمكن ان تقترب من الحياة الحقيقية . الامر الذي يوضح ان كلايست كان يعرف عن الطبيعة البشرية اكثر بكثير مما يعرفه جوته - او على الاقل فيما يتعلق بالجنس . ليست هناك حاجة الى اظهار ان الضابط كان افاقا لا اخلاق له . انه ينقدها بروح فارس من فرسان المائدة المستديرة . وحينما يقضى عليها ، يرقدها برقة فوق اريكة ناعمة . وترتد هي بسكون كما لو كانت نائمة ، ويشعر هو بنوع من الفضول الى معرفة كيف يبدو النصف الاسفل من جسدها اذا خلعت ملابسها ، وهو يعرف ان ليس عليه سوى ان يرفع ذيل ثوبها الى وسطها لكي يراها عارية - فقد كانت تلك هي الايام السابقة على اختراع السراويل الداخلية ، ويقوم هو بهذا العمل في حذر ، خشية ان تستيقظ ، ويدس يده بين فخذيها لكي يباعد ما بين الساقين . ثم لا يكون من المهم ان تستيقظ او لا تستيقظ . ففجأة يصبح كل ما يهمه حقا هو ان يخلع بنظولونه الضيق وان يلمس عريها بعريه . ويقوم بذلك

(٦) بيرند هايزش ويلهلم فون كلايست Kleist (١٧٧٧ - ١٨١١) شاعر وكاتب درامي ألماني ،

يعتبر واحدا من رواد حركة « العاصفة والاندفاع » التي طبعت الرومانتيكية الالمانية بطابعها وقتا طويلا . ورغم قصر حياته وصعالة ما كتبه فقد كانت لقصصه اهمية كبيرة لدرجة قيل معها ان تأثيره على فرانز كافكا كان قويا للغاية . ولكن حياته نفسها كانت ابعد اثرا ، فبعد ان وصل الى حافة الجنون اطلق النار على حبيبته « هيزيت نوجيل » ثم انتحر . (هـ . م)

ويكتشف ان الايلاج سهل ، ويصل الى ذروة نشوته على الفور . ثم ينسحب ، شاعرا بالخجل ، متوقعا ان يراها تقفز في مكانها مفرعة . ولكنها تظل راقدة في مكانها في سكون . ويعيد ترتيب ملابسها ، ثم يرتب ملابسه (ولا بد ان يرتبها بهذا التسلسل) ، ثم يخرج بحثا عن بعض الماء لكي يفتسل . وحينما يعود ، يجدها جالسة ، تنظر اليه بامتنان . هذه هي اللحظة ، هل ستعلم بان غريبا قد زار اكثر اعماقها ظلما ؟ ولكنها مليئة بالكدمات تشعر بالرجفة نتيجة لهجوم الجنود ، لدرجة انها لا تشعر بشيء من فعلته ، اجل ، لقد ادرك كلايست فضول الذكر الثائر الذي يتلظى الى معرفة الانثى كما تتعطش الارض الجافة الى الماء . ولا بد ان جوته قد ادرك شيئا من هذا هو الآخر . والا فاي شيء اخر دفع فاوست الى اغواء مارجريت ؟ انها فتاة ريفية عادية ، ليس فيها ما يلمع او يخطف الابصار بصورة غير عادية ، ولو انه كان طبيبها الذي يعالجها لشعر ازاءها بنوع من عاطفة الابوة . ولكنها اجنبية عنه ، غريبة ، انه حتى لا يعرف ما ترتديه الفتاة الريفية تحت جونلتها الواسعة التي لا تلبسها الا في ايام الاحاد ، وهو بحاجة ملحة الى ان يعرف .

وهذا ما يفسر لامبالاتي النسبية ازاء هيلجا في صباح اليوم التالي . كانت قد سلمت نفسها عارية اليّ بالفعل ، سلمت هزيمتها ، وكسائها ، واشتياقها الى الاهتمام واستعادة الثقة بالنفس . ولم يكن هناك سوى شيء واحد آخر ينبغي اكتشافه : هل كانت ترتدي جواربه ضيقة ام سروالا داخليا ؟ وكان الايلاج الاول فيها مجرد جنس محض ، ذلك النوع من الجنس الذي تمارسه الحيوانات بالقطع حينما تتسافد فيما بينها . ولكن بعد ذلك ، برز عقلانا لكي يقطع الطريق على ذلك الجنس ولكي يضللاه ...

وقد كتبت لي بعد ذلك مرتين : المرة الاولى لكي تصف انغماسها في علاقة مع مدير متوسط العمر لاحدى الشركات ، والمرة الثانية لكي تعلن لي خطبتها الى طالب من ولاية سان فرانسيسكو . ولم اكن قد تمكنت بعد من الاجابة على خطابها الثاني حينما سمعت بموتها .

وجعلتني اخبار موتها اشعر بقوة الاصطدام بالحقيقة . تبينت ان اجهاد هذه الجولة من المحاضرات كان اجهدا زائفا . ان نتيجة نفس الافتقار الى الاحتكاك بالحقيقة هي ما ادى بها الى الانتحار . كانت آخر مرة رايتها فيها في شقة جيم سميت ، فقد غادرت سان فرانسيسكو على طائرة الليل في نفس اليوم . وكان قد وضع اسطوانة تسجيل على جهاز الحاكي لديه وقرب منه ابرة اللاقطة ، ولم يحدث شيء في تلك المرة - ليس سوى الصمت . واختبر مكبرات الصوت بان وضع اذنيه عليها ، وحقق جيدا في ابرة اللاقطة لكي يتأكد من ان شيئا من الرغب لم يعلق بها . ثم اسقط ذراع اللاقطة مرة اخرى . ولم يصدر اي صوت . ثم لاحظت ان الذراع كان يسقط عن طريق جزء من الالة صمم بحيث يمنع الابرة من خدش الاسطوانة فقلت له ان هذا الجزء ربما كان يمنع الابرة من الالتصاق بالاسطوانة بشكل كامل . وهبط جيم على يديه وركبتيه ونظر اليها من اسفل . وقال ان لا ،

كانت الابرّة تلمس الاسطوانة بالفعل ، ومع هذا فقد عدل من وضع الجزء الصغير بعض الشيء ، وعلى الفور امتلأت الحجرة بالموسيقى . كان قد اسقط الابرّة مسافة اضافية لا تزيد عن جزء واحد من مئة جزء من البوصة لكي يلمس الاسطوانة - فكانت قريبة منها للدرجة ان العين المجردة لم تكن تستطيع ان تلاحظ المسافة الدقيقة التي تفصل بينهما . ومع هذا فقد كانت المسافة كافية لكي تخلق الفارق بين الصمت والموسيقى .

ان ما يشغلني حقا هو المسافة التي تفصل بين العقل والحقيقة . ان الضجر المرف بوسع من هذه المسافة ، وكذلك الارهاق . ولكن هذه المسافة الفاصلة يمكن ان تكون ضئيلة الى الدرجة التي تجعل كل المدارك والحواس تتوهم انها تحتك بالحقيقة احتكاكا مباشرا . ثم يحدث ان تقع صدمة مفاجئة فيمتلىء الوجه - ود الداخلي بالموسيقى ، فتعرف انه لم يكن هناك احتكاك حقيقي . كنت مخدوعا . كنت وحيدا في فراغك الخاص ، تختنق ببطء حتى الموت .

فيما بعد - في الطريق الى نيويورك .
انني مدين بشيء من الامتنان لهيلجا : لقد اختطفني موتها او انتزعني بقوة لكي اخرج من حالة الافتقار الى الارادة التي كنت اترك نفسي لكي انساق فيها . ان الكائنات البشرية لتشبه اطارات السيارات : فلكي تحصل منها على احسن النتائج ، ينبغي ان تحتفظ في حالة من الامتلاء المناسب . فاذا كان اطار سيارتك فارغا من الهواء ، وقدت السيارة لمسافة ميلين ، فانك سوف تدمره تماما . ويحدث نفس الشيء اذا كانت الارادة خاوية . وكنت اترك ارادتي لكي تزداد خواء بانتظام طوال الاسبوع الماضي او نحوه ، وكنت اتساءل لماذا كنت اشعر بالاجهاد الى هذا الحد .

يقول دي صاد ان الناس صاديون ، فحتى افضل الناس يحصلون على نوع معين من الاشياء من تأمل ما اصيب به الآخرون من خيبة امل او صدمات قاسية . وانه لعل حق ، ولكن ليس لهذا اية علاقة بالصداية . انه لسبب غريب ما ، يجعلنا الضجر نفقد كل ارتباط بالحقيقة . انك قد تظن ، على سبيل المثال ، ان رجلا تم انقاذه من خيمته النائية الباردة في القطب الجنوبي ، قد لا يكون قادرا على الضجر طوال ما تبقى من حياته ، لانه في كل مرة يبدأ فيها في التسليم بالاشياء على ما هي عليه ، فانه ، ببساطة سيستعيد اللحظة التي كان فيها قريبا من الموت كل القرب ، ثم يرى كيف ان ظروفه الحالية جميلة الى اقصى حد ، بصرف النظر عن قناعتها . ولكن في الحقيقة ، فان مثل هذا الرجل جدير بان يشعر بالضجر بنفس المقدار الذي يشعر به رجل انفق جل حياته في مزرعة ريفية ، وربما كان ضجره اكبر . ان سوء حظ الآخرين ، او ما يقابلهم من قسوة الحياة ، قد يوقظنا من سباتنا الغريب .

هذا الجريان السائب في الطبيعة البشرية هو ما يسحرني - اذ يفرسه في قلوبنا وجود الضجر . اجثث هذا الضجر وهذا التسبب ، وسوف تحصل على السوبرمان .

السبت ، ١٢ ابريل ، جريت نيك ، لونج آيلاند .

الاجهاد يجعل المحافظة على القرارات الجيدة امرا صعبا . وصلت الى كينيدي في وقت متأخر من الليلة الماضية ، وقابلني هوارد فيلشر - ضئيل الحجم ، ايطالي الملامح ، مليئا بالحماس والرغبة في الاقتحام ، فقادني الى هذا المكان - منزل جميل على قمة تل صخري ، يقول انه اشتراه من ارملة رجل مشهور من رجال المافيا قتل في جريمة لم تكشف الفازها . ان فيلشر واحد من اولئك الناس الذين توحى طريقتهم في التصرف بانك لا بد ان تحبهم ، لانك وهو تشتركان في الكثير . . . ظلمت اتوقع منه ان يضع ذراعه حول كتفي وان يناديني « يا ولد » . ومن الواضح انه يشترك في عدد كبير من الاعمال الضخمة بخلاف النشر - وفي الحقيقة ، لقد راودتني الشكوك في ان دار ليندن للنشر ليست سوى عمل جانبي انتجه لاغراض ضرائبية . وبينما كنا عائدین بالسيارة ، قال بوقار بأنه قد عرف فور اطلاعه على كتابي « اليوميات الجنسية » ان هذا الكتاب ليس نوعا من الادب المكشوف الداعر . وانني شخص مخلص يحمل افكارا ويريد ان يعبر عنها . وقد انكسرت انا وحافظت على صمتي . وعدنا الى المنزل في حوالي الحادية عشرة والنصف ، وفتح الباب ، فوجدت فتاة سوداء ذات جمال مذهل قدمها انسي باعتبارها سكرتيرته . وكانت هناك ايضا فتاة اصغر سنا ، اسمها بيفرلي ، بدت خابية الجمال بالمقارنة الى الفتاة الاولى ، وقال انها تشترك في السكن مع سارة (السكرتيرة) وانها تدرس في احدى مدارسه السكرتارية . ووضعت الفتاتان على المائدة عشاء باردا ممتازا ، تضمن سرطان البحر وجراد البحر ايضا . وبعد ان تناولت الطعام ، وشربت قدحين من البيرة ، شعرت بانني اقل عداء نحو مضيقي ، ولكنني كنت متعبا لدرجة انه كان من الصعب ان احتفظ بعيني مفتوحتين . ولكن هوارد (وقد اصر عليّ ان نتخاطب بالاسماء الاولى على الفور) اصبح في الحقيقة اكثر تقحما وحماسة بعد منتصف الليل . تحدث عن الحرية الجديدة في الادب ، وعن التمرد في الجامعات ، وقال ان هناك جيلا جديدا لا بد من البحث عن ملامحه ودراسته ، وانه جيل جائع الى الافكار ، والى حرية التعبير ، والى الحديث المباشر المخلص . وحاولت ان اكتشف ما يعنيه بالافكار وحرية التعبير ، ولكنني لم استطع ان اكتشف الا انه كان يعني حرية التعبير عن الدوافع العدوانية دون قيود ومن خلال التعبير الداعر الذي لا يكتبه شيء .

ووصف لي المسرحية التي ينوي ان يحولها في انتاج يعرض خارج حسي المسارح (برودواي) . وتحكي المسرحية قصة فتاة صغيرة تأتي الى بيتها بلاعب كرة قدم مخمور بعد مباراة في الكلية ، فيطرحها على الفراش ويقتصبها . ومن المفترض ان تظهر عملية الاغتصاب في المسرحية ، ويرمز اليها باستعراض واضح لوجهها ، وهي راقدة على ظهرها ، عن طريق عرض صور متحركة لوجهها على شاشة سينمائية في خلفية المنصة . وهي تخيل في تلك اللحظة كل الرجال الذين كانت تفضل ان يكونوا اول من يحصل على عذريتها ، وتبدأ بوالدها ، والمسرحية بعد هذا سلسلة من المشاهد الخيالية حيث تزداد الفتاة ضياعا على الدوام . وحينما

ينتهي كل مشهد من مشاهد الاضواء ، يفرق الوجه الكبير المضيء على الشاشة الفضية ، يفرق في نشوة حاملة . ويبدأ كل مشهد بالعاشق الجديد - الذي سيفويها في النهاية - مثلما يبدو في الحياة العادية - مؤدب ، مسيطر على سلوكه .. الخ ، ثم يقوم خيالها بتحويل الموقف حتى ينتهي الى الفراش . وفي نهاية المسرحية ينهض لاعب كرة القدم مترنحا فوقها ، وهو يلهث ، ويقول : « آسف ، لا أستطيع ان استمر » . فتنهض هي ، وتسوي ذيل ثوبها وتقول : « خائر .. ضعيف » .

وكانت الفتاتان - سارة ويفرلي - تعتقدان ان للمسرحية حبكة رائعة ، وكان عليّ ان اظهره باني متحمس انا الآخر . واخيرا ، وحوالي الثالثة صباحا ، قادني الى غرفتي ، وبينما كان يتهاى لمفادرتي ، غمز لي بعينه وأشار الى باب الفرفة المجاورة وقال : « بيفرلي في هذه الحجرة ، ان كنت تريدها » . وغمضت بكلمات عنيت بها ان هذا تعطف شديد منه عليّ ، ورحت بعد هذا في سبات اشبه بالاعماء . وقبل ان اغرق في النوم مباشرة تذكرت انني نسيت ان اطلب ديانا بالتليفون في نيوهافن .

وفي الصباح التالي ، ايقظتني بيفرلي في حوالي الساعة التاسعة وهي تحمل طعام الافطار ، وسألتني ان كنت قد نمت نوما جيدا .. ظننت انني رايت تعبيرا خاطفا على وجهها يدل على السخرية ، وتساءلت - في داخل عقلي - ان كانت باردة متحفظة كما تبدو . وكنت اشعر بالانتفاض . كان الاصفاء لهوارد طوال ثلاث ساعات في الليلة السابقة قد دفعني الى حالة لم اكن اريد الا ان اخرج منها لافلت من قبضته . كنت اريد ان اصرخ : « اتركني وشاني . انني اكره كل شيء لعين تدافع انت عنه » . ولا اظن ان هذا كان من الممكن ان يفضبه او يجبره على السكوت . كان من الممكن ان يقول : « كلا . انك لا تكره شيئا من ذلك . انك فقط تظن انك تكرهه .. » ثم يمضي فيتحدث بسرعة اكبر مما كان يتحدث في البداية .

دخل الى حجرتي بينما كنت اتناول طعام افطاري - افطارا انجليزيا يضم البيض ولحما من فخذ خنزير ومربي بالزبدة - فناولني مخطوط كتاب دونلي . ولم يكن حجمه يزيد على ستين صفحة كتبت بخط اليد . سألته عما حدث لبقية الكتاب فقال :

« اجل ، حسنا ، ايه .. هذه هي المشكلة »

وبعد نصف ساعة من التفسيرات الكثيرة المتضاعفة ، والتاكيدات بانه يقف دائما الى جانب اصدقائه ، بدأت في ادراك ما كان ينبغي عليّ ان اتبينه في الليلة السابقة . انه يشعر بالفيرة من دار « جروف للنشر » لانها نشرت بعض كتب دي صاد ، وخاصة كتاب « حياتي السرية » قبل ان يفكر في هذا الكتاب اي شخص آخر . ولكنه لم يكن يرى ما ينبغي ان يمنعه من التقدم الى ما هو افضل من ذلك بان ينشر كل كتاب جاء ذكره في القائمة التي وضعها الورد آسبي عن « بيبلوجرافيا الكتب الممنوعة » . وهو يبدأ هذا المشروع بالفعل بنشر ترجمة لاعترافات الاخ

آخازيوس من مدينة دورين ، وهو راهب من طائفة الكابوتشان (١) Capucin . كون جمعية كان يجلد بناء على تعاليمها تابعاته من النساء قبل ان يضاعجهن . واعارني هوارد مخطوطة الكتاب التي كتبت على الالة الكاتبة . ومن المؤكد انه كان واحدا من تلك « الكتب التي تقرا بيد واحدة » . وكان قد شرع ايضا في طبع كتاب يدعى « القساوسة الفاضلون » وان كان لم يوضح لي من اين حصل على مادة الكتاب . واخيرا وصلنا الى الهدف من كل هذا الحديث . انه مستعد لان يدفع لي خمسة آلاف دولار مقابل كتابة بحث حول « مويكولان وباليكاهين » - وهذا هو مسقط رأس دونلي - وهو مبلغ يكفي لتغطية تكاليف المقدمة . فاذا كان باستطاعتي ان انتج « مادة » اضافية للكتاب نفسه - اي اذا كان باستطاعتي ان اكتشف مزيدا من الكتابات التي تركها دونلي نفسه ، او ان ازورها بنفسي - فانه سيدفع لي عشرة الاف اضافية من الدولارات . ومن الواضح انه لم يكن يبالي كثيرا بما اذا كنت سأكتشف هذه الكتابات ام سأقوم بتزويرها . وأشار الى ان اليكس تروتشي قد كتب بقلمه اكثر من خمس الكتاب المنسوب الى فرانك هاريس تحت عنوان « حياتي وتجاربي في الحب » وانه منذ ذلك الحين كان يطبعه باسمه هو لا باسم هاريس . والمسألة الرئيسية هي ان اكون مستعدا لان اتحمل اي نقد يوجه الى الكتاب ، اذا حدث ووجه اليه مثل هذا النقد .

كان الحصول على مثل ذلك المال كله امرا مغريا . وكنت سأعتبر نفسي سعيد الحظ لو تبقى لي خمسمائة دولار من مجموع المال الذي وصلني مقابل تلك الجولة من المحاضرات . وقلت لفليشر انني سأفكر في الامر ، فغادرني مع المخطوط بين يدي .

امضيت ما بقي من فترة الصباح في الفراش ، بينما كان يتزايد انقباضي كلما توغلت في قراءة دونلي . انني لا افهم كيف استطاع ان يحافظ على صداقته لاشخاص مرموقين مثل شيريدان وروسو . انه يبدو في صورة لا تزيد عن صورة متشرد قدر العقل . والاسوا من هذا ، هو انني اشك في الا يكون ببساطة ، كاذبا . فالنساء الأواتي اغواهن - بدءا من شقيقته وخادمة المنزل - يدون جميعهن كما لو كن نسخا مختلفة من نفس الصورة الخيالية الرغبة في التحقق . انهن يدان جميعا بالمقاومة بشكل يوحى بالفضيلة وهن يقلن : « اواه ، يا للعار ! » .

وحينما يدفع اصبعه الى داخل « الشق المرجاني المستطيل » ، يتنهذن ، بينما افخذهن : « تنفرج كما لو كان ذلك يتم بصورة تلقائية » . ومنذ تلك اللحظة ، تمضي كل قصة الى الامام دون انحناء واحدة حتى تن كل امرأة منهن منتشية في الفراش . ان فليشر اما ان يكون ابله غيبا اكثر مما يبدو عليه ، واما انه يعلم تماما بانه قد خدع ولا يبالي بذلك اقل مبالاة .

جاء الى غرفتي وقال اننا نتوقع وصول ضيوف يتناولون معنا طعام الفداء . وكان ذلك اشبه بالقشة الاخيرة التي تقضم ظهر الجمل - لم اكن اشعر ابدا بانني على استعداد لاستقبال الناس في ود لطيف . ذهبت الى الحمام ، وفتحت « الدش »

(١) طالفة من رهبان الفرنسيسكان انشقت عليها وكونت جماعة جديدة للرهبنة في عام ١٥٢٨م (ه . م)

فوق رأسي . فجأة شعرت بدوار ، وكان عليّ ان اتعلق بعمود ستارة الحمام . جلست على مقعد المرحاض ، وحدقت في مفرش الحمام المزركش بالورود ، شاعرا بموجات الانقباض تتلاحق فوق وتتراكم . فكرت في هليجا - في ذلك الصباح الأخير ، بينما كانت قد جلست على حافة الفراش ، ترتدي جواربها وتجذبها الى اعلى ساقيها . قالت حينذاك : « انني سعيدة لاننا نمنا معا . ربما كان علينا ايضا ان نأخذ اي متعة نستطيع ان نحصل عليها . » . ولم تزد على ذلك حرفا ، ولكنني فهمت ما كانت تريد ان تقول . كانت تعني ان الحياة لا معنى لها . كنا قد سعدنا الى الفراش معا ، وتضاجعنا مثل حيوانين ، وغرقنا في النوم وصحونا من جديد ، ولكننا كنا غريبين ، اكثر امانة من ان تراودنا اية اوهام عن الحب او الحنان - كل منا غريب عن الآخر وعن الكون . وفجأة اردت ان اشرح لها ما يدور برأسي . اردت ان اقول لها ان العالم يبدو لها بلا معنى لان « لا وعيها » قد فرق في سبات عميق . وحينما نكون سعداء ، تظل فقاعات المتعة تتصاعد من اعماق اللاوعي - ذكريات وروائح وامكنة . وحينما يترك الاجهاد ، يكف اللاوعي عن القيام بعمله ، وتكون النتيجة هي الحالة التي يدعوها سارتر : « الفثيان » . ساعتها ترى الاشياء دون ظل المعنى القصير الذي يلقيه على الاشياء ابعد اعماق العقل . يقول سانت اوغسطين : « ما هو الزمن ؟ حينما لا اسأل نفسي هذا السؤال ، اعرف الجواب » . تماما . ان عزل شيء ما في داخل الوعي ينزع عنه معناه . ان حقيقة ان الوعي يرى العالم خاليا من المعنى انما هي حقيقة لم تبلغ شيئا من شيء . فليس من المفروض في الوعي ان يدرك المعنى ، المفروض فيه ان يدرك « الاشياء » ، الموضوعات الخارجية المستقلة عن الذات . ولكن كيف كان لي ان اشرح ذلك لفتاة سقطت تتخبط دون مهرب في حالة من الاجهاد العصبي الكامل ؟ وكان المفروض - من اجل اخراجها من هذه الحالة - ان يتم اقناعها بان تبدل شيئا من الجهد . وهي لن تبدل اي مجهود لانها تقول ان كل جهد لا معنى له ولا هدف ولا نتيجة . لقد وقعت في شرك دائرة مغلقة ، مفرغة . وكنت مصمما على الا اقع في نفس الخطأ . اخرجت نفسي من هذا الجمود كما لو كنت اصحو من اغماء ، وخطوت الى تحت مياه « الدش » الساخنة ، ورحت افكر في انني سوف ارى ديانا غدا ، فنطير الى بيتنا بعد عشرة ايام .

ولكن الغداء كان رديئا بقدر ما كان يحق لي ان اتوقع . كان من الواضح ان الضيوف جيران اغنياء ، وكان فليشر قد دعاهم الى مائدته لا لشيء الا لانهم جيران اغنياء . وفكرت في كثرة ما يحدث في اميركا من مثل هذه الاشياء - اناس يشربون ويتبادلون الاحاديث دون ان يكون بينهم اي شيء مشترك - وغرقت مرة ثانية في حالة من الانقباض المزعج . شعرت بان فليشر لا يملك الحق في ان يصب على رأسي كل هذه الصور اللعينة من انواع الضجر . رجال الاعمال السمان وزوجاتهم البلهوات ، وثرثرتهم عن « الفيللا » المخصصة للعطلات والتي اشتروها في فلوريدا او على هضبة الكارميل . وكانت بيغرلي جالسة في الطرف البعيد من الحجرة ، مع شاب سمين من النوع العملي النموذجي ، كانت زوجته قد رحلت بعيدا لقضاء

عطلة نهاية الاسبوع ، وازعجني هذا اكثر من اي شيء اخر لانني شعرت انها لم تكن موجودة هنا الا لكي تسليني - حتى ولو لم اكن راغبا في النوم معها . انما اردت ان يكون هذا «اختيارا» مني ، انا .

خرجت الى الشرفة القائمة الى جوار بحيرة السباحة الصناعية الساخنة والقيت ناظري عبر الاصوات المتصاعدة الى اراضي كونيتيكان . كان الهواء دافئا ومعتدلا . وفجأة قررت ان عليّ ان ادلي برأيي لفليشر . انني لا اريد ان افعل اي شيء في كتابه اللعين . بل انني حتى لا استطيع ان اتحمل مسؤولية كتابة المقدمة دون نوع من عدم الامانة ، لان دونللي بدا لي في صورة شريرة مملة . لا بد لي من مغادرة هذا المكان بعد الفداء مباشرة لكي الحق السيارة العامة بعد الظهر فاذهب الى نيوهافن

كنت على وشك الخروج لكي اقول لفليشر كل شيء حينما خرجت بيغفولي الى الشرفة حاملة لي صحنًا من سمك السلمون المدخن وقدحا من البيرة . قالت : « يبدو عليك الضجر » .

وقلت - بشيء من القضب كما لو كنت الومها - : « انني ضجر حقا . انني اشعر بالفئشان من كل هذه المسألة اللعينة » . وقالت لها انني نويت ان اغادر المنزل بعد الفداء مباشرة . وادهشني اهتمامها . قالت :

« كلا . ليس لك ان تفعل هذا . انتظر حتى يذهب الآخرون » .

اثار انتباهها اليّ غروري ، فوعدتني بالانتظار . وبعد خمس دقائق ، جاء هوارد وسألني عن حالي وما اشعر به . فقلت انني بخير ، وانني افكر في الرحيل في اليوم نفسه ، واثار اهتمامه جدا هو الآخر ، وهرع الى داخل المنزل .

اكلت السلمون وبعض اللحم البارد ، وصعدت الى حجرتي . كنت جالسا على الفراش اقرا في مخطوطة دونللي حينما دخلت بيغفولي . بدت غير واثقة تماما من نفسها . وقالت : « جئت بك بشيء من فطيرة التوت اليري » .

شكرتها ، فجلست الى جواربي على السرير . قالت :

« يقول هوارد ان عليّ ان اقنعك بالا ترحل » .

« لماذا ؟ »

ترددت ، ثم قالت : « هذا يعني الكثير بالنسبة لي . اريدك ان تبقى » .

قلت ثانية : « لماذا ؟ » وقد ازدادت دهشتي .

غمغمت بكلمات غامضة عن انها لم يبق لها سوى عام واحد في الدراسة ، قبل ان تتمكن من الحصول على وظيفة ذات راتب جيد ، واتضح لي بالتدريج ان فليشر كان يدفع لها مصروفات دراستها ، وانها بدورها ، كان يطلب منها ان «تسلي» ضيوفا مثلي . وافترضت ان كل شيء يتفق مع هذا الاستنتاج . كانت سارة سكرتيرة فليشر وعشيقته . وكانت بيغفولي تشترك في شقة مع سارة . ثم ادركت ان فليشر قد غضب منها لانها لم تمض الليلة معي . قلت : « ولكن الم توضحي له انني كنت غارقا في نوم عميق ؟ »

قالت : « اجل ، اعرف ذلك . فقد جئت الى حجرتك في الليل » .

كنت أكل فطيرة التوت البري - رغم انني لم اكن اريدها - انما اكلتها بدافع الحرج . كان الموقف واحدا من تلك المواقف المحرجة الغبية . لم يكن بمقدوري ان اقول : « حسنا ، اخلعي ملابسك » ، وسوف نعوض ما فاتنا من الوقت » . قلت : « ولكنني وضحت لهوارد ان زوجتي وابنتي ينتظرانني في نيوهافن » . قالت في تعاسة : « اجل ، اعرف هذا » .

قلت : « ولكن ما الفرق بين ان اكون قد قضيت الليلة معك ام لا ؟ » ولكنني في الحقيقة كنت قادرا على تخمين الفارق . كان فليشر واحدا من اولئك الرجال الذين يصممون على ان يمضوا في طريقهم الى غايته . وكان قد قرا كتابي وقرر انني الشخص الذي كان بحاجة اليه لتقديم كتاب دونللي في صورة تبعث على الاحترام . فاذا كنت قد امضيت عطلة نهاية الاسبوع في منزله ، مع فتاة استوردها من اجلي ، فاني اكون تحت نوع من الالتزام نحوه بشكل ما .

قلت : « اسمعي . لا اظنني قادرا على قبول هذه المهمة . ان هذا الكتاب مجرد مؤلف من الادب المكشوف . وهو حتى ليس ادبا مكشوبا كتب بطريقة جيدة . انه لا يقنعني . » . قرأت لها المشهد الذي يمضي فيه الى الفراش مع شقيقته وهي في فترة الطمث ، وتسمح له شقيقته بأن ينال عذريتها . ثم قلت : « فتاة ايرلندية في ثمانيات القرن الثامن عشر ما كانت لتسمح لاختها حتى بان يعرف انها في فترة الطمث » .

ومع هذا فقد وجدت ان قراءة هذا المشهد بصوت مرتفع قد انتجت احساسا قلقا في اعلى الساقين جعل من السير امرا لا يبعث على الارتياح ، ولذلك فقد جلست على حافة النافذة العريضة بشكل كاف . واعترضت هي على اساس ان الاخلاق كانت اكثر مما ظننت حرية في القرن الثامن عشر ، وانه من المحتمل ان يكون دونللي ببساطة كاتبامهملا اغفل الخطوات الهامة في عملية اغواء . قلت : « حسنا ، فما رأيك اذن في هذا المشهد ؟ »

وتحولت الى المشهد الذي يصف فيه اغواءه لزميلة شقيقته في المدرسة . تحركت بيفرلي لتقترب من كتفي ، وتركت نهدها يضغط عليه . كان المشهد يصف كيف كانت الفتاة تقف معه ، تشاهد استعراضا يسير امامهما . ويحل هو رباط ثوبها العلوي ويمص حلمتها ، ثم يدس اصبعه في « الشق المرجاني المستطيل » . وينتهيان بأن يتضاجعا وهي جالسة على ركبتيه ؟ وقلت انني اظن في هذا المشهد نوعا من الاستحالة المنافية للعقل ، ولكنني كنت اشعر بان صوتي قابضا متوترا . كان ارتباط المشهد الداعر ، بنهدها الضاغطة بقوة على كتفي قد دفعني الى حالة من التوتر ، كان من الممكن ان تظهر واضحة للعيون لو انني لم اكن قد وضعت المخطوطة في حجري . كانت ترتدي صدارة من الصوف ، الكث القرمزي ، تكشف عن كتفيها ، وكانت الصدارة تتناسب جدا مع بشرتها الذهبية . وحينما انتهيت من القراءة ، بللت اصبعيها الاوسط بلمعائها ، ودارت بذراعها حول رأسي ، فوضعت برقة في اذني . لا اعرف اين تعلمت هذه الحيلة ، ولكن تأثيرها كان مروعا . فجأة اصبح الموقف ملكها هي ، وكانت هي تعرف ذلك . وكان الحرج

الذي ساد الموقف في البداية قد اختفى . مددت يدي وجذبت صدرها ليكشف عن كنفها، ثم جذبت دائرتي حمالة صدرها الى اسفل ، وكانت الدائرتان صغيرتين ، لا تزيدان عن « بقعة » ضئيلة من مادة ناعمة . كانت حلمتها منتصبتين وشديديتي الاحمرار ، اخذتهما في فمي واحدة بعد الاخرى ، ورحت ادلكهما بلساني . انزلت لتجلس على ركبتني ، ودفعت المخطوطة لتقع على الارض .. جلسنا كذلك في هذا الوضع ، وقد ثقل تنفس كل منا . تساءلت بيني وبين نفسي ان كانت تريد ان تنتقل الى الفراش ، ولكن اصابعها راحت تربت عليّ بنوع من المهارة جعلني ارفع في البقاء ساكنًا في مكاني ، لتركها تمضي في عمائها . كان بوسعي ان ارى ما وراء كنفها ، ما خارج النافذة ، الخطوط الخارجية السوداء للاشجار على صفحة البحر ، بينما فروعها فقط تنفطى ببراعم اوراق خضراء صغيرة . بدت الاوراق والاعصان صلبة صلابة رائعة ، كما لو كانت قد صنعت من معدن ما ، يتراوح بين الفضي والاسود . حينذاك بلغت ذروة نشوتي ، وتمايلت الاشجار ، وتصلب في داخلي شيء ما صلابة لا حد لها ، حتى لقد كان كل ما نظرت اليه يمثل هذه الصلابة ، صلبًا وجميلًا جمالًا خارقًا ، جميلًا كما لا ينبغي لغير الصلب ان يكون . انحنت فوقي ، ودست لسانها في فمي ، وتركته في مكانه حتى تراخيت بالتدريج في يدها . اعطيتها مندلي ، فمسحت اصابعها . جذبتني من يدي ، فتحركنا الى الفراش ، وبساطة رقدنا عليه ، بكامل ملابسنا . كنت على وشك ان اغرق في النعاس حينما سمعت صوت اضاءة مصباح ما ففتحت عيني . في المرأة ، رأت صورة الباب وهو يفتح . خطف فليشر نظرة الى الداخل ، ورأنا ، ثم انسحب ثانية على الفور . كانت يفرلي نائمة ، وقد انفرجت شفتاها . وفجأة شعرت بالاشفاق عليها ، وغمرني احساس دافق ، كان هو « الحب » بشكل اساسي . كان فليشر قد امرها بان تأتي اليّ لكي تمنحني نفسها . وقد بذلت افضل ما في وسعها . حاولت ان تمنحني المتعة دون تفكير في متعتها هي ، ومندلي يحمل النتيجة . قبلت شفتيها المنفرجتين ، وحينما جفلت قليلا ، قبلت جبهتها .

حينما هبطت الى الطابق السفلي ، قلت لفليشر انني اريد ان ارحل على الفور ، ولكنني ساقبل التعاقد معه . قال :

« بالتأكيد يارجل . هذا هو رجلي » . وركزني في كتفي بود .

نفس اليوم ، فيما بعد .

بدأت الفقرة السابقة من هذه المذكرات في « جريت نيك » وانتهتها في محطة السيارات العامة في كينيدي . والان ، وانا مسافر الى نيوهافن ، اذكر ان بيرجسون (١) قد تعثر وتلعثم وهو يحاول الاجابة على احساس هليجا باللامعنى . ففي احدى مقالاته ، وصف كيف ان ساحرا من سحرة الاستعراضات المسرحية

(١) هنري بيرجسون (١٨٥٩ - ١٩٤١) فيلسوف فرنسي معاصر ، كان له تأثير فكري واسع في

السنوات التي سبقت الحرب العالمية الاولى مباشرة وفاز بجائزة نوبل للادب عام ١٩٢٧ . قام

مذهبه - الذي اتجه الى النزعة الصوفية المعادية للعقل - على الاعتماد على الحس المباشر

وسيلة للحصول على المعرفة بدلا من وسائل العلم القائمة على التجريب والملاحظة والاستدلال .

(هاودين ، كما اظن (٢) قد درب ولده الذي كان يبلغ الخامسة من عمره ، على الملاحظة الفورية الخاطفة . لقد جعل هاودين يطلع ولده على قطع لعبة «الدومينو» Domino ولكنه لم يسمح له بان يحصي عدد ما رسم عليها من نقاط بيضاء . ثم يسأله بعد هذا ان يتذكر كم كان عدد النقاط ، اي انه كان عليه ان يحصي النقاط « في خياله» . ثم كان يطلعه على مجموعتين من قطع الدومينو ، ويأمره بالا يحصي النقاط ، ومرة اخرى، كان عليه ان « يتخيل » تلك النقاط بعد ان تبعد عنه القطع ويطلب منه ان يتذكر عدد ما كان عليها من نقط بيضاء . كان الصبي - بهذا الشكل - قد درب على ان يلتقط صوراً فوتوغرافية منظرية (مرئية) بذاكرته . وفيما بعد ، كان يؤخذ لكي يقف لمدة ثانية واحدة امام واجهة لحل من محلات بيع دمي الاطفال ، ثم يطلب منه ان يكتب اسماء اربعين او خمسين من تلك الدمي ، من الذاكرة . كان هاودين يدرب الصبي على التظاهر بانه يملك حاسة سادسة . وكان على الصبي ان يصعد الى المسرح ، فيختطف لمحة سريعة الى المتفرجين لمدة دقيقة واحدة او نحوها بينما يقدمه والده الى الجمهور . وفي تلك المدة القصيرة ، يكون الصبي مشغولاً بـ « تصوير » كل الاشياء المرئية التي يستطيع ان يراها - سلاسل الساعات وما اليها . ثم تغطي عيناه بغطاء محكم ، وباشارة ما من والده ، يكون قادراً على ان يتبين الشيء - او يتعرف عليه - بشكل عام . كان يمكنه - بالطبع - ان يسمع صوت الرجل الذي ناول الشيء الى ابيه ، فيكون قادراً على تقدير موضع جلوسه في صالة المسرح .

وبشير بيرجسون الى ان جوهر هذه الطريقة هو « عدم » السماح للصبي بان يحصي النقاط البيضاء . وبدلاً من ان « يفسر » ما رآه ، مثلما نفعل نحن جميعاً في اثناء استيعابنا اليومي لما يحيط بنا ، لم يكن يطلب منه سوى ان يسمح للمستوى الاعلى من عقله بان يصور هذا الذي رآه في لمحة خاطفة . واصبح المستوى الاعلى من عقله منفصلاً ومستقلاً عن حواسه ، وحده ، واحكامه . الخ ، واصبح قادراً على ان يتحرك بسرعة اكبر بكثير ، كان اشبه بـ « الضوء المتحرك » . ان الصفار من الناس - والمهرة منهم بالتحديد - سرعان ما يتعلمون هذه

= اعتبر ايضا ان الحركة والتغير مصدر هام من مصادر خلق الحقيقة (ورجع في ذلك الى هيراقليطس) ونظر الى الزمن باعتباره انسياباً فياضاً مستمراً (ومن هنا جاء تأثيره الرئيسي على كل الادب الغربي بين الحربين : جويس وبروست واليوت ويتس وهمنجواي وسان جون بيرس) وخاصة حينما ربط الزمن وفيضانه المنساب بالاستمرار حيث يمتزج الماضي بالحاضر وحيث لا يمكن فصلهما عن الوعي والذاكرة . وكان اهم اعماله هو كتاب « التطور الخلقي » الذي صدر عام ١٩٠٧ . ومن اعماله الهامة الاخرى « المادة والذاكرة » عام ١٨٩٦ ثم « الضحك » عام ١٩٠٠ . (هـ . م) .

(٢) جين ايوجين روبرت هاودين ١٨٠٥ - ١٨٧١ . ساحر وصانع ساعات فرنسي اشتهر بالعبث السحري القائمة على علوم الحساب الشعبية القديمة وبولعه بكشف الاعييب المشعوذين والافيه هو الخاصة . كتب عدة كتب في السحر وكتب ترجمة ذاتية لنفسه . (هـ . م) .

الحيلة - وخاصة اذا كانوا يتعرضون لنوع من الامتحانات . انهم يتعلمون كيف يفصلون بين مستويات العقل . ولكن لاحظ ما يعني هذا . انك تعلم نفسك ان تصور « الحقائق » دون معناها . فأنني لو سئلت ان اتذكر محتويات واجهة ل احد محلات بيع لعب الاطفال لقلت : « هناك آلة اطفاء في الوسط ، ودمية عروس في ذلك الركن ، ودب اسمر في الركن الاخر . . » ثم لا اكون قادرا على تذكر اكثر من شيئين او ثلاثة اشياء في عدة ثوان .

ومن السهل ان تصبح هذه عادة : ادراك الاشياء دون معناها . ويصبح من الصعب ان تعيد ربط مستويات عقلك العليا بفرائذك وحواسك . ان الجواد سيرفض ان يعاد لكي يربط الى العربية مرة اخرى مثلما كان في البداية . انك تمضي فلا تفعل اكثر من ان « ترى » الاشياء دون ان ترى معانيها . ثم تقول : « ان العالم لا معنى له » .



الاثنين ١٤ ابريل . شارلستون . س . س .

ان يوما من ايام الاحد قضيته مع ديانا وموبسي جعلني ، اشعر بانني اكثر عقلًا . قضيت يوم امس في مداعبة فكرة تمزيق الشدرات التي كتبها دونللي وكتابة كتاب كامل - لفليشر - عن مذكرات دونللي . ولكن حدث هذا الصباح ، وقبل ان اغادر نيوهاغن مباشرة ان اتصل بي فليشر تليفونيا . كان قد تذكر لتوه انني كنت ذاهبا الى « باتون روج » واراد ان يقول لي ، ان واحدا من سلالة دونللي - الكولونيل مدنرو دونيللي - يعيش الان في مكان يدعى « دينهام سبرينجز » . وسوف اكون هناك لمدة ستة وثلاثين ساعة ، على ان احاول الاتصال به . ظللت افكر في بيفرلي ، لم اكن افكر فيها فقط ، وانما فيما حدث للاشجار حينما حدثت فيها . رحت احاول ان اعبر عن ذلك بالكلمات . كان ذلك شديد الشبه بما يحدث حينما تشعر بالتعاسة ، فيبدو كل ما تنظر اليه ممترجا بتعاستك - يصبح نوعا من « الرمز » لتعاستك ، مثل السماء الرمادية او تساقط اوراق الخريف - كذلك هو الامر في اللحظة التي تلوي فيها النشوة كل جزء من اجزاء الجسد ، اذيصبح كل شيء رمزا للاحساس بالقوة . وهذا ما يفسر السبب الذي جعلني ارفض دونللي ، ان لحظات نشوته الفاترة الخالية من اي طعم ، لا تؤدي الى اي مكان . انه لم يحاول ابدا ان يقتفي آثارها بحثا عن منبعها في ذاته .

(يوميات الاسبوع التالي تم حذفها)

الاثنين ٢١ ابريل .

كان ما حدث في الساعات الاربع والعشرين السابقة مدهشا الى درجة انني يجب ان اصفه بالتفصيل .

في صباح يوم السبت ، ومرة اخرى في مساء اليوم نفسه ، القيت محاضرة في جامعة ولاية لويزيانا - وكانت محاضرة جيدة رغم هذه العباءة من التعب التي تفرمني دون ان استطيع خلعها او التخلص منها . (ولكنني لا استمتع كثيرا بالقاء

المحاضرات . انني اصر على تذكر ذلك التعاقب الذي قاته ماركيز هاليفاكس : « ان الفرور الذي تبعته عملية تعليم الآخرين في النفس ، ليفري الرجل دائما بان ينسى انه صاحب عقل مغلق » . وفي ساعة باكرة من صباح يوم الاحد ، تناولت افطاري في غرفة الفندق الصغيرة واستأجرت سيارة لتقلني الى منطقة « دينهام سبرينجز » ، التي تبعد مسافة عشرة اميال (وكان فليشر قد عرض عليّ ان يدفع هو كل مثل تلك التكاليف) . ولهذا الفرض فقد استأجرت السيارة عامدا ان تكون من سيارات « دينهام سبرينجز » نفسها . وكان سائق السيارة زنجيا متوسط العمر . سألته ان كان يعرف ابن يسكن الكولونيل دونلي . قال : « اوه ، نعم » . وكان يعرف الكولونيل بالفعل ، وقال ان الكولونيل يسكن على بعد ميل واحد خارج المدينة . وسألني ان كنت صديقا للكولونيل ، فقلت له انني لم اقبله من قبل ابدا ، ولكنني آمل ان اجده في بيته . فقال :

« طيب ، اسمع ، انه في هذه الحالة قد يقابلك وقد لا يسمح لك بمقابلته . فانك لا تستطيع ابدا ان تتبأ بما سوف يفعله الكولونيل » .

واثبت الرجل لي انه ثرثار بدرجة لا تقل عن ثرثرة اكثر سائقي سيارات الاجرة في اميركا ، وفي خلال عشرين دقيقة كان قد اخبرني بالكثير عن دونلي . ولم يكن فيما نقله اليّ من المعلومات ما يمكن ان يروعه لي كثيرا ، كان قد جاء الى ولاية لويزيانا قادمًا من ولاية مكسيكو بعد الحرب بفترة قصيرة ، فاشترى مساحة من الارض خارج البلدة . وقد حصل على الارض بثمن بخس لانها كانت سخنة مليئة بالثعابين . فاستاجر بعض المعدات الثقيلة ، حتى جفف الارض ونظفها ، ثم بدا في الزراعة ، فاستتب الارز ، وقصب السكر وغرس اشجار البرتقال . كان يدفع اجورا طيبة ، ولكن عرف كرجل يقسو على نفسه وعلى عماله . كانت الايدي العاملة - ومعظمها من الزوج - تعيش في ابنية خشبية كثكنات الجنود القديمة . وكان دونلي طاغية كاملا ، رغم ما عرف عنه من تهوس بالعدالة والحق . كان يقضي في المنازعات بنفسه ، بل كان احيانا يأمر بجلد بعض العمال ، بل كان يقوم بعملية الجلد بنفسه . وكان بوسع من يريد الرحيل ان يرحله وكان يسكن بمفرده ، ولم يعرف عنه ابدا انه نام مع امرأة . وكان خادمه الوحيد رجلا مكسيكيا صموتا هائل الجثة جاء به . وكانت هناك شائعات تقول بأنه يضرب الرجل - فقد كانت اصوات الضربات واللعنات تسمع احيانا من داخل مبنى المزرعة - ولكن الخادم لم يشك الامر الى مخلوق على الإطلاق . ثم مات بمرض انثايفود بعد عدة سنوات .

وفي عام ١٩٦٢ ، اكتشفت شركة « ستاندارد اويل » ، التي كان لها مركز كبير في « باتون روج » ، اكتشفت البترول في ارضه ، فعرضت عليه ثمنا كبيرا لها . ولكن دونلي وافق على ان يؤجر لهم قسما من الارض . ورغم انه احتفظ بقسم كبير منها يصلح للزراعة ، فانه اقلع عنها ، وصرف عماله ، وعاش حياة ناسك وحيد . وكان يعيش بمفرده منذ ذلك الحين ، يزداد نحولا وحساسية . وكان يختفي عدة مرات في كل عام - وكان من المعتقد ان يذهب الى نيو اورليانز . وزعم احد

سكان « دينهام سبرينجز » انه رآه هناك في بيت للدعارة ، ولكن لم يصدق ذلك الا القليلون .

كنا قد اصبحنا على بعد اميال قليلة من « دينهام سبرينجز » ونصحني السائق بأن ارفع زجاج نافذتي . وفسر لي الامر باننا كنا على وشك ان نمر بمعمل لتفريخ الدواجن وذبحها كان قد احترق منذ فترة قصيرة ، وان اجساد الطيور الميتة لم تكن قد دفنت بعد او نقلت من المكان . وعبر بالمكان عن يميننا - ولم يكن «المعمل» اكثر من سقيفة خشبية كبيرة ، بقدر ما كنت قادرا على الحكم من خلال ما رأيته من بقايا تعلوها آثار الحريق . ورغم اغلاق النوافذ ، فان الرائحة المفشية تسلفت الينا . واخبرني السائق بانهم يواجهون الكثير من الحرائق في المنطقة . فان مساكن العمال في مزرعة دونللي قد احرقت ، كما احترقت حظيرة ملاي بحزم القش المضغوط .

لم يدهشني هذا . فان الشيء الوحيد الذي يدهشني في القسم الجنوبي من اميركا الشمالية ، هو ان المنطقة نفسها لا تلتهب مشتعلة بالنار في منتصف الصيف . ورغم ان الوقت لم يكن قد تجاوز الحادية عشرة صباحا ، فان الهواء كان ساخنا مثل القرن .

سارت بنا السيارة عبر شوارع البلدة الصغيرة الناعسة ، حيث بدا كل شيء خاليا تماما . ومكتمل الهدوء في صباح يوم الاحد ، ثم دارت السيارة الى اليمين هابطة « مدقا » ضيقا معشبا كان يتعرج اسفل المدينة . وبعد نصف ساعة من القيادة المحاذرة البطيئة - بهدف تجنب قفزات السيارة - وصلنا الى ابنية مزرعة خشبية تقاوم القدم ، وقد بدت كالمهجورة . دفعت للسائق اجره وخرجت من السيارة . فقال :

« افضل ان انتظر لك لارى ان كان سيسمح لك بالدخول ام لا . فانه قد يقرر الا يستقبلك . »

وهكذا عبرت الفناء المترب ، مارا بمعدات المزرعة التي علاها الصدا ، متجها نحو المبنى الرئيسي . وزمجر في وجهي كلب ضخم اصفر اللون ، ولكنه لم يبدل اية محاولة للتهوض من رقدته .

فتح الباب قبل ان اصل اليه ، ووقف دونللي على عتبته . عرفت ان هذا الرجل لا بد ان يكون هو دونللي - فقد بدا اوروبيا الى درجة اكثر من ان يكون اي شخص اخر . انه رجل من النوع الذي اعتاد ان يرى الاعلانات القديمة في الصحف عن شاي « بلانتر » وقهوة « كامب » : نحيل القامة ، لوحث الشمس جلده ، يحمل وجهها تظهر من خلال بشرته كل عضلة من عضلاته . راقبني وانا اقترب دون ان يتكلم ، ثم قال :

- « اأنت مستر سورم ؟ »

وكان هذا باعشا على الراحة . فقد كنت اتوقع ان يقول : « من انت بحق الجحيم ؟ » اجبته بانني انا سورم . اوما ايماءة مختصرة للفاية ، ثم فتح الباب على سعته لكي يسمح لي بالدخول .

كانت الحجرة عارية ونظيفة ومرتبّة ، مثل قمرة ضابط في سفينة . ولم يكن دونللي قد ابتسم او حاول مصافحتي . ولكنني التفت حينما دخل خلفي من الباب – وكان قد وقف قليلا يراقب السيارة وهي تبتعد – فخيل اليّ انه كان يرمقني وقد بان على وجهه تعبير غريب . وراح يتألمني ، مثل قطعة تراقب قنفذا برياً . قال :

« ايمكنني ان اقدم لك الشاي ؟ »

وقلت نعم بحماس ، خرج ، وغادرني بمفردي . كان من الواضح انه يعيش في تلك الحجرة الوحيدة . كان هناك سرير من اسرة المعسكرات ، ومقعد ذو مسندين غير مريح ومقعد اخر عادي مصنوع من الخشب ، ومائدة صغيرة يمكن طيها . وكانت ارضية الحجرة عارية ونظيفة ، وهناك خزانة خضراء قديمة في ركن الحجرة ، وست صور طباعية على الجدار ، تمثل عددا من الملاكيمين يتبادلون الضربات بالقبضات العارية ، وتمثل ايضا جيادا جميلة . ولم تكن هناك كتب .

عاد دونللي يحمل الشاي ، وصحنا ملاء بشطائر صغيرة مقددة دهنت بالزبدة ، راودني احساس بانه يريد ان يتحرر قليلا من تخشبه ، وان يقول شيئا ما بطريقة ودية ، ولكنه كان قد نسي كيفية القيام بمثل تلك التصرفات . وبينما كان يصب الشاي سألني ان كنت قد قمت برحلة طبية حتى منزله . فاجبته: نعم . قاومت الاغراء بالكلام لكي املا فراغ الصمت ، وبينما رحت ارتشف الشاي – الذي كان قد صنع بطريقة جيدة – تذكرت عبارة هايني في تعريف الصمت باعتباره الحوار بين الانجليز ، فوجدت انه من الصعب الا ابتسم . واخيرا ، توقفت عن مقاومة الاغراء بالابتسام . نظر اليّ دونللي في تلك اللحظة ، فحولت ابتسامتي الى تعبير ودي ، وقلت : « حسنا ، انه لمن الممتع حقا ان يعثر المرء على سيد انجليزي في هذه البقعة القاحلة » .

قال بصرامة : « انني ايرلندي » .

« انهما شيء واحد على هذا البعد » . هكذا قلت وانا اتساءل ان لم يكن قد قذفني بشيء ما . ولكنه ابتسم ابتسامة باردة كالثلج وقال :

« اجل ، اظن هذا » .

ولسبب غريب ما ، تحطم الثلج ، قال :

« وهكذا فانت تقيم في موي كوللان ؟ اين بالضبط ؟ » .

فوصفت له الكوخ الذي استأجرناه ، والمزحل الذي انتقلنا اليه . فسألني ان كنت اعرف شيئا عن جريمة قتل « دومينيك » ، الفتاة التي كانت جثتها قد وجدت عند قاع مرتفع موهبر الصخري منذ عامين . وكنت اعرف كل ما يتعلق بهذه القضية ، فوصفتها له بالتفصيل . كانت فتاة اميركية قتلها عاشقها لكي يحصل على ما كانت تحمله من تحويلات مالية تصرف للمسافرين . وكنت اعرف صياد الاسماك الذي عثر على الجثة ، وعضو الحرس المحلي الذي استدعي لكي يلقي عليها نظرة لعله يتعرف عليها . ومن الواضح انه لم يمكن التعرف على وجهها ، ولكن القتال كان قد ارتكب خطأه الوحيد بتركه قطعة ثياب واحدة على الجثة –

وكانت هذه القطعة سروالا من النايلون الاسود . وكان السروال يحمل علامة واسم الصانع الاميركي ، وبالتالي قاد هذا الى معرفة هويتها . وكنت ايضا قد تبادلنا الحديث مع مفتش الشرطة السرية في دبلن الذي كان قد حمل مسؤولية تحقيق القضية ، فأخبرني ببعض التفاصيل عن الاساليب التي لجأ اليها في التحقيق . وسحرت كل هذه المعلومات المباشرة دونللي ، فبدأت آمل في ان يتعرف بطريقة ودية فيما يتعلق بموضوع اسلافه .

وعندما انتصف النهار كانت حرارة الجو قد أصبحت قاتلة لا تقاوم ، فخلع دونللي صدره الصوفي وجلس امام المائدة لا يرتدي غير القميص - الذي كان مفتوحا حتى وسطه - والبنطلون . وخلصت انا اخر سترتي . واقترح هو اننا ربما كان علينا ان نتناول مشروبا ، فوافقنا . وجاء دونللي بزجاجة من الروم الاسود . وكنت اعرف انني لن القي اي محاضرات حتى يوم الثلاثاء ، ولذلك فقد وافقت دون شعور بالحرج . وجاء دونللي بالزبد من شطائر المكددة المدهونة بالزبد ، وفتح بعض علب السردن المحفوظ . وبعد ان تبادلنا كلمة « صحتك » . اندفع الى موضوع ايزموند دونللي . قال :

« اظن ان هذا الولد الناشئ قد اخبرك بانني قلت له ان يذهب الى الجحيم ؟ »
« كلا . لم يخبرني » .

كان هذا هو تصرف فليشر النموذجي - ان يقترح عليّ الذهاب الى دونللي دون ان يوضح لي انه قد تلقى استقبالا عذائيا . وربما كان هذا تصرفا حسنا من جانبهِ ، فانه ما كنت سأتي اليه لو انه اخبرني بذلك .
سألني : « هل رأيت تلك المخطوطة ؟ » .

« أجل . وقد جئت بها معي » . اخرجتها من الجيب الداخلي لسترتي ، فتناولها بلهفة . وبعد ان قرا نصف صفحة ، القي بها على المائدة مع اشارة تدل على الاشمئزاز .

« تماما كما كنت اظن . تزوير . مجرد تزوير غبي لعين » .
دهشت كالمصعوق ، سألته : « انت متأكد ؟ » .

« انا متأكد طبعا . ألم تقرا يوميات ايزموند ؟ »
« أخشى ان اصارحك بانني لم اقراها . بل انني لم اكن اعرف بوجودها قبل الان . هل نشرت ؟ »

« انها منشورة بالطبع . نشرت في دبلن عام ١٨١٧ » .
خرج من الحجرة . وبعد دقائق قليلة عاد وقذف على السرير مجلدا صغيرا ذا غلاف من الجلد . وكان العنوان : « يوميات ايزموند دونللي . السيد » وكان الناشر هو « دار تيلفورد » في دبلن . وكان الاهداء الرسمي موجه الى اللورد تشستر فيلد - وهذا نصه :

« سيدي اللورد ، لقد كان لديّ دائما من الاسباب ما يدعوني الى ان اذكر قولك بان اسوأ الرجال تربية في اوروبا ، اذا سقطت مروحة احدي السيدات ، لجدير بالتاكيد بان ينحني فيتناول المروحة ليعيدها الى صاحبها ، وان افضل

الرجال تربية في اوروبا لا يستطيع ان يفعل اكثر من هذا . وقد كانت هذه الفكرة
أثاقية ، حول تشابه المواهب بين العظيم والضيع في اطار مجالات محددة
للنشاط ، هي ما دفعني الى ان اقدم الى سيادتك هذا المجلد الخالي من الادعاء ..» .
ولم تكن هناك حاجة الى المضي في القراءة بعد هذا . فان الرجل الذي كان
باستطاعته ان يكتب هذا النثر الانيق الجيد الصياغة لا يمكن ان يكون هو ذلك
الصبي الابله الذي كتب يقول : « وفي خلال ثوان قليلة كانت خنفسائي الكبيرة
المحظوظة ، قد اندست داخل محرابها العذري ، وسألني المنوي يجعل خصيتي
تنتفخان كالياونة » . وهذه العبارات الاخيرة التي اقتطفتها هنا تشير بوضوح الى
جوهر اسلوب المخطوطة التي قدمها لي فليشر . وانني لعاجز عن المجادلة دفاعا
عن فكرة ان رجلا واحدا هو الذي استطاع ان يكتب الاهداء الرسمي السى
اللورد تشستر فيلد والجملة الاخيرة . ولكن حدسا طارئا تصاعد الى مستوى اليقين
جعلني اشعر بأن الامر لا يصح ان يكون على هذا النحو . قلت :

« استطيع ان ارى ما تعنيه . انك لا تظن انه من الممكن ان يختلف اسلوب
مذكرات خاصة اختلافا شديدا - بالضرورة - عن يوميات يكتبها المرء اثناء السفر؟ »
« انه اسلوب يختلف ايضا عن اسلوب يومياته غير المنشورة » .
« هل رايت انت تلك اليوميات اذن ؟ » كذلك سألته وانا احاول الا تظهر
في صوتي رنة اللفظة الشديدة .

« اوه ، اجل » قالها بطريقة عابرة ، وصب لنفسه مزيدا من الروم ،
ازدردت ستا من اسماك السردين ، وكعكة جافة مدهونة بالزبد قبل ان اشرب المزيد ،
وفكرت في انني استطيع ان امضي ما بعد الظهر والمساء نائما في غرفتي
بالفندق الصغير .

وحينئذ اخبرت دونللي بلقائي مع فليشر ، ووضحت له انني لم اكن قد
سمعت باسم جده ابدا قبل تلك المقابلة . ووافقتني هو على ان ذلك لم يكن
بالامر المفاجيء بالنسبة له ، فان يوميات دونللي لا تزيد في قيمتها عن العشرات
من امثالها في ذلك العصر الذي كتبت فيه : يوميات اشخاص مثل توماس
تيرنر ، وماري كاوبر ، وايرل ايجمونت ، وهي ببساطة لا يمكن ان توضع في نفس
المكانة التي توضع فيها يوميات فاني بيرني . كان ايزموند دونللي معروفا لطلبة
الادب الايرلندي ، ولكن ذكره لم يرد حتى في مجلد : « تاريخ كامبريدج للادب
الانجليزي » .

وبدافع من رغبتني في الكشف عن دوافع فليشر اشرت الى انه من النادر ان
يكون هناك دخان بغير نار ، وانه اذا كانت هناك شائعة تقول بأن دونللي كان
يذاوم على كتابة « يوميات جنسية » ، فمن المحتمل جدا ان يكون ثمة اساس لهذه
الشائعة . حذق في وجهي بعينيه الباردتين ، وليس على وجهه اي تعبير ،
واخيرا قال :

« افترض ان لهذه الشائعة بعض الاساس ، فهل تفترض ان احفاده يتلفهون
على رؤية مثل تلك الاشياء مطبوعة منشورة على الناس ؟ انك تعرف ايرلندا » .

ادركت ما يرمي اليه . فالأيرلنديون ليسوا بالتحديد متساهلين فيما يتعلق بأمور الاخلاق . من المؤكد انهم يتمتعون بشيء من المرونة . ولكن اهل جنوبى ايرلندا من الكاثوليك . وهناك الكثير من حوادث منع الكتب ، والفهرس ما يزال شيئا لا بد من التفكير فيه . وكان بوسمي ان ادرك ان عائلة دونللي القاطنة في بلدة « باللي كاهين » قد تجد نفسها فجأة ذات سمعة سيئة محرجة ، حتى ولو كانت مريحة .

وحينما اقتربت الساعة من الواحدة ، كنت مخمورا بشكل واضح ، وقلت انه أصبح عليّ ان ارحل . ولشدد دهشتي اعترض على ذلك وقال :

لا . لا . لا . يمكنك ان تتناول طعامك هنا . سأطهو بعض البيض ولحم الخنزير . فاذا لم يعجبك هذا ، لديّ بعض القمح الطازج الاخضر .» وذهب الى المطبخ، ورحت انا اقرا بعض الصفحات من وصف دونللي لمدينة البندقية . كانت الحرارة تجعلني اشعر بالدوار والنعاس . وفي الحقيقة ، كنت نائما تقريبا حينما ايقظني دونللي بينما كان قد اتى بآاء طهو هائل الحجم مليء بسنابل القمح الخضراء . وصب اثنتي عشرة سنبلة من هذه السنابل في صحن كبير من الصيني ، ووضع قطعة ضخمة من الزبد فوقها ، وقال لي ان آكل . ولم أكن قد اكلت مثل هذه الكمية من القمح الاخضر في حياتي كلها ، ولكنه كان ممتازا . ولشدة دهشتي ، اغرق دونللي طعامه من القمح في الروم . وادهشتني كمية الطعام والخمر التي كان يوسعه ان يصمد لها . كنا قد افرغنا - نحن الاثنين - الجانب الاكبر من زجاجة الروم ، ولم أكن انا قد شربت سوى كوبين . ولكن لم يكن بوسمي ان ارى علامة تدل على سكره . ظلت كلماته بطيئة ودقيقة وواضحة . وحافظ الصوت على نغمته اللاذعة ذات النبرة الساخرة الخفيفة . كان التغير الوحيد الذي انتابه هو ما طرا على الموضوع الرئيسي لحديثه . فقد بدا يتحدث عن الجنس . رفع سنبلة من سنابل القمح - كان قد انتزع حبات القمح منها - وقال انه قد سمع بكتاب يقال فيه ان فتاة قد افتضت بكارتها بسنبلة قمح . واخبرته بان هذا الكتاب كان رواية لفوكنر (١) وقال دونللي ان فوكنر لم يبتكر هذه الحكاية : فان عود سنبلة القمح وسيلة معروفة جيدا لاختبار ما اذا كان مهبل الفتاة قابلا لتلقي النفاذ فيه بطريقة اكثر طبيعية ام لا . ثم مضى يخبرني بقصة عن احد عمال مزرعته

(١) ويليام هاريسون فوكنر ١٨٩٧ - ١٩٦٠ من اكبر كتاب الرواية الاميريكيين في هذا القرن، وعرف باهتمامه في رواياته بدراسة ظواهر انحلال المجتمع الزراعي والتكوينات الاسرية التقليدية في الجنوب الاميركي . كان من الادباء الذين تأثروا بعمق بالفكر بيرجسون عن الزمن وعلاقة الوعي والذاكرة بالحياة الانسانية واستخدم اساليب تيار الوعي والمونولوج الداخلي ، وكان من مصادر الراء اللغة الانجلو اميركية ادبيا وقاموسيا واسلويبيا في نصف القرن الاخير . الرواية التي يشير اليها المؤلف هنا هي رواية « ابشالوم ، ابشالوم » التي صدرت عام ١٩٣٦ . ولكن اعظم اعماله كانت رواية « الصوت والفضب » عام ١٩٢٩ ، ثم رواية « وانا راقدة احترق » عام ١٩٣٠ ثم رواية « الملجا » عام ١٩٣١ . (ه . م) .

الزواج كان قد وجد ابنته تمارس العادة السرية باستخدام عود من عيدان سنابل القمح . ووصف لي كيف قيد الرجل ذراعي ابنته الى خطاف مثبت في الجدار ثم جلدها بحزام جلدي (. . .)

وقد راح يقص هذه الحكاية ببرود وبطريقة تأملية بينما كان يأكل سنبلة قمح ممثلة . ولكنه لم ينظر اليّ وهو يتكلم . واستمر يروي لي حكايات اخرى - وكلها تتضمن عمليات جلد بالسياط . وفتح زجاجة اخرى من الروم وهو يتحدث . ودلني المنطق على ان هذه السلسلة المتتالية من الحكايات عن عمليات الجلد والفسق بالمحارم لا يمكن حقا ان تنبع من رغبة محايدة في اعطائي صورة من الحياة في اعماق الجنوب الاميركي . ولكن لا شك في ان اسلوبه وهو يتكلم لم ينم عن اية نوايا صادية . وتذكرت فجأة حكاية انه قد عاش وحيدا لمدة طويلة . كان جائعا الى الجنس معزولا في وحدته عن البشر ، ولا شك انه استمتع بالحصول على مواطن له يبادل له الحديث . ولم يكن في هذا اي شيء غير طبيعي .

ولكنني بدأت اتمني لو انني كنت قد اخرت موعد زيارتي الى وقت متأخر من هذا اليوم . فقد بدأت اشعر بانه ينوي ان يحتفظ بي هنا طوال فترة ما بعد الظهر والمساء . كان بوسعي ان ارحل ، بالطبع . ولكن دونللي كان هو المصدر الوحيد للمعلومات عن جده بالنسبة لي ، وكنت سأحصل على خمسة الاف دولار اذا كتبت عن هذا الرجل . كان بوسع الاحساس بالذنب وحده ان يبقيني جالسا في هذا المكان ، طالما كنت القى الترحيب .

وحينما انقضت فترة العصر واقبل المساء ، بدأت اثأب مرة كل دقيقة . لكن يبدو ان دونللي لم يلاحظ ذلك . كان قد اتى بمقعد لا ظهر له ولا مساند ، وجلس عليه ، ورفع ساقيه على المقعد الخشبي . واصر على ان اجلس انا على المقعد غير المريح ذي المسندين ، ورفع ساقي على السرير . كنا في تلك اللحظة نشرب البيرة - من نوع البادوايزر المعبأة في علب من الصفيح . وكان يدخن سيجارا من نوع الشيروت . وحاولت من حين الى حين ، ان اعيد الحديث الى موضوع دونللي ، ولكنه كان يتجنبه . واخيرا في حوالي الساعة الرابعة ، سألني ان كنت بحاجة الى بعض المشي . فوافقت - على سبيل القيام بأي شيء لكسر هذا الدوار الشبيه بالتنويم المغناطيسي . كنت قد بدأت اشعر بالانزعاج في صحبته . وكان بوسعه ان يرى ان النعاس بدأ يسيطر عليّ ، وربما كان من واجبه ان يقترح عليّ ان انام لمدة نصف ساعة على الاقل ، او ان يتركني لكي اقرأ مذكرات ايزموند دونللي ، ولكنه كان يريد ان يتكلم ، ومن الواضح انه لم يكن يهتم بما اذا كنت اريد ان انام ام لا .

رغم حرارة الجو ، ارتدى دونللي قميصا نظيفا ووضع رباط عنق ، وارتدى سترة رياضية . اما انا فحملت سترتي على كتفي . واصبح هو في هيئة من يتخذ طريقه الى ناديه الخاص في لندن ليحتسي كأسا في فترة ما بعد الظهر ، اما انا فشعرت بانحلال الارادة ، وانا عاجز عن اتخاذ قرار ما ، غارقا في عرقي . ولما

كنت قد اصبحت واعيا لانه يتحدث بدافع داخلي قاهر ، فاني لم اعد التفت الى ما يقول الا نادرا ، وان كنت مضيت في سيري الى جانبه على ارض الحقول المهجورة التي تصلبت تربتها . وتبعنا الكلب الاصفر الضخم ، وكان ساقاه مسن الطول بحيث بدا لي كما لو كان صورة سينمائية تعرض بالحركة البطيئة . وسار دونللي بخطوات واسعة ، مشيرا بعصاه الى اشياء مختلفة تثير الاهتمام : « هذه الشجرة تعرف باسم شجرة الاعدام الفوري . لقد شنت عصاة « الكلان » ثلاثة من الزنوج هنا منذ سنوات قلائل » .

« ماذا كانوا يفعلون ؟ »

« كانوا يشعلون النار في مخازن القش . »

كانت بعض المناطق العشبية التي سرنا فوقها جميلة ، ولكنني دهشت بسبب كمية الصفائح الصغيرة الصدئة وزجاجات الكوكاكولا انفاغة التي كانت ملقاة في كل مكان . اتكنا على سور قائم لثقب حفارات البترول ، وفجأة لاحظت ان دونللي كان يحمل مسدسا في حزام معلق بكتفه تحت سترته . سألته :

« لماذا تحمل هذا السلاح ؟ »

« بسبب الافاعي . »

ومن الواضح انه شعر بان ضجة الحفارات كانت تغطي على الحديث ، لانه سارع باجتذابي بعيدا . ولاحظت انه ظل ينظر الى ساعته من حين الى حين . سألته :

« انت ذاهب الى مكان بعينه ؟ »

توقف طوفان الكلام للحظة ثم قال : « كلا » ، وبدا انه كان صادقا . بدأت اشعر بالنعش ، وكان توتره ينتقل اليّ بالتدرج . قلت :

« الى اين نحن ذاهبان ؟ »

« اوه ، ظننت انه من المستحسن ان نسير مسافة ميل آخر او نحو ذلك ،

ثم نعود الى البيت »

وكانت كلمة « نسير » غير مناسبة على الاطلاق للتعبير عن سرعة مشيته حتى انني ابتسمت . وقلت : « ينبغي ان افكر الان في العودة . » ولكنه تجاهل ملاحظتي ، وان كان قد عاد فنظر مرة اخرى الى ساعته . كان الكلب الاصفر الضخم ينبح ويزمجر امام دغلة كثيفة من الحشائش في احدى الحفر الكبيرة . نظرت في الحفرة ، فرأيت افعى كبيرة سوداء تتلوى حول نفسها وتنفخ ، وحينما رآني ، انتصبت برأسها واقفة . وتوقعت من دونللي ان يطلق عليها النار . ولكنه اكتفى بأن قال : « هيا بنا » .

تساقنا سورا واطنا فتخطيناه الى طريق ضيق قدر . كانت هناك ابنية لمزرعة على بعد عدة مئات قليلة من الiardات ، ورأيت صندوقا للبريد اشار الى اننا الان نسير فوق ارض شخص آخر . فجأة قال دونللي :

« أهلا ، يبدو ان هناك حريقا » .

« أين ؟ »

اشار الى حقل مجاور لمبنى المزرعة ، ولكن كان كل ما استطعت ان اراه خيطا واهنا من الدخان يتصاعد من حظيرة مفتوحة ملأى بالقش . ولكن بعد دقائق قليلة ، كانت السنة اللهب تتصاعد بعنف في الهواء ، والدخان الاسود يتكاثف ويتلوى مثل جنيّ يوشك ان يتجسد خارجا من قممته الصغير . فجأة كان دونللي يجري ومسده يتأرجح ليرطم بمؤخرته ، والكلب الكبير يجري الى جواره وقد لوى راسه نحو سيده مثل جواد السباق الاصيل الصغير اذ يجري الى جوار امه . تسلقنا جدارا واطشا آخر وعبرنا حقلا تناثرت فيه الخنازير التي تحفر الطين بأقدامها بحثا عن غذاء . وكان هناك ايضا رجال يجرون من اتجاه مبنى المزرعة .

ولم استطع ان ارى غرضا لهذا الجري . من الواضح انه لم يكن بوسعنا ان نفعل شيئا ، ومن المؤكد ان النار ما كان يمكن ان تخمد قيل وصولنا اليها . وهكذا مضيت في سيري البطيء عبر الحقل ، ويدي في جيبي . وبعد خمس دقائق كنت قد لحقت بدونللي . ومن المؤكد ان الحريق كان ضخما . كانت السنة اللهب من القوة بحيث كانت تحمل اجزاء كبيرة من اعواد القش المشتعلة التي بدأت تمطرنا بأجزائها المتساقطة ، او تطفو مع الهواء في بقع رمادية . وكان من المستحيل ان يقترب احد من الحظيرة المشتعلة لمسافة تقل عن خمسين ياردة ، فقد كانت الحرارة فظيعة . انفجر شيء ما - ربما كان برميلا - وسقط جزء من السقف . تصاعدت دفقات الشرر كما لو كانت نوعا من الالعب النارية . قلت شيئا ما لدونللي ، ولكنه تجاهلني . نظرت الى وجهه ، ثم صرفت نظري بسرعة . كان فكه الاسفل بارزا ومتصلبا ، وكانت عيناه تحدقان في جمود كما لو كانتا مصنوعتين من زجاج ازرق . كان في حالة اشبه بمن يعب طوفان الضجة والدخان . وحتى عندما هب الدخان ناحيتنا ، ودمعت عيناى منه ، ظل هو يحدق كما لو كان منوما . كانت قبضته متصلبتين داخل جيبي بنظولونه . كان هناك شيء ما في بروز وجهه جعلني اتحقق من ان عاطفة مروعة تجتاحه من الداخل . وبشكل ما ، كان بوسعي ان افهم هذه العاطفة . كانت النيران جليلة وهائلة ، وكانت هناك سمة موسيقية متناغمة تجمع بين اصوات التشقق والحرارة وطوفان الشرر .

شعرت بان بعض المتفرجين الآخرين كانوا ينظرون الينا بشيء من النفور ، كما لو كنا لا نملك الحق في الوقوف في ذلك المكان ، ولذلك فقد تراجعت نحو السور وجلست فوقه . وبعد نصف ساعة ، حينما لم يكن قد تبقى شيء من الحظيرة سوى بعض القوائم المعدنية ، وصلت سيارة الاطفاء .

قال شخص ما من خلفي : « اتسمح باخباري باسمك » ؟ ووجدت شرطيا ضخما الجثة ينظر اليّ بطريقة تنم على الرفض الكامل . وكان رجلان يقفان من خلفه ، يحملان البنادق ، وبدا عليهما انهما من عمال المزرعة . اعطيته اسمي ، وقلت انني كنت مع الكولونيل دونللي . وعند هذا قال اكبر الرجلين الواقفين وراء الشرطي :

« اوه ، انك مع دونللي ، اليس كذلك ؟ »
دهشت للنفمة العدائية في صوته . تجهم الشرطي في وجهه ، ثم قال لي :
« اتسمح بان تخبرني كم من الوقت ظللت هنا ؟ »
« بعد بداية النيران بقليل . كنا نتمشى . »
ادهشتني الاسئلة التالية ، ولكنها بدت اكثر سهولة . سألني :

« من انت ؟ » وحينما وضحت له انني احاضر في جامعة « باتسون روج »
اصبحت لهجته اكثر تهديبا . كان عقد قيامي بالمحاضرات في جيبي ، وبطاقة هوية
كنت احملها في اميركا على الدوام . وكنت على وشك ان اسأل ان كان من الامور
الخارجة على القانون ان اتوقف لاراقب حريقا ، ولكن بدا لي ان هذا السؤال لا
جدوى منه . فحص الشرطي اوراقتي ، وشكرني بأدب ، ثم سار بخطوات واسعة
نحو دونللي ، يتبعه الرجلان . وقف الكلب الاصفر الضخم الى جوار دونللي ،
وحينما اقترب منه الرجلان زمجر وبدأ ينبج نباحا خافتا ، كما لو كان يتهاى للقفز .
امسك دونللي بحزام رقبة كلبه . وكانت المحاورة قصيرة ، ورايته يشير نحوي .
ثم جاء اليّ وهو يتشاءب وقال : « حسنا ، اعتقد انه من الافضل لنا ان نعود . »
كانت آلة الاطفاء قد راحت اخيرا تصب الماء فوق البقايا المتنبهة ، وتساعدت
سحابات البخار حاملة ذرات الرماد وشظايا صغيرة من الخشب المتفحم .
« فيم كان كل هذا ؟ »

« اوه ، انهم يشكون بشدة في الاغراب في هذه المنطقة . »
« ولكن ما كان بوسعهم ان يشكوا في اننا نحن الذين اشعلنا الحريق . »
هز كتفيه ثم بدا يصفر بفمه لحنا ايرلنديا . سار عائدا بنفس اخطوات
الواسعة . ولكن بدا لي انه لم يعد متوترا . كان خلال القسم الاول من مسيرتنا
يتكلم ويسير كإنسان آلي ، او مثل رجل تركز عقله بشتات على شيء آخر سوى
ما يتحدث عنه . اما الان فكان بشرا سويا ، مستريحا . وحينما دخلنا المنزل ، بالغ
في ذلك فوضع يده فوق كتفي وقال : « حسنا ، اظن اننا نحن الاثنين نستحق
مشروبا باردا كبيرا . »

جاء بزجاجات من الجعة الانجليزية - من نوع « وورثينجتون » . وبينما
كنت ارقبه وهو يصب الجعة في الكوبين ، ويترنم لنفسه بلحن ما ، طرا شيء ما ،
ابله ، على رأسي . كان الاجهاد قد غمرني باحساس من اللامبالاة . اطعت هذا
الدافع الداخلي الغلاب وقلت :

« لا اعتقد ان لك علاقة بهذه المسألة ، اليس كذلك ؟ »
للحظة سألت نفسي ان كنت قد اسرفت في البوح بما شعرت به . ولكنه
قدم اليّ كأس الجعة وهو يتسم ابتسامة التلميذ البرئة السعيدة ، وقال :
« يا له من سؤال غريب . كيف كان يمكنني ذلك ؟ »

وفجأة ، وبقين لا يمكنني ان اشرح اسبابه ، عرفت انه كان على علاقة
بالحريق . ربما كان السبب هو طريقة نطقه لاجابته على سؤالي ، او فهمه الفوري
للسؤال . ان رجلا بريئا كان جديرا بأن يتردد قليلا ، وان يتساءل ان كان قد

فهم السؤال على النحو الصحيح . جلست في المقعد ذي المسندين ، وشربت
الجمعة باستغراق ونهم . وحينما نظرت اليه مرة أخرى كان ذلك اليقين قد اختفى .
وكان شكّي مبتهئ ان الرجل كان معي طول اليوم ... سمعته يقول :
« اشرب في صحة ايزموند دونللي . »

شربت . وبدأ لي هذا النخب دون مناسبة .

ذهب الى المطبخ وسمعت اصوات اعداد الطعام . كان قد ادار مفتاح
المذياع - وهذه علامة اخرى تدل على الارتياح . هبت نسمة باردة من خلال
النافذة المفتوحة . وكلما امعنت في التفكير في المسألة ، كلما زاد ميلي الى
تصديق انه كان على علم سابق باشتعال النار في ذلك الموعد . كل شيء تناسب مع
هذا الافتراض : محاولاته باقناعي بالبقاء . الحديث الميكانيكي الخالي من الرغبة
الحقيقية . المسيرة الطويلة الخالية من المعنى في عصر يوم حار . المسدس الذي
حمله والكلب الضخم الذي اصطحبه معه . ترايد اتساع خطوته حينما اقتربنا من
دغلة القش ونظراته المتلاحقة الى ساعته . كان الرجل مصابا بهوس الحرائق . ومن
المحتمل ان يكون هو الذي اشعل النار بنفسه في مباني مزرعته . وربما كان هو
الذي احرق معمل تفريخ الدواجن ايضا . وفجأة شعرت بصدمة باردة حينما
قلت لنفسى انه من المحتمل ان يكون هو الذي اشعل الحريق الذي اعدم من اجله
الزنجيان . ولكن كيف استطاع ان يفعل ذلك ؟ اكان شريكا له هو من اشعل
النار حينما اقتربنا من المبنى . ان في هذا خطرا عظيما ، بالتأكيد . اذن اكانت
وسيلته اداة اشعال ميقاتية . لا بد ان هذا هو الجواب .

انتهيت من كوب الجمعة وبدأت اشعر بالنعاس . صحت حينما جاء بالطعام
- بطاطس مشوية بالطريقة الفرنسية وسجق من لحم البقر وصب لنفسه مزيدا
من الجمعة . واكلت على صينية وضعتها فوق ركبتى ، كان من الواضح انه شديد
الجوع ولم يكن يشبه الكونت دراكيولا في شيء ، وهو حريص على سره المرعب ،
وانما بدا مثل رجل متعب انهكتة سنواته الخمسون ، اعتاد ان يقسو على نفسه
بشدة ولم يكن يهتم بان يتناول وجبات من الطعام الجيد . وعرفت ان من واجبي
ان ادلي بشكوكي الى شخص ما - ربما الى رئيس قسم اللغة الانجليزية في
جامعة لوزيانا . ولكنني كنت اعرف انني لن افعل هذا . لقد كان مضييي . ولم
يكن لي الا ان آمل ان يقبض عليه في وقت قريب .

كانت الساعة قد قاربت التاسعة حينما انتهيت من تناول الطعام . ثم قلت :
« لقد كنت شديد العطف حقا ، ولكن لا بد لي بالفعل من التفكير في
العودة ... »

كان يجمع الصحون فوق صينية ، قال بطريقة عابرة :

« ماذا ؟ ترحل قبل ان ترى مخطوطة دونللي ؟ »

كنت عاجزا عن تصديق انني سمعت بطريقة سليمة . سألته : « مخطوطة ؟ » .

« هذا هو ما جئت لاجله ، اليس كذلك ؟ »

« اتملك حقا شيثامن مخطوطاته ؟ »

أولاً برأسه وهو يحمل الصينية ويخرج بها . وحينما عاد ، اخرج مفتاحاً من جيبه ، وفتح الخزانة الخضراء في الركن ، قال :
« ليست هذه المذكرات للنشر ، بالطبع » .

كان هناك صندوق خشبي في القسم العلوي من الخزانة ، وعلى الرف السفلي عدد من المظاريف المتفخة ، تناول أحد تلك المظاريف وناولني إياه . كان يحتوي على ملف ضخيم من الأوراق ربطت بخيط شمعي . كان الخط متميزاً شديد الخصوصية ، ولكنه سهل القراءة الى الدرجة الكافية :
« فالماوث ، ٦ مارس ، ١٧٨٧ »

الزجاجة تفرق . الرياح الغربية تهب برفق فوق المياه ، والدخان يتصاعد بهدوء الى سقف الحجرة ، واليحارة يتشاءبون بضجر على باب كل حانة من حانات الجمعة . لقد غادرني بيكفورد لكي يذهب للبحث عن سيدة قلبه فوق التل . وبقيت انا هنا ، يداعب النعاس جفوني وانا في هذه الحالة من السكينة الهادئة ، ارقب فتاتين شابتين ، جميلتي التكوين ، ترتديان برشاقة انواعاً جميلة من الثياب المحلية ، وتسيران على حافة البحر . T ، يالتك المخلوقات اللذيذة المجيدة ! من الذي يستطيع ان يجادل فيما اكده زوزيموس البانوبوليتاني (١) من ان المرأة لم تنبت من نفس الجذر الذي انبت الرجل ، وانما خلقت للناس من كوكب اخر بعيد ، ثم سمح لها بان تعيش في كوكبنا هذا ، كوكب الذكور ، كما لو كانت خاطرة من خيالات الخيال ! ليست المرأة هي لغز الخلق الجليل ، الحضور المرئي للسحر في هذا العالم المتحلل البيوطي ؟ (٢)

قال جودوين ان اسقف كامباري الشهير كان افضل واكثر قيمة من خادمته ، ولكنني لست على استعداد لان ابادل الجميلة الصغيرة التي شاركتني الفراش في الليلة الماضية بعشرة من الاساقفة . كانت القادة - التي تسمى كلارا - قد خدمتنا على العشاء ليلة الفصح ، وقال بيكفورد - الذي لا يروق للدوق نوعها - ان الفتاة مؤخرة كمؤخرة الصبي . وقلت انها مؤخرة مستديرة باكثر مما يمكن لفتى ، على الاقل ، اذا كان لي ان احكم بناء على النهذ الصغير الذي كان بوسعي

(١) نوزيموس البانوبوليتاني : مؤرخ يوناني عاش تحت رعاية الامبراطور ثيو ديسيوس الثاني والفا عدداً من الكتب عن انهيار روما من سيطرة اوجسطس حتى عام ٤١٠ م متجاهلاً الفترة من حكم بروبوس حتى عام ٢٠٣ م . لم يكن كتابه الاخير قد اكتمل حتى عام ٤٢٥ م . واعتمد فسي كتابته على مصادر متوترة بها مثل المؤرخين ديكسيوس واونايبوس ولم يكن عمله يخلو من احكامه التاريخية ولا من الحس الاسلوبى ، وان لم يكن دقيقاً في ذكر التواريخ وكثيراً ما تناول عصوراً طويلة بطريقة عابرة . (ه . م .)

(٢) البيوطي نسبة الى « بيوطيا » مملكة مدينة اسيرطة الافريقية القديمة التي كانت مهنة رجالها الاساسية هي الزراعة والحرب ، ولذلك قال عنهم الاثينيون انهم اغبياء تطولهم الكابة واستخدموا اسمهم صفة للامية والقليلة وعدم الحساسية ، هذا رغم ان الشعراء والمؤرخين هيزود وبيندار وكورينابولوتارخ وبيلويداس واياميتونداس كانوا كلهم من بيوطيا ! (ه . م .)

ان اراه حينما انحنت على المائدة لكي تصب الزبد الذائب على قطعة اللحم امامي .
 وحينما اقتربت مني همست لها بانني على استعداد لان اتنازل عن تاج مملكة
 في مقابل قبة منها ، فضحكت واحمر وجهها . ولم اكن قد اوليتها الا القليل
 من الاهتمام حتى تحدث بيكفورد عنها ، ولكن تركزت الان افكاري عليها ، وتسلل
 اليه التمتع المشتاق الصغير الى صدري وجعل قلبي وسادة لراسه . في كل مرة
 كانت تدخل فيها الى الحجرة كنت انظر اليها كما لو كنت قد وقعت في الحب
 منذ برهة وجيزة . ومن المؤكد انه لا بد قد لاح لي ان الزواج بها ليس بالثمن
 الباهظ في مقابل ان اتفحص مفاتها فحفا اكثر دقة . ورغم انني اعتقد انني
 اتمتع بقدر من صفات الانوثة اقل مما يتمتع به بيكفورد ، فاني مدين لفضول
 باندورا (١) المهلك بقدر يستطيع ان يدفعني الى تجاهل كل الاعتبارات الاخرى .
 وحينما اقتربت مني لكي تعيد ملء كاسي ، مددت ذراعي من حولها وسمحت
 ليدي بان تستقر فوق فخذي ، عارفا بانها اذا اعترضت على هذه الخطوة ،
 فاننا لن نتقدم الى ما هو ابعد منها . ولكنها وقفت بهدوء ، مثل جواد احسن
 تدريبه . ثم دخل صاحب البيت بمزيد من خمر الليمون والسكر ، وسحبت يدي .
 ولم تتح لي فرصة اخرى للاطفتها في خلال تناول الطعام . ولكنني حينما
 فادرت الحجرة ، دسست في يدها جنيها ذهبيا ، وهمست لها : « هذا لك
 يا عزيزتي . وهناك خمسة اخرى تنتظرك اذا انت جئت الى غرفتي حينما ياوي
 كل من بالبيت الى فراشه » . ولم تقل شيئا وهي تخفض عينيها ، ولكنها اخذت
 النقود . وقال لي بيكفورد فيما بعد انه قد اكتشف انها متزوجة من صياد ،
 وانني ربما اكون قد اضعت نقودي سدى . فاجبته بان النقود التي تعطي لفتاة
 جميلة لا تضيع ابدا سدى ، اذا ما كانت فاضلة ، لان هذه النقود لا بد ان تعتبر
 قربانا يقدم الى افروديت ، التي سوف تعترف بهذه الصلاة وهذا الشئ ، حينما
 يطيب لها ، وفي اي وقت تشاء .

ولكن في هذه المناسبة بشكل خاص ، ثبت ان بيكفورد كان على خطأ ، لان
 العروس الجميلة انزلت تحت غطائي في الساعة الثالثة من الصباح ، بعد ان
 كنت قد تخليت عن كل امل ، ولم تنكر علي شيئا بعد ذلك . سألها هامسا
 عما كان من امر زوجها . فقالت انه كان قد خرج مع اسطول الصيد . كانت
 ترتدي ثوبا فضفاضا من التيل الخشن ، سرعان ما رفعته الى ما فوق رقبته .
 قبلتها ودعوتها بالكثير من الكلمات الرقيقة ، لانني ما كنت ابدا اطيع صبرا
 مع الاصدقاء الذين يسلبون فتاة فضيلتها ، ثم يعاملونها بعد ذلك كما لو كانت
 عملية السلب قد حرمتها من كل حق في التقدير والحنان . يضاف الى هذا ،

(١) باندورا - في الميثولوجيا اليونانية هي شبيهة حواء ، ام البشر التي خلقها زيوس كبير
 الالهة لكي يفسد حياة الانسان (الرجل) الذي خلقه بروميثيوس بان ارسل معها صندوقا
 هدية للرجل وامرها الا تفتحه . ولكن فصولها (الذي زرعه فيها زيوس) دفعها الى فتح
 الصندوق فانطلقت منه خفايش الالام والعذابات مع فراشة « الامل » البيضاء الوحيدة . (هـ . م .)

انني عرفت ان الفتاة كانت هبة من هبات الربة التي ولدت من زبد البحر (١) ، وانها تستحق قسما من الصلوات الواجبة لقاء عطيتها الثمينة . وهكذا فقد لاطفت اذنيها بالكلمات الناعمة وبطرف لساني ، ثم سمحت لفصاحة هذا اللسان بان يتحدث الى نهديها ، بل وبأن يتحدث حتى مع الجدران القطيفية للمعبد نفسه . وفي ذلك الحين ، كانت تقلصات ردفها تنطق بالرغبة ، وحينذاك ، نقلت لساني الى مستقره الصحيح في فمها ، واخذتها بنعومة تسلل الرجل الى فراشه (٢) . وظللت اقبل شفيتها كما لو كنت اعوض ما فات من عمر بأكمله من الاسماك والزهد ، وقد صعب عليّ ان اصدق ان هذه الكاهنة البيضاء كاللبن كانت هي كلارا ذاتها التي صبت الدهن على قطعة اللحم المشوية امامي ومنحتني لمحة خاطفة من حلمتين لاحتا لي وكأنما تشكلتا منذ لحظة وجيزة . ورغم ان ردفها كانا ساكنين الآن - هذان الردفان اللذان كانا مستديرين باكثر مما ينبغي لفلام - فقد ارتعش جوادي في داخلها ، كما لو كان عاجزا عن ان يصدق انه آمن في داخل مثل هذا المسكن اللذيذ . . ومضينا في رياضتنا حتى انبلج الصبح حينما غادرتني . رقدت في مكاني ورحت افكر في المناقشة التي دارت بيني وبين بيكفورد في العربة بالامس : حول ان الاسلوب الاغريقي في الحب اكثر روحانية وجلالا من ذلك النوع المعروف بين الرجال والنساء . وفي خلال طوفان اخلاصي كان بوسعي ان اتمنى لبيكفورد صحة زوج كلارا - صياد السمك - على ان يحمله معه في عربته ذات الجياد الاربعة . ولكن اما كان من الممكن لمثل هذا اللقاء ان يكون لقاء نافر العروق مشبعا بالشهوة ، كما لو كان انداد الفرسان يتصادمون بحراب من اللحم ؟ ان مثل هذا اللقاء قد يكون جزءا من عالم سيد الشمس المتين العضلات (٣) ، وليس جزءا من عالم الماء السحري الاخضر الذي تحكمه ارتيميس (٤) .

كنت اقرا ناسيا وجود دونللي . وقد جعلتني ملاحظته عن ان هذا المخطوط لم يكن للنشر ، جعلتني اعيد ما شعرت به من توتر في اطار ضيق . ولكنني شعرت بانني قد مارست مثل ذلك من قبل ، في لحظات حرجة اخرى من حياتي (مثلا حينما قابلت اوستين في معرض اعمال دياجليف) . كان شعوري ان يكون احساسا بتكرار مشهد كنت قد جربته من قبل .

كان دونللي قد عاد الى زجاجة الروم . ورفضت الكاس التي عرضها علي منه ، ولكنني قبلت كوبا من جعة البادوايزر . وحينما بلفت نهاية المشهد ، وضعت

(١) هي « فينوس » او « افروديت » ربة الحب والجمال والزواج في الميثولوجيا اليونانية التي

خلقتها ابوها زيوس من زبد البحر وخرجت من صدفة اللؤلؤ في البحر قرب قبرص . (هـ . م)

(٢) هو هيلوس (ابولو) رب الشمس والفنون ، عاله عالم الحساسية والانسجام الكونسي

(اساس الفنون) (هـ . م)

(٣) ارتيميس ربة القمر ، اخت هيلوس او ابولو (واسمها الروماني ديانا) وربة الصيد والغابة

الجللة بالفضاب ، عالهها هو الليل والفضاب ، علهاء ابدية لم تنجح في اي حب رغم

جمالها . (هـ . م)

المخطوطة المجلدة على المائدة . سألته :
« أنت واثق تماما من انك لن تكون راعبا في نشر هذا المجلد ؟ »
« اظن هذا » .

قلت : « سيجعل هذا الموقف من المشروع كله مجرد هراء . انني افهم الان ما عينته من ان نسخة فليشر كانت من قبيل التزوير . ولكنني لا اتبين كيف استطيع ان اوصي فليشر بان ينشر نسخته . سيكون هذا نوعا من العبث » .
« ووافقك على هذا » .

« اليس هناك فرصة للالتقاء في منتصف الطريق ؟ »
اشعل سيجارا جديدا . قال :

« ستفضب الاسرة للغاية اذا نشرت هذه الاوراق » .
« ولكنك قلت انك لست على علاقة طيبة بالاسرة » .
« كلا . لست على علاقة طيبة بهم . ولكن ليس هذا سببا لاثارتهم » .

لاح لي هذا الموقف اكثر مما يمكن احتماله بقليل ، خاصة وانه موقف رجل احرق مخزن شخص اخر منذ وقت قصير . غيرت اسلوب معالجتني للموقف وسألته كيف وصلت الاوراق الى حوزته . ولاح عليه انه يفكر في الاجابة على السؤال اللحظي ، قال :

« اجل ، اعتقد انه لا ضرر من اخبارك بهذا . حينما قام دونللي بزيارة روسو في نيوشاتل عام ١٧٦٥ - وكان دونللي في نحو السابعة عشرة من عمره في ذلك الوقت - اهدى اليه مقالا ، مكتوبا بالفرنسية ، يرفض فيه فلسفة هيوم (١) ودالامبير (٢) وقد ورد ذكر هذا اللقاء وما دار فيه ، في كتاب جون مورلي عن « حياة روسو » . واصبح دونللي وروسو صديقين ، رغم فارق السن بينهما . ولكن روسو كان يجتاز في تلك الفترة مرحلة صعبة من حياته . كان كل القساوسة في نيوشاتل يملأون عظاتهم بالهجوم عليه ، وجرى اتهامه بانه

(١) ديفيد هيوم ١٧١١ - ١٧٧٦ - فيلسوف اسكتلندي ومؤرخ . مؤسس النزعة الوضعية التجريبية في الفلسفة الحديثة ، قيد المعرفة الانسانية بممارسة التجربة والانطباعات ممارسة جزئية وفردية ، واصبح ذا تأثير بالغ الخطورة في الفكر الميتافيزيقي الحديث ، من حيث رفضه للميتافيزيقيا على اساس غير مادية والامته للكر ميتافيزيقي دون ميتافيزيقا . كتب تاريخا لانجلترا في حكم جيمس الاول وتشارلس الاول وعددا كبيرا من المقالات والدراسات الفلسفية غير ان اهم كتبه (وواحدا من اهم الاعمال الفلسفية الحديثة على الاطلاق) هو « مقالات فلسفية حول الفهم الانساني » عام ١٧٤٨ ، الذي اصبح اسمه فيما بعد : « بحث عن الفهم الانساني » (ه . م) .

(٢) جان لوروند دالامبير ١٧١٧ - ١٧٨٣ - عالم رياضي وفيلسوف فرنسي ، اشترك مع ديدرو في تحرير « دائرة المعارف » وكان من مؤسسي النزعة المادية الطولية الحديثة ، المشربة بالفهم التاريخي والجدلي لحركة الكون والمجتمع مع ديدرو والتي انتقلت فيما بعد الى الفلسفة الكلاسيكية الالمانية وبلغت ذروتها عند هيغل (ه . م) .

سحر رجلا كان قد مات بالتسمم الكحولي . وذات صباح ، اكتشف دونللي ان شخصا ما قد وضع صخرة ضخمة على باب منزل روسو من الخارج في وضع متوازن بحيث تسقط فوقه لحظة خروجه - ومن المؤكد ان الصخرة لـو سقطت عليه لقتلته . وازاح ايزموند الصخرة ، وفي الليلة التالية نصب بنفسه الفخ القاتل خارج منزل الحداد - الذي كان عدوا بارزا لروسو ، وكان ايضا الرجل الوحيد الذي تسمح له قوته العضلية بان يرفع الصخرة فيضعها في مكانها الاول دون معونة من احد . وحطمت الصخرة ذراع الحداد وعظمت ترقوته . ولكن هذا لم يجد روسو المسكين في شيء ، الذي كان عليه ان يغادر البلدة على اي حال - وكان الناس قد وصلوا الى مرحلة قذفه بالاحجار في الشوارع . وبعد ذلك بعامين ، حينما كان روسو يعيش في لندن كضيف على ديفيد هيوم ، سأل دونللي عما كان من امر المخطوط ، فقال روسو انه ترك مخطوطة المقال وراءه في باريس ، وانه سيعيده حينما يعود الى هناك . ولكنه لم يفعل ذلك ابدا .

» وقد حدث بعد الحرب بفترة قصيرة ، ان كنت مقيما في مدينة لوزان وتعرفت ببائع كتب يدعي جلوزو كان له عمل ما في نيوشاتل . واخبرته - بقصة مخطوطة مقال دونللي فقال لي انه قد يكون قادرا على مساعدتي . وبعد ستة شهور ، كتب اليّ خطابا وعرض عليّ ان يبيعني المخطوطة - بسعر معتدل الى حد كبير - وهذا ما ينبغي علي ان اضيفه هنا . واظن انه عثر عليه في منزل الرجل الذي كان روسو قد استأجر منه منزله ، في صندوق قديم الاشياء المهملة والتالفة وقد عثر ايضا هناك على كراسة لمذكرات الرحلات كان دونللي قد كتبها .

» وبعد ذلك بعدة سنوات ، كتب اليّ جلوزو ليسألني ان كنت ما ازال مهتما بمخطوطات دونللي . وكان قد عثر بالصدفة على مخطوطة اخرى في جنيف . وكنت اعرف ان ايزموند قد استأجر منزلا في جنيف فامضى هناك الجانب الاكبر من العشرين عاما الاخيرة من حياته . ولكنه كان قد انتقل عائدا الى ايرلندا قبل عام واحد من موته في عام ١٨٣٠ ، واخذ معه معظم ممتلكاته الشخصية . وليست لدي اية فكرة عن كيفية تركه لهذه المخطوطة بالذات في جنيف لدى رحيله عنها ، رغم انني املك بالفعل نظرية لتفسير هذه الواقعة قد تكون على شيء من الهمية . كان بايرون قد زار ايزموند في جنيف - وكان قد التقى به عن طريق شريدان . وبعد هذه الزيارة ببضعة اسابيع ، كان بايرون يكتب لصديقه « هوب هاوز » من مدينة بيزا الايطالية ، ليقول له انه يقرأ الان « اكثر المخطوطات التي راها عمرا وتشويقا بقلم ايزموند المجوز » . وانا افترض ان « ايزموند » المذكور في رسالة بايرون كان هو دونللي - وفي هذه الحالة ، يكون بايرون قد استعار المخطوطة من ايزموند دونللي ونسي ان يعيدها .

كان عليّ ان اعجب بالطريقة الحاذقة التي روى بها دونللي قصته ، ورغم انه كان قد شرب جانيا كبيرا من زجاجته الثانية من الروم ، فقد كان يتحدث

ويتناقش مثل كاهن محترف يتناقش في موضوع بعث الجسد والروح بعد الموت . ولكن الشيء الغريب هو انني كنت قد بدأت اشعر فجأة باللامبالاة الكاملة بالموضوع كله . وقد اقول انني رفضت ان تكون لدونلي مثل هذه السيطرة عليّ . وكنت بالفعل قد قررت ان اعيد الى فلشر مبلغ الخمسة الاف دولار وان انسى الموضوع كله ، وهكذا لم اهتم ادنى اهتمام بما اذا كان من الممكن اقتناع دونلي بان يغير رايه ام لا . وحالما قررت ذلك لم اعد اهتم ، شعرت بالحرية واللامبالاة . وقررت انه مهما حدث ، فانني سأرحل عن هذا المكان في خلال نصف ساعة فأعود الى فندقتي الصغير . سألت دونلي عن كيفية بداية اهتمامه بجده الاول . فقال انه كان قد اكتشف مذكرات الرحلات المنشورة في بيت الاسرة في بالي كاهان . سألته كم من السنوات من عمره قضاها هناك .

« سنوات قليلة جدا . لقد انتقلنا الى دبلن حينما كنت في الخامسة من عمري ، ورحلنا الى الملايو وأنا في التاسعة » .

« هل فكرت ابدا في ان تداوم على كتابة يوميات لرحلاتك ؟ »

وقد طرحت هذا السؤال دون اهتمام حقيقي ، لمجرد شغل الوقت بشيء ما ، مهما يكن ، وكانت النتيجة طوفانا من البواح والكشف عن الذات لا يكاد يصدق . قال وهو يتنفس بصعوبة :

« لم اداوم ابدا على كتابة يومياتي ، لانه كان هناك الكثير جدا من الاشياء التي لم أجروا ابدا على تسجيلها » .

« ولكن هذا السبب لم يمنع ايزموند من كتابة يومياته » .

ابتسم ابتسامة غريبة ، مفتتحة . قال :

« كانت حياة ايزموند الجنسية من النوع الذي كان بوسعه ان يكتب عنه .

اما حياتي أنا الجنسية فليست كذلك » .

ظننت انه كان يشير الى احراق مخزن القش . او ماتت بتعاطف وقلت انني ادركت ما يعنيه وفهمته . فقال بنوع من التخابث الذاتي المجهد :

« اشك في انك قد فهمت مما عنيته شيئا . حينما كنت في الثامنة من

عمري ، كانت لدينا مربية اعتادت ان تضربنا على مؤخرتنا وان تعبت باعضائنا الجنسية » .

« من تعني بصيغة الجمع هذه ؟ »

« اخي ايزموند ، وأنا . وكان ايزموند يكبرني بعام واحد . كانت هذه

الفتاة اسكتلندية من مدينة جلاسجو - واحدة من اولئك الخادومات ذوات الاجساد الضخمة والصحة الجيدة . لقد احبها كل منا الى حد العبادة منذ اللحظة التي رأيناها فيها . كنا نتبعها اينما ذهبت مثل كلاب الراعي . وذات يوم كنا نجري ويطارد احدها الاخر حول مائدة وضعت فوقها مزهرية من البورسايين الثمين ، ووقعت المزهريّة وتحطمت . كان والدانا بالخارج ، ورجونا بريدجيت الا تخبرهما بالامر . فوافقت على ان تقوم باخفاء الشظايا ، ولكن بشرط ان تعاقبنا هي بنفسها . فابتهجنا . كلانا ، لهذه الفكرة . فامرتنا بان نصعد الى حجرتنا وان يخلع

كل منا بنطلونه . وحينما عادت بالعصا كنا عاريين بالفعل . جلست على السرير وامرت كلا منا بان ينحنى على ركبتها ، ثم ضربت كلا منا عشر ضربات ردفية » .
« هل اثارك هذا جنسيا ؟ »

« ليس بصورة حقيقية . على الاقل لم تثرني العقوبة البدنية . اما ما اثارني فهو كوني عاريا اضعف بجسدي على ركبتها » .

لن احاول ان اسجل هنا بقية قصته بكلماته نفسها ، لانه راح يسرد كل التفاصيل الصغرى التي لم تكن ذات اهمية حقيقية . وكان ما قاله ، هي انه مع اخيه قد اتفقا على انهما استمتعا بان تقوم بريدجيت بمعاقتهم . وحينما انفردا معها في المنزل في المناسبة التالية ، تعمدا ان يكسرا شيئا ما ، ثم قاما بنفس العملية بكاملها مرة اخرى . كان هذا في عام ١٩٢٨ - عصر الملابس القصيرة . فكان يستطيع ان يضبط بعضوه التناسلي على ركبتها اثناء ضربها له - وقال ان احساسه بهذا الوضع كان بالغ الحدة للدرجة انه كان يفشى عليه بعدها . وفي هذه المرة ، رأت بريدجيت ان عضوه كان منتصبا وهو يتعد عنها ، فمدت يدها الى اسفل ولسته ... وقال دونللي ، انه منذ تلك اللحظة ، لم يكن يفكر - هو واخوه - في اي شيء اخر الا في كيفية اقتناعها بضربهما مرة اخرى . وبعد اسبوع او نحوه ، لم يعد من الضروري ان يحطما شيئا لكي ينالا منها ما يريدان من الضربات . فحالما كانوا ينفردون في المنزل ، كان - هو واخوه - يقترح ان يلعبوا لعبة المدرسة ، فتقوم هي بدور المدرسة ، ويجيبان على اسئلتها اجابات خاطئة عامدين ، فتأمرهما بعد قليل بالتوجه الى غرفتهما . وهناك يخلعان ملابسهما ، ويقومون جميعا بالاستعراض كاملا مرة بعد اخرى ..

وانتهت هذه المرحلة حينما بلغ التاسعة . فقد نقل والده الى الملايو ، حيث كان يعمل مديرا لاحد مناجم الصفيح . وحينما كانوا بعيدا عن انجلترا ، سمعوا بان بريدجيت قد تزوجت ، ففمرهما الياس ، وكان كل منهما قد راهن الاخر على انه سوف يتزوجها حينما يكبر .

بعد ذلك بعامين ، كانا قد نسيها او كادا . وذات يوم ، سألتها والدتهما عن رأيها فيما اذا جاءت بريدجيت لكي ترعاها مرة اخرى . كان زوجها قد تركها ، وكانت هي تريد ان تبعدهن اسكتلندا . ولحقت الفتاة بهن حينما كانوا يقضون احدى اجازاتهم في لندن ، ثم عادت معهم الى الملايو . وقال دونللي ان جسدها كان قد ازداد ضخامة وثقلا ، وان كلا منهما قد وجدها اكثر جاذبية مما كانت من قبل . وحالما اتاحت الفرصة للانفراد بها في المنزل ، سألها شقيقه ان كانت ستضربهما ان اساء سلوكهما فقالت : « بالطبع » وقال دونللي انهما اهتزتا من البهجة لهذه الاجابة .

وطوال الاسابيع الاولى بعد عودتهم الى الملايو ، لم يحدث شيء . فقد كان لديهم خدم من الاهالي ، وخشيت هي ان تبذل نفسها امامهم . ولكن الطقس الحار والافتقار الى التنفيس الجنسي سرعان ما جعلها تصرف النظر عن حرصها ..

كان الرجال من الاهالي يتجولون عراة تقريبا ، فرعمت ان تنشئتها كانت تنشئة دينية وانها تشعر بان هذا الوضع يصدم مشاعرها . وكان الصبيان يستمتعان باغاضتها واحيانا ب « قرصها » فكانت تصفهما . وكان بوسعهما ان يشعرا من تزايد قوة الضربات انها كانت متنفسا لشيء اخر الى جانب الضيق . وحدث ان راتهما عاريين ذات ليلة بعد الاستحمام ، فصدرت عنها ملاحظة عن تطور عضو دونللي الجنسي . واثارت غيرة ايزموند ، وفي تلك الليلة ، تمارك هو وشقيقه عراكا مريرا ، انتهى بكدمات سوداء في عيني كل منهما .

وذات يوم ، ضبطتهما مختبئين في كوخ في الحديقة يدخان السجائر ، وقالت لهما انها سوف تعاقبهما على الفور . وكان هذا هو ما ينتظرانه منذ زمن طويل . وكان من المستحيل عمليا ان يخلعا كل ملابسهما ، فانزلا بنظولنهما فقط وضغطا نفسيهما على ركبتيهما . وقال انه حينما انتهت هي من «العقوبة» كان كل منهم قد احمر وجهه وراح يتنفس بصعوبة . وكان هو واثقا من انها قد بلغت ذروة نشوتها (رغم انه بالطبع لم يدرك هذا في ذلك الوقت) .

وحدث بعد ذلك بعدة ايام ، ان اصططبت والدته شقيقه ايزموند الى البلدة القريبة لتشتري له بعض الملابس . فصعد هو الى حجرة بريدجيت ووجدها خالية ، ففتح صوان ملابسها ، وعثر على الثوب الذي اعتادت ان ترتديه حينما كانت تضربهما في دبلين . وهو ثوب بني اللون صنع من مادة صلبة . خلع ملابسها كلها ، وفرد الثوب على الفراش ، ورقد فوقه ، وراح يتشم رائحته المتميزة . وفجأة سمع صفقة الباب ، وعرف صوت خطوات بريدجيت في الطابق السفلي . وذهبت هي عبر المنزل الى المطبخ . واراد هو ان تراه راقدا فوق ثوبها ، فقلب شيئا ما واسقطه على الارض بصوت مرتفع . هتفت : « من هناك » ؟ ثم صعدت الى الطابق العلوي . تظاهر بانه نائم ، وفتح عينيه متظاهرا بانه جفل ، امامها وهي تحديق فيه . واتضح انها تضايقت ضيقا حقيقيا لانه عبث بصوان ملابسها ونظر الى ما بداخله . وقالت : « سيكون علي ان اعاقبك - قم » . وحتى قبل ان ينحني فوق ركبته كان عضوه قد انتصب ، ولكنها تظاهرت بانها لم تلاحظ ذلك . التقت فرشة شعرها وامرته بان ينحني فوق ركبته . وفي هذه المرة ، لاحظ ان ركبتيها كانتا متباعدتين اكثر من المعتاد ، وانه عن طريق الضغط بحذر على اعلى ثوبها ، يستطيع ان يجعل الثوب يرتفع الى فخذه . وحاول ان يحرق الى اعلى ساقيها ، ولكنهما كانا يواجهان الباب ، ولم يكن هناك ما يكفي من الضوء . وفجأة قالت :

« هذا المكان ليس مرتفعا بما يكفي . تحرك حول الفراش ، الى الجانب

الاخر » .

ثم انتقلت الى حافة الفراش الاخرى ، الواجبة للنافذة . انحنى فوقها مرة اخرى ، ودون مقدمات جذب ثوبها الى اعلى . وفتحت هي ركبتيها اكثر ، ورفعت احدهما لكي تسندها على مسند للاقدام ، واستطاع ان يرى كل شيء الى قمة فخذيها . كانت ترتدي سروالا داخليا غير محكم له فتحتا سيقان

واسعتان ، ومع انفراج ساقيهما لم يكن « حجر » السروال يغطي شيئاً . وبدأ يحرك عضوه المنتصب على ركبتهما وهي تضربه . ثم غيرت وضعها ، وبدأت يدها الأخرى تحتك بعضوه ، ثم اطبقت يدها حوله ببطء . وفجأة بدأت تضربه بغضب ، وتخبط بكل ما تملك من قوة ، وفي نفس الوقت شعر بلدة حادة بين فخذه جعلته يشعر كما لو كان سيفشى عليه . وكان يسقط بين ساقيهما ، بينما استمرت هي تضربه ، وأخيراً ارتجفت وألقت بفرشاة الشعر . قالت : « اوه . لقد جعلتني أشعر بالمرض » ، ثم رقدت على ظهرها فوق الفراش ، وقد اغمضت عينيها . ورقد هو الآخر على الفراش . وقال انهما كانا مجهدين ، ولم يحدث شيء آخر في ذلك اليوم . وحينما سمعا صوت الام ، وقد عادت الى المنزل ، اسرع الى حجرته . وقال لشقيقه فيما بعد : « سوف اتزوج بريدجيت واجعلها تضربني كل يوم » .

استمر هذا الوضع طوال سنوات ثلاث ، وفي خلال هذه الفترة ، خطبت بريدجيت الى مهندس من مهندسي المناجم ، وبدأت تمارس معه الجنس بصورة طبيعية . ولكنها ظلت تؤجل زواجها منه لأنها قالت ان مسز دونلي لن تستطيع ان تستريح دون معونتها في المنزل ، ولكن السبب الحقيقي هو انها ارادت ان تظل قريبة من الشقيقين وان تستمر في عمليات الضرب . وأخيراً ، فاز المهندس ، فتزوجته ، وانتقلت معه الى اميركا الجنوبية .

ولمدة اسبوع اونحوه ، شعر الشقيقان بالوحدة ، وبانهما مهجوران . ثم حدث ذات يوم ان قال ايزموند : « تظاهر انت بانك بريدجيت » . ورقد على وجهه فوق السرير ، وراح اخوه يضربه بحزام جلدي . وبلغ ايزموند نشوته . وبعد ذلك ، تسلم ايزموند الحزام ، وتخيل دونلي ان بريدجيت هي التي تضربه ، وبلغ نشوته هو الآخر .

وحينما عادت الاسرة الى انجلترا ، وكان دونلي في الرابعة عشرة ، ارسل هو واخوه الى مدرسة عامة صغيرة . واصبح دونلي تابعا لاحد التلاميذ الصغار fug (حسب الاوضاع التي كانت سائدة في المدارس الانجليزية) ، اما ايزموند ، الذي كان يكبره بعام فلم يصبح تابعا . ولم يكن دونلي تابعا مرضيا حتى انه كان يستمتع بان يضرب مرة كل اسبوع . وذات يوم ، وبعد ان ضربه التلميذ المكلف بحفظ النظام ، جملة هذا التلميذ يخلع بنطاونه ثم اغتصبه . ولما كانت مؤخرته ما تزال تؤلمه من الضرب ، فان التجربة كانت مؤلمة الما مزدوجا ، واستمتع بها دونلي استمتاعا يفوق كل متعة شعر بها من قبل . ولكنه اكتشف ان الاواط دون الضرب المصاحب للعملية ، لم يعطه اية لذة .

وليس من الضروري هنا ان اقول انني لم ارحل بعد نصف الساعة الذي كنت قد حددته لنفسى . بل انني قبلت مزيدا من الروم . وظل دونلي يتحدث ويتحدث ، حاكيا بالتفصيل كل تجاربه في كل مبقى زاره في ارجاء العالم . وكان الرجل مصابا بالكثير من العاهات النفسية والكوابح والثوابت حتى ان الامر ليتطلب عشرين صفحة أخرى لسردها هنا بالتفصيل - كان متعلقا بشعر النساء ،

واحذية النساء الجلدية الرقيقة ، وقمصان التنس ، احذية المطر ذات العنق الطويل والمصنوعة من المطاط والمعاطف الواقية من المطر ، والبنادق ، والسيات ، والعصي ، وشفرات الخلاقة .. وفي حوالي منتصف الليل ، اطلعتني على مجموعته من البنادق ، ومن الصور الفاضحة ، ومن السيات والعصي . وناولني سوطا مصنوعا من تسعة من ذيول القلط وسألني ان اجربه . فرفعت بالسوط في الهواء ، فغمض عيني كما لو كان يصفي الى موسيقى ممتعة . ثم قال بلهجة حاملة :

« اتحب ان تستخدمه؟ »

« على جسدك انت؟ » كنت قد خمنت ان هذا هو ما يسعى اليه .

« اجل . »

« كلا . سأشعر بالبلهة » .

قبض على ذراعي وقال :

« حتى ولا في مقابل المخطوطة ؟ »

« اتسمح لي بأخذها في هذه الحالة ؟ »

« يمكنك ان تنسخها ثم تعيدها الي » .

« وهو كذلك » .

اصبح صوته نوعا من « النخنخة » وهو يقول :

« تعال الى الداخل ، هناك » .

دخلنا الحجرة الاخرى ، لم يكن هناك شيء سوى سرير ضخم ، من طراز قديم ، لشخصين ، مزود بوسادة كبيرة لاحت لي غير مريحة كما لو كانت لوحا من الخشب . وفي كل ركن من اركان الحجرة علق احزمة جلدية تنتهي الى قابضات يمكن ان تمسك بالايدي .

خلع ملابسه ببطء ، ودون ما علامة توحى بالحرص . لاحظت ان الستائر على النوافذ كانت ثقيلة جدا . وعرفت الان السبب الذي جعل دونلي يشعر بالسعادة للتخلص من عمال مزرعته . ففي مبنى خشبي من هذا النوع ، كان صوت الضربات جديرا بان يسمع من بعد كبير ، وخاصة في الليالي الجنوبية الساكنة ، حيث يمكن ان يسمع صوت كروان صغيرة على بعد ميل كامل .

رقد على الفراش عاريا ، ووجهه الى اسفل ، ونظرت اليه نظرة مباشرة طويلة لاول مرة منذ دخولنا هذه الحجرة . كان ظهره ، وردفاه ، وفخذه تحمل اكثر قليلا من مجرد اثار وندبات السيات . بدا جلده في هذه الاجزاء ، كما لو كان طريقا غطاء الصقيع ثم مرت عليه ست عربات جيئة وذهابا عدة مرات . وكان من المدهش ان يستطيع ان يشعر بشيء ما تحت كل هذه الندوب القديمة ، ذات الجلسد المدبوغ .

كان عليّ ان احكم القوابض فوق معصيه ، ثم فوق كاحليه ، وان اشد الاحزمة الجلدية شدا محكما حتى يتمدد جسده تماما . في البداية تركبت الاحزمة الجلدية دون احكام ، ولكنه هتف بي نافذ الصبر « اكثر احكاما » . وبعد ذلك ، ادار وجهه ناحيتي ، فغمض العينين ، تحشرج صوته وهو يقول : « الان » .

كنت اعرف انه لا فائدة من التراجع . وكان ما تساءلت عنه في داخلي هو ما اذا كان باستطاعتي ان استمر في ضربه حتى اجعله يسألني ان اكف مكتفيا بما ناله من الضربات . وهكذا رفعت الشيء الذي اعطاني اياه فوق رأسي - وكانت له قدرة فائقة على الارتداد والتلوي - ثم هويت عليه باقصى ما املكه من القوة . اصدر السوط هسيبا مثل صاروخ ينطلق . ودهشت حينما رايت العلامة الحمراء العميقة التي صنعها على ظهر الرجل . ترددت للحظة ، فقال من بين اسنانه المطبقة : « استمر ، استمر ، لا تتوقف » .

وهكذا ، وقد تذكرت نصيبي من الصفقة ، هويت مرة اخرى عليه بكل قوتي . ولو انني كنت انوي ايداءه لكان هذا مستحيلا بالنسبة لي . ولكن كان من الواضح انه يحصل على اكثر ما يمكن من البهجة المريحة النشوانة من هذا الضرب . انزعجت حينما بدا الدم يتصبب من الندبات التي تركها السوط ، كما بدأت قطرات الدم تصيبني في وجهي مع طرف السوط كلما رفعته الى اعلى . ولكنني كلما توقفت كان يصيح في انيني : « ارجوك » . وعند لحظة معينة قال : « كف » . وظننت انه قد نال كفايته ، ولكنه قال : « والان ، العصا » . وكان عليّ ان ابحث عن عصا مروعة لشرطي مغطاة بالجلد ، وان اضربه بها على ردفه وساقيه . وفي البداية ، حاولت ان اجعلها « تفرقع » بان اضربه بكل ما املك من القوة - وكانت ذراعي قد بدأت تكل - ولكن هذا لم يؤد الى اي اختلاف . فانها قد انحنت فقط . وبعد عشر دقائق ، جلست متهاويا على مقعد خشبي وقلت :

« لا فائدة ، يجب ان استريح » .

ورقد هو في مكانه ساكنا ، وتبينت انه كان قد فقد الوعي . وحاولت ان اهزه من كتفه ، ولكن اجفانه لم تصدر اية حركة . وسررت حين رايت انه ما زال يتنفس . فلوانه مات ، لكان من الصعب عليّ ان افسر موقعي بانني كنت افعل ما فعلته في سبيل قضية الادب .

عدت الى الحجرة الاخرى وصببت لنفسي قدحا من البيرة . ثم ذهبت فاخذت مفتاح الخزانة من جيب بنطلونه وفتحت الخزانة . وفحصت المظاريف الاخرى ولكن ثبت انها لا تحتوي الا بعض الخطابات والاوراق المختلفة . لم يكن في الخزانة شيء اخر يتعلق بدونلي الكبير . اخذت الصندوق من الجزء العلوي للخزانة ونظرت داخله . اشار صليب احمر على احد جوانبه الى انه صندوق لثمود الطبية ، وعند النظرة الاولى اكدت محتوياته تلك الاشارة : لفافات كبيرة من الضمادات ، وعلبة صفيحية تحتوي على اشربة لاحقة معقمة ، وزجاجات من المواد المعقمة والمخففة . خطرت لي فكرة انه اذا استطاع دونلي ان يحصل على من يضربه مرة واحدة كل عام فقط ، لكان في حاجة الى مخزون كبير من الضمادات والمواد المعقمة . وحينما فحصت الصندوق بمزيد من الدقة ، لاحظت ان هناك بعض الاشياء التي لم يتضح لي الغرض من وجودها بشكل فوري : كان هناك عدد من الانابيب الخضراء ، وقد الصق عند كل من اطرافها غطاء مستدير صغير

تبدلت منه اسلاك تعرفت عليها انا نفسي باعتبارها فتائل تفجير ، ثم كانت هناك زجاجة من مسحوق بني اللون خشنة القوام . فحصت احد الانابيب . كان مصنوعا من البلاستيك ، وكان هناك غطاء من البلاستيك ايضا عند كل من طرفيه ويمكن تحريكه . نزعنا الغطاءين ، وحاولت ان انظر من احد اطرافه كالنظر في التليسكوب ، ولكنه كان مسدودا عند منتصفه من الداخل ، كان الانبوب مقسما الى جزئين وتحت ضوء المصباح المعلق في السقف ، لاح لي ان السدادة التي تقسم الانبوب كانت مصنوعة من المعدن .

فتحت زجاجة المسحوق وتشممت ما فيها . كانت لها رائحة متميزة ، ولكن لم اتعرف عليها . تناولت زجاجة اخرى تحتوي على سائل اصفر ، وازحت غطاءها الزجاجي . تعرفت على هذه الرائحة حين تذكرتها في ايام مدرستي : حامض مركز ، اما ان يكون حامض الهيدروكلوريك او حامض النتريك . عثرت في المطبخ على وعاء صغير يستخدم لتقديم المشهيات - ونظرت الى دونللي في غرفته حين مررت على بابها - فصببت كمية ضئيلة من المسحوق البني في الوعاء . ثم صببت بحذر كمية ضئيلة من الحامض في الجانب الاخر من الوعاء نفسه ، حتى تكونت منه بحيرة صغيرة . رفعت جانب الوعاء بحذر حتى سال الحامض عبره . وحالما التقى الحامض بالمسحوق ، حدث تفاعل عنيف بصوت قوي ، وقفزت انا الى الخلف . تناثر شيء ما على وجهي في قطرات صغيرة ، وحرق مكانه . اندفعت الى المطبخ ودعكت وجهي بقطعة مبللة من القماش . وكان الدخان ما يزال يتصاعد في الجانب الاخر للحجرة ويندفع الى الممر الموصل للمطبخ . كان المسحوق في الوعاء ما يزال يطفئ ويصدر حفيفا مسموعا ، وتنطلق منه شرارات ملتهبة . فتحت الباب الامامي للمنزل ، ثم مدت يدي بحذر الى الوعاء . وحينما لمستته انشقت الى نصفين . ولكن التفاعل كان قد انتهى وتوقف الصوت - وكنت قد استخدمت كمية ضئيلة للغاية من المسحوق . نصف جزئي الوعاء في صحيفة قديمة ، واخذتهما الى الخارج ، كانا ما يزالان ساخنين جدا لدرجة ان اوراق الصحيفة اسودت وتجمعت . وتطلب تنقية هواء الحجرة من الدخان اكثر من عشر دقائق بعد ان تركت الباب مفتوحا .

وهكذا حلت مشكلة حريق مخزن القش . كانت الطريقة بسيطة وثبتت نوعا من الخداع عن طريق السهولة البلهاء . كان المفروض ان يوضع المسحوق البني في احد قلمي الانبوب ، ثم يحمل الحامض الى موقع الحريق في زجاجة صغيرة - وكانت هناك زجاجات صغيرة كثيرة في الصندوق . ثم يفرغ الحامض هناك بعناية في النصف الاخر من الانبوب ، على ان يصنع ثقب صغير في غطاء هذا النصف لكي يسمح للهيدروجين المتصاعد من الحامض بالخروج ، وبعد ذلك يوضع الانبوب بحرص على طرف الجزء المحتوي على المسحوق ، لكي يظل الجزء المحتوي على الحامض مرتفعا الى اعلى ، في وسط الحظيرة او مخزن القش . ومن المفترض ان دونللي كان يعرف بالتحديد الوقت اللازم لكي يأكل الحامض الحاجز المعدني الفاصل بين جزئي الانبوب . واذا خفف الحامض قليلا لا يمكن ان تستغرق

عملية التآكل ما يقرب من أربع وعشرين ساعة . وربما كان قد وضع قنبلة أنحاض الصفيرة في مخزن القش في الساعات المظلمة الباكرة من صباح يوم الأحد . فلا عجب ان بدا عليه السرور وهو يراقب النار . فقد كانت النيران انتصارا للتوقيت الدقيق .

اعدت الصندوق الى الخزانة ، الى جانب الاوراق الاخرى ، ثم اغلقتها ، ثم اعدت المفتاح الى جيب بنطلون دونلي . بل لقد شعرت بشيء من الاغراء يدفعني الى حل مشكلة دونلي الاخلاقية مع تهوئه باشعال الحرائق عن طريق صنع واحدة من قنبله الحمضية ، ثم اتركها في الخزانة وسط الاوراق ، حتى يمكن تدمير مخزن سلاحه السري . ولكن مثل هذه القنبلة يمكن ان تحرق المنزل بدونلي في داخله . وربما كان في هذا نوع من العدالة الشعرية التي تحدث عنها ارسطو ، ولكنها ستكون عدالة قاسية قسوة لا ضرورة لها (ام انه قد يستمتع بها ؟) .

غطيت دونلي الراقد باغطية الفراش ، ولكنني تركته مربوطا الى اركان السرير ، فاني اذ كنت انوي ان انام في هذا المنزل ، فاني جدير بان افضل الشعور بالامان ، وكانت مجموعته من البنادق والشفرات الماضية تصيني بالتوتر . بعد ذلك اغلقت الباب ونمت على السرير الصغير . وفي ساعة باكرا من هذا الصباح ، ذهبت الى حجرة دونلي ، فوجدته نائما . كان تنفسه منتظما . حللت القوابض عن ساعديه وكاحليه ، فتقلب وأن . وعندما كانت الساعة السادسة والنصف ، كنت اسير متجها الى البلدة . عثرت على مقهى على جانب الطريق مفتوحا ، فاكلت بيضا مقليا ، ولحم خنزير ، وجذور خضروات طازجة ، ثم اتصلت بسيارة الاجرة التي جاءت بي الى هنا . وفي الساعة الثامنة كنت قد عدت الى الفندق الصغير ، وكتبت اكثر هذه الملاحظات قبل ان اغادر الفندق لكي الحق بطائرتي بعد الظهر . وقد ارسلت بالبريد مخطوطة دونلي الى ديانا ، حتى يمكنها ان تنسخها بالالة الكاتبة قبل ان نظير الى « شانون » يوم الخميس . واذا وضعت في اعتباري كمية ما شربته من الكحول في الليلة واليوم السابقين ، فاني اشعر بانني في حالة جيدة الى درجة ملحوظة .

٢٢ ابريل ، دالاس ، تكساس .

وجدتني اساءل هذا الصباح ، عن السبب الذي جعلني احصل على متعة من نوع معين من خلال ضرب دونلي . هل هناك مركب صادي خفي في داخلي ، لمسة من شخصية « اوستيه » ؟ ولكن ، خطرت الاجابة على ذهني بعد محاضرتي هذا الصباح . فبشكل غريب ، تقدم عاهات دونلي دليلا على حرية روح الانسان . الحيوانات كلها تجفل من الالم وتنكص امامه . اما دونلي فقد « حصل » عامدا على الموقف المعاكس . لقد اختار الموقف الذي يقول بانه ينبغي ان تكون للالم قيمة ، وقد جعل هو من الالم قيمة - شيئا يستمتع هو به . انا اعرف ان هذا التفسير يقوم على ارتباط بافكار من نوع معين ، وما الى ذلك - مثل بريدجيت والجنس والالم - ولكن هذا لا يؤدي الى اي اختلاف . فاذا

استطاع رجل ان يختار ممارسته المتعة من الضرب ، فانه يستطيع ان يختار ممارسة النشوة الصوفية لمراى شجرة او ورقة ساقطة من شجرة . انه ليس بالضرورة ضحية لمواطنه المتقلبة او احتياجاته الجسدية . و « هذا » هو السبب الذي جعلني غير قادر على خيانه . انه بشكل مشوه ، يحمل سمة من سمات القديسين . انه قديس لا هدف له ولا غاية .

في يوم الجمعة ، الخامس والعشرين من ابريل طرنا عائدين الى لندن ، ولم يعد لدي المزيد من الوقت لكتابة فقرات طويلة من المذكرات ، لاسباب سوف تتضح فيما بعد .

كان في نيتنا ان نعود عن طريق البحر . ولكن اللفز الادبي ، الذي جسده ايزموند دونللي جعلني اتعجل العودة . كنت اخشى ان يصل باحث اخر الى « باللي كاهان » قبل وصولي انا الى هناك . ولكنني اردت ان امضي يوما في مكتبة المتحف البريطاني ، لكي ابحث عما يمكنني العثور عليه عن دونللي . وقبل مغادرتنا « نيوهافن » (حيث كانت ديانا تقيم مع بعض الاصدقاء) كانت مخطوطة دونللي قد اعيدت الى « دينهام سبرينجز » عن طريق البريد المسجل . وكانت ديانا قد نسخت منها نسختين . وكانت رحلتي بالطائرة من كينيدي الى لندن هي فرصتي الاولى لدراسة المخطوطة .

كانت المخطوطة قصيرة بشكل فظيع . ولم اكن قد تبينت حين اطلعني عليها الكولونيل دونللي ، ان المخطوطة كانت تحتوي على مقالة دونللي عن « رفض نظريات الدكتور هيوم » ، مع بعض الاشارات الى « المجادلات الاولى » التي كتبها « دالامبير » . وكنت قد افترضت ان دونللي قد اشترى المخطوطة وقد ضمت اجزاؤها والصقت بعضها الى البعض ، ولكن اتضح ان الامر لم يكن على هذا النحو ، كان « الرفض » يقع في نحو ثلاثين صفحة . اما مذكرات دونللي فلم تزد على العشرين (وهي انصفحات التي اقتطعت منها بالفعل ثلاثا) .

كان اكثر ما اثر فيّ من جانب ايزموند دونللي هو حداثة عقله . كانت اللغة هي لغة والبول (١) او جراي (٢) . اما الفكر فكان دائما اكثر قربا من جوته ، او حتى ويليام بليك . وكانت النقطة المركزية في مناقشته ضد هيوم ودالامبير بالغة البساطة : وهو انه حينما يشب الانسان عن طوق السلطة الدينية ، فانه يصبح في العادة ضحية لتفاهته الخاصة . متى يمارس

(١) هوراس والبول (١٧١٧ - ١٧٩٧) - اللورد الرابع لارفورد - سياسي وكاتب انجليزي ، اشتهر بروايته « قلعة اوتورانتو » عام ١٧٦٤ التي تعد نموذجا للرواية القوطية . عاش معظم عمره في منزل ريفي شيد لكي يكون نموذجا لقلعة قوطية صغيرة واشتغل فيها بطبع اعماله الخاصة حيث نشر كثيرا من كتاباته عن فن الحفر الانجليزي . وعن شخصية الملك الانجليزي ريتشارد الثالث . (ه . م) .

(٢) توماس جراي ١٧١٦ - ١٧٧١ شاعر انجليزي وصديق هوراس والبول واحد رواد الحركة الرومانتيكية الانجليزية تتميز اعماله بعشق الطبيعة والتأملات الكثيرة والخيال العريفي الحزين . (ه . م .)

الإنسان الاحساس بالحرية ، في غالب الاحوال ؟ هكذا يسأل ، ثم يجيب : حينما يشعر بالضجر . . « الضجر هو ان يكون الانسان حرا ، ولكن دون ان يشعر بدافع معين يدفعه الى الانتفاع بالحرية » . وبعد ذلك يتكرر صورة المجتمع خرافي ، على طريقة سويفت (١) لكي يصور ما يقصده من فكرته . يقول ان بين قمم الجبال العالية في بلاد التار ، يقع واد يسكن فيه شعب ينتمي الى جنس ضئيل الاجسام ولكنه قوي ويتمتع بصحة جيدة . « منذ بداية تاريخ هذا الشعب في الازمنة السحيقة ، كان من الالتزامات الدينية لهذا الشعب ان يحمل كل فرد منه حملين ثقيلين - على شكل زجاجتين تملآن بالماء . وتعلق كل منهما على احد جانبي وسط الانسان . ولم يكن بمقدورهم ان يفكروا في السير الى ما وراء بلادهم على طول الهوايت هول . كانوا يعلقون هذين الحملين في خصورهم من الميلاد الى الموت ، وكانت هناك عقوبات صارمة لكل من يخلع حمليه . ولكن اعظم متعة عند هذا الجنس كانت هي تمارين المشي ، وتعلن عصابة صغيرة من المتمردين ان المقصود من وضع هذين الحملين هو جعل السير صعبا وغير مريح . وبعد ذلك ، يعلن اكثر هؤلاء المتمردين جسارة ، ان الانسان ينبغي ان يكون قادرا على الطيران مثل الطائر او ان يطفو مثل البالون ، وان تلك الاحمال انما فرضت عليهم بفرض ان تمنعهم من الاستمتاع بالحرية التي خلقوا من اجلها . وتشتعل الثورة ، ويعدم الملك (وهذا تنبؤ جدير بالملاحظة باعدام الملك لويس السادس عشر) ويمزق الناس احزمة احمالهم ويخلعونها عنهم . ولشد ما يدهشون حينما لا يحدث شيء ، باستثناء انهم يجدون السير صعبا من دون تلك الاحمال ، والمحافظة على توازنهم تصبح مستحيلة . ولكن الاشخاص الاكثر تعقلا ومحافظة يستمرون في حمل ائقالتهم . اما الاكثر جسارة فيتدربون على السير من دونها ، وسرعان ما يعلنون ان الامر ليس سوى عادة ، وان العادة هي مرجعه الوحيد . وتستبد بهم البهجة بهذا الانجاز الجديد حتى انهم في البداية ، يمعنون في السير ليلا ونهارا ، ويذرعون الوادي من اقصاه الى اقصاه ، بل انهم يحاولون تسلق الجبال . وسرعان ما يكتشفون ان الجبال ليست سوى جدران جرداء من الصخور لا يمكن الوصول الى منتهائها او اختراقها . ثم يحدث ان يسقط بعض ممن تخلصوا من ائقالتهم فريسة لفضب جنوني ، فيندفسون متهوسين من طرف الوادي الى طرفه الاخر حتى ينهاروا من الاجهاد . ويحاول اخرون ان يخترقوا

(١) جوناثان سويفت (١٦٦٧ - ١٧٤٥) شاعر وكاتب تهكمي انجليزي - عرف بكبريائه وحساسيته مما جعله لا يقبل التسامح في هجومه على غباوات الانسان ورذائله ، وفضحه لابتدال قيم البورجوازية وسوقيتها ونفاقها (وان كان ذلك من موقف اخلاقي محض) . اشهر اعماله مجموعة « رحلات جاليفر » التي استخدمها في خلق عوالم ومجتمعات خيالية وكاريكاتيرية يجسدها جانبا من قيم البورجوازية الصاعدة والمتفطرة في عصره ، ولكنه شارك بعنف في الصراعات السياسية والفكرية والادبية في انجلترا حينذاك . (ه . م .) .

الجدران الصخرية الملساء ليخرجوا من الوادي ، فاما ان يسقطوا من حالق حينما ينال منهم الاعياء والكلال ، او يقدفوا بانفسهم بسبب الرعب او اليأس . ولكن مع مرور الوقت ، يفضل العدد الاكبر ممن تخلصوا من احمالهم ان يجلسوا في بيوتهم ببساطة ، وقد تملكهم الضجر تماما ، طالما انهم عرفوا كل شبر من الوادي . وكانوا يهاجمون الآخرين الذين احتفظوا باحمالهم ، فيصفونهم بالخنازير التي تؤمن بالخرافات . ولكن بعد اجيال قليلة ، يموت هؤلاء الذين تخلصوا من احمالهم ، لان افتقارهم الى الحركة وتدريب عضلاتهم جعلهم يسمنون الى درجة هائلة فيموتون في سن مبكرة . واخيرا لا يبقى على قيد الحياة سوى اولئك الذين حافظوا على اثقالهم . فيقومون بانتخاب ملك جديد عليهم ، وطوال اجيال عديدة لا تعود « الثورة العظمى » سوى ذكرى مرعبة . حتى تظهر فئة من الشعب تعلن ان الانسان قد خلق لكي يطير كالطير ..

وتبدو القصة متشائمة تشاؤما لا حد له ، واستعارة رمزية من قصة الخطيئة الاصلية . ولكنني اميل الى رفض هذا الرأي ، لان دونللي يقول : « لقد كان هناك نفر من بين اولئك الذين حاولوا تسلق الجبال ، لم تقع عليهم ابصار احد بعد ابدا ، ومع ذلك فان عددا من الرعاة الذين ترعى اغنامهم تحت ظلال الجدران الصخرية العظمى التي تحف بالوادي ، اكدوا انهم سمعوا اصواتا تنادي وتلفظ من فوق ارتفاع شاهق فوق رؤوسهم ، حيث كانت قمم لجبال تختفي وراء السحب » . وبكلمات اخرى ، فربما استطاع عدد قليل من اولئك المتسلقين ان يصلوا الى الاراضي الوعرة الواقعة فوق الجبال .

ان ما يقوله دونللي - وهذا تصور جدير بالاحترام اذا كان صادرا عن جانب صبي في السابعة عشرة من عمره - ليس هو ان « الناس يحتاجون الى اثقال » ، وانما يقول ان الناس « في الوادي » يحتاجون الى اثقال . انهم اصحاء ، اقوياء يحبون المفامرة (اي يحبون المشي) والوسيلة الوحيدة التي يستطيعون بها ان يحافظوا على تلك المميزات في واديهم الضيق الصغير هي ان يحملوا اثقالا على الدوام . ولكن ثمة عدد قليل من بينهم ، عدد قليل جدا ، يولدون وهم يحماون روح متسلقي الجبال الجسورين .

وقد كان دونللي متسلقا جسورا للجبال بالفطرة ، منذ ولادته ، وكان هذا واضحا . وقد كان هذا هو ما خدعني . لقد عاش هذا الرجل حتى بلغ الرابعة والثمانين (طبقا لما قاله الكولونيل دونللي) ، وكان كاتباً موهوباً ، ومفكراً أصيلاً ، وصديقا لروسو وويلكز . فلماذا اذن لم يترك سوى هذا الاثر الضئيل على التاريخ ؟ فاذا كان « رفض فلسفة هيوم » ومذكرات الرحلات المنشورة ، هي كل ما املكه لكي ابدأ عملي ، فاني قد اجد لزاما عليّ ان استنتج ان هنا تمثل امامنا موهبة اضاعت نفسها مبكرا ، مثل رامبو او وولف . ولكن المذكرات غير المنشورة لا تترك مجالا للشك في ان موهبته ظلت دون ان يلحقها الفساد . اذن ، فماذا حدث ؟

ولا بد لي ان اضيف ، في شكل جملة اعتراضية ، ان الجزء الفلسفي الخالص

من « الرفض » يضم بعضاً من أكثر صفحات هذا المقال أهمية ، اذ تميزت بنوع من العمق والرصانة النفسيتين سبقتا زمانهما بقرن كامل على الأقل - ولا يمكنني ان افكر في وجود شيء يماثلها ظهر قبل ظهور ف. هـ. برادلي (١) انه يقتطف مقالة كاملة لهيوم هي « تجريد لرسالة في الطبيعة البشرية » حيث يثبت هيوم ان فكرة العلة والنتيجة انما تستمد من عاداتنا ، وانها لا تمثل « علاقة ضرورية » . يقول هيوم : « لنفترض ان رجلاً مثل آدم قد خلق وهو يستمتع بالقدرة الكاملة على الفهم ، ولكن دون تجربة » افلا يكون من المستحيل بالنسبة له ان يرى ضرورة الارتباط بين العلة والنتيجة ؟ وعلى سبيل المثال ، اذا كان يراقب كرتين من كرات البليارد وتصطدم احدهما بالآخرى ، فانه من المحتمل الا يستطيع ان يخمن - اعتماداً على ذكائه وحده - انهما سوف يصدران صوتاً كالفرقة الصغيرة عند اصطدامهما ، ثم يندفعان في اتجاهين متضادين . انه سيظن ، اعتماداً على معرفته الضئيلة ، انهما قد يلتصقان او يقفزان في الهواء ، او يقفان ببساطة جنباً الى جنب .

وينقض دونللي بسرعة على العبارة التي تقول « يستمتع بالقدرة الكاملة على الفهم » ويشير الى انها زلة قلم . . . « يتضمن كلام هيوم ان ادراك آدم لكرات البلياردو سوف يكون ادراكاً بريئاً وغير متحيز ، بينما - في الحقيقة - لا يمكن لادراك كامل البراءة - مثل ادراك طفل حديث الولادة - ان يستوعب الكرات على الاطلاق - او بالاحرى - قد يدرك وجودها ولكن دون ان يستوعبها ، مثلاً قد انظر الى خطاب كتب بلغة لا اعرفها . فاذا كان آدم قد سمح له بالقدرة الكاملة على الفهم ، وبقدر كاف لكي يراقب كرات البلياردو باهتمام ، اذن فلا بد ايضاً انه قد سمح له بشيء من القدرة على معرفة العلة والنتيجة . انه ربما لا يعرف ان كانت الكراتان سوف تقفزان منفصلتين او تمتزجان مثل قطرتين من الماء ، ولكنه يعرف ان شيئاً ما سوف يحدث ، الامر الذي يعني انه يعرف ان نتيجة ما ينبغي ان تتبع السبب » .

كلاً ، ان رجلاً قادراً على التصور بهذا الشكل « يجب » ان يترك علامة ما على عصره . فكيف اذن اصبح من الممكن الا اكون قد سمعت به مطلقاً ؟ وحتى اذا كان هو نفسه لم يكتب الا القليل - فلا بد ان يكون الآخرون قد ذكروه - بوزويل (٢)

(١) فرانسيس هوبرت برادلي (١٨٤٦ - ١٩٢٤) فيلسوف انجليزي مثالي ارتبط فكرة بفكر هيكل. هاجم في مجال الاخلاق هوبرت سبنسر والتفهميين مؤكداً ان على الفرد ان ينسق جهوده مع مجموع أكبر منه لكي يحقق ذاته بشكل كامل . وفي مجال الميتافيزيقا أكد ان الطبيعة مجرد مظهر غير مكتمل للمطلق الذي هو روح يكفي ذاته بداته . كان كتابه الاساسي هو « المظهر والحقيقة » عام ١٨٩٤ . (هـ . م)

(٢) جيمس بوزويل ١٧٤٠ - ١٧٩٥ . اشهر كتاب التراجم الانجليزي ، بكتابه الشهير عن حياة « صامويل جونسون » الذي ظل يجمع مادته يوماً بعد يوم اثناء حياة جونسون نفسه ، حتى اصبح « الاسلوب البوزويلي » مصطلحاً للدلالة على طريقته في كتابة الترجمة . (هـ . م) .

على سبيل المثال او حتى كراب روبنسون (1) . ان الاظلام الكامل الساقط فوق مثل هذا الرجل لشيء لا يمكن فهمه .

كنت قد كتبت لصديق يعمل في المتحف البريطاني من دالاس ، لاساله ان كان يستطيع ان يعثر لي على اي مادة ممكنة حول دونلي . واسرعت الى هناك فور وصولي الى لندن في التاسعة والنصف من صباح يوم السبت . ودعاني تيسم موريسون - الذي يعمل في ادارة الكتب المطبوعة - الى شرب فنجان من القهوة في مقصف الموظفين . وكنت قد اخبرته بكل ما دار بيني وبين فليشر - وحتى عن اقتراح ان اقوم بتزوير بعض المخطوطات باسم دونلي . ان نظرة تيم الى الحياة وقورة ومحاذرة - وهو يعطيني دائما انطبعا لرجل يحقد بحذر من فوق حافة هاوية وهو يعالج موضوعا ما بطريقة المترددة الموفقة . قال :

« اعتقد انك تعرف ما تفعله . اعني انك لا تريد ان تنتهي الى السجن بسبب الاحتيال على القراء » ...

واكدت له ان ليس ثمة خطر في ذلك ، وبرزت له المخطوطة المنسوخة على الالة الكاتبة من مقالة « رفض لفلسفة هيوم » . راح يقرأها بعناية لمدة عشر دقائق، بينما رحت انا احتسي قهوتي واتطلع الى عناوين صحيفة « الجارديان » . واخيرا قال :

« اوافق على ان هذا يبدو اصيلا . وليس هناك ما يزعجني سوى شيء واحد . لماذا اعطي هذا المقال لروسو ؟ انه بآرائه تلك لا بد كان يظن ان روسو ابله كامل البلاهة » .

« لست واثقا من السبب . ثمة عنصر من التفاؤل في شخصية دونلي وفكره ربما تجاوب مع روسو . هذا الى جانب ان روسو ليس بسيط الفكر كما يبدو ان معظم الناس يظنون . انه في الحقيقة لم يقترح ابدا انه ينبغي للناس ان يعودوا الى الطبيعة » .

قال « كلا . كلا » . وبدا عليه الشرود . سألته ان كان قد عثر لي على اي كتب عن دونلي . قطب جبينه وهو ينظر اليّ داخل قدح قهوته ثم قال :

« من الافضل ان تأتي لكي تنظر بنفسك . »

عدنا الى مكتبه ، الذي لا يصل اليه المرء الا بعد متاهة من الممرات وعدة مجموعات من الدرجات الحلزونية . كانت غرفة المكتب مرتبة بطريقة توحى بخلوها من اي خطأ او عيب . وعلى المكتب نفسه كانت هناك ستة مجلدات برزت من خلال

(1) هنري كراب روبنسون (1775 - 1876) كاتب يوميات وذكريات (اشبه بالتراجم) انجليزي ، كان صديقا لجماعة « شعراء البحيرات الانجليز » . اصبحت ذكرياته عن الشعراء لامب وكولريديج ووردزويث وبلوك ذات قيمة عظيمة لدارسي الرومانتيكية الانجليزية والشعراء الرومانتيكيين الانجليز . وتنصب اكثر دراساته على التحليل المباشر لشخصية كل منهم ثم لاسلوب كل شاعر كتب عنه . (هـ . م) .

صفحاتها قصاصات من الورق . قال لي ان اجلس امام المكتب ، ثم اجلس هـو على المقعد الكبير المواجه لي ، واشعل سيجارة ، ثم عاد الى « رفض لفلسفة هيوم . » كانت الكتب التي عثر عليها مخيبة للامال . وكانت هناك طبعة من مذكرات الرحلات التي كنت قد رأيتها بالفعل من قبل ، مطبوعة في لندن عام ١٨٢١ في دار النشر الملوكة لمن يدعى جون موري ، وهو الناشر الذي كان يصدر مجموعات بايرون الشعرية ، وكانت الطبعة مزودة بمقدمة قصيرة بقلم الناشر يصف فيها دونللي بأنه : « سيد ودارس ايرلندي » ولكنه لا يقدم اية معلومات اخرى متعلقة بحياته - ولا حتى ان كان دونللي ما يزال على قيد الحياة عام طبع الكتاب . (وقد كان حيا بالفعل يومها ، فقد كان في الثانية والسبعين عام ١٨٢٠) . وكانت هناك اشارة قصيرة اليه في كتاب جيلبين : « يوميات انجليزية في القرنين السابع عشر والثامن عشر » الصادر في عام ١٨٧٦ ، ثم اقتباس من مذكرات رحلاته في كتاب من مدينة البندقية الفه كاتب نسيت اسمه . وجاءت الاشارة الهامة الوحيدة الى دونللي في خطاب كتبه بايرون لفرانسيس هودجسون في شهر يونية عام ١٨١١ (وجاء الخطاب في اعمال بايرون الكاملة ، التي اشرف عليها بروتير و كولريدج ، المجلد التاسع ص ٤٢٠) ، ويقول فيها : « قال لي شيري (شيريدان) انه لم يعرف ابدا شخصية اكثر وحشية من والذي (جاك المجنون » بايرون) رغم انه كان قد عرف ويلكيز ودونللي في ايام شبابهما . » ويقول بايرون في خطاب آخر الى ويليام جيفورد (المجلد ١٣ ص ١٩٣) : « لقد ادهشتني وصدمتني جدا تأكيدات ايزموند دونللي والتي اشار فيها الى ان خلونا وخلقوا عالما نسبيا من المعنى ، حينما نوضح في مقارنة مع الكل القهار ، الذي لسنا فيه مع عالما سوى ذرة ضئيلة ، هو ما دفعه لأول مرة الى تخيل ان طموحنا الى الابدية والخلود يجب ان يتضاعف عدة مرات » .

وبينما كنت اسجل في مذكرتي مختلف المواد التي حصلت عليها - فقد كان لا بد لي ان اجهز مقدمتي على نحو من الانحاء - كان تيم يفحص بعض الاوراق في خزانة قريبة . وحينما انتهيت من الكتابة ، وضع امامي ورقة واحدة . كانت الورقة صورة مكبرة لصحيفة من احد المخطوطات . ولم تكن قراءة الخط مستحيلة ، رغم ما كان هناك من تكرار لخطا كتابة حرف « ف » بدلا من حرف « س » . وكان نص المكتوب في الورقة :

« ... كان مقتنعا بأنه قصد الى الوفاء بالتزامه . »

وحينما ذكرت عادة اكل الكلاب في اوتاهايت ، قال جولد سميث ان هذه العادة شائعة ايضا في الصين : وان جزار الكلاب شائع جدا مثل اي نوع آخر من القضايين ، وان مثل هذا الشخص اذا رحل الى خارج بلاده ، تهاجمه كل الكلاب .

جونسون : « ليس هذا راجعا الى قتله للكلاب يا سيدي . انني اذكر قصابا في بلدة ليتشفيلد ، كان معرضا على الدوام لهجمات الكلب الموجود في المنزل الذي كنت اسكنه . ان رائحة الدم والقتل هي ما تثير هذه الحالة وتستفز الكلب للهجوم ،

مهما كان نوع الحيوانات التي قتلها .
جولد سميث : « اجل ، فان الحيوانات عموما تبغض اي علامة تدل على الذبح
او تشير اليها وتنفرها منها . فانك اذا وضعت وعاء صغيرا مليئا بالدماء فسي
حظيرة للحياد ، اصاب الحيوانات ما يشبه الجنون » .

جونسون : « انني اشك في ذلك » .
جولد سميث : « كلا يا سيدي انها حقيقة يعترف بها العارفون » وتلت هذه
الفقرة عدة سطور كشطت بحبر اسود وثقيل وبعبناية بالغة ثم تستمر السطور بعدها
تقول :

تريل : « كان الافضل لك ان تبرهن على هذا قبل ان تضمنه كتابك عن التاريخ
الطبيعي . انك قد ... »

نظرت الى تيم وقد اشتبهه عليّ الامر ، وظننت انه قد اعطاني صحيفة اخرى
غير ما اراد ان يعطيني ، ولكنه وضع امامي صحيفة اخرى مصورة ، غير
انها صورة لسطور كتبت على الآلة الكاتبة وكانت تقول :

جولد سميث (مستمرا) : « لقد قيلت لي هذه الحقيقة على لسان ايزموند
دونللي ، الذي قال لي انه حاول تملك التجربة » .

جونسون (وقد بدا يسخن) : آه ، يا سيدي ، انني لا اشك في ان هذا
الرجل يمكن ان يكون قادرا على اثبات ذلك وما هو اسوأ منه » .

جولد سميث : « انه لا يفتقر الى صفات محب المرح والعريضة . »
جونسون : « بالتأكيد . انني اعتقد انه من جماعة العقناء ذوي الميول العربيده

المفعمة بالشر . ونفس الشيء يمكن ان يقال عن الشيطان . »

جولد سميث : « ومع ذلك فانه يعرف الجياد . »

تريل : « كان الافضل لك ان تبرهن على هذا ... »

قال تيم :

« كان من عادة بوزويل دائما ان يكشط بالحبر الاسود كل الفقرات التي
يريد ان يلغيها حتى لا يمكن قراءتها . وهذه صفحة من كتابه « حياة جونسون » .
وقد سمحت لنا جامعة ييل بالحصول على صور من غالبية مجموعة ايشام . وقد
استطاعوا ان يصلوا الى حقيقة اكثر ما كان مكتوبا في الفقرات اللفافة . »
« مدهش . كيف عثرت عليها ؟ »

« لم اعثر عليها انا . وانما حدث ان ذكرت اهتمامك بدونللي للرجل الذي
كان يصنف الصور . وبالمصادفة البحتة - كان قد رأى اسم دونللي في اليوم
السابق . »

« واذن فربما تكون هناك اشارات اخرى الى دونللي في مخطوطة بوزويل ؟ »
« هذا محتمل . سأتصل بك اذا وجدنا اية اشارة . »
امضيت بقية اليوم في قاعة المطالعة ، ولكنني لم اعثر على شيء آخر له
قيمة . وعندما عدت الى ميدان كينسينجتون (حيث كنا نقيم مع جيرمي

وورثينجتون ، احد مديري شركة جون جاميسون لانتاج الويسكي (ناقشت ما انجزته اليوم مع ديانا ومع سو وورثينجتون . واتفقنا على انه من الواضح ان جونسون كان يكره دونلي ، الامر الذي لاح لنا انه يشير الى انه كان يعرف شيئا عن شهرة دونلي كصعلوك كبير . ولكن لماذا كان من الضروري ان يثور غضبه بهذه السرعة لدى ذكر اسمه ؟ لقد كان بوزويل هو الاخر صعلوكا كبيرا ، وكذلك كان ويلكيز ، الذي كان جونسون قد وصل الى نوع من الاتفاق معه . فلماذا السخط على دونلي والهجوم عليه ؟ ماذا كان يعنيه حينما قال : « انه يمكن ان يكون قادرا على اتيان ذلك وما هو أسوأ منه » ؟ .

وقالت سو انه من المحتمل الا يكون قد عني شيئا بالتحديد على الإطلاق ، فيما هذا ان جونسون كان منزعجا من سذاجة جولدسميث وسهولة انخداعه . وكنت ميالا الى الموافقة على ذلك . وحينئذ قالت سو :
« يجب عليك ان تسأل جيرمي عن بوزويل . انه يعرف شخصا اكتشف مخطوطة ما لبوزويل . »

وكانت هذه اخبارا هامة . كنت قد امضيت جانبا من اليوم في قراءة مذكرات بوزويل ، وقصة اكتشافها ، التي كانت قراءتها من الامور الخلافة . ولما كانت هذه القصة على علاقة ما بما أسرده الان ، فسوف الخصها باختصار .

مات بوزويل في عام ١٧٩٥ في منتصف العقد الخامس من عمره ، ربما بسبب اصابته بتليف في انسجة الكبد . وعين ثلاثة من اصدقائه مشرفين على طبع تراثه الادبي ، الكاهن ويليام تمبل ، وسير ويليام فوربز وادموند مالون . وكانت تعليمات بوزويل تقول ان هؤلاء الاصدقاء الثلاثة ينبغي ان يقرأوا مذكراته الخاصة واوراقه وان ينشروا كل ما يظنونونه هاما ويستحق ان ينشر . وقرأ الثلاثة ما وجدوه من اوراق ، ولكن من الواضح انهم قرروا ان المادة كانت اما شديدة الاملال ، واما انها تصدم المشاعر والاذواق ، الى درجة انها لا تستحق ان تنشر . وبعد مقالة ماكولي القائلة ضد بوزويل (١٨٤٣) هبط رصيد الاخير هبوطا شديدا حتى لقد نسي تقريبا . وكانت السيدات الفيكتوريات من اسرته ، اللواتي كن من حين الى حين يلقين نظرة سريعة على الاوراق ، يشعرون بالصدمة ازاء ما راين ، حتى انهن شعرن بما يبرر لهن ترويع اشاعة تقول بان مذكرات بوزويل قد احرقت ويستطيع المرء ان يدرك تأثير فقرة مثل الفقرة التالية من المذكرات ، (كتبت في ٧ نوفمبر ١٧٦٢) :

« التقطت فتاة من شارع ستراند ، وذهبتا في عربة وفي نيتي ان استمتع بها متدرعا (اي باستخدام مانع للحمل) . ولكنها لم تكن تحمل مثل هذا المانع . فلهوت بها قليلا . وتعجبت هي لحجم عضوي ، وقالت انني لو كنت قد فضضت عذرية اية فتاة لجعلتها تنزف . اعطيتها شلنا ثم اجبرت نفسي على ان اتركها تذهب دون ان اسمها . »

وفي منتصف سبعينات القرن الماضي ، ذهب بيركيل هيل ، ناشر كتاب

بوزويل عن جونسون الى بيت الاسرة في بلدة اوتشينليك - لكي يطلب القساء نظرة على المذكرات ، ولكنه لم يلق سوى الطرد تقريبا .

وفي عام ١٩٠٥ ، تلاشى آخر خيط من ذكرى بوزويل ومن اسرته ، وانتقلت ملكية المنزل وما يحيط به الى اللورد تالبوت من مالاهايد ، بالقرب من دبلين ، وكان من بين ما انتقل الى حوزته ، الغرفة المعلقة الصغيرة التي تحتوي الاوراق التي ذكرها بوزويل في وصيته . وظهر استاذ اميركي ، يدعى تشونس تينكر ، فاهتم ببوزويل واعلن في الصحف الايرلندية طالبا اي مادة منسية له . وتسلم الاستاذ خطابا من مجهول يقترح عليه ان يحاول البحث في قلعة مالاهايد . فأرسل خطابا الى مالاهايد لم يكن له تأثير ، فقرر تينكر اخيرا ان يذهب بنفسه الى هناك . وكان سعيد الحظ في هذه المرة . وسمح له اللورد تالبوت بأن يرى جانبا صغيرا من مجموعة اوراق بوزويل . وبعد ذلك ، ظهر ضابط اميركي برتبة ليوتنانت كولونيل ، ويدعى رالف ايشام ، وقد سمع عن الاوراق ، ونجح في شرائها من لورد تالبوت في عام ١٩٢٧ . وشرع اثنان من الباحثين ، هما البروفيسور جيو فرى سكوت ، والبروفيسور فريدريك بوتل ، شرعا في عملية نشر تلك المادة الهائلة الحجم - التي تزيد على مليون كلمة . وعند ذلك الحين استمرت مخطوطات بوزويل فسي الظهور . فقد تم العثور على صندوق قديم للملابس في قلعة مالاهايد وكان يحتوي على المزيد من خطابات بوزويل ، بالإضافة الى مخطوطة كتابه « رحلة الى جزر الهيبريدز مع الدكتور جونسون » . وفي عام ١٩٣٠ ، كان البروفيسور آبوت من جامعة آبردين يعمل في تحقيق اوراق السير ويليام فوربز . وهو احد منفذي وصية بوزويل - فاكشف كمية كبيرة اخرى من الخطابات والمخطوطات . وكان من الواضح ان فوربز قد استعار بعضا من الاوراق لكي يفحصها ، تنفيذًا لما جاء في وصيته ، ثم نسي ان يعيدها الى اوشينليك . وفي عام ١٩٤٠ ، تم العثور - مرة اخرى - على المزيد من اوراق بوزويل في حظيرة قديمة للابقار في مزرعة مالاهايد ، وكانت هذه الاوراق تتضمن كتاب « حياة جونسون » ، وقد جاءت الصفحة التي رأيتها في المتحف البريطاني من تلك المخطوطة . ولم يحدث ابدا ان فسر احد كيف وصلت بعض اوراق بوزويل الى حظيرة للابقار .

من الواضح ان اوراق بوزويل كانت قد بعثرت وتفرقت في اماكن متناثية . وفي الحقيقة ، فان اول ما اكتشف من اعماله ظهر في عام ١٨٥٠ على يدي الميجور ستون في بلدة بولوني ، وكان قد اشترى شيئا ما من دكان بقال ، فوجد بضاعته قد لفت في ورقة كتب عليها خطاب موقع باسم « جيمس بوزويل » . وكان في مقدور ستون ان يشتري كومة كاملة من الخطابات التي كتبها بوزويل الى القس ويليام تمبل - وهو كاهن كان بوزويل قد اعترف امامه بأقذر اعمال حياته - ثم قام ستون بنشرها بعد ذلك بعد ان تقحها وهذبا وحذف ما كان فيها من فحش . ويبدو ان تلك الخطابات كانت قد وصلت الى بلدة بولوني على ايدي ابنة تمبل التي كان زوجها القس قد انتقل اليها في عام ١٩٢٥ . وحينما ماتا ، بيعت اوراقهما - او اعطيت الى تاجر من تجار ورق اللف باعهما بدوره للبقال .

ان اقتفاء آثار التاريخ المعقد لاوراق بوزويل جعلني ادرك المصاعب التي قد اواجهها في طلب حقيقة ايزموند دونلي . فمن الواضح انه ما لم يكن الحظ حليفي فان اي قدر من الصبر والاصرار والمثابرة لا يمكن ان يكون مثمرا على الاطلاق . ولكن كان من الغريب انني كنت املك احساسا غريبا بالثقة ، ربما كان ببساطة راجعا لاهتمامي العميق والبالغ بدونلي وبأدب المرحلة التي ينتمي اليها . ذلك انني اذا استبعدنا بليك وجوته ، كنت اجد دائما ان كتاب القرن الثامن عشر عسبة مخيبة للامال بشدة ، ولذلك فاني لم ازعج نفسي على الاطلاق بمحاولة دراستهم .

وعلى اساس ما اخبرني به سو وورثينجتون ، افترضت ان جبرمي يعرف احد افراد اسرة تالبوت ، او ربما كان يعرف الشخص الذي اكتشف الاوراق في حظيرة الابقار . وحالما ظهر جبرمي على باب المسكن ، سألته :

« ما اسم صديقك الذي عثر على بعض اوراق بوزويل ؟ »

« اوى ، انه لم يعثر عليها بالفعل في الحقيقة . وانما عثر عليها شخص يدعى اورورك في بلدة بورتمارنوك . »

« ألم يعثر عليها في مالاهايد ؟ »

« كلا . ليس في مالاهايد ، رغم انه من المؤكد جدا انها جاءت من مالاهايد . فعلى قدر ما استطع ان استنتج ، كان قس متقاعد يدعى اورورك قد استعار بعضا من اوراق بوزويل في اثناء الحرب العالمية الاولى ، ولكن هذه الاوراق لم ترد الى مكانها ابدا . وقد عثر عليها ابنه بعد وفاته . »

« فماذا حدث لها ؟ »

« حسنا ، اسمع . انها تحت يدي شخص عجوز غريب مجنون يدعى ايزاك جينكينسون بيتس ، ويعيش في دبلين . وابن اخيه هو احد طاقم الاختبار في مصنع التخدير عندنا وقد اخبرني ذات يوم بأمر تلك الاوراق . »

« هل رايت هذه الاوراق بنفسك يوما ؟ »

« كلا . ان الولد العجوز شديد الحرص عليها . ومن الواضح ان هذه الاوراق مملوكة في الحقيقة لمزرعة مالاهايد - او ربما كانت من حق تلك الجامعة الاميركية التي اشترت الاوراق . »

« ولكن الا تعرف اي شيء عنها ؟ »

« ليس الشيء الكثير ، فيما عدا ان بعض محتوياتها داعة الى درجة كبيرة »

« هذا يبدو غريبا . اعني ، ماذا يمكن لتفسير ان يفعل بمثل تلك الاوراق . »

« ربما كان رجلا عجوزا سيء الخلق او قذر التفكير . »

« هل تعرف عنوان تلك « الشخصية » التي تدعى جينكينسون ؟ »

« ليس العنوان تحت يدي الان ، ولكن عليّ ان اطلب دبلين بالتليفون يوم الاثنين - وسوف اسأل هيرد - وهذا هو ابن اخيه . »

وتوقفت العملية عند هذا الحد في عطلة نهاية الاسبوع . وكنت اعرف ان الفرص المتاحة لي لرؤية الرجل العجوز محدودة ، اذا ما كان حريصا بالدرجة التي

ذكرها جيرمي ، ولكن لم يكن هناك سوى أمل واحد ، وهو ان يمارس ابن اخيه عليه نوعا من الضغط .



في يوم الاثنين ، اتصل بي جيرمي من مكتبه ، وكان قد تحدث لتوه مع ابن اخي الرجل العجوز . وقد اكد هيرد ان جينكينسون بيتس كان بالغ الحذر والحرص في مسألة اطلاع اي مخلوق على المادة التي يملكها . ولكنه في خلال المحادثة ، كان قد ذكر شيئا لاح ان فيه شيئا من الامل . كان بيتس شديد الاهتمام والتعلق بجرائم القتل . ولذلك فانه قد لا يستبعد ان يكون قد قرأ كتابي « سوسولوجية الجريمة العنيفة » . واقتراح جيرمي ان اكتب اليه رسالة حول موضوع جريمة القتل في ايرلندا في القرن الثامن عشر ، وان احاول التعرف عليه من هذا الطريق ، واعطاني جيرمي عنوان بيته في شارع باجوت في دبلن .

ولم يكن لديّ ما افعله اكثر من هذا في لندن . فامضيت هناك يومين آخرين ، قابلت خلالها بعض الاصدقاء ، وتناولت الغداء مع احد الناشرين ، وشربت الكثير من « الكوكيلات » . ولو كنت في ظروف عادية لكنت قد استمتعت بالتغيير الكامل للجو الذي عشته اثناء جولة المحاضرات ، ولكنني كنت عاجزا عن التفكير في اي شيء باستثناء دونللي . كتبت خطابا الى « ملحق اتايمز الادبي » حول اهتمامي بدونللي ، وامضيت امسية عقيمة في المتحف البريطاني محاولا ان اعرف ان كان ايزاك جينكينسون بيتس قد كتب في حياته اي كتاب حول جرائم القتل ، ولو انه قد كتب مثل هذا الكتاب ، فانه ليس موجودا في مكتبة المتحف . وفي صباح يوم الاربعاء ، اصطحبتنا سو وورثينجتون في سيارتها الى مطار لندن لكي نلحق بالطائرة المتوجهة الى شانون . وقبل ان نغادر المنزل بلحظة واحدة ، اتصل جيرمي بالتليفون وطلب ان يكلمني . قال :

« كنت اتكلم الان لتوي مع جيم هيرد مرة اخرى ، وذكر شيئا ربما اعانك في محاولة اقترابك من بيتس العجوز . من الواضح ان الرجل العجوز يؤمن بان قاتل « جزيرة الاي » الايرلندي كان بريئا . فهل تعرف اي شيء عن تلك القضية ؟ »

« اتذكر عنها القليل . ثمة رجل يدعى كيروان . »

وكانت هذه المعلومة ثمينة للغاية . لحقنا بطايرتنا في منتصف النهار ، وهبطنا في شانون بعد ساعة واحدة بالضبط . وكان توم كيني ، المسؤول عن مساوي السيارات الذي تحتفظ فيه سيارتنا ، قد قاد السيارة القديمة الى المطار لكي يقابلنا . وبعد ساعتين كنا قد عدنا الى موكولان .

ثمة احساس هائل بالراحة في العودة الى البيت بعد رحلة طويلة . انسي احب ايرلندا : الطرق الضيقة ، والمدن الصغيرة القديمة ، وخضرة الحقول التي لا تصدق ، والسحب المنخفضة والبحيرات الفاتنة . بدأت اشعر بشيء مشمل الكراهية ازاء دونللي ، لانه كان يعنفي من الاسترخاء الكامل لمدة اسبوع او نحوه .

يقع منزلنا على بعد نصف ميل خارج موكولان . على ناصية حارة ضيقة مبلطة بالأحجار تتحول الى مجرى مائي في فصل الامطار . والمنزل مسكن خوري بنى في منتصف القرن الثامن عشر ، وشيد من الحجر الجيري الرمادي اللون ، وقد غطيت الجدران بنباتي الحزاز والبلابل المتسلقين . كنا قد اشتريناه في عام ١٩٦٣ ، ودفعنا ثمنه من مستحقاتي من كتاب « اليومية الجنسية » . وفي اثناء غيابنا ، كان زوج ديانا السابق ، روبرت كيرستين ، يرعى المنزل بدلا منا . وكان منذ عام ١٩٦٠ قد اصبح « مؤلفا موسيقيا مقيما » في عدد من الجامعات الاميركية ، وكان قد اصاب نجاحا هائلا . وفي الخريف الماضي ، قرر ان يحتاج الى فترة طويلة مسن الوحدة لكي يؤلف موسيقاه ، ولذلك فقد دعوانه للاقامة معنا . وكان يسكن عندنا منذ شهر يناير ، وكانت مسز هيلي ، زوجة الراعي الذي يسكن الى جوارنا ، تطهو له طعامه . وكان كيرستيف قد رحل الى دبلن قبل وصولنا بثلاثة ايام ، فقد كانت اثنتان من اوبراته للحجرة تعرضان هناك وكان عليه ان يقود الاوركسترا . كان المنزل خاليا ومفعما بالهدوء . وكانت مسز هيلي قد اشعلت النار في مدافئ حجرة الطعام وحجرة نومنا ، فأضفت النار على الحجرات بريقا مرحا . كان منزلنا قريبا من العتمة على الدوام ، لان الاشجار العالية تحيط به من ثلاثة جوانب ، كما كانت جدران بعض الحجرات مغطاة بخشب الماهوجني الاسود ، ولولا الاضواء الكهربائية، لكان صالحا لان يكون مسرحا لاحدى روايات لوفانو (١) .

وقفت وراء نافذة حجرة نومنا - وكانت موبسي تتقافز على السرير ، فتجعل لوالبه تثر - ورحت انظر الى غابة « لوف كوريب » . كان هناك غيم واطىء قليل بدا أثقل قليلا من الضباب ، ولاحت الاشجار ، ببراعمها البازغة ، داكنة مبلولة . ان الجزء الذي نعيش فيه من ايرلندا ، يتمتع بخاصية « تنويمية » ، فان زوار منزلنا يجدون انفسهم قادرين على النوم لمدة اثنتي عشرة ساعة يوميا على الاقل ، ثم يظنون يتشاءبون حتى الساعة الرابعة عصرا . بينما كنت اقف وراء النافذة ، وضوء النار يتراقص على الجدران ، شعرت باسترخاء هائل ، جعلني اتحقق من مقدار ما اصابني من اجهاد في جولة المحاضرات . بدت لي مشاعري كما لو كانت تفرق في فراش عميق من الريش ، وحل عليّ احساس عظيم من السكينة والشمعور بالعزلة . وخطر لي فجأة انه من المحتمل ان يكون ايزموند دونلي قد اطل على هذا المشهد ، منذ ما يقرب من القرنين ، فرأى الكثير مما اراه انا الان . ثم ذكرت ما اكده لي فليشر من ان دونلي قد اغوى ابنتي القسيس المحلي غير الشرعيتين ، وهو الاب ريبوردان ، فشعرت بانني اضطرب واعجز عن التفكير . لو أنها كانت ابنة واحدة - فتاة واحدة - لكان الامر مفهوما ، انها فتاة ريفية بريئة جميلة ، ربما يكون قد قام على تربيتها مزارع من الجيران او راع للاغنام او ربما يكون هذا

(١) جوزيف شيريدان لوفانو ١٨١٤ - ١٨٧٣ - كاتب روائي ايرلندي ، اشتهر بروايته « العسم سايلاس » عام ١٨٦٤ التي تقوم على حل لفر غامض محبوب . احد رواد رواية اللغز والحبكة المثقنة واهتم بتحليل شخصياته . (هـ م)

الراعي من اسلاف سين هيلي) ، ومن المحتمل ان تكون هذه الفتاة قد رأت دونللي واقفا في دكان البقال في القرية يطلب زجاجة من الويسكي او الجين فسحرجها وخلب لها السيد المهذب الذي يرتدي ثيابا انيقة . وربما يكون دونللي قد نظر الى الخدين المتوردين المتفجرين بالصحة ، وفكر في المتعة التي يمكن ان يحصل عليها لو انه رفع طرف الثوب الطويل المصنوع من التيل وجرى بيده على الجسد الجميل كما لو كانت الفتاة جوادا احسن تدريبه . لو كانت الحكاية قد جرت على هذا النحو لكانت قد اصبحت طبيعية ومبهجة ، ولكن اغواء فتانين انما يدل على نوع من النزعة الحسية ، وخضوع مطلق للرغبة في التملك والانتصار .

فجأة قالت موبسي : « بابا ، ايمكنني ان استحم الان ؟ » فقطعت سلسلة تفكيرني . خلعت لها ملابسها . ووضعتها في حوض الاستحمام ، ثم هبطت الى الطابق الاسفل لكي افتح زجاجة نبيذ بورجوندي التي جئت بها من كاييفورنيا والتي كنت قد وضعتها الى جوار النار - كنت قد جئت بها معي على طول طريق العودة لكي استمتع بشربها في حجرة الجلوس الخاصة بي . وضعت اسطوانة موسيقية على الحاكي - كونشرتو الكمان والاوركسترا لدليوس - ثم تركت نفسي لكي اغرق في حالة من الكآبة الناعمة الفامضة . كان النبيذ دافئا دافئا خفيفا للغاية . ويقول اكثر الخبراء في شؤون النبيذ انه لا ينبغي للمرء ان يعرض انبيذ مباشرة لمصدر الحرارة ، ولكنني اجد ان تعريض النبيذ العادي للنار المباشرة لمدة عشر دقائق لا تؤدي الى اي ضرر - سببت لنفسني كاسا كبيرة ، وجرعت نصفها مرة واحدة - وهذه هي طريقتي في شرب اول كأس من النبيذ في المساء . انه - بهذه الطريقة - يلطف الظما ، ويمنح حاستي التذوق والشم افضل ما في نكهته ورائحته ، وينتج على الفور ومضة من الدفء . كانت حقائنا متناثرة الى جوار الباب ، دون ان تفتح ، ولكنني اردت ان استمتع بعيزة العودة الى بيتي . تتمتع حجرة جلوسنا برائحة متميزة ليست سيئة - تماثل الى حد ما رائحة الكتب القديمة . وكانت ديانا هي من اشترت معظم اثائنا في المزادات العلنية المحلية - وهي تحب حضور عمليات البيع بالجملة وبالمزاد - وليس في هذا الاثاث قطعة واحدة يمكن ان توصف بالحدائث . واذا نظرت حولي ، خطر لي انه من المحتمل ان يكون ايزموند دونللي قد جلس في حجرة تماثل هذه تماما ، وانه رغم كل ما اعرفه ، ربما يكون قد جلس في هذه الحجرة نفسها . مددت يدي ففتحت احدى حقائب السوق التي كانت ديانا تحملها في الطائرة ، وعثرت على المخطوطة المكتوبة على الالة الكاتبة لمقال دونللي « رفض لفلسفة هيوم » وفتحتها كيفما اتفق . قرأت ..

« .. انني لا انتقد منطق مستر هيوم ، وهو منطق مفحم من مختلف جوانبه ، وانما ازعم ان مزاجه من نوع يمكن ان يخفى عن صاحبه صورا معينة من الاحاسيس . يستطيع منطقهم ان يزيل من الوجود مطامح السيميائيين وآمالهم ، ولكن ، ما الذي يعرفه عن رؤاهم ؟ ... »

توقفت عن القراءة لكي افكر في تلك الجمل . كان من الواضح انها تستحق

« هامشا » نقديا ، يشير الى التشابه بينها وبين فكرة بليك : (١) .

كيف لك ان تعرف ان كل طائر يقطع طريق الهواء والريح

انما هو عالم هائل من البهجة ، مغلق امام حواسك الخمس ؟

ومرة ثانية تساءلت متعجبا : كيف يمكن لمثل هذا الرجل ان يكون صورة ممسوخة من « كازانوف » يتباهى بفضواته النسائية ، يطارد النساء بدافع من فكرة متسلطة سخيفة تجعله يبحث عن الكمية المجردة ؟ وان يكون ما وصفه جونسون بأنه : « واحد من جماعة العنقاء ذوي الميول العربية المفعمة بالشر » ؟ بشكل ما ، كانت هذه هي آخر عبارة استطيع ان افكر فيها ، تشير الى مؤلف « رفض لفلسفة هيوم . »

انتهت الاسطوانة الموسيقية ، وذهبت لكي اقبلها على وجهها الاخر ، وللحظة نظرت الى الخارج من النافذة التي تطل على الغرب . كانت السحب المنخفضة معلقة فوق تلال « اياركونت » ، ولكن السماء وراء التلال كانت مشرقة . وعلى الجانب الاخر من التلال ، انتصب صف من اشجار الحور مرتفعا على صفحة السماء . للحظة عدت الى غرفة النوم في لونج آيلاند ، اندوق النكهة الدخانية اللطيفة التي عرفتها في حلمتي بيفرلي الصغيرتين وما شعرت به بعد ذلك من انفجار الدفء بين الافخاذ ، بينما كنت انظر من فوق كتفها الى الاشجار الباسقة فوق قمة التل الصخري . ازحت جانبا كآبتي الغامضة ، وتمسكت بعطر الصلابة الذي كان يقوم ويهوم فوق اشجار الحور ، وعرفت مرة ثانية في تبصر داخلي مفاجيء شامل ان الكائنات البشرية لا ينبغي لها « ابدأ » ان تقبل مقومات او مكونات الوعي المباشر الناشيء عن اللحظة القائمة ، وان الافاق الاعظم والارهب تقع دائما فيما وراء حدود الاحكام والتقديرات الفورية المباشرة . للحظة كنت انا ايزموند دونللي ، اتساءل عما عرفه هيوم عن رؤى السيميائيين . اختفت التناقضات ، وفجأة فهمت دونللي . بالنسبة له ، لم يكن السيميائي هو من يحاول تغيير طبيعة المعادن ، وانما هو من يحاول تغيير طبيعة الوعي ، وكان الجنس هو حجر الفلاسفة الذي كان بوسعه ان يغير المعادن الوضيعة للوعي العامي فيحولها الى رؤيا .

(١) ويليام بليك ١٧٥٧ - ١٨٢٧ شاعر ورسام صوفي انجليزي . درس الرسم وفن الحفر ، وتدرّب منذ صباه الاول على حفر نسخ من صور الكاتدراتيات والكنائس فتشبع عقله ووجدانه بهذا الجو . كان الاسلوب القوي هو مثله الاعلى . وامتزج فن الرسم بالشعر في موهبته حتى نهاية حياته الطويلة سواء بالنسبة لاسلوبه التعبيري او للبناء الفني الذي اختاره لتشكل اعماله التي مزجت دائما بين الرسم والشعر . تشبع بروح دينية غير تقليدية ، وامتزجت عنده روح الانسان بالكون في سبيل صياغة الرب واكتشافه في آن واحد من خلال النفاذ بالتأمل الواعي في الطبيعة وفي داخل النفس والعقل البشريين ، ولكن دون وجد ولا تيهان ثقلي . اسلوبه الرمزي عزله عن معاصريه ولكن دفعه الى العصر الحديث لكي يصبح واحدا من اهم بناء النزعة الانتمالية في الفلسفة والفن الغربيين المعاصرين (هـ م)

صرخت موسى : « بابا ، اريد ان اخرج . » ناديت ديانا فأخرجتها من مطبخها وارسلتها الى الطابق الاعلى . كنت اريد ان اثبت هذا الادراك المتبصر الداخلي وان اكتشف أرجاءه . لانه كانت هناك - ما تزال - مشكلة واضحة . لا يستطيع احد ان ينكر ان الجنس يملك هذه القدرة على رفع الوعي الى درجة اعلى من الحدة . فمند لورنس ، اصبح هذا شيئا شائعا ومعروفا من ضمن الاشياء الشائعة في القرن العشرين . ولكن لورنس عرف ايضا سرا آخر من اسرار الدافع الجنسي : « ان ما تعجز نساء كثيرات عن اعطائه ، تستطيع امرأة واحدة ان تعطيه . » ومنذ ان بدأت حياتي مع ديانا ، اضمحل اهتمامي باغواء النساء ، حتى اصبح مجرد نوع من الفضول وجب الاستطلاع . بوسعي ان انظر الى فتاة جميلة فأتساءل بيني وبين نفسي عن نوع حمالة الصدر والبراوييل الداخلية التي ترتديها، او عما اذا كانت ترقد في سلبية على الفراش ام تتحرك بعنف . ولكن هذا الفضول لم يكن من القوة بحيث يمكن ان يؤدي الى المتابعة العملية . بل انني في الاعوام الاخيرة ، كنت ادهش دائما اذ اكتشف ميلا متزايدا الى رفض تلك الاشكال غير الضارة من الاشباع المتبادل التي تقدمها اليك علاقة ما ولكن « دون شداية اوتار » . وقد حدث في احدى الحفلات ان قالت لي فتاة ما بصراحة : « لماذا لا نرقد معا في فراش بعد ذلك ؟ هذا افضل من ممارسة العادة السرية في فراشين منفصلين » ولكنني في الصباح ، ادركت ان عدم وجود اية اوتار لم يكن صحيحا صحة مطلقة . لقد تداخل جسدان ، وبالتالي فقد تداخل عالمان ايضا . ان عالمها لم يرق لي بشكل خاص ، فقد كان عالما شديد الفموض والعقم . ومثل كوكبين تقاربا اكثر من اللازم ، كان كل منا قد تسبب في نوع من الاضطرابات الارضية عند الآخر . وانا لم اعد قادرا على ان اتذكر ، كيف كانت تبدو في الفراش ، ولكنني استطيع ان اتذكر بوضوح حكايات معينة سردها علي ، حول فسادها في زواجها ، وهي الحكايات التي ما زالت تزعجني . ولقد كان الافضل لي لو انني تركتها تدور في فلكها الخاص .

وهذا هو ما يجعلني اشك في صدق كازانوف . انه لم يكن غبيا ولا محروما من الاحساس - وهذا واضح الى حد كبير . ولكن ليس هناك سوى القليل من الادلة في « المذكرات » التي توحي بان تلك الاضطرابات المتبادلة قد حدثت . ان فتاة ما ، شابة و « مقبولة » ، وتبدأ برفض الحريات التي يحاول ان يمارسها معها، حتى تستطيع مداهناته ان « تبدل غضبها الى انفعال اكثر رقة » ، وبعد ان تجعله يعدها بالآلة يهجرها بعد ذلك ، تسمح له بأن يحل اربطة مشددا الداخلي . وحتى اذا كانت الفتاة عذراء في السابعة عشرة من عمرها خرجت لتوها من مدرسة الدير ، لا نلمح هناك اي احياء بالصعوبات المعتادة ، الجسدية والنفسية ، لا نجد سوى تلميحات غامضة عن تمضية « عدة ساعات لذيدة » او « نسلم انفسنا لنشوة من المتعة تدوم حتى انبلاج الصباح . » هناك جو اشبه بجو الحلم يحلق على هذه « المذكرات » كلها .

لم يكن دونللي صورة من « السنيور جاك كازانوف دى سينجالت » ، وكان هذا واضحا . وكان الاحتياج الى اكتشاف المزيد عنه قد اصبح شبيها بالتوتر الجسدي . ذهبت الى حجرة الطعام ، حيث احتفظ بكتبي التي تبحث في القانون وعلم الاجرام ، ورحت ابحت حتى عثرت على القصة الكاملة لقضية « قاتل جزيرة الاي » الايرلندي . وكانت قضية عادية بقدر كبير . كان ويليام بورك كيروان فنانا عاش في بلدة « هوث » مع زوجته في عام ١٨٥٢ . وفي عصر يوم من ايام سبتمبر ، استأجرا ملاحا بقرابه ، لكي يجذف بهما الى جزيرة « آي » الايرلندية ، وهي الجزيرة الجذابة الصغيرة التي تقع على بعد ميل من ميناء « هوث » ، وهي على مرمى البصر من مالاهايد . كان يوما هادئ الجو ، وفي الساعة السابعة من المساء ، سمعت صرخات صادرة من الجزيرة . وفي الساعة الثامنة ، وصل الملاح بقرابه مرة اخرى الى الجزيرة ، فوجد كيروان ما زال مشغولا برسومه - وهذه واقعة تثير الشكوك ، طالما ان الظلام كان قد هبط بالفعل . وقال كيروان انه ليس واثقا من المكان الذي ذهبت اليه زوجته - وافترض انها كانت في مكان ما على الجانب الاخر من الجزيرة ، تسبح ما تزال . وعثروا عليها في بركة صخرية صغيرة ضحلة ، وقد امتلا وجهها بكدمات كثيرة ، وامتلات رثاها بالماء . ورغم وضوح البيئة على ان موتها كان نتيجة لحادث عارض ، فان الظروف كانت مثيرة للشكوك للدرجة التي دفعت الى تشريح جسدها . وادين كيروان بتهمة قتل زوجته على اساس الادلة المستمدة من الظروف نفسها ، وكان قد زعم بأنه لم يسمع الصرخات التي كان من الممكن ان تسمع من الشاطئ ، وكانت له عشيقة وضعت له طفلا في دبلين . وقد اعتقد كثير من الناس انه برىء ، ثم استبدل حكم الاعدام الصادر ضده بحكم بالسجن مع الاشغال الشاقة . وخرج بعد هذا من السجن لكي يتزوج عشيقته ، ثم هاجر الى اميركا .

ذهبت الى غرفة مكتبي ، واشعلت المدفأة الكهربائية ، وكتبت على الالة الكاتبة خطابا الى ايزاك جينكينسون بيتس ، لاقول له انني انوي ان اكتب عن قضية قاتل جزيرة « آي » الايرلندية في كتاب عن الجريمة ، وتساءلت ان كان في مقدوره ان يشرح لي سبب اعتقاده في براءة كيروان . ثم خرجت فهبطت التل وارسلت الخطاب بالبريد . وبعد ذلك ، شعرت بما يكفي من الاسترخاء لكي اقرا لمويسى قصة عن الارنبه بيتر .

* * *

استيقظت مبكرا في الصباح التالي ، وتمشيت طويلا حول بحيرة « روس » وحينما عدت قالت ديانا : « اتصلت بك هاتفيا من تدعى ميس دونللي من جروم ، وتريد منك ان تتصل بها . »

« هل كانت لهجنها ودية ؟ »

« بشكل ما . تقول انها كتبت لك خطابا . »

كان هناك صندوقان كبيران من الورق المقوى ، مليئين بالرسائل التي وصلت

في اثناء غيابنا ، ولم تكن لدي حتى تلك اللحظة اية طاقة لكي افحصها ، وبينما راحت ديانا تعد لي افطاري ، من البيض والباكون ، افرغت انا الصندوقين على ارضية غرفة المكتب . قلت لموبسى ان تخرج بنفسها كل الرسائل التي وصلت الى ناشري اولا ثم اعاد توجيهها اليّ - فان مثل تلك الرسائل يمكن ان تنتظر . فتحت صندوقين صغيرين من التسجيلات الموسيقية ، وعدة كتب من ناشريين ياملون لو انني اقتطفت منها فيستخدمون ذلك في اعلاناتهم (والاسف ، فانهم نادرا ما يرسلون الي الكتب التي اتمنى ان احصل عليها مجانا ، لا يرسلون سوى الكتب التي تتعرض لها المقالات الصحفية بشكل سيء) واخيرا عثرت على الخطاب الذي يحمل خاتم بريد « لايم ريك » ، وقد كتب عليه العنوان بخط دقيق واضح .

ولا بد لي ان اعترف بانني لم اكن صريحا معها صراحة كاملة في الخطاب الذي ارسلته اليها من نيوهافن . فاني لم ار فائدة من ان تصفق الابواب في وجهي منذ البداية . ولهذا فقد اخبرتها ببساطة بأنني سمعت عن ايزموند دونللي في اثناء جولة محاضراتي - وتركت لها ان تستنتج ان شخصا ما من بين المستمعين الي احدي المحاضرات قد ذكر الاسم امامي - واني اردت ان اكتب عنه مقالا او فصلا في كتاب سأنشره في المستقبل . ثم خاطرت بذكر انني قد تبادلت حديثا مع الكولونيل دونللي واني رايت عنده نسخة من مذكرات رحلات دونللي الكبير .

جعلني ردها اشعر بالخجل من نفسي . فانها - بشكل وقور وان لم يكن وديا ، تقول انها كانت سعيدة عندما سمعت بأن جدها الاكبر لم يكن قد نسي بعد نسيانا كاملا ، وانها قد امضت عدة سنوات في محاولة اقناع احد الناشرين لكي ينشر طبعة جديدة من المذكرات . وقالت انها وشقيقتها ستفتبطان لرؤيتي في اي وقت اذهب فيه اليهما . وفي نفس الوقت فانهما ستكتبان للمحامي الذي يحتفظ باوراق دونللي في خزانة خاصة لكي ياتي بتلك الاوراق الى المنزل ...

ومرة اخرى شعرت بوخزات الضمير ، واجتاحني احساس بالميل الى تجاهل الامر كله . ولكنني تدرعت بنظرة الى المخطوط الذي كنت قد نزعته عنه غلافه بالفعل ، وقررت انه سيكون من انسحف ان اتخلى عن مغامرة كانت بداياتها مشمرة الى هذا الحد . اتصلت بمركز التحويل الهاتفي وطلبت منهم ان يوصلوني برقم الانسة دونللي ، اجابني صوت قاطع جاف ، وان كان انجليزيا بقوله :

« آه ، مستر سورم . كان عطفنا منك ان تتصل بي . لقد اخبرتني زوجتك بأنك لم تعد من اميركا الا بالامس ، وفي وقت متأخر لا بد انك مجهد تماما . » قلت انني اشعر بانني بخير ، وسألتها متى تتوقعان وصول الاوراق من مكتب المحامي .

« اوه . انها هنا الان . لقد كان سريعا جدا . وكنا نقراها الان . انها مادة اخاذة ببساطة . كيف تتوقع ان تسافر الى هنا ؟ بالقطار ؟ »

وحينما قلت انني سأسافر بالسيارة سألني لماذا لا اقود سيارتي الان فورا لكي اتناول معهما طعام الغداء . نظرت الى ساعتني وقلت لها انني ان فعلت هذا

فلن أصل قبل العصر . وقبل ان انهي المكالمة قالت :

« آمل الا تستاء اذا سالتك سؤالاً واحداً » وغاص قلبي في صدري بينما قالت : آمل الا تكون مهتماً بآية قصة من الاقاصيص البرديئة التي تحكي عنه ؟ «
« اقاصيص رديئة ؟ » كذلك تساءلت وانا اشعر بنفسي واقعا في شبكة هكبوئية من المداورات وانصاف الحقائق ، ولكنها قالت :

« لقد رأت شقيقتي واحداً من كتبك في المكتبة ، انه كتاب عن جريمة القتل ، فامل الا تكون مهتماً بالشائعات البلهاء عن دونلي واللاي ماري جيلني ؟ »
وكنت قادراً على ان اقول ، مع احساس هائل من الارتياح ، بانني لم اسمع ابداً شيئاً من تلك الشائعات . قالت في صوت يشبه صوت رجال الاعمال :
« حسناً . انني سعيدة بان اسمع هذا » .

سمعت فرقة صغيرة ، ثم سمعتها تصيح : « تينا ، هل تسمعين على الخط الاخر ؟ »

« أجل ، يا عزيزتي . »

« لا اريدك ان تفعل ذلك . فهذه عادة تبعث على انضيق . » وفجأة مات اخذ تماماً . حملت في السماعه للحظة ثم وضعتها في مكانها .

قبل ان اغادر المنزل ، اتصلت بصديق قديم من جامعة جالواي ، وهو البروفيسور كيفين روش . وقال لي مساعده انه في بيته ، فاطصلت به هناك .
« هل تعرف شيئاً عن ايزموند دونلي ؟ »
« انشخص الذي كتب كتاباً عن افتضاض العذارى ؟ »
« اتعتقد حقاً انه كتبه ؟ »

« لا ارى سبباً يمنع من الاعتقاد في ذلك . الصفحة الاولى من نسختي تحمل اسمه . »

« اهي لديك هنا ؟ ايمكنني ان آتي لكي اراها ؟ »

« بالتأكيد ، متى تحب ان تأتي ؟ »

قلت : « الان . » وفي خلال خمس واربعين دقيقة كنت في غرفة مكتب كيفين المظلة على خليج جالواي ، والتي يمكن ان ارى منها مشهداً جميلاً لغابتي آينيشمان وآينيشمور .

كنت قد قررت ان امضي في سياستي القائمة على الصراحة ، لان الاخبار تنتقل بسرعة في ايرلندا . وهكذا ، بعد ان تبادلنا التحيات ، وقبلت كأساً صغيراً من نبيذ « باشميل » ، ناولت كيفين مخطوطة « رفض فاسفة هيوم » وقلت له انه قد طلب مني ان اعددها للنشر وان اكتب لها مقدمة . قال :

« انها قصيرة ، اليس كذلك ؟ »

« آمل ان اعثر على اشياء اخرى ، خطابات ومذكرات . انني ذاهب الان »

لكي ازور الانستين دونللي في بالي كاهان . »

ناولني الكتاب ذا الغلاف الورقي الذي كان موضوعا على مكتبه ، كان صادرا عن دار « اوبليسك » للنشر في باريس ، بعنوان : « عن اقتضاى العذارى . تأليف: ايزموند دونللي . » . وكانت هناك ملاحظة تهديدية صغيرة موقعة باسم « هنري ف. ميللر » تكرر الحقائق التي عرفتها بالفعل عن دونللي - تاريخ مولده ومكانه ، واشارة الى مذكرات رحلاته ، ثم يقرر حقيقة ان هذا الكتاب كان قد نشر بالالمانية وصدر عن دار نشر « بروكهوس » في لايبزيغ (وهي نفس الدار التي نشرت مذكرات كازانوف) في عام ١٨٣٥ ، ثم قام ناشر هولندي مجهول بنشر نفس الكتاب - في ترجمة عن الالمانية - بالانجليزية في عام ١٨٦٣ . فتحت الكتاب على فصل عنوانه : « حول خرافة ان كل النساء متشابهات في الظلام » . روبين : اتوسل اليك يا سيدي ، اكمل تعاليمك ، لانني متعلق بكلماتك تعاقبي بمعرفة مصيري .

لوردكوبالد : انك تثير غروري ، يا ولدي العزيز . ولكنني اجد جزائي الحق في اتفاقك معي على اهمية الحصول على هذه المعرفة الرقيقة . علينا الان ان ننظر في امر الخرافة ، التي روج لها كلود دي كريببون ومستر كيللاند ، والتي عبر الناس عنها بالكلمات التي تقول : « كل القطط في الظلام ، رمادية اللون . » يمكنك ان تصدقني في هذا الامر ، حينما التفت الان الى الوراء نحو حياة باسرها في معرفة النساء ، فلا يمكنني ان اتذكر ان امراتين منهما كانتا متشابهتين حينما تنفرج السياقان . انني لا اتحدث الان فقط عن مناطق البهجة المنخفضة التي قد تكون ممثلة او بارزة العظام ، احيمة او نحيفة ، غائرة او نافرة ، ولكنني اتحدث عما ينبغي لي ان ادعوه بالروح التي تقيم في هذا المكان . وليس هناك رجل طيب الارومة يمكن ان يخلط بين نبيذ بوجوندى الداكن ونبيذ بوردو الاصهب ، ويستطيع حتى الطفل ان يذكر الفرق بين التفاحة والكمثري ، رغم ان ثمرة قد تكون ناعمة كثيرة العصارة ، وقد تكون اخرى صلبة جافة . هكذا الامر مع النساء . وتاماما مثلما يحكم على مذاق النبيذ من خلال الجرعة الاولى ، فان النكهة المتميزة لفتاة ما يمكن ان تدرك بوضوح في حركة الملامسة الاولى حينما تستقبل الشفتان الورديتان الطوليتان الراس القطيفي بينهما . لقد عرفت خادمت كن حادات وطازجات ، مثل تفاحة تأكلها تحت ضوء القمر ، واخرى كن رطيبات ناعمت مثل كمثرى او ثمرة خوخ . واخرى مامسهن صلب تستدير اجسادهن لحظة العناق ، ولكن داخلهن كان حلو المذاق ، مثل ثمرة شمام ناضجة ...

وضعت الكتاب جانبا ، ونظرت عبر المكتب الى كافين ، الذي كان ما يزال مستغرقا في مقالة « رفض لفلسفة هيوم » . لو انه قد رفع بصره الي ، لكانت جذيرا بأن اقول : هذا شيء مزيف آخر . ربما يكون دونللي هو كاتب الصفحة الاولى ، لانها تتميز بذلك الاقتحام السيكولوجي الذي اصبحت اعرفه واتوقعه

عنده . ولكن الفقرة ، المكتوبة عن الشقيقتين تحمل لمسة من تأييد كتاب صاد « فلسفة في حجرة النوم » ، اما الجملة الاخيرة فتحمل اثرا قويا عن القسوة التي لا يبررها حتى ما تتميز به من تبصر سيكولوجي واضح .

ولكن كافين رفع بصره عن المخطوطة بعد قليل ، وكنت قد غيرت رأيي وقررت الا اتكلم . فلو انني وضحت الاسباب التي تدفعني الى الظن بان ما قرأته الان كان عملا مزيفا لكان علي ان اعترف بهذا الشكل بانني اعرف المزيد عن اعمال دونلي . وهكذا ، فقد ابدت بدلا من هذا - بعض الملاحظات حول ما في هذا الكلام من جاذبية . اما كافين نفسه فكان مفتبها بمقالة « الرفض » وسألني ان كان له ان يأمر بنسخها ، لكي يكتب مقالا حول تطور اسلوب دونلي .

ووعده بان اتيح له فرصة الحصول عليها بعد ان اطلع الانستين دونلي على الموضوع ، ثم تركته وانصرفت . كان النهار قد جاوز منتصفه ، وكان علي ان اذهب الى « ليمريك » . وبعد ان جاوزت اورانمور فقط تذكرت انني قد نسيت ان اسأله ان كان يعرف اي شيء عن فضيحة ذكر فيها اسم لادي ماري جيليني .

تركت ديانا وموبسي في ليمريك حيث كان بإمكانهما ان يقضيا بضع ساعات في شراء الحاجيات والتجول بين البضائع ، ثم ركبتي السيارة على طريق كورك ، عبر ريف مسطح ناعس كانت خضرة كثيفة ساخنة قد جللتها تحت شمس ابريل الساطعة . توقفت في بلدة « بالي كاهين » لكي اسأل عن قلعة دونلي ، فقبل لي انني قد توغلت في الطريق الى ابعد مما كان ينبغي لي ، وان علي ان اعود ثانية صوب بلدة « آدير » لكي ادور مع الطريق من ناحية معاكسة . وعلى هدي هذه التعليمات ، تمكنت من التوقف عند باب قلعة دونلي حوالي الساعة الثالثة .

ولم يكن البيت قلعة بالطبع ، وانما منزلا من الطراز الذي ينسب الى عصر الملكة آن ، وقد شيد باحجار فضية ، واحاطت بمدخله اعمدة كورينثية من صخور حمراء . وكانت الجدران مكسوة بالسناج ، واكتسى المنزل بجو من الاهمال الشائع في المنازل الايرلندية العظيمة ، وبشكل خاص في مقاطعتي « كونوت » ، مونستر » . قادني السلم اللطيف ذو الدرجات الحلزونية الاربع عشرة الى الباب الامامي . كانت سطوح الدرجات المنحوتة غير مستوية حتى انني تعجبت كيف يستطيع اي انسان ان يصعد او يهبط دون ان يلتوي كاحله . كان نهـر « ماي » يجري الى جانب المنزل ، واطلال دير آبي تنتصب عند الافق . وشعرت بالصدمة حين خطرت لي فكرة ان هذا المنزل كان يبدو جديدا وجميلا حينما ولد فيه دونلي - لانه كان قد شيد حوالي ١٧٠٠ ، وان الجدران لم تكن مكلفة بالسناج كما هي الان حينما كان هنا . كانت هذه « الدكري » اشبه بالقفز الى الورا نحو الماضي ، تولد عنها احساس مزعج بجريان الزمن السريع .

وقبل ان ابلغ قمة الدرج ، فتح الباب ، وبدت وراءه سيدة قوية نشيطة في ثياب الركوب ، كانت قد جمعت فوق رأسها شعرها الرمادي بلون الحديد ، ووقفت مباعدة ما بين ساقيهما مثل صورة لواحد من سادة الريف في لوحة من لوحات

رولاند سون . وكانت مصافحتها قوية وثابتة مثل مصافحة الرجل . قالت :
« انا الين دونلي . سعيدة لمقابلتك »

كانت لهجتها لهجة الطبقة العليا من الانجليز ، مع لمحة من اللهجة الايرلندية تبدو في متحركات الحروف . ثم اضافت تقول : « يسعدني ، انك جئت بالفعل » .
كان المكان مقبضا وباردا ، وبدا في مؤخرته سلم ضخم كثير الدرجسات يؤدي الى الاقسام العليا من المنزل التي يبدو انها لم تعد تستعمل ، كان هنالك قدر كبير من المرمم الذي يتناقض بغرابة مع ورق الجدران الفيكتوري المتناثر في كل مكان . ولكن غرفة المكتبة الواسعة التي قادني اليها كانت تضم نارا كبيرة في المدفأة . وكانت هناك سيدة اخرى ، تعمل بابرتها الى جوار النار ، وان لاحظت عليها سمات الرجولة هي الاخرى . قدمت اليها السيدة الاولى باسم « ميس تينا » . كانت ضئيلة الحجم ، حلوة الوجه ، ولا بد ان الثياب النسائية كان يمكن ان تناسبها اكثر . وخمنت ان سراويل الركوب المتنفخة كانت بهدف الاحتماء من البرد . عرضا علي ان اشرب الشاي ، ومضت ميس تينا لكي تعده . وقفت ميس الين امام النار ، وقد باعدت ساقها ، ووضعت يديها وراء ظهرها ، ودخلت معي في محادثة عامة حول الطقس والريف وما اثنى ذلك . ثم تكلمنا حول اميركا . وبدا عليها انها شديدة التطلع الى معرفة كل شيء عن اميركا ، وبعد عشر دقائق او نحوها ، قالت بطريقة عابرة انها سمعت ان هناك من الاميركيين من هو على استعداد لدفع مبالغ ضخمة من المال لقاء منازل من هذا النوع . قلت انه من المحتمل ان يكون الامر كذلك فعلا . سألت : كم يدفعون ؟ فحاولت ان اخمن قيمة المنزل بسرعة ثم قلت ان الشخص العادل من المحتمل ان يدفع خمسة وعشرين الفا لقاء هذا المنزل . سألت بسرعة : « جنيهات ام دولارات ؟ » . قلت : جنيهات . وعند هذا بدا عليها انها تفكر بجدية وباستفراق كاملين . وبينما كانت ميس تينا تصب الشاي ، مستخدمة طاقم شاي جميلا من القرن الثامن عشر من المحتمل ان تكون كريستينا شقيقة روبين قد استخدمته بنفسها ، تبينت فجأة لماذا كانتا مهتمتين الى هذا الحد ، بعملية احياء ذكرى ايزموند دونلي وانعاش شهرته . لم يكن لهاتين المراتين اي اطفال ، فلماذا لا يبيعان هذا المنزل الضخم غير المريح ، ثم يشتريان شقة جميلة في لندن ؟ وبدا شعوري بالذنب – بسبب هذا البحث عن دونلي – يتناقض . ان نشر كتاب : « مذكرات افلاق ايرلندي » يمكن بالتأكيد ان يزيد من شهرة جدهما اكثر مما يمكن ان يزيدها كتاب مذكرات الرحلات او مقالة « رفض لفلسفة هيوم » .

سألني ميس تينا عن كولونيل دونلي ، فاخبرتها بالقليل عن اطوار حياته في السنوات الاخيرة . وبدا عليها الحزن الشديد . قالت اختها :
« يا للرجل المسكين ، علينا حقا ان نكتب اليه يا الين » .

ربما . بيدوانني اذكر انه كانت هناك بعض الشائعات حوله . هل وجدته غريبا او شاذا يا مستر سورم ؟ »

قالت : « كلا ، باي شكل من الاشكال » .

قالت ميس الين وقد غرقت في التفكير ثانية : « بالطبع . انه ليس سوى ابن عم من الدرجة الثانية » .

كان بوسعي ان ارى انها تفكر في الزواج - ربما من اجل تينا . وخطر لي ان الكولونيل دونلي ربما اعجب بالين ، فقد بدت كما لو كانت تملك يدا ماهرة في الامساك بسوط الركوب القصير . وسجلت ملاحظة باطنية لكي اتذكر من بعد ضرورة خلق اتصال من نوع ما مع دونلي .

قالت ميس ايلين : « حسنا » اذا كانت زوجتك في ليمريك ، فانك بالتأكيد لا تريد ان تقضي كل فترة ما بعد الظهر هنا فيما اعتقد . انها مكان مخيف ، ليمريك هذه . هناك الكثير من المهوسين الملاعين . لقد احرقوا احد اجدادي قديما في عام ١٥٤٠ . انه الاسقف دونلي المعروف باسم جو المقدس . لم ترق لهم مواقفه وآراؤه السياسية » .

قادتني وهي تتحدث الى حجرة صغيرة ملحقة بالمكبة . كانت هناك مدفأة كهربائية ذات قضيب معدني متوهج واحد ، ولذلك فان الغرفة لم تكن شديدة البرودة ، كذلك فان الحجرة كانت قد نالت شيئا من دفء الشمس التي مالت الى الضرب . على مائدة صغيرة كانت هناك اضماتان كبيرتان للاوراق من النوع الذي يصنع بحيث يتخذ شكل الكتاب . فتحت احدى الاضامتين ، فتسارعت نبضات قلبي وانا احاول التعرف على « الخط » الذي كتبت به الصفحة الاولى من الاوراق الصفراء الكبيرة الحجم . قالت :

« لقد وضعت قصاصات من الورق في الاماكن التي ظننت انها قد تثير اهتمامك اكثر من غيرها . انه يصبح كتابا احسن بكثير في لحظات الوصف . حسنا ، سوف اتركك الان لهذه المخطوطة ، وسوف تظل تينا في المكبة لكي تناديهما اذا احتجت الى شيء ما » .

تركتني بعد هذا بمفردي ، وبدأت انا القراءة - بسرعة - على الفور :

« شارع جرانند شومير ، ١١ سبتمبر ١٧٦٦ .

(اي حينما كان دونلي في الثامنة عشرة على الارجح)

« بابا العزيز

كان خطاب التوصية الموجه الى مسيو بليزيو مفيدا للغاية ، وقد تناولت المشاء مع اسرته في الليلة الماضية . وهو يبعث اليك بارق تمنياته وافضلها . لقد عانى عمله من بعض الانعكاسات في الاعوام الماضية ، ولكنه ما زال يعيش طبقا لما تفرضه التقاليد والاوزاع المقررة تماما . انه يعتكف في حجرته في ساعة مبكرة بسبب اصابته بمرض النقرس ، وقد اصطحبني مدام بليزيو وابنتاهما اللطيفتان في نزهة على الاقدام على طول الحديقة التركية التي تبدو مقاهيها مناظر مذهشة ومتفردة الى اقصى حد . هذه المقاهي لا تزدهم بالداخل فقط ، انما توجد حشود اخرى خارجها وثلاثة تظل من النوافذ المرتفعة ايضا ، يستمعون جميعا

في « فضول دون مبالاة » الى مفتين وعازفين من نوع معين يطلون على جمهورهم من فوق المقاعد التي يعتلونها... .

عبرت ما تبقى من الخطاب بنظرة سريعة . كان في مجموعه ممتعا ، يحتوي على مادة إخبارية من النوع الذي يمكن ان تتوقعه في كتابات هوراس والبول او آرثر يونج ، كان من الواضح انه خطاب شاب يرغب بشدة في ان يؤكد انه لا يضيع حياته ولا امواله سدى . ونظرت سريعا الى الخطابات الاخرى ، ورحت انتقي خطابا من هنا واخر من هناك عشوائيا لكي اقرأه كله . ومن خلال اقرءة ، تعمق لدي احساس بخيبة الامل . لم يكن هنا شيء من النوع الذي لم يكن بوسعي ان أجده في « يوميات الرحلات » . وفي الحقيقة ، لا يمكن ان يكون هناك سوى القليل من الشك في ان اجزاء من تلك الخطابات قد استخدمت في تصنيف كتاب « يوميات الرحلات » .

وكانت الاضامتان تحتويان عددا هائلا من الاوراق : خطابات ، ووثائق قانونية وشذرات من رواية ذكرتني - في اسلوبها - برواية « ايفلينا » التي كتبها فاني بيرني ، وحسابات ايجارات وربع بعض العقارات والاملاك ، وخطابات لتقديم بعض الاشخاص - انها عادة من النوع الذي قد يبتهج به كاتب تراجم اكاديمي . سجلت بعض الملاحظات على سبيل المحافظة على المظاهر ، وحتى اتمكن من مواجهة اسئلة اذا ما حاولت ميس اليس ان تدخل لتطل على ما افعله - ولم يكن هذا بدافع الاهتمام الحقيقي . كان هناك شيء يبعث على الاحساس بالخيبة بشدة في كل هذه المادة ، التي يرجع تاريخ كتابة اكثرها الى ما بين عامي ١٧٦٠ - ١٧٨٥ . فقد اردت ان اعرف اسمي الانستين بليزيو ، واذا ما كان دونلي قد اجتذبه احدهما . كانت هناك اشارات عديدة اليهما في غضون الشهور القليلة التالية . ولكن لم تكن هناك كلمة واحدة تشير الى جمالهما او عاديتهما ، دع عنك مسألة ما اذا كان دونلي قد مال نحوهما عاطفيا ام لا .

حاولت ان اطمئن نفسي بفكرة انني سأبدو كالبله ان توقعت ان تحتوي اوراقه العائلية على اي توضيحات من هذا النوع . فان اي شيء من هذا القبيل كان جديرا بأن يتم تدميره في خلال العصر الفيكتوري ، او حتى على يدي الشقيقتين دونللي اللتين كانتا مضيفتي الان . وبشكل ما ، شككت في ان تكون الشقيقتان قد نزعتا اي شيء من هذه الاوراق العائلية ، فقد كانتا شديديتي البراءة والوضوح في كل ما يتعلق بسلفهما القديم .

اطلت ميس تبنا من الباب وسألتي ان كنت ارجب في المزيد من الشاي ، فاعربت لها عن شكري واكتفائي بما شربت . سألتي عن تطور عملي ، فأجبتها بأدب انني وجدت كل شيء مثيرا للاهتمام . وحينئذ اخرجت من جيبني الفقرة المقتبسة من كتاب بوزويل واطلعتها عليها . قلت :

« هل لديك اية فكرة عن السبب الذي يجعل الدكتور هوارد يكره دونللي ؟ »

هزت رأسها نافية ثم قالت : « كلا ، باستثناء .. ألم يكن يكره الأيرلنديين عموماً على أي حال ؟ »

قلت أنني لا أظن ذلك . ثم أضفت :

« ليس هناك في هذه الأوراق ما يشير إلى أن دونلي كان « عضواً في جماعة العنقاء ذا ميول شريرة لا تخبو » .. إنما برز من خلالها في صورة الشخص المحترم الوقور » .

قالت : « أوه ، لا أظن أنه كان محترماً إلى درجة شديدة جداً » .

« لم لا ؟ » .

« أوه ، لا أعرف ، كانت هناك أفايص - شائعات . لا شيء محدد تحديداً كاملاً . لقد أمضي أوقاتاً كثيرة في سويسرا وإيطاليا ، ليس كذلك ؟ .

وأنا اعتقد أن الناس كانوا اشراراً إلى حد ما في ذلك الوقت . »

قالت عباراتها الأخيرة في كآبة وحزن وهي تنظر من النافذة إلى النهر حيث كانت أشكال الشجرات وجذوعها الطويلة منمكة بوضوح . وبعد لحظة أضافت تقول :

« طبعاً ، لا بد أن الدكتور جونسون كان يقصد نوعاً من التورية . فإن غلاف مذكرات إيزموند يحمل صورة لطائر العنقاء » .

فكرت في هذا للحظة خاطفة ، ثم قلت :

« كلا ، أن هذا مستحيل . لقد قال جونسون ملاحظته تلك في عام ١٧٧٣ . وقد صدرت الطبعة الأولى من مذكرات الرحلات في عام ١٧٩١ » .

« لا أظن هذا صحيحاً . وأنا واثقة من أن لدينا طبعة تسبق هذا التاريخ .

اتسمح بأن تأتي لكي تبحث عنها ؟ ليست عيناى على ما يرام ..

ذهبنا إلى المكتبة ، فقالت بغموض ودون تحديد :

« يبدو أنني أتذكر أن الكتاب موجود على أحد الرفوف العليا هذه .. »

كانت الكتب تتصاعد إلى ارتفاع يزيد على عشرة أقدام . أخذت سلم المكتبة الذي كان مستنداً إلى أحد الجدران ، وتسلقته إلى الرف الذي أشارت إليه . مضت خمس دقائق من البحث قبل أن أصل إلى عدد من المجلدات ذات الاغلفة الجلدية وقد طبع اسم دونلي على « كعب » كل مجلد . وكان بعض هذه المجلدات نسخاً من الطبعة الصغيرة - بحجم الجيب - من يوميات الرحلات التي كنت قد رأيتها عند الكولونيل دونلي . وكانت هناك طبعة أخرى من يوميات الرحلات تقع في أربعة مجلدات ، وقد طبعت في لندن عام ١٧٩٣ ، ووردت فيها ملاحظة تقول : « الطبعة الثالثة » . وكان هناك أيضاً مجلد أكبر حجماً ، صنع غلافه الجميل من الجلد الذي ظهرت عليه علامات الزخرفة حتى بعد قرنين من الزمان . وكان عنوانه : « ملاحظات حول فرنسا وسويسرا » تأليف إيزموند دونلي ، طبع من أجل ج.ج. جونسون (ثم قائمة كبيرة باسماء أخرى) ، لندن ، ١٧٧١ . كان الغلاف الامامي والصفحة الأولى يحملان صورة لعنقاء تهب من بين نيرانها ، وقد رسمت بالاسلوب المعهود لرسم الشعارات الذي يمكن أن نراه على أوراق الرسائل القديمة . وحينما

حدقت فيه خطر لي ان الريش المنتصب على صدر الطائر يمكن ان ينظر اليه احد اصحاب مدرسة التحليل النفسي الحديث باعتباره رموزا للعضو الجنسي المذكور . ان الريش على صدر الطائر العادي ، على اي حال ، لا بد ان يكون اتجاهاه الى اسفل ، بينما تكون اطرافه ناعمة مستديرة ، اما هذا الريش فكان منتصبا الى اعلى ، واتخذت اطرافه شكل اصابع « السجق » . قلت :

« من الغريب ان احدا لم يذكر هذه الطبعة من قبل ، ولا يبدو ان الكولونيل دونلي يعرف عنها شيئا » .

« هذا محتمل . وانا اعتقد ان كل نسخ هذه الطبعة قد دمرت » .
« لماذا ؟ »

« لقد شب حريق ما . وسوف تجده مذكورا في احد الخطابات . لقد رايت هذا الخطاب بالامس فقط » .

هبطت من فوق السلم ، حاملا معي الكتاب . وذهبت ميس تينا الى الحجرة الاخرى ، وبعد بحث استغرق خمس دقائق سلمتني الورقة الاخيرة من احد الخطابات . كانت الورقة المخופة تقول :

« كارثة ! لقد اخبرني تولا الان بان مطبعة جونسون قد احترقت عن آخرها . وانني لسعيد الحظ لان هذه الحادثة لم تكلفني شيئا » .

وكان تاريخ الخطاب ١١ سبتمبر ١٧٧١ . اذن فان هذا ما يفسر ان كتاب « ملاحظات حول فرنسا وانجلترا » ظل مجهولا دون ان يسمع به احد . وبالإضافة الى هذا ، فان حتى هذه النسخة ، مثلما يمكنني ان ارى ، لم تقرا قراءة كاملة من البداية الى النهاية ، لان كثيرا من صفحاتها لم تكن قد قطعت بعد . رحت اقلب الصفحات حتى توقفت عيناى على كلمة « عنقاء » . قلبت ثانيا الى الصفحة السابقة وقرأت الفقرة كلها . في هايدلبرج انكسرت العربية التي كان من المفروض ان يستقلها دونلي في رحلة خارج المدينة . وقال له صاحب الفندق انه لم يكن من الممكن ان يوفر له عربة اخرى ، ولكنه اخبره بان الخوري المحلي ، القس كرايز يملك عربة يؤجرها احيانا للضيوف المرموقين . وعثر دونلي على كرايز في حديقته يتطلع الى براعم الزنابق ، فأخذه لكي يرى العربية التي كانت قائمة في حظيرة قريبة . وقال الخوري ان العربية لم تستخدم طوال الشتاء وانها قد تكون متربة مبللة ، ونظر دونلي اليها وقرر انها ستكون عربة جميلة بعد خمس دقائق من العمل في تنظيفها ، ورفض الخوري ان يأخذ نقودا ايجارا لعربته . وفي طريق الخروج من الحظيرة ، لاحظ دونلي صورة خشبية لطائر العنقاء ملقاة على الارض وقد غطى القش نصفها . وسأل الخوري عن سبب وجود هذه الصورة في هذا المكان ، ف قيل له انها كانت ضمن صفقة اثاث كان قد اشتراها في مزاد منذ عام مضى . ولما شعر بانها شيء لا يتلاءم مع خوري محترم فقد القى بها الى الحظيرة . وفي شيء من الدهشة سأل دونلي عن السبب الذي يجعلها لا تتلاءم مع قس محترم .

« بدت عليه الدهشة لجهلي ، وسألني ان كنت لا اعلم ان هذا الطائر كان رمزا

لجماعة من انهراطقة المجدفين ، يعرفون احيانا باسم « اخوة الروح الحرة » و احيانا يعرفون باسم « جماعة العنقاء » . واجبته بانني لا اعرف الا ان العنقاء كانت تستخدم احيانا كرمز يعلق على دكاكين العطارة او الصيدليات ، وانني كنت افترض ان لهذه الصورة مغزى كيمائيا من نوع ما . وهنا راح الرجل العليم يحاضرني في تاريخ جماعة العنقاء . فقال انها ظهرت في اوروبا في عصر انقطاعون (الموت الاسود) ، حينما شاع اعتقاد يقول بان الاغراق في اللذة الجسدية وشهوتها وقاية مؤكدة من المرض . وكانت الحجة الاساسية لهذا الاعتقاد تقول : انه لا يمكن ان تكون هناك روحانية اصيلة بغير جوانية . ان الانسان لا يستطيع ابدا ان يعرف الحقيقة بينما هو يتطلع الى الخارج نحو ما يحيط بروحه ، مغرقا نفسه في الاشياء الخارجية . ان الروح في ذروة اللذة الجنسية - تكون اكثر تركيزا منها في اي لحظة اخرى . وقد اعتقد « اخوة الروح الحرة » ان « الله » كامن في كل مكان وفي كل شيء . وان كل اختلاجة من اختلاجات البهجة انما هي كشف من الله . وباسم هذا الاعتقاد ، راحوا يمارسون كل اشكال الاسراف الشهواني ، ويحدث هذا احيانا فوق المذبح نفسه . وقد اقتلعت محاكم التفتيش هذه التعاليم من جذورها بقسوة عنيفة ، ولكن ثبت ان « جماعة العنقاء » كانت تحمل الطبيعة الاسطورية التي نسبت الى الطائر الذي اتخذه رمزا لها ، فبرزت من جديد ، مرة بعد اخرى ، من وسطرماد عامود الاحراق الذي مات عليه بعض اعضائها . وطبقا لما قاله هيرودوتس من ان عمر العنقاء يبلغ خمسمائة عام ، فاننا يمكن ان نؤكد بثقة ان هذه الجماعة سوف تستمر في الازدهار على الاقل لمدة قرن آخر .

واجبته بانني قرأت في رسالة سانت كليمانت الروماني الى اهل كورنث قوله ان العنقاء رمز للبعث المسيحي ، ولكن الرجل الطيب اجابني بان هذا نوع من الشيطنة البابوية ، وان كل الناس يعرفون بان سانت كليمانت قد قيد الى مرساة سفينة والقي به في البحر كمقاب له على مبالغاته . وحينئذ عرضت عليه ان اخلصه او اريحه من امر هذا الرمز للانحطاط البابوي ، فانفقنا على ثلاثة تاليرات ثمننا للصورة الخشبية » .

كانت هذه هي نهاية الفقرة ، ثم لا ذكر لما حدث لصورة العنقاء المحفورة على الخشب . نقلت الفقرة كلها بخط اليد ثم ذهبت الى المكتبة وسالت ميس تينا اذا كانت تعرف شيئا عن وجود صورة محفورة على الخشب لطائر العنقاء في المنزل - فقد بدا لي ان مثل هذه الصورة يمكن ان تكون رمزا ملائما لكي يوضع على غلاف المجلد المقترح طبعه من مذكرات دونلي . قالت انها لم تسمع عن وجود مثل هذه الصورة ابدا ، ولكنها ابدت استعدادها لسؤال شقيقتها . وقبل ان اتمكن من ايقافها كانت قد غادرت الحجرة . جلست على ذراع احد المقاعد ، ورحت انتطلع الى « الملاحظات » دون اهتمام . انزلت الكتاب من فوق ركبتي وسقط على الارض ، فوقف على حافته وقد انفتحت صفحاته . وحينما كنت التقطه ، ادهشني ان شعرت بان الفلاف الخلفي كان اكثر سمكا من الفلاف الامامي ، والاكثر من هذا ،

كانت الورقة اللاصقة للغلاف غير محكمة الالتصاق ، وعلى عكس الورقة المعاقبة بغلاف الامامي ، فانها لم تكن ملتصقة بالورقة الاخيرة من اكتاب . تنبت الغلاف بخفه ، لكي اري انسيب الذي جعله مفتوحا بهذا الشكل ، فتبينت انه يوجد ثمة جيب بين الغلاف المصنوع من الورق المقوى وبين الورقة اللاصقة للغلاف نفسه ، وكان الجيب قد صنع بالاص الى اطراف الخارجية بهذه الورقة الى الورق المقوى . وفي داخل هذا الجيب كانت هناك ورقة غير مطوية . سحبت الورقة من مكانها وفتحتها . كانت الورقة من نوع ممتاز . شديدة البياض . شديدة الرقة ، ولم تكن تحتوي الا على رسم رقيق لعنقاء طامعه من عندها الملهب بالنار ، وكتسب تحت الرسم *ex qui potuit rerum cogroesere causas* ، وهي جمه لاتينية استطعت ان اتذر انها مفتطعة من المعنى الذي اورده فيرجيل : « سعيد هو الرجل الذي استطاع ان يكتشف اسباب الاشياء » . اما ما اتر في حقا فكان انطائر نفسه . كان الجناحان وريش الذيل من الذهب ، مثلما كانت اللمب المتصاعدة من العش . اما بقية جسد الطائر فكان مرسوما بالدقة التي تراها في رسوم بليك . وفي الركن الاسفل الى اليمين ، وبخط ايزموند دونلي الذي لا يمكن ان اخطئه كانت جملة تقول :

« تسلمتها في ١ سبتمبر ١٧٧١ » . ولو ان هذا التاريخ لم يكن مذكورا . لكان من العسير عليّ ان اصدق ان الرسم لم يكن احدث عهدا به بكثير ، لان الورقة كانت اكثر بياضا ورقة من كل ما رايت من اوراق تلك الفترة من التاريخ . ولم يكن يبدو عليها اي سمة من سمات تقادم الزمن .

سمعت خطوات ميس تينا في عودتها ، فدسست الورقة في الكتاب . قانت لي انه من المؤكد ان ليس ثمة صورة خشبية لعنقاء في المنزل ، الا اذا كانت مخيأة في احدى الغرف العاوية المغلقة . شكرتها واعتذرت لما تسببت فيه من ازعاج ، ثم اعدت كتاب « الملاحظات » الى مكانه على الرف . دخلت ميس الين وسالنتني عن تقدم عملي ، ثم بدت عليها خيبة الامل بوضوح حينما قلت ان علي ان ارحل فورا . !كدت لها انني وجدت عددا كبيرا من المعلومات القيمة بين الاوراق ، واطلعتها على كراسة مذكراتها لكي اثبت ذلك . اصطحبتني الشقيقتان معا الى باب المنزل ، وقالتا لي ان اعود في اي وقت .

كدت سيارتي الى ليمريك وانا غارق في افكار متضاربة ، ربما يمكن ان يقال ان هذه الساعات قد ضاعت دون فائدة ، ولكن هذا القول لا يمكن ان يكون صائبا كل النواوب . لقد عرفت ان شخصية ايزموند كانت ذات جانبين : الابن البار المخلص وكاتب يوميات الرحلات الدؤوب ، ثم « المسافر الشبق » اذا حق لنا ان نستعير هذه العبارة من السير ريتشارد بيرتون . ولا يمكن لاي دارس يدرس المادة الموجودة في قلعة دونلي ان يخمن وجود المسافر الشبق .

ثم لقد كان هناك انقز الصغير الذي تمثله صورة العنقاء . تحدثت بشأنه مع ديانا بينما كنا نعود بالسيارة الى جالاواي . ان الخطابات تقرر ان كتاب

« ملاحظات حول فرنسا وسويسرا » قد نشر في شهر يوليو من عام ١٧٧١ . اما حكاية هايدلبرج - حيث اشترى صورة العنقاء الخشبية - فقد وقعت في شهر اغسطس من العام السابق . ولسبب ما ، استخدم دونللي صورة العنقاء كرمز لكتابه على الغلاف - وربما كانت الصورة التي طبعت على غلاف الكتاب نسخة طبق الاصل عن تلك التي اشتراها من الخوري في هايدلبرج . وفي اليوم الاول من سبتمبر « تسلم » رسم العنقاء الجميل الذي راينه مرفقا به ذلك للشعار اللاتيني الجميل عن اكتشاف اسباب الاشياء . ومن المفترض ان هذا معناه انه قد تسلم الرسم عن طريق البريد . واعترضت ديانا قائلة ان المعنى الاقرب ان دونللي قد تسلم الرسم من الشخص الذي كان هو قد كلفه بصنعه . ولم وافقها على ذلك بقولي انه لو كان هذا صحيحا فلماذا كلف نفسه عناء كتابة : « تسلمته في ١ سبتمبر » . ولو انني تسلمت بالبريد كتابا كنت قد طلبته ، فأنني بالفعل قد اكتب عليه اسمي وتاريخ وصوله ، ولكنني لا اكتب « تسلمته » لانه من الواضح انني قد تسلمته . اننا نستخدم كلمة « تسلمته » « تم تسلمه » لكي نوضح عملية دفع قيمة الصكوك ، او للتحدث عن خطاب او رزمة . اما نظريتي فهي ان ايزموند قد تسلم رسم العنقاء دون توقع من جانبه ، ان الرسم وصله دون توقيع ودون ان يحمل اسم صانعه - والا لكان بالتأكيد قد كتب : « تسلمته من فلان او فلان » او حتى لكان قد احتفظ مع الرسم بالخطاب الذي ارفق به .

اذن فمن الذي يحتمل ان يكون قد ارسل الرسم ؟ شخص ما مهتم بالعنقاء باعتبارها رمزا ؟ او - وانا اعتقد ان هذا قد يكون مقنعا ايضا - احد اعضاء جماعة العنقاء كان الخوري كرايز قد ذكره ؟ كان الاحتمال الاخير احتمالا مثيرا ، رغم انه لا يمكن الا ان يكون احتمالا بعيدا . وقالت ديانا انه احتمال بعيد بقدر بعد احتمال ان تكون احدى السيدات قد ارسلت اليه الرسم هدية او تذكارا ربما ارفقت به رسالة غرامية . تمنيت لو انني قد فحصته بدقة اكثر . فربما كانت الورقة تحمل علامة مائية تشير بشكل او بآخر الى اصلها . اليس من المحتمل ان ورقة ثمينة من هذا النوع لا بد ان تحمل الرمز الخاص بصانعها مدموغا في نسجها الداخلي ؟ وكان عليّ ايضا بالطبع ان اقارن بين الرسم الموجود على الورقة وبين الشعار او الرمز الذي حمله غلاف الكتاب . ولوانهما كانا متطابقين ، لكان هذا حجة مؤكدة تشير الى ان ايزموند قد كلف شخصا ما بصنع رسم للطائر الخرافي الذي كان قد اشترى صورته من القسيس كرايز .

وكانت هناك ايضا تلك الحقيقة العجيبة القائلة بان ايزموند قد كتب يقول ان نسخ الطبعة كلها قد دمرت بعد اقل من اسبوعين من تسلم رسم العنقاء . ومن المحتمل ايضا انه من الامور ذات المفزى - او غير ذات المفزى على الاطلاق - انه ربما كان قد عاد الى استخدام رمز العنقاء على كتبه بعد هذا او انه لم يستخدمه بعد هذا ابدا - انني اعرف على الاقل ان هذا الرمز لم يكن موجودا على طبعة

مذكرات الرحلات التي رايت نسخة منها في لوزيانا ، او على تلك الطبعة التي رايتها في قلعة دونللي .

ولم تكن لدي اية فكرة عن الكيفية التي يمكن بها للمرء ان يتحقق من ان مثل هذا الحريق قد حدث ابدا ، كان هناك افتراض البحث عما حدث لمؤسسة ج. ج. جونسون ، ومحاولة اقتفاء آثارها . ووجدت ان هذه الفكرة لا تبعث على التشجيع ، فاني لا املك المهوبة اللازمة للقيام بهذا النوع من الاعمال البوليسية . ومن سوء الحظ ان بوزويل كان في ادنبرة يتلقى تدريبا على اعمال المحاماة في السنوات بين ١٧٦٩ - ١٧٧٢ ، والا لكان بالتأكيد قد ذكر شيئا عن ذلك الحريق - طالما ان ج. ج. جونسون كان ايضا هو الناشر الخاص للدكتور جونسون .



هذا هو ما يقدم السبب الذي جعل ايامي اثنائية لزيارتي لقلعة دونللي خالية من اي شيء ذي اهمية يتعلق بهذه القصة . كانت خطابات دونللي هي املي الذي تعلقت به ، اما الان فلم اكن واثقا مما ينبغي علي ان اقوم به بعد هذا . طلبت بالتليفون او زرت كل مكتبة عامة بين مدينتي كورك وسليجو . كانت بعض هذه المكتبات تملك نسخة من « مذكرات الرحلات » ولكن لم يكن لدى احداها اي شيء آخر . وحاول كيفين روش ان يقدم نوعا من العون ، مقترحا اللجوء الى بعض معارفه في العالم الاكاديمي الذين ربما كانوا يعرفون شيئا عن دونللي ، ولكن لم يؤد اي من هذه الاقتراحات الى شيء نافع . كتبت الى تيم موريسون في المتحف البريطاني ، والى كل بائع كتب قديمة اعرفه . ورغم ان تيم كان عاجزا عن اكتشاف مزيد من المراجع التي تشير الى دونللي ، فانه كان قادرا على اضافة فقرة واحدة الى « الملف » الخاص لدي بجامعة العنقاء . وكان ما كتبه كما يلي :

« لقد تبادلت حديثا مع تيد مالوري ، وهو خبيرنا المتخصص في شؤون الكنيسة في العصور الوسطى ، ودار حديثنا حول ما اسميته « جماعة العنقاء » وكانت لديه تنف مفيدة من المعلومات . قال لي انه ليس هناك دليل يثبت ان جماعة العنقاء واخوة الروح الحرة كانا شيئا واحدا . فقد كانت هذه الاخيرة جماعة من الهراطقة المجدفين ، اسسها رجل يدعى آليريك دي بينا كان قد طرد من جامعة باريس عام ١٢٠٤ ومات في عام ١٢٠٩ . وكان اساس تعاليمهم ان الانسان يمتزج في الله عن طريق العشق ، وانه حينما يحدث هذا تصبح الخطيئة مستحيلة بالنسبة للانسان . ولهذا فقد مارست هذه الجماعة حرية جنسية كبيرة ، واحرق عدد كبير منهم على اعمدة منصات الاحراق ، وكانت بين هؤلاء امرأة تدعى مارجريت من هيتولن ، وهي راهبة مزيفة ، يبدو انها كانت مصابة بداء الشبق او الفلمة » .

اما الاشارة الوحيدة الى جماعة العنقاء التي استطاع تيد ان يعثر عليها فوردت في كتاب سانت نيلس سورسكي (١٤٣٣ - ١٥٠٨) في نهاية مقالته الثالثة حول الصلاة الروحية . وهذه هي ترجمتها عن الالمانية من طبعة عام ١٩٠٣ ، وهي ترجمة بدائية جدا وخشنة :

« من الافكار التي شاع اعتناقها دائما ان المعتقدات الخارجة على العقيدة الصحيحة والهرطقية لا تهدد بالخطر سوى اولئك الذين يعتقدونها ، والا اولئك الذين يتصلون بالاولين او يقعون تحت سيطرتهم . ولكن القديس ثيودوسيوس يقول لنا ان الله يبغضهم في حد ذاتهم ، وانهم قد يتسبون في عذاب (أو معاقبة) الابرياء . وان حالة جماعة العنقاء في مقاطعة سيميريشنسيك لتقدم اكثر الامثلة رعبا على ذلك . لقد آمنوا بأنه يمكن للرجال والنساء ان يحصلوا على الكشف الالهي المقدس من خلال اللذة الجسدية بدلا من الصلاة . وان قريتهم (معسكرهم) بالقرب من بحيرة اسيكول كانت مليئة بالفسق والدعارة . ثم كان ان ارسل الله العزيز وباء قضى عليهم جميعا ثم انتشر الوباء من هناك في طول بلاد السكيثيين الشماليين وعرضها ، ومن ثم في العالم كله . وكان هذا في عالم الرب ١٣٣٨ . »

وبهذه المناسبة ، قد يكون من الامور الهامة بالنسبة لك ان تعرف ان الاثري الروسي تشوفولسون يؤمن بان الموت الاسود (الطاعون) قد بدا في معسكر نسطوري بالقرب من بحيرة اسيك - كول في مقاطعة سيميريشنسيك - وهي مقاطعة في بلاد القرغيز بالقرب من حدود الصين والهند . وقد دافع عن هذا الرأي وايده البروفسور ر. بوليتزير في مقالته « الطاعون » في نشرة منظمة الصحة العالمية انصادرة في جنيف عام ١٩٥٤ في الصفحة رقم ١٣ . »

كان كل هذا ساحرا لللب بالطبع ، ولكنه اثار عددا من الاسئلة التي لا يمكن الاجابة عليها بحيث انه كان ايضا دافعا الى الشعور بالاحباط والخيبة . من الذي انشأ جماعة العنقاء ، ولماذا ؟ ماذا كانت تعاليمها ؟ كان القرنان الحادي عشر والثاني عشر عصرا تأسس فيه كثير من الجماعات الهرطقية : الوالديين ، والابيجانيين ، والخليسيقيين - وقد اتهم الاخيريون دائما بانهم كانوا يقيمون احتفالات دينية ذات جو محوم تحول الى ممارسات جنسية جماعية مسعورة . فاذا كان ينظر الى جماعة العنقاء باعتبارها مسؤولة عن وباء الموت الاسود ، فلماذا لم يعثر لها على وثائق كافية ؟

ولم يكن هذا بعيدا عن موضوع بحثي مثلما يبدو من مظهره . فلو انني لم استطع ان اعثر على المزيد من المعلومات عن ايزموند دونلي ، فاني قد اتمكن على الاقل من تفذية مقدمتي بمثل هذه المادة . اما فيما يتعلق بالنص نفسه فانه يمكن ان يتكون من مقتطفات من كتاب « عن افتضاض العذارى » ومن كتاب فليشر المتحول : « م. س » ، بالإضافة الى المخطوطة التي لا شك في صحة نسبتها والتي حصلت عليها من الكولونيل دونلي ، بالإضافة الى مقالة « رفض لفلسفة هيوم » . وكان معنى هذا ان مشكلتي الاساسية ما تزال هي العثور على مزيد من المادة لمقدمتي .

في يوم السبت التالي لعودتنا من اميركا ، وقعت احدى تلك المصادفات التي تعلمت منها ان اسلم ببعض الاشياء التي تتضمن اي نوع من انواع الهواجس او

الافكار المتسلطة . كانت ديانا ، وماري التي تأتي يوميا لمعاونتنا في شؤون المنزل ، تفحصان صندوقا قديما مليئا بالخطابات ، واضعتين في اعتبارهما ان تلقيا الى النار باكبر عدد ممكن منها . والتقطت موبسي خطابا يحمل علامة خاتم على شيء من الدقة تعبر طرفه الاعلى ، وتمثل العلامة صورة الحية ملتفة حول جذع شجرة التفاح ، وهي تهمس لحواء . وبالطريقة التي يتصرف بها الاطفال حين يشعرون بأنهم لا يحصلون على ما يكفي من الانتباه ، جاءت موبسي الى حجرة المكتب حيث كنت جالسا اكتب وقالت : « انظر الى ما جئت لك به ، يا بابا . » وظننت ان ديانا هي التي ارسلت الخطاب معها فالقيت نظرة سريعة الى التوقيع وقرات :

« كلوس دنكلمان » ثم نظرت الى الخطاب نفسه . كان تاريخ الخطاب عام ١٩٦٠ وكان خطابا متملقا حول كتاب « اليوميات الجنسية » الذي كان قد صدر فسي فترة باكرة من ذلك العام ، وكان كاتب الخطاب يسألني ان كنت على علم بأعمال ويلهلم رايش ، ثم راح يسجل عناوين كتب ينفي عليّ في رأيه ان اقراها . كان خطابا من نوع مألوف ، وحتى بالنسبة الى الايحاء بأن كاتب الخطاب يملك الكثير الذي يمكنه ان يعلمني اياه لو انني عنيت بان اصفي اليه ، وان علينا ان نتبادل الكثير من الخطابات الطويلة . وكانت ديانا قد كتبت عليه بخط مهوش :

« تمت الاجابة عليه ٩ / ١١ / ٦٠ » واعتقد انني قد شكرته على اقتراحاته ، ووعدته بان اقرا الكتب التي ذكرها . وكنت على وشك ان القي الخطاب في سلة المهملات القائمة الى جوارى حينما التقطت عيني اسم « ا. دونلي » . وكانت الجملة تقول : « من الطبيعي ان تكون افكار كورنر قد اثارها كتابات مفكرين متعددين : دي صاد وكراولي و « ا. دونلي » وكويرارار وادوارد سيلون . الخ » . من الواضح ان كورنر كان تلميذا لرايش الذي اعتقد ان النشوة الجنسية تحتوي سر الصحة النفسية .

وكان العنوان على الخطاب هو « كومبلين جاردنز ، هامبستيد الفرية . » وبدا لي انه من غير المتوقع ان يكون كاتب الخطاب ما يزال مقيما في نفس العنوان بعد تسع سنوات ، ولكن الامر كان يستحق المحاولة ، وهكذا فقد كتبت اليه خطابا اذكر له فيه اهتمامي بدونلي .

وفي يوم الاثنين التالي ، كان عليّ ان افكر من جديد في المشكلة المرحجة التي تمثلها الانستان دونلي المقيمتان في قلعة دونلي . وصل خطاب في ذلك اليوم ، يحمل توقيعيهما معا ، ولكن يمكن ان نفترض ان كاتبته هي ميس البين . قالت ان مقابلتها لي كانت امرا ممتعا ، وكيف انها كانت قادرة على ان ترى من لحظة واحدة انني كنت جديرا بالثقة وان سمعة ايزموند سوف تكون في امان بين يدي . رحت اثن تحت وطأة شعوري بالحرج وانا اقرا الخطاب . كانت مسرورة من ان كاتبها له مثل سمعتي قد اهتم - في النهاية - بايزموند ، وشعرت بانني ساكون الشخص المناسب للقيام بكتابة ترجمة ذات قيمة له . . . القيت بالخطاب على الفراش واحتسيت قدح الشاي . كان عزمي الاول ان القي به في سلة المهملات

وان انساه . راودتني فكرة انه ليس سوى نوع لعين من المضايقة وانهما يجب ان تتركاني وشائي . ان لدي اشياء اخرى اقوم بها افضل من كتابة ترجمة معتمدة لها قيمتها . ومن الطبيعي ان يكون احياء الاهتمام بايزموند شيئا في صالحهما الى درجة عظيمة ، فانهما سوف تكونان قادرتين على بيع اوراقه الى احدى الجامعات الاميريكية بمبلغ كبير من المال .

ولكن المشكلة ظلت تؤرقني . كنت قد انتويت ببساطة الا اعود الى الاتصال بهما ثانية . وعلى كل حال ، فاني لم استفد في شيء باي جزء من المادة التي تملكناها . انني لست مدينا لهما بشيء . وعليّ الان ان امعن في الخداع ، او ان اقوم بعمل من اعمال كبح النفس بان اتجاهل خطابها . وفجأة قررت انه ليس هناك سوى سبيل واحد بسيط : ان اخبرهما بالحقيقة كاملة . ارتدبت بسرعة ثوبا منزليا وهرعت الى حجرة المكتب ، متلهفا على الخلاص من هذه الفكرة بتنفيذها . كان خطابا طويلا - وكان لا بد له ان يكون يمثل هذا الطول ، طالما انني كنت مصمما على التحلل من حملي . بدأت بالاشارة الى انها لا بد تعرف ان كتاب « عن افتضاض العذارى » كان منسوبا الى دونللي - بل انني رايت منه نسخة في بيت استاذ في جلاواي . واخيرتها بأمر الناشر في نيويورك ، وشرحت لها انه كان مصمما على الماضي في هذا العمل على اي حال ، سواء تعاونت معه ام لا . وبينت لها ان مخطوطة فليشر لم تكن سوى عمل مزور ، وانه في تقديري الخاص ، ليس هناك سبيل لتبرئة ذمة ايزموند ، في ظل الظروف الحقيقية القائمة ، سوى نشر اكبر عدد ممكن من اعماله الاصيلية الحقيقية . وبصراحة ايضا اخبرتها بانه لم يكن ثمة في الاوراق التي تملكها ما يمكن ان يكون ذا نفع لي ، طالما ان خطاباته التي كان يرسلها الى بيته كانت خالية من كل ما يدعو الى اللوم ، بالقدر الذي لا بد لكل انسان ان يتوقعه .

وفي طريقي الى صندوق البريد قلت لنفسي انه من المحتمل ان يكون ما افعله الان عملا غيبيا . انني لم اذكر ما اقوم به لديانا ، طالما انني كنت واثقا من انها ستبدل جهدها لكي تمنعني منه . بل ان ميس دونللي قد تكتب خطابا الى الناشر والى هيئة حقوق المؤلفين تستنكر فيه مشروعني فتحجب عني كل مصادر المعلومات . ولكن كانت هذه مخاطرة لا بد لي من القيام بها وتحمل نتائجها . اسقطت الخطاب في صندوق البريد شاعرا باحساس الرجل الذي يسدد مسدسا الى راسه بنفسه .

وفي الصباح التالي ، كنت ما ازال مخدرا من اثر النوم حينما دق جرس التليفون . رفعت ديانا السماعة الموضوعة الى جوار الفراش ثم قالت :

« ميس الين دونللي تريد ان تكلمك . »

اننت متضجرا ، وشعرت بما يفريني ان اطلب منها ابلاغها انني لست في المنزل ، ولكن ضميري تدخل وكسب الموقف ، وقلت انها لو تعاركت معي ، فسوف استطيع على الاقل ان امضي في خطتي دون ان اكره نفسي .

جاء صوتها في التليفون : « هيلو ، مستر سورم ؟ »
« هو الذي يتكلم . »

« لقد تسلمت خطابك الان توا . انني شديدة السرور لانك كنت صريحا معي الى هذا الحد . هذا منتهى الرقة والدماثة من جانبك . لقد طلبتك الان لكي اقول لك انني افهم ما تقصده تماما . »
« اتفهمين قصدي حقا ؟ »

كنت مبهور الانفاس للمفاجأة ، وكنت اتساءل متعجبا عما ترمي اليه في النهاية .

« اسمع . استنتج مما تقوله انه ليس هناك الكثير انذي نستطيع عمله مع ذلك الناشر . »

« أخشى ان يكون الوضع بهذا الشكل . »

« حسنا ، بالضبط . اذن فان احسن ما يمكن عمله بعد هذا هو التأكد من ان الامور لن تفلت من ايدينا . علينا ان نحصر على مراقبته باستمرار . لقد اتفقت انا وتينا ان علينا ان نقدم كل مساعدة ممكنة . »

قلت انني اشعر بالابتهاج بالطبع . ولكنني في الحقيقة لم اكن اعرف ماذا يمكن ان اقله او افكر فيه . كنت بحاجة الى بعض الوقت لكي استجمع افكاري . ولكنها لم تمنحني الفرصة .

« اننا نود ان نناقش هذا الامر معك . متى يمكنك ان تأتي الى هنا ؟ »

« اي وقت ملائم لكما سيكون ملائما لي . »

« ما رايك في اليوم بعد عدة ساعات ؟ »

قلت انني موافق على هذا ، وشعرت بموجة من الراحة تجتاحني حينما انتهت المكالمة وانقطع خط الاتصال .

في تلك اللحظات كانت ديانا قد اعدت الشاي ، وكنت قد بدأت افهم ما حدث . ان الشقيقتين دوللي لا تملكان ما تفقدانه بنشر « اليوميات الجنسية » التي كتبها ايزموند ، وخاصة اذا ما استطاعتا ان تبيعا المنزل . وقد اكدت لهما ان اليوميات لم تكن مجرد ادب داعر مكشوف ، وانها قد تؤدي الى خطوة حقيقية نحو بحث سمعة ايزموند ، وان في هذه الايام الحالية حيث تسود الصراحة الجنسية لن يطرف احد جفنه ازاء نشرها . وكنت قد اشرت الى مذكرات بوزويل وما اليها ، ولا بد ان ميس الين قد قررت انه من الافضل لهما ان تكونا في مركبة المقدمة من هذه القافلة المنطاقة الى الامام مع سائر العصاة . ومن المؤكد ان الكشف الكامل عن اوراقها سوف يكون نافعا في كتابة الجانب التاريخي عن حياة ايزموند في المقدمة . ولكنها اذا كانت تأمل في اقناع فليشر بدفع خمسة عشر الف دولار اخرى في مقابل استخدام تلك الاوراق وما تملكه من مواد عن ايزموند، فانها لا بد ستنتهي بآمالها الى الاخفاق والخيبة .

كنت اشعر بكآبة لا حد لها وانا اقود السيارة الى ليمريك بعد ساعات قليلة

من منتصف النهار ، وكنت قبل هذا قد اتصلت بكيفين روش واستعرت منه
نسخته من كتاب « عن اقتضاض العذارى » . وكنت احمل معي الان الشدرات
الآخري من « اليوميات الجنسية » ، ربما في ذلك مخطوطة فليشر الاصلية . ولكنه
كان يوما جميلا . كانت رائحة الهواء طازجة ، وبدا كل شيء مجللا باللون الاخضر
حتى لقد كان من المستحيل الا يستمتع المرء به . وحالما استرخت اعصابي وقررت
ان انسى الشقيقتين دوللي ، اجتاحني احساس عظيم بالدفاء والخصوبة ،
وبامكانيات واحتمالات العالم الهائلة التي تحجبها ميولنا الى البقاء محصورين
في سجون دوافعنا الصغيرة . وتبلور هذا الاحساس اكثر حينما جلست لكسي
احتسي قدحا من البيرة خارج دكان لبيع البقالة على بعد اميال قليلة الى الجنوب
من جورت ، مصفيا الى خرير المياه وهي تنساب تحت الجسد وتجري نحو
« لوف كوترا » . وفجأة اصبح شيئا غير ذي بال سواء ذهبت الى ليمريك ام بقيت
في مكاني . سوف يستمر الماء يسيل في مجراه ، وسوف تبلى على حالها هذه
الشجرة بأوراقها ذات الالوان الليمونية والتي تطل على المجرى كأنها تراقبه او
ترعاه . وخطر لي فجأة انه يكمن هنا واحد من أغرب واهم ما يتعلق بالوجود
الانساني : هذه القدرة التي يمتلكها العقل الانساني على الابتعاد بنفسه عن
الناس والاحداث ، وعلى التوقف عن تشبيه نفسه بالعواطف الانسانية او العثور
على ذاته فيها ، وعلى محاولة التعرف على ذاته - بدلا من ذلك - من خلال
اللانهاثي وما لا زمان له ، عالم الطبيعة . ماذا يحدث ؟ وقفت على حافة الجسر
ورحت ارقب الماء وهو يعكس اشعة الشمس ، وبدا لي ان شيئا ما في داخلي
يسير مع سريان الماء ويجري معه في مجراه ، وينطلق بعيدا في اتجاه البحيرة .
وحينما عدت الى السيارة وبدأت اقودها ، اجتاحني احساس غريب كأنما تحررت
روحي من الجسد ، وكأنما كانت تطير بمحاذاتي مثل طائر طليق يحلق احيانا في
الاعالي ثم ينقض فجأة الى اسفل من حين الى حين ، وحينما عاد عقلي الى
الشقيقتين دوللي ، كان احساسني بالاختناق والضجر قد اختفى .

حينما رايت ميس ايلين وهي تهبط درجات السلم لتقابلني ، عبرت بي لحظة
فهم مفاجئة ، ولكنها قضت على هذا الفهم بأن اخذت يدي في قبضتها الرجولية
وراحت تقول : « حسنا ، حسنا . من يواعث السرور ان اراك ثانية . » ثم دخلنا
الى قاعة المكتبة ولم تكن ميس تينا هناك . اتخذت مجلسي على مقعد مترب ذي
مستلين من مقاعد القرن التاسع عشر ، كان معرضا لاشعة الشمس ، تاركا ميس
ايلين تتولى مهمة الكلام . وكان عليّ ان اعجب بذهنها الوقاد .

كانت تقول :

« حسنا ، ليس هناك مبرر فيما ارى للوقوف في وجه هذا الكتاب . ومثلما
قلت انت ، فانه كان من المقدر له ان يصدر أجلا او عاجلا . وهكذا فان احسن
فكرة ممكنة هي محاولة الاحتفاظ به بين يديك . وبهذه المناسبة ، فسي اي
جامعة كنت تعمل ؟ »

أجبتها بأنني لم اكن اعمل في اي جامعة ، ولكنها تجاهلت ذلك وازاحتها جانبا ثم قالت : « لا تعتقد ان لهذا اية اهمية . من الواضح انك فتي من نوع كفو وذكي ، فلو انك كنت البادئ بكتابك عن ايزموند ، فسوف يكون على الآخرين ان يتبعوك على الطريق . »

كانت تسلم بداهة بأنني ينبغي ان اكتب ترجمة كاملة لدونلي ، ولم اكن احب ان اخيب املها في هذه المرحلة ، وهكذا فقد اومأت براسي ولم اقل شيئا . وجاءت ميس تينا بالشاي والشطائر ، وحيثني كصديق قديم ، وحينما اخذ كل منا قدحه وطبقه ، قالت :

« يجب عليّ ان اقول ، انها كانت مفاجأة كاملة لي ان اسمع ان ايزموند كان سيء السمعة الى هذا الحد . انني لم ابدأ بهذا الكتاب الذي تدعوه « بافتضاض العذارى . » نظقت بهذه العبارة دون اي بادرة تدل على الحرج ، فانتهزت انا هذه الفرصة لكي اخرج الكتاب من حقيبة اوراقى ، بالاضافة الى النسخة التي كتبت بالالة الكاتبة نقلا عن مخطوطة الكولونيل دونلي . وبينما كانتا تلقيان عليهما نظرات هابرة ، قلت :

« ترى هل يمكنكما السماح لي بأن ألقى نظرة اخرى على كتب دونلي ؟ » ثم انزلت « الملاحظات » والمجلات الاربعة لكتاب « يوميات الرحلات » من مكانها ، ثم عدت فاتخذت مجلسا على المقعد القريب من النافذة ، حتى لا اشعرها بالحرج . ومن حين الى حين ، كنت اسمع ميس الين وهي تغمغم قائلة : « انظري ! » ثم تدفع بالكتاب الى ميس تينا ، التي كانت ترمقني حينذاك بنظرة سريعة ، ثم تقرأ بتعمق ولسانها يصدر اصواتا متلاحقة كالفرقات .

فتحت كتاب الملاحظات ، واخرجت رسم العنقاء . رفعت الورقة لكسي اعرضها للضوء ، أجل ، كانت هناك علامة مائية ، اخفى الرسم جزءا منها . وحينئذ كان عليّ ان اكبح ما انتابني من رغبة في الضحك بصوت مرتفع . كانت العلامة المائية على شكل عنقاء !

قارنت بين الرسم الدقيق المليء بالدوائر الدقيقة (أو ما يمكن ان يدعى بالخطوط المحفورة المتلاحقة) بصورة العنقاء المحفورة بطريقة الضغط على القلاف . كانا متشابهين في خطوطهما الخارجية ، ولكن كانت هناك ستة اختلافات . لم يكن الرسم واحدا بشكل قاطع تماما .

حينما رفعت ميس ايلين عينيها لكي تنظر اليّ ، اطلعتها على رسم العنقاء . نظرت اليه بسرعة ثم قالت : « آآم ، انه جميل ، الى حد ما . » ثم اعادته اليّ ، لم تكن مهتمة اهتماما حقيقيا .

قالت ميس تينا : « هل اطلعت مستر سورم على الخطابات ، يا عزيزتي ؟ »
« آه كلا ، لقد نسيت . »

ذهبت الى الحجرة الصغيرة المجاورة ، وعادت بحزمة من الاوراق حزمتم بشريط . قالت : « اخبرتني تينا بأنك اردت ان تعرف ان كان هناك حفر على

الخشب لطائر العنقاء في الخزانة العلوية ، ولذلك قمنا ببحث دقيق ، ولكننا لم نمش على عنقائك ، غير اننا عثرنا على الكثير من الاوراق القديمة - صناديق كبيرة مليئة بها . ولا اظن ان لاكثرها علاقة بايزموند ، ولكن يبدو ان هذه الاوراق كانت خطابات موجهة اليه . »

حلت عقدة الشريط بسرعة ، وحالما بدأت في فصل الاوراق عن بعضها سقط على الارض شيء ما من مظروف مفتوح . التقطت هذا الشيء . كان رسما دقيقا محفورا ، دون اطار ، وقد رسم على قطعة صغيرة نحتت من قوقعة محارة ربما كانت من محارات اللؤلؤ . كان الرسم لفتاة شديدة الجمال ، وقد تدلى شعرها في حلقات متلاحقة حتى الكتفين ، ولم يكتب عليه شيء .

لم تكن الخطابات نفسها بخط يد ايزموند دونلي ، وبدا ان بعضها كان مرسلا من شخص يدعى توماس والجريف ، وبعضها ممن يدعى ويليام آستون ، وبعضها ممن يدعى هوراس جليبي . ولم يد على الاوراق انها كانت خاضعة لاي نظام او ترتيب . كان بعضها داخل اغلفة وبعضها الاخر دون غلاف ، ومن الواضح ان والجريف كان قسا من دبلين ، اما آستون فقد عاش في كورك . وسرعان ما تبينت ان جليبي كان زميلا من زملاء الدراسة رافق دونلي في جوتينجين . ومن الواضح انه كان ابنا للورد « جليبي اوف جو لسباي » في مقاطعة شاتر لاند . وفي وسط هذه الكومة من الخطابات ، كان هناك غلاف خاص لم يكتب عليه شيء . وبداخله ، عثرت على قصاصة من الورق ، قطعت اطرافها بحيث تتشابه مع الرسم المحفور على المحارة ، وكتب عليها بخط يد ايزموند دونللي : « لادي شارلوت انيجستر . الابنة الثانية لابرل فلا كستيد . » وفي داخل الغلاف نفسه كان هناك ما ثبت انه صحيفة من خطاب كتب بخط ايزموند دونلي . وحينما قرأت هذه الصحيفة عرفت انني قد عثرت على شيء جديد لكتابي . كانت الصحيفة تقول :

قال فولتير في قاموسه الفلسفي ان التحزب والخطأ مترادفان طالما انه ليس هناك مكان للرأي المتحزب في الامور التي نعرف انها حقيقة صادقة . كما نرى على سبيل المثال في الهندسة او العلم . وهو يقول ان معتقداتنا الدينية ينبغي ان تقوم على امور تثقف عليها كل العقول . ولكنه يمضي لكي يؤكد ان كل العقول تتفق على عبادة الله وعلى الامانة والصدق . وليس هذا صحيحا ، لان البوذيين لا يقبلون بالله ، ولليسوعيين تحفظاتهم على مسألة الامانة . فهل ثمة اذن اي اساس مشترك للاتفاق الديني ؟

ان حجتني ايها الصديق العزيز تقوم على قولتي بانه ليس هناك رجل ذكي لا يستطيع ان يقتنع بأن هذا العالم لغز غامض . اننا لا نحتاج الا للحظة واحدة من التفكير لكي نعرف ان كل معتقداتنا التي ترقى الى مرتبة اليقين ليست سوى معتقدات قامت على اساس من التعمد ، نطيعها مثلما نطيع قواعد لعبة « البيكيت » او « الهويست » من ألعاب الورق ، ولكن دون دليل يبرهن او يؤكد صحتها .

والادبان تؤكد ان ما يقع خارج نطاق قواعد الالعب التي نمارسها مجهول ولا يمكن معرفته ، او ان الله وحده والملائكة يعرفه ويعرفونه . ولكن العلم قد علمنا ان من الممكن ان نفهم اي شيء اذا كان منهج البحث متكاملا بما فيه الكفاية ومنطقيًا .

وقد اضيف الى حجتي ايضا قولي بان معتقداتنا التي تصل الى مرتبة اليقين (او ان ما نحن موقنون بوجوده) ليس مما يمكن رؤيته ، وانما مما يمكن ان يحس به ، مثلما احس الان بدفء الشمس فوق يدي في اثناء الكتابة . وقد اقول ايضا ان ما تعودنا عليه من محاولة الوصول الى الحقيقة بوسائل الابصار او الاستنتاج العقلي ، قد اعمتنا بما تحمله من طبيعتها الحقيقية ، مثلما هي حالة الرجل الذي يحاول ان يعرف الفرق بين عصفور من عصافير الكناريا وبين الشاي البارد عن طريق حاسة الابصار وحدها . ان لغز العالم الغامض يصبح ماثلا امامنا في تلك اللحظات التي تتحرك فيها ارواحنا حركة شديدة عميقة او حينما يستبد بها القلق او يزعجها شيء ما ازعاجا قويا ، وذلك اذا ما كانت الحركة الناتجة حركة منتظمة ومتناغمة . في لحظات الغموض تلك نصبح كما لو كنا قد ادركنا وجود تيار قوي يجري تحت الارض ، مثل ذلك التيار الذي سمعت صوته بالقرب من فيرّض ، وربما نشعر احيانا بشدة قربة منا حتى ليمكننا حينذاك ان نسمع صوت جريانه .

انني حينما اشكو من السأم ، فأنني اصبح مثل من اصابه الصمم بسبب اصابة برد في الرأس ، حينذاك لا اسمع شيئا . وحينما ارفع بصري لكي انظر الى وجه شارلوت انجستر ، يختفي الصمم ، واسمع صوت جريان الماء تحت قدمي .

ومن المؤكد انه اذا كان الدين هو ذلك الاحساس بغموض العالم والخليقة ، وبضخامة وامتداد ذلك اللغز الغامض ، اذن فانه ليس هناك من شيء يمكن ان يدلنا على الطريق المقدس افضل من النساء والجبال ؟ لماذا لا ينبغي ان يكون ...



تنتهي القصة هنا ، في منتصف الصحيفة ، كما لو كان الكاتب قد قاطعه شيء ما . ولكن كلمات « ايها الصديق العزيز » بدت لي كما لو كانت توحى بان دونللي انما كان يكتب مسودة اولية لخطاب ، وانه قد قرر فجأة انه قد يكون من الافضل ان يشرع في نسخ ما كتب في الخطاب نفسه وان يكمله بعد هذا مباشرة دون حاجة الى مسودة . فمن الذي كان سيتلقى هذا الخطاب ؟ كان الغلاف الذي احتوى القصة موضوعا وسط حزمة الخطابات الواردة من هوراس جليني ، وكانت خطابات جليني الى دونللي تكثر من الاقتطاف من كتابات فولتير وفونتاينيل ودالامبير ، كان الافتراض المعقول اذن ان يكون جليني - وهو زميل دونللي في الدراسة بالكلية العليا في جويتينجين - هو من يتلقى خواطر دونللي الخاصة وتأملاته الدينية .

كانت ميس ايلين قد وضعت نسخة المخطوطة جانبا ، وراحت تنظر من النافذة نظرة غائمة . سألته :

« هل حدث ابدا ان سمعت عن سيدة تدعى اللادي شارلوت انجستر ؟ »

جفلت الاختان معا لدى سماعهما هذا السؤال . وكانت ميس تينا هي التي

قالت بعد ان رمقت اختها بنظرة سريعة :

« لماذا ؟ اجل . كانت ابنة ايرل فلاكسفيد ... »

ثم توقفت عن الكلام ، كما لو كانت قد شعرت بالحرج ، ولكن ميس ايلين انتهت كلام اختها بقولها : « وشقيقة لادي ماري انجستر التي اصبحت فيما بعد ماري جيليني . »

لم اكن بحاجة الى من يذكرني بهذا الاسم الاخير ، فقد ظل الاسم عالقا بذهني منذ الاسبوع الماضي حينما ذكرته ميس الين اول مرة في التليفون . قلت :

« هل حدث ان عرفت ان ايزموند كان يحب اللادي شارلوت ؟ »

قالت ميس تينا : « يقولون انه كان يحب الثلاث » ٩ .

« الثلاث ؟ »

« لادي ماري ولادي شارلوت ، ولادي مورين . » قالت هذا ثم نظرت الى

اختها بضيق . هزت ميس الين كتفها وقالت :

« اعتقد انه سيكتشف حقيقة الامر على اي حال . »

قالت ميس تينا : « لقد كن جميعا جميلات جدا بكل تأكيد . »

« هل توجد لهن اي صور ؟ »

« اوه، اجل . ان الصورة التي رسمها رومني (١) مشهورة تماما . »

« اين هي ؟ »

بدت عليهما امارات الدهشة لجهلي ، وقالت تينا :

« هنا ، بالطبع . »

« ايمكنني ان اراها ؟ »

نهضت كلتاها دون كلام ، وقادتاني خارج الحجرة . وفي البهو ، اختفت

ميس الين لدقائق قليلة ، ثم عادت وهي تحمل مفتاحا ضخما . عبرنا البهو نحو

بابين كبيرين من خشب الماهوجني . قالت ميس تينا :

« يصر رجال شركة التأمين على ان تظل قاعة اللوحات مغلقة ، فان بعض

الصور تساوي قدرا كبيرا من المال . »

فتحت ميس الين الباب ، فهبّت علينا هبة من هواء بارد قوي الرائحة .

اضاءت الانوار ، فدخلنا الى « المعرض الطويل » وكان باردا كالثلج . كانت النوافذ

(١) جورج رومني - ١٧٢٤ - ١٨٠٢ - رسام انجليزي رومانتيكي اشتهر بلوحاته التاريخية

وبتصويره للوجوه والشخصيات المعاصرة . اكثر من استخدام الالوان (الاسود والاحمر

والذهبي والازرق) متأثرا في ذلك بديلاكروا الفرنسي . (هـ . م .)

مغطاة بالضلف الخشبية ، والمناضد والمقاعد مخفية تحت الاغطية . كان من السهل ان اتصور ان احدا لم يدخل هذا المكان منذ سنة واحدة كاملة على الاقل . قادتني الى صورة صغيرة نوعا ما معلقة على الجدار الاخير . كانت الصورة بحاجة الى تنظيف ، ورغم هذا فان ما علق بها من اتربة لم يخف جمال الوجوه الثلاثة . كانت الفتيات في وقفة تقليدية تبدو وراءهن خلفية من الاشجار . وجزء من نبع ماء جار . كانت شارلوت - التي رايت صورتها منذ قليل - معروفة لدي بسهولة وعلى الفور . وكان الجمال هو الشيء الوحيد الذي تشترك فيه الشقيقات الثلاث . كان وجه شارلوت بريئا ذا خدين ورديين ، كوجه اركادي اصيل . اما الفتاة الجالسة الى جوارها مباشرة وهي تلاعب كلبا صغيرا كثيف الشعر ، فكان من الواضح انها اكثر ذكاء ، بوجهها الناعم الرقيق المرتفع على رقبة مثل رقبة البجعة . اما شعرها فقصير يكاد يشبه شعر الصبيان . قالت لي ميس تينا ان هذه هي ماري ، التي اصبحت فيما بعد لادي ماري جيلني . اما موريس ، والتي كان من الواضح انها اصغرهن ، فقد كان لها وجه لا بد انه اصبح بعد ذلك بالغ الجمال ، وكانت تبدو هي الاخرى رقيقة كريمة . كان من الواضح انها فياضة العاطفة دافئة القلب ، من النوع الذي يمكن ان ينفجر في البكاء عند سماع قصة محزنة . امتدت احدي يديها لكي تلاطف الكلب . هذه الاشارة الواضحة الرمز الى طبيعتها المترعة بالعاطف .

قالت ميس تينا بكبرياء : « لقد دفع ايزموند وحده ثلاثين جنيهها لرومني في مقابل تلك اللوحة . وقد عرضت علينا خمسة الاف جنيه ثمنها لها » . كان بوسعي ان ارى السبب الذي دفع الى رواج الشائعات عن وقوع ايزموند في هوى الشقيقات الثلاث جميعا . فبعد التحديق في صورة الوجوه الثلاثة لمدة خمس دقائق اصبحت انا نفسي قريبا من الاقتناع بهذا الهوى الثلاثي كحقيقة ممكنة . كانت لكل واحدة منهن مميزات خاصة تلوح على وجهها تبدو كما لو كانت تبرز وتطفو على سطح الوجه كلما اطال المرء التحديق فيه . لقد كان بوسعي ان اكتب رواية عن ثلاثتهن .

« الديكن صورة يبدو فيها وجه ايزموند ؟ »

« اوه ، اجل ، لدينا اثنتان . واحدة بريشة ريبورن والاخرى بريشة رسام يدعى زوفاني » .

لم توح الي لوحة زوفاني الا بالقليل . كان الوجه جامدا لا ينم عن حركة ، مفتقدا الى كل اثر من شرارات الحياة . كان دونللي في الصورة يرتدي زي الضباط متكئا على شجرة . كان من الواضح انه بالغ الطول نحيف القامة . اما الوجه فكان طويلا ، بارز الفك ، مستقيم الانف .

اما لوحة ريبورن فكانت اكثر احياء . لم يكن فيها اي ادعاء او تظاهر ، ولا تكاد تظهر فيها اية خلفية . ومن بعض جوانبها كانت تبدو كما لو كانت رسما تخطيطيا سريعا تهية لرسم الصورة نفسها . ولكن ريبورن كان قد استطاع ان يقبض على تعبير يعلو الوجه ينم عن اللفظة ، حينما رسمه متطلعا الى

الامام كما لو كان يصغي الى قصة ممثلة. لم يكن الوجه من ذلك النوع الذي يمكن ان يقال عنه انه وجه وسيم، كان الانف ذو العظمة الناثية والخدين البارزين قد جعلاني افكر في صورة شرلوك هولمز ، ولكن الفم كان بالغ الحسية . ولما التفت عن هذه اللوحة لانظر مرة اخرى الى لوحة زوفاني ، رايت مميزات اخرى في تلك الاخيرة : حجم الصدغ الذي يوحى بنوع من السيطرة على وضع الوجه وما يعطوه من تعبير ، مثلما يمكن ان نراه على وجه جواد اصيل جيد التدريب واقفا كالمثال في ساحة العرض قبل بداية السير .

وبينما كنا نغادر الحجرة - وقد تجمدت اجساد ثلاثتنا - قلت :

« اظن ان ايزموند كان يمتلك كل المميزات اللازمة لاجتذاب حشود من المعجبين والمعلقين » .

« هل تظن هذا؟ » وبدت على كليهما سمات اللفة الى الاجابة .

« ان هذه الحكاية عن وقوعه في هوى ثلاث من الحسان تجعله شخصا ملائما تماما للحكايات العاطفية - شخصا « بيرونيا » تماما ، انه شخصية اكثر اثارا للاهتمام من بوزويل نفسه » .

قالت ميس تينا : « لقد رايت ذات مرة فيلما عن شوبان . كانوا قد صنعوا هذا الفيلم بطريقة جيدة . وكنت ابكي طوال العرض » .

« اتخيل انهم قد يروق لهم ان يصنعوا فيلما عن ايزموند » .

« ايمكننا ان نربح الكثير من المال ؟ »

« اتخيل هذا » .

قالت ميس تينا : « اذن لقاسمناك الربح معنا » .

« هل تعرفين شيئا عن حكايته مع الشقيقات الثلاث ؟ »

« ليس على وجه التحديد . انها اقرب الى ان تكون حكاية عائلية » .

« وماذا عن موت لورد جيليني »

قالت ميس ايلين : « لقد اصيب بالرصاص . ولست اعرف الكثير من التفاصيل ، ولكن ابي قراها مرة في مكتبة دبلين القومية ، ولذلك فانه ليس من الصعوبة البالغة ان تراجعها . كان هناك همس حول ما احاط بايزموند من شكوك ، ولكن ابي قال انه ليس من المحتمل ابدا ان يكون للفاعل . اتمنى ان تتولى انت توضيح ذلك الامر » .

« سوف ابدل جهدي بالتأكيد » .

« قبل ان اغادر المنزل ، سعدت معهما لكي اشاهد الخزائن العلوية . كانت شديدة الظلام ، يعلوها تراب كثيف ، مليئة بركام كثير من شتى الاشياء التي تراكت عبر القرون : اطارات صور مكسورة ، كتل واشكال اخرى من الخشب لا يمكن معرفة الغرض منها ، قطع اثاث محطمة ، آنية اغتسال من البورسلين، حزم من الاوراق التي يمكن ان تكون اي شيء، من حسابات الزارع الى اليوميات المفقودة. نظرت الى هذه الحزم نظرة عابرة وفهمت ما كان البروفيسور آبوت قد شعر به

بالتأكيد في الخزائن العلوية في منزل فوربس ، عندما احاطت به المخطوطات ، ولكن ذكرى آبوت منحتني فكرة جديدة .

« اليس لديكما اية فكرة عن الشخص الذي عينه ايزموند لكي يكون مشرفا على تراثه الادبي ؟ »

نظرت احدهما الى الاخرى نظرة لا تنم عن شيء .

« كلا . سوف نحاول ان نكتشف ذلك » .

وقبل ان اغادر المنزل قلت انني لا بد ان اعود مرة اخرى في موعد قريب جدا لكي انظر في الاوراق . وحينذاك - ولشدة دهشتي - قالت ميس تينا : « اليس البسيط اذا هو اخذها معه ، يا عزيزتي ؟ » فقالت مسز الين دون تردد : « اوه ، بالتأكيد » . واخذتا في معاونتي في عملية نقل الاوراق و« تستيفها » في مقعد السيارة الخلفي ، ورفضتا بشدة قبول ما عرضته عليهما من دفع نوع من التأمين . ورحت اقود السيارة وانا اشعر بما يشبه الثقل يحط علي بسبب ثقتهما . ولما اخذت افكر في هذه الثقة ، شرعت في فهم السبب . لقد كانتا وحيدتين واقرب الى الافلاس رغم انهما تعيشان في ظل هذه العظمة الفاخرة وان كانت الناضبة الموارد والمعين ، دون اي احتمال لشيء جديد الا ان يتقدم بهما العمر نحو الشيخوخة . ومن المحتمل انهما كانتا تتساءلان ايهما سوف تغيب قبل الاخرى عن هذه الحياة . وحينما تموتان ، فمن المحتمل ان يذهب المنزل ميراثا لاحد ابناء الاسرة البعيدين عن الدين يقيمون في كندا او نيوزيلاند . ولكن كان العالم الكبير يطرق الآن بابهما . كان هناك شيء ما تحلمان به - الناشرون ، تعويضات الفيلم ، الدارسون المتخصصون يزورونهما . وقد اردتا ان تؤمنا بكل ذلك وان تصدقاه ، ولذلك فقد اردتا ان تؤمنا بي وان تصدقاني ، ان تقيلاني قبولا كاملا ، وان تنظرا الي بشيء من الود الكين . اما ما اعتبرته انا اعظم العقبات - وهي سمعة ايزموند باعتباره من كتاب الادب الداعر المكشوف - فقد تحولت لكي تصبح شيئا لا علاقة له بالعقبات او المعوقات ، منذ ان اعلنت لهما عن زيف وصف كتاباته بالادب الداعر او عدم معقولية هذا الوصف ، وصرحت لهما بانني انوي ان اعلن هذا الرأي في الكتاب المنشور نفسه . كانت الاجزاء التي حصلت عليها من مذكرات دونلي - عن طريق الكولونيل دونلي - صريحة من الناحية الجنسية ، ولكنها لم تكن اكثر صراحة من مذكرات بوزويل ، وكانت قبل كل شيء ، مكتوبة بأسلوب جيد .

جعلتني هذه الاعتبارات اشعر بانني في حالة افضل . كنت قد ظننت انه ليس هناك فرصة معقولة لحياء ذكرى دونلي حينما اعطاني فليشر مخطوطة « المذكرات » . ورغم كل شيء فقد كانت هذه نظرة مرضية .

حينما فحصت حزمة الخطابات الجديدة ، عرفت اننا قد حصلنا على كتاب ، سواء ظهرت ام لم تظهر اية مخطوطات اخرى لدونلي . فاذا استبعدنا مخطوطة دونلي ، كانت هذه الخطابات اكثر ما حصلت عليه حتى الان جاذبية واثارة

من الصعب ان نتخيل ثلاثة اشخاص يتبادلون الرسائل ويكونون ذوي شخصيات اكثر اختلافا من توماس والجريف وويليام آستون وهوراس جليني ، الى جانب انهم قد كشفوا عن تعقد شخصية دونلي نفسه . كان والجريف رجلا من دبلين اهتماماته الرئيسية هي الفلك والرياضيات ، وكانت خطاباتة الى دونلي تهتم اساسا بهذين الموضوعين . اما آستون فكان يدرس اللاهوت في احدى المدارس البروتستانتية في عام ١٧٧٢ ، وهو تاريخ الخطاب الاول ، واصبح فيما بعد قسيسا في بالينكولج ، بالقرب من مدينة كورك (حيث كان يقع منزل عائلته) . وقد ازعجه الى درجة كبيرة ما ظهر انه ميلان متناقضان في شخصية دونلي : تجاه عدم الاخلاص وتجاه « الحماس » (اي التعصب او الايمان القبيح) . فحينما كان دونلي يقتبس من فولتير وبايل ومونتسكيو ، كان آستون يجيبه بحجج مستمدة من مواعظ جورتين واوجدين ، وتيلوستون وسمارليدج وشيرلوك . ولقد وجدت كل ذلك حشوا لا لزوم له وكثيلا الى درجة لا تصدق - المناقشات الطويلة المدققة دقة من يريد ان يشق شعرة بالطول الى نصفين ، حول موضوعات التناسخ والجيرية ومقدار ما في الاناجيل من حقيقة الخ .. ولكن كان من الواضح ان ايزموند لم يكن يرى ان هذه المناقشات قد تكون مضجرة ، ذلك لان اجابات آستون كانت طويلة مطبنة ، مما يشير الى ان رسائل دونلي مساوية لها في الطول والاطناب .

ولكن خطابات جليني كانت هي التي تلاعت مع ما كنت اعرفه بالفعل عن ايزموند دونلي . فبعد ان قمت بترتيبها طبقا لتسلسلها الصحيح (مع قدر معين من التخمين - فقد كان الكثير منها غير مؤرخ) اتضح انها استمرت من شهر مايو عام ١٧٦٧ حتى عيد الميلاد عام ١٧٧١ . كان جليني وايزموند معا في جوتنجين اغلب تلك الفترة ، ولذلك لم تكن مراسلاتهما مطولة كما كانت الحالة في مراسلات آستون ومن الواضح انهما كانا يتبادلان الرسائل حينما كانا يفترقان لمدة طويلة ، ولكن هذا الافتراق لم يتكرر كثيرا لانهما كانا صديقين الى حد كبير .

اما قصة علاقتهما ، وهي التي اصبحت قادرا على تجميعها من خلال خطابات جليني (x) فتجري كالتالي : حينما التقى ايزموند دونلي بروسو وبوزهيل في نيو شاتل ، انتقل بعد ذلك الى ميلان حيث قضى عيد الميلاد في عام ١٧٦٤ . وفي شهر يناير قضى اسبوعا في البندقية ، ثم قضى اسبوعا في مدينة جراتز . في طريقه الى جوتنجين . وهناك تعرف على جورج كريستوف ليتشنبرج ، الذي اصبح فيما بعد فيلسوفا بارزا (ولكنه كان مهتما في الاساس في تلك الفترة بالرياضيات والفلك) كما تعرف بالقسيس هوراس جوردون جليني . وكان هذا

الاخير شابا وسيما داكن البشرة ، يكاد يكون يهودي الملامح ولكنته اسكتلندية واضحة في نطقه للانجليزية ، وكان اكبر بقليل من دونلي ، ولكنه اقل ثقافة بكثير، وكان الابن الثاني لاحد سادة الريف الاسكتلنديين جاء من المناطق غير المأهولة او المتحضرة من تلك البلاد . كان هناك شيء واحد يشترك فيه الثلاثة ، ليتشنبرج وجليني ودونلي - وهو الاهتمام الدائم بالجنس الاخر . وكانت جوتنجين مليئة بفتيات المزارع الشابات المترعات بالصحة والهافية ، وهن اللواتي وصفهن ليتشنبرج بقوله : « المخلوقات التي تتقافز مرحلة في وديان هارز او وديان سولينج واللواتي لم تقع انظارهن ابدا على مبلغ من النقود اكثر من انشال الواحد ، واللواتي ينظرن الى قبة السيد النبيل المزينة بالريش نظرة فزع بينما تبدو طلبات مثل هذه القبة كالوامر الملكية » . وكانت جوتنجين بلدة ذات شهرة اكاديمية سامية، على العكس من هال او يينا اوجيسين وهي المدن التي كانت مليئة بادعياء العلم الذين كان محط اهتمامهم الرئيسي هو المبارزات . ولكنها مثل اكثر المدن الاخرى في المانيا ، كانت منظمة تنظيميا رفعا ، يسودها انضباط صارم حيث اعتاد الفلاحون ان يطيعوا اوامر سادتهم (ولقد كانت ايضا - بالطبع - جزءا من انجلترا ، طالما ان الملك جورج الثالث كان ايضا دوقا لهانوفر بالاضافة الى كونه ملك بريطانيا العظمى . وكان هذا بدون شك هو السبب الذي دفع والذي ايزموند الى اختيارها مقرا لدراسة ولدهما) . وقد ابتهج ايزموند وجليني حينما اكتشفا ان تلك المخلوقات اللذيذة لم تكن بحاجة الى الاغواء مثلما كانت الحالة مع الفتيات في الوطن) . ويذكر جليني في احد خطاباته ان ليتشنبرج افضبه باتهامه اياه بانه كان يسعى الى اقتضاض كل عذراء في مقاطعة هانوفر ، استعدادا لان يقضي حياة كاملة من الحرمان حينما يقدر له ان يعود الى وطنه الطهري المتزمت .

ولكن جليني كان ابله اذا ما قورن بايزموند ، او - اذا لم يكن ابله - فانه كان رجلا ضيق الافق . وقد سيطر عليه ايزموند سيطرة كاملة ، ومن الواضح ان جليني قد اثار ثائرة استاذ لهما يدعى كاستنر حينما قال له ان ايزموند واحد من اعظم العقول في اوروبا بعد موسير مندلسون . (وبعد هذا ، اعتاد كاستنر ان ينادي ايزموند ساخرا بأسم « الاستاذ الاعظم ») وكان ما سحر جليني في شخصية دونلي هو ما كان يتمتع به من جمع بين الحيوية الجسدية . والسمو العقلي . كان ليتشنبرج شديد الذكاء واسع الثقافة ، ولكنه ايضا كان ضعيف الجسد عاجزا كالا حبيب . كان ايزموند مثاقفا بارزا بالسيف ، وفارسا جيدا وسباحا ممتازا ، ومحبا الى النساء ، كما كان ايضا قريبا من ان يكون شاعرا وفيلسوبا ومتصوفا . اما جليني فكان قد خضع لسيطرة ابوية شديدة الوطأة ، وكان ميالا الى ان يكون تابعا مقهورا . وفي غضون شهور قليلة كان دونللي يصفه بانه : « نموذج للشهامة والشهوانية والاغواء والبذاءة والعناد والقدرة على افتراء العذارى » . ولكن سرعان ما تملكهما الضجر من خدامات المدينة ذوات

الاجساد الضخمة ، وشرعا في توجيه انتباههما الى بنات الاساتذة وغيرهم من المواطنين المحترمين . ومن الواضح ان الدهشة قد تملكتهما وغمرتهما البهجة لما لقياه من نجاح ، وكان ان اقترب ايزموند الى حد الخطر من علاقة كادت تتحول الى الزواج من الابنة الصغرى لقسيس في بلدة نورتين هاردينبرج ، وهي الانسة اولريكادوسان . ولكن علينا الا نفترض ان ايزموند وجليني لم يكونا يفترقان ابدا . ومن الواضح ان جليني ما كان يمكن ان يبتهج لو انهما افترقا ، ولكن ايزموند كان يهتم ايضا بقراءة كانط وبدراسة الرياضيات والفلك . ويشير جليني اشارات عديدة الى اهمال ايزموند لشأنه . ولكنه كان يعجب بايزموند اعجابا حارا حتى لقد كان على استعداد لان يقبل اي قدر من انتباه يمكن ان يوليه ايزموند له .

ان الخطاب الذي ارسله جليني الى ايزموند في التاسع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٧٦٦ خطاب نموذجي حقا . انه يستهلك صفحة ونصف صفحة في الشكوى من ان دونللي قد اهمل دعوته له لتمضية عيد الميلاد في منزل الاسرة بالقرب من جلوسبي ، وفي وصف مباحج الرحلة شمالا في اواخر شهر نوفمبر . ولا بد من قراءة وصف جليني للطعام الذي التهم في يوم عيد الميلاد حتى يمكن للقارئ ان يصدق ان هذا هو ما كتبه بالفعل . لقد بدا الطعام في السابعة والنصف صباحا بافطار من شطائر الشعير واسماك السلمون المسلوقة ، واللحم المقلي ولحم سيقان الخنزير ، والحلوى والفواكه المسكرة . ولكن الموضوع الرئيسي في الخطاب - بشكل حتمي - كان متعلقا بوصف مفامراته الفرامية في اثناء العطلة: « كنت قد قررت في البداية ان علي ان استحوذ على كرم فتاة تدعى ماجي ماكبين، وهي ابنة احد الفلاحين الذين يؤجرون ارضا ، والتي كانت قد اعربت عن بعض المشاعر الرقيقة تجاهي قبل ان اغادر المدينة ، رغم انها كانت قد اقسمت في ذلك الحين انها تفضل ان تموت على ان تفقد احترامها لنفسها » . وقد ثبت ان افتضاض ماجي كان اسهل بكثير مما كان يتوقع . وقد تم ذلك في احد اهراء الحبوب بعد حفلة رقص كان السيد الشاب في اثنائها محور اهتمام الفتيات كلهن . (ففي مثل هذه المنطقة النائية ، يختلط السيد باجرائه ومؤجري ارضه بحرية كافية) . وشعر جليني بنوع من الاغراء يدفعه الى مواصلة قصة غرامية مع ماجي ، الامر الذي كنت جديرا بان اقوم به في الماضي دون اي تفكير ، ولكنني في هذه المرة راجعت نفسي على ضوء مبدئك العظيم القائل بان الهدف الاساسي في الحياة هو تحقيق نوع من طزاجة التجربة وجدتها ، وكان علي ان اعترف بان رغبتني في الفتاة كانت تفقد حرارتها تدريجيا ، وان رؤية قبعتها الحريرية الخفيفة وازارها الملون لم تعد تؤدي الى تأثيرها القديم . وقد حاولت دون نجاح ان اكرس عقلي للدراسة .. »

« وفي اليوم الثامن والعشرين عادت شقيقتي ماري (التي قابلتها انت في بيرث (من كينكاردين) حيث كانت قد قضت عيد الميلاد مع فيوناجوتري وهي ابنة صديقة قديمة لامي . واختي ، كما تعرف ، نحيفة ضئيلة الحجم بالنسبة

لسنهما (الرابعة عشرة) ويمكنني ان اقول ، دون كبرياء لا لزوم لها ، انها تحبني بدفء لم افعل انا سوى القليل لكي استحقه . وقد احسنت بما يشبه الصدمة حينما اكتشفت ان فيونا قد تغيرت الى درجة عظيمة في اثناء الثمانية عشر شهرا التي انقضت منذ رايتها لآخر مرة . انها تمر بتلك المرحلة الساحرة حيث تبقى افكار واساليب الطفلة ، بينما يكون الجسد جسد امراة . انها تملك وجهها ساحرا ووديا ، وشفة عليا اقصر بكثير من رفيقتها الامر الذي يعطي لفيونا شكلا بارزا قد يظنه البعض تجمعا على سبيل الخطأ . كانت في طفولتها اقرب الى الصبيان في العابها وسلوكها (اذا جردنا هذه العبارة من بل ما تدل عليه من هدم تواضع او رقة) ولطالما تعاركت معها وصارعتها وامسكتها من ساعديها بقوة . اما الان ، وطالما انها اصبحت على مثل هذا الجمال ، فقد قررت اني قد افعل ما هو اسوأ من اتباع نصيحة مسترشتيرن فانشاء علاقة عاطفية معها ، حتى ولو كانت من جانب واحد الى حد ما ..

(لقد وضعت انا هذه النقاط في الاماكن التي يبدو فيها من كلامه نوع من الانحطاط في دوافعه ، طالما انها لا تؤدي الى غرض ما) وقد ثبت ان هذا كان اكثر سهولة مما توقعت ، ذلك ان كل ما كان علي ان افعله هو ان اعاملها مثلما اعامل ماري ، باهتمام كثير وبود اخوي . انني اقول لك في امانة كاملة ان افكاري حتى تلك اللحظة كانت بريئة الى الدرجة التي يمكن ان يتمناها الراعي الصالح جايوس . كانت في حجرتهما مدفأة جيدة ، وقد قضيت هناك ساعات طويلة احتسي اقذاحا من الشاي واصف لهما عادات هانوفر واهلها ، شاعرا بالعالم كله مثلما كان يشعر به عطيل الغربي . ولقد وجدت ان الانتباه الرقيق الصادر عن هاتين الطفلتين اكثر امتاعا ومرة من دراسة فلاكوس واقتنعت نفسي في لحظة ما بان هذا هو ما عناء روسو وما كان يفكر فيه حينما يتحدث عن النعيم الثاني الذي تهبنا اياه الطبيعة .

« ولكن للأسف ، لقد لقيت مشاعري السامية هزيمتها الاولى في اليوم الثاني من العام الجديد ، قبل حوالي نصف ساعة من تناول العشاء . كانت الفتاتين تلميحتان حينما دخلت الحجرة ، وحينما اشتركت في لهما ، لم استطع ان امنع نفسي من ملاحظة اهتزازات ردفي فيونا حينما قفزت فوق السرير لكن تهرب من ماري ، ولا شكل سمانتي ساقها الجميلتين حينما انحنيت الى الامام مرة ثانية . وحينما مدحت ما طرا على شكل جسدها من تغير ، لم يبد عليها الحرج ، وانما ضحكت على ما قلته ، وقالت ماري ان السبب يرجع الى تناول الكثير من اللحم السمين . وبعد ذلك طلبتا مني ان اقرأ لهما من كتاب « جراندسون » ، الامر الذي قمت به تلبية لسؤلتهما ، جالسا امام نار المدفأة على اليساط السميكة ، بينما جلسنا الى جوارى تحيطان الثوبين الازرقين من الموسلين اللذين كان عليهما ارتداؤهما في حفلة الرقص التي ستقام في « ستراشيفير » في شهر فبراير . وبعد قليل ، استغرقت ماري تماما فيما

كانت تسمعه حتى لقد التفت بالثوب جانبا ووضعت رأسها على حجري مادة ساقبها لكي ترفعهما على مقعد صغير قريب ، وبعد لحظات قصيرة حدث فيونا حذوها . ثم تحركت ماري الى اعلى بطريقة جعلت خلفية ثوبها ترتفع فوق فخذيها ، كاشفة عن اجمل ساقين رايتهما في عيد الميلاد .. وحينما دق الجرس يدعو اهل البيت الى العشاء ، ابتهجت حينما لاحظت تردها في النهوض ، وتظاهرت بأن هذا التريث كان لانها غرقت في النوم ، ولكنني انا ، الذي كان يوسعي ان ارى حركات حقونها، اعرف الحقيقة .

« في اليوم التالي لم يقع المزيد من التقدم ، لان الوزير كان يريد ان يرد على دعوتنا ، ثم اخذهما ابي واخي موراي في نزهة بالعربة لكي يطلعهما على منظر ابراج قلعة داتروبين . ولكن حينما رايت فيونا قبل ان تتناول طعام العشاء ، قالت : « لقد افقدنا قراءتنا اليوم . عليك غدا ان تقرا ضعف ما قرأناه امس » . جذبتها قريبا مني ، وتركت يدي تتجول فوق ظهرها . سألتني عما افعله ، فقلت : « ارى كم من الازرار غير مثبت في موضعه » .

« كان اليوم التالي، الأربعاء، مشمساً وبارداً ، وكان « اللورد » جليني بالخارج طيلة اليوم في طلب سيدة عجوز تشتكي امر اغنامها ، وحينما اخبرني جامي هذا الخبر ، قلت له انني سأستمر في النوم لكي اتناول طعام افطاري ، واطلب الماء الساخن في العاشرة . وبعد ذلك بقليل ، وبينما كنت في ثياب نومي واقفا اؤدي تمرينات الصباح ، دخلت ماري وسألتي ان كنت احب ان اتجول معهما في غرف القصر الخالية . وسرعان ما جاءت فيونا للبحث عنها ، واعجبت الاثنتان بقماش قميص نومي الذي كان واحداً من تلك القمصان التي اشتريتها في ستراسبورج من سوق الحرير . وحينئذ قصت فيونا حكاية عن خادم يعمل لدى عمته الذي كان يجري وقد ارتدى اكمام قميصه دون قميص حقيقي لكي يعد المائدة للضيوف . وقالت له ان يرتدي سترته فاجابها : « بالتأكيد ياسيديتي ، ولكن السترة تحمل كثيراً من الاشياء الصغيرة التي تجري هنا وهناك . وقد نزعتهما الان لتوي ، وانا اكره ان اخلع سترتي وصداري ، ولا ادري الى متى سأظل قادراً على تحمل هذه «اللاكمام» الباردة . » وضحكنا جميعاً على هذه النكتة ، ولاحظت في رضا كيف انها نظرت الي وانا في هذه الثياب الليلية دونما حرج يريد على ما قد تشعر به ماري ، الامر الذي دلني على انها تفكر فيّ مثلاً ، تفكر في اخيها الشفيق . وهكذا ، فقبل ان استأذنها في الخروج ، لكي ارتدي ملابسني ، احطت خصر كل منهما بـذراع وضفطتهما الى صدري ، ولاحظت ان امتلاء فيونا قد يحفظ للرجل دفته دون حاجة الى قميص للنوم .

« ليس عليّ هنا ، يا عزيزي تيد ، ان اصف الصباح وصفا كاملا ، والا لاصبح هذا الخطاب في مثل طول موعظة من مواعظ مار بورتون . ولذلك فدعني اكتفي بالقول اننا قد فرحنا وضحكنا كثيرا ، وانتهزت انا كل فرصة لكي اطارد كلامهما ، من اجل ان نشعر بالدفء في ذلك الجناح البارد من القصر ، ولكي

اجعل فيونا تتعود على ان تألفني . وكان عليّ بالطبع ان اكرس الكثير من انتباهي لماري ، لكي لا اثير الاحساس بالتنافس بينهما ولكسي اجعل فيونا تتقبل لمساتي كشيء طبيعي . ولم التبق في هذا المجال بآية مقاومة ، لانهما جميعا كانتا تتمتعان بروح رياضية عالية . . لسوف تسجل ملاحظة عن الدرس المستخلص من كل هذا يا تيد ، لكي تضمنها في تاريخك . ان الموقف هنا يكشف عن حقيقة وصدق ما يؤكده ليتشنبرج من ان الشاعر والاحاسيس تتداخل وتمتزج مثل المواد الكيميائية . لقد كانت ماري شقيقتي ، وقد انتهزت كل فرصة لكي تؤكد ذلك لفيونا ، كما لو كنت شيئاً قابلاً للاقتراض ، وقد قبلت فيونا هذا القرض . وما تبعه من انواع الرعاية والاهتمام الاخوي ، ولما كنت الان قد حصلت على تصريح بأن اعامل فيونا مثلما اعامل ماري ، فلم يكن عليّ حينذاك سوى ان اعامل ماري بالالفة التي اريد ان اعامل بها فيونا حتى اجعل الامر كله يبدو طبيعياً دون افعال .

» وقد ظهرت ميزة هذا الوضع في وقت لاحق لعصر ذلك اليوم ، حينما ذهبت الى غرفتهما لكي اقرا لهما من كتاب « جرانديسون » . كنت اعرف انهما تنويان تجربة التوبين الازرقين من الموسلين قبل القيام بخياطة الاشرطة ، ولذلك فقد ذهبت مبكراً . كانت فيونا ما تزال تخطط ثوبها ، ولكن ماري وقفت فسي قميصها الداخلي ، تحاول ان تجرب مشدا مصنوعا من عظام الحوت . وطلبتا مني ان اقدم النصح من وجهة نظر الرجل ، الامر الذي قمت به بسعادة بالفة ، بينما كنت اساعد ماري في شد اربطة المشد . قلت لهما ان نساء باريس ، في البلاط الملكي ، يفضلن ارتداء ثياب تترك صدورهن كلها عارية . . .

وبعد ذلك ساعدتها في ارتداء الثوب ، وتحدثت مثل مليونير عن المحاسن النسبية لكل من المواد المعدنية او العظام في صناعة الازرار ، وعن محاسن اتخاذ بعض الفرز المتينة فوق عروة الزرار !

» حينذاك ، كانت فيونا قد وضعت ابرتها جانبا ، فسألتها ان كانت تحتاجني لكي افك ازرارها ، هذه الازرار التي كانت بين نهديها هذه المرة . وبدا عليها الخجل ، ولكن ماري المخلصة لي اكدت - مثل تاجر مشرقى ذكي - انها لن تفوز ابدا بمثل هذا الخادم المدرب ، وبناء عليه ، دخلت الفتاة في جو اللعبة ، فسمحت لي بأن افك ازرارها وان اجذب ثوبها الى ما تحت الكتفين ، وفي هذه المرة لم اسمح لنفسي بمزيد من الحريات مع الكرتين الناعمتين اللتين كانتا مكشوفتين امام عينيّ ، لانني شعرت ان ماري قد تجتاحها انقبضة . وبدا من ذلك ساعدتها على ارتداء ثوبها الازرق . .

» دخلت الخادمة لكي تزود النار بالخشب ، فجلست على مقعد وتظاهرت بالانغماس في قراءة كتاب ما . ولكن حالما اصبحنا وحيدين مرة اخرى ، اقترحت ان نعود الى قراءتنا قبل ان يسود الظلام (لان الساعة كانت بعد الرابعة) . قالت ماري انهما لا بد ان تبدا ثيابهما اولا ، وتكفي قالت لها ان الامر لا يستحق

هذا التعب ، وانهما على اي حال يمكن ان تعرفا ان كانت مادة نسيج الثياب من النوع القابل للتكرام لا . واقنعتهما تلك الحجج ، فجلستا الى جداري على البساط السميكة . وحالما بدأت في القراءة ، عادت ماري فوضعت رأسها على حجري ، وسرعان ما حذت فيونا حذوها واتخذت كل منهما وضعا لا يسمح لهما برؤية الاخرى ، ولكنني اتخذت اجراء وقائيا اضافيا ضد التلصص المتبادل بان اسندت الكتاب الى رأس ماري بحيث يمكن ان يسقط اذا هي تحركت . ويمكنك ان تلاحظ ان هذه الحيلة تركت يدي كليهما حرتين . . وفي هذا الوضع شعرت كأنني مشعوذ « محشور » بين جراندسيون الفاضل وبين زهرتي الشتائيتين . ولما كانت فتحة ثوب فيونا واسعة هابطة الى اسفل ، والظهر مفتوحا ، فلم تكن هناك مشكلة في ان ادس يدي الى ما وراء الابط ، ثم الى ثديها الايمن . دلتنني حركات جلدها تحت ملاطفاتي ان هذا التقدم لن يكون موضع الرفض . . وحينما بدأت في الضفط على الحلمة اليمنى ، لم يكن بوسعي ان احكم على النتيجة الا من تزايد معدل تنفسها شهيقا وزفيرا . وجدت في ذلك بهجة كبيرة حتى انني بعد قليل ، حركت يدي الى فمها ، وضفطت على الشفة السفلى ، ثم لعبت بهاقيللا بين ابهامي وسبأتي . واطبقت هي شفتيها حول اصبع السبابة ، وراحت ترضعه كما لو كان حائمة طفل صناعية يعطاها لكي يهدأ حتى يأتيه الطعام . وحينما تعبت من هذه اللعبة ، دسست يدي الى صدرها مرة اخرى ، ولكنني توغلت هذه المرة تحت الجانب الامامي من الثوب . . .

. . ثم قالت فيونا : « لقد ساد الظلام بدرجة تمنع القراءة . حدثنا عن جوتينجين . » قلت : « ماذا تحبان ان تعرفا ؟ » قالت : « احك لنا مرة ثانية حادثة قتال الطلبة مع الرحالة » . وهكذا تنفست عدة مرات بعمق حتى استعيد سيطرتي على نبضات قلبي ، ثم اعدت عليهما الحكاية القديمة المعتادة . .

« كنا نعرف جميعا ان الجرس سرعان ما سوف يدق ، وازداد هذا الى متعتنا متعة اخرى . وحينما قلت : « سرعان ما سيحين وقت العشاء » غمضت فيونا نافذة الصبر . وجعلني هذا اقرر ان انوقت قد حان للتقدم الى الامام . سمحت اليد التي استقرت على ردف فيونا ان تتحرك الى اسفل ، وجذبت جانبا قماش الثوب . وبعد لحظة واحدة ، كانت يدي مستقرة على مؤخرتها العارية ، مبتهجة بنمومتها ورقة استداراتها . ومن المؤكد انها كانت شيئا ممتع الملامسة ، حتى لقد كان بوسعي ان استمر في ملاطفتها حتى دق الجرس . . .

« اسرعت هابطا الى مائدة العشاء وحينما سألني الوالد عن الفتاتين قلت انني لم ارهما ، ثم ارسلت جامي الى الطابق العلوي لكي يدعوهما . هبطا بعد ان ارتدت كل منهما ثوبا اخر ، واعتذرتا بالنوم امام نار المدفأة . .

« والان يا صديقي العزيز ، وانا اختتم هذه الرسالة الجرانديزونيانية ، يجب عليّ مرة اخرى ان اثنى على التعاليم الملهمة التي ادت الى هذه النتائج الرضية . فان الرجل الذي يستطيع ان يمضي ساعتين منكبا على مثل هذه النشوة السامية انما يكون قد مارس جانبا من حالة الالهة ، ولا بد ان تصبح روحه اكبر بعد تلك

وينتهي خطاب جليني بصفحة ونصف صفحة في تأملات من هذا النوع . ولن اقتطف هذه التأملات لان في اسلوبها الكثير من القعقة الناتجة عن التفاخر ، ولا تصل الى مستوى الجزء السابق من الخطاب . والى جانب التأملات ، يؤكد في النهاية انه سوف يستفيد مما حققه من نجاحات ، وانه سيحاول استكمال العمل الذي بداه . ولكن فشله في ذلك يظهر من خطاب كتبه في شهر يونيو التالي ، حيث يهنئ نفسه لانه لم يكمل خطته ، « لان التفكير في التعميدات التي كان يمكن ان تنشأ يجعلني اعرق واهتز من الخوف والالام » واطن انه يشير ببساطة الى التعميدات التي لا بد ان تنشأ من وقوعه في هوى فتيات بريئات براءة كاملة وبعيدات بعدا كاملا عن اي ثقافة ، وقد اصبح عشيقا لفيونا في عام ١٧٦٨ ، اي بعد تاريخ كتابة ذلك الخطاب بعامين . .



لقد اقتطفت الفقرة السابقة على شدة طولها لاناها توضح اشياء معينة . هناك اولا ، الاشارة الى « التعاليم الملهمة » التي توحى بأن جليني يعتبر نفسه تلميذا لايزمونند في مثل تلك الامور . هل يستطيع احد ، في الحقيقة ، ان يقلل كل ما كتب عن عصر ذلك اليوم الثاني من شهر يناير عام ١٧٦٧ ؟ كان ميلي الاول هو ان ارفض الكثير منه باعتباره نوعا من الاعراب عن رغبات كامنة اكثر منه استعادة لاحداث وقعت بالفعل ، وعلى انه يشبه - بوجه خاص - مجموع تطور الفقرة انني تشير الى ما كان للاخوين كريبيون وكليلاند من نفوذ وتأثير . ولكن ظهر لي بعد هذا ان جليني لم يكن ذلك الرجل الماهر . بل ان بعضا من التعبيرات اللبقة في الخطاب كانت مستعارة من ايزموند نفسه . والحق انه قد ينبغي للمرء ان يقول ان الاهمية الرئيسية لذلك الخطاب هي انه يكشف عن مقدار ما تأثر هوراس جليني بطابع ايزموند وشخصيته . كلا بل انني اعتقد ان ما حدث هنا كان اكثر اهمية بكثير . فقد كان جليني . - مثله في ذلك مثل اكثر النبلاء الشبان في ايامه - شديد الميل الى النزعة الحسية الشهوانية منذ سن مبكرة ، وهو يذكر في مكان اخر ان زوجة احد الفلاحين قد اغوته وهو في الحادية عشرة من عمره ، ويذكر في مكان ثالث انه قضى اسبوعا سيئا للغاية حينما استفرقت الدورة الشهرية لفتاته وقتا اطول مما ينبغي . ولكن كان شهوانيا بطريقة عكرة لا خيال فيها ، مولعا بقرص ارداف الخادما ، بينما كان سريع الضجر بالسف الكابة على الفتيات اللواتي ينتمين الى طبقته ، بينما يحبس لسانه تماما مع النساء اللواتي يعجب بهن حقا . كان ابوه يظفي عليه ثم فرض عليه حمايته ، كما كان في تعب مستمر مع شقيقه الاكبر (الذي مات في عام ١٧٧٠ بالتسمم الكحولي ، بعد ان اخذ يشرب البراندي والمادريا طوال ثلاثة ايام متواصلة في رهان) ولكنه لم يكد يعرف امه التي كانت قد انفصلت عن ابيه قبل هذا التاريخ بعشر سنوات لانه ضربها بسوط من سياط الركوب . كان هوراس جليني احد سادة الريف المتخلفين عاطفيا . ثم حدث ان التقى بايزموند المذكى المتوقد ، الذي ربما كان اكثر

منه نضجا بما يعادل عشرين عاما من التجربة . ولست اظن ان هوارس جليني كان شاذا جنسيا ، ولكنني اظن ان الطريقة الوحيدة الملائمة للتعبير عما حدث في جوتينجين هي القول بانه قد وقع في حب ايزموند . لقد اخذ عنه افكاره ، واساليبه في التصرف ، واسلوبه الادبي ، والاشياء التي يشغل بها نفسه ، كان الامر يشبه الوضع بين « الاسطى » المعلم الكبير ، وبين صبيه الذي يتدرب عنده ويتلقى اسرار الصنعة والحرفة . كانت النساء يتنهذن ويستسامن كما لو كان ذلك سحر سحر . وكانت المسألة كلها تحمل طابع خاصية مدهشة اشبه بتحقيق حلم من احلام اليقظة . لقد عاد الى « جلوسبي هاوس » ، فعاملته الفتيات كما لو كان يطلا مظهرا عائدا من الحرب . ولكن رغم انه كان يعيش على بعد اربعمائة ميل او نحوها من « حبيبه » فانه راح يعيش ويفكر كما لو كانا ما يزالان معا في جوتينجين . وبدلا من ان ينام مع كل فتاة يقع عليها بصره ، فقد فرض على نفسه نظاما ، وراح يدرس هوارس وارسطو ثم عقد عزمه على اقامة علاقة « عاطفية » – اي انها علاقة مصعدة وعلى قدر من التباعد – مع صديقة شقيقته الجميلة – واذ كان يقيم تلك العلاقة ، فانه كان يستلهم نوافيس وبو ودوسون وعددا اخر من الرومانتيكيين النذين وقعوا في حب فتيات في سن الطفولة . ولما لهما مثله العليا وافكاره ، اصبح قادرا على تجاوز حدوده الضيقة والارتفاع عنها . ولكنه عاد بعد ذلك – برهانا على ان الالهة ما تزال معه ، وان السحر يعمل عمله دون شبهة في الفشل كما كان ابدا – عاد فتبين ان هاتين الطفلتين تعجبا به مثلما اعجبت به ماجي ماكبيد والقرويات الاخريات ، وانه يستطيع ان يلعب بالنار، معرضا حتى لباب قلبه للحريق . ويظل حلم اليقظة دون ان يقطعه او يحطمه احد . لم يكن لديه اي اهتمام جنسي بشقيقته . فقد كان يعرفها جيدا جدا . ولكنهما مثل اوراق الاشجار ، سقطافي دوامة حلم اليقظة ، ومن مركزه الساحق كالالهة ، كان باستطاعته ان يختار ما يصنع ... ولكن كان من الحكمة – من جانب والده – ان يضع الفتاتين في سرير واحد . وتصرفت ايام العطلة ، وفي منتصف يناير ، بدأ رحلة العودة الى جوتينجين ، متخذا الطريق الطويل والشاق المار بلندن من اجل ان يسافر مع ايزموند بدلا من ان يسافر بالطريق الاقصر والاقل مشقة من « داندي » الى « سوكسهافين » ...

... كان باستطاعة المرء ان يدرك ان من طول الخطاب وما حشي به من تفاصيل تلك الكبرياء المتفجرة التي شعر بها جليني وهو يكتب تقريره الى معلمه . لقد كان وحيدا ، دون ان يكون معه من ينصحه او يوجه خطاه ، ولكنه اجتاز الامتحان باحسن العلامات الممكنة ..

ولكن علي ان اعترف بان خيبة الامل كانت هي استجابتي الاولى ازاء خطابات جليني ، كما ان مشاعري ازاء دوللي عادت – بتأثير تلك الخطابات – فعبرت بأزمة هبوط من تلك الازمات الدورية السابقة . ولكن من الضروري ان اوضح هنا انني لم ارفض تلك الخطابات في البداية على اساس اخلاقي – مثلما سيعرف

ذلك اي قارىء لكتابي « اليوميات الجنسية » ، لقد كنت دائما - مثل دونللي - مسحور اللب بمشكلة الجنس ، لانها تبدو كما لو كانت تحتوي على المفتاح المؤدي الى اسرار نوع من الوعي اكثر عمقا . ولقد سيطر عليّ دائما شيء كالهجنس المتسلط من الكيفية التي تبدو بها التجربة الجنسية وكأنها تنزلق من بين الاصابع كالزئبق او الذهب المسحور في الحكايات الخرافية ، ولا بد لي هنا من ان اسرد - مكررا - عددا من التجارب الاساسية التي تبدو لي انها تحتوي على مفتاح هام يؤدي الى الكشف عن ذلك الفموض .

في عام ١٩٥٥ كنت قد قضيت عصر احد الايام في الفراش مع فتاة تدعى كارولين ، وهي طالبة في احد معاهد الدراما كنت قد تعرفت عليها عن طريق جيرترود كوينس . وقد كانت كارولين - ولم ادر لذلك سببا ابدا - واحدة من هؤلاء الفتيات اللواتي يولدن عندي مستوى حادا الى درجة غريبة من مستويات الشهوة ، اي من الرغبة الجسدية المجردة من اي شيء اخر . وقد قالت لي ذات مرة ، انني حينما مارست الجنس معها تظاهرت هي احيانا بانها كانت تفتصب ، وان هذا قد زاد من متعتها . وقد جعلني هذا اتبين بطريقة تكاد ان تكون لا شعورية ، بانني كنت اظاهر باغتصابها ، فاعاملها تماما مثلما يعامل رجل جائع قطعة جيدة الطهو من اللحم ، فيقضم ويلتهم بشهية متفتحة كشهية حيوان . وفي عصر ذلك اليوم بالذات ، مارست الجنس معها سبع مرات . كان الامر اشبه بمباراة . وبعد احدى هذه المرات عدت من الحمام ، فوجدتها جالسة بسرورها الداخلي ، وهي تحاول ان تربط مشبك حمالة صدرها . دفعتها على ظهرها فوق الفراش ، وجذبت ساق السروال ، وولجتها بحركة واحدة تقريبا . ومرة اخرى فيما بعد ، وحينما كانت قد ارتدت كل ثيابها وعلى وشك الانصراف مارست الجنس معها مستندا على الباب . كان هناك دائما عنصر من الصدمة والمفاجأة في التحامنا .

وبعد ذلك شعرت بالاجهاد الكامل ، والاسترخاء الشبيه باسترخاء المتعبد الهادئ النفس ، كما لو كانت كل رغبة جنسية في داخلي قد نضبت تماما وجفت ، حتى استطيع ان اركز ذهني على اشياء اكثر اهمية . فتحت الباب بعد ذلك وخرجت لكي اتناول زجاجة اللبن من على عتبة الباب ، وكنت اسكن في شقة بيدروم احد المنازل ، وكانت هناك فتاة تسير في الطابق الاعلى بمحاذاة سور الدرج الحديدي قريبة منه الى درجة انني كنت قادرا على القاء نظرة خاطفة الى ساقها حتى اطراف جواربها العلوية . كانت هذه النظرة مثل ضربة قوية اعلى المعدة . تبينت مصدوما ان رغبتى الجنسية لم تكن قد نضبت . لم يكن قد نضب سوى فضولي المباشر ورغبتى المؤقتة ازاء كارولين . كان من الواضح ان البشر لا قرار لها .

وتحققت من الشيء نفسه بعد عدة شهور ، حينما كنت في طريقي لكي امضي الليلة مع كارولين والتي كانت في ذلك الوقت تشترك في شقة واحدة مع

أحدى صديقاتها . دخلت محلا لبيع حاجيات النساء لكي اشترى لها زوجا من الجوارب . وفي المكان الذي وقفت فيه من المحل ، كانت ورأى مجموعة من تلك « الخانات » ذات الستائر التي تجرب فيها النساء ثيابهن الجديدة . التفت بطريقة عارضة ، فرأيت ان سيدة كانت داخل إحدى تلك « الخانات » ، وقد اولتني ظهرها ، دون « جولة » ولا قميص داخلي . ومرة أخرى ، تملكنتني صدمة الرغبة الهائلة . ورغم ان المرأة كانت متوسطة العمر ، كما تبينت حينما التفت . وفي ظل ظروف عادية ما كنت لاولها اهتماما لثانية واحدة ، واذا كنت اغادر المحل ، كنت ادرك - في غير ارتياح - ان ليلتي مع كارولين لن تلمس هذا العمق من الاستجابة الجنسية ولن تبلغ اطرافه .

وقد ادى بي ذلك الى تكوين فكرة تقول بان الانحرافات الجنسية انما هي محاولة للهروب من ذلك الجوع الغريب الذي لا يشبع والذي يكون عنصرا اساسيا من عناصر الفعل الجنسي الطبيعي . ان « الموقف » الخاص بالفعل الجنسي العادي هو ما ينتج خيبة الامل . (وهناك قصة الطبيب النفسي الذي نصح رجلا غنيا بان يجرب التنويم المغناطيسي الذاتي ، فقبل ان يذهب الى الفراش كان عليه ان يغمض عينيه وان يردد المرة بعد المرة : « انها ليست زوجتي . انها ليست زوجتي .. ») . تقوم كل اشكال الانحراف على اضافة عنصر من عناصر « المحرم » الى الموقف الطبيعي : على الفتاة ان تسير جيئة وذهابا وهي ترتدي جوارب سوداء ، وهكذا . وقصة الكولونيل دونللي عن قيام الخادمة بضربه تؤدي الى نفس النتيجة . وقد تكون هذه النظرة كثيية او على شيء من التجهم الى الدافع الجنسي ، طالما ان اي شيء يمكن ان يكف عن ان يكون محرما طالما انك استطعت - مرة واحدة - ان تقنع شخصا اخر بان يشاركك في حلم اليقظة . عندئذ يصبح الجنس مطاردة لا تنتهي لهدف لا يكف عن الابتعاد ..

ولكن في دبلين ، منذ خمسة اعوام ، وقع حادث عارض صغير ، فادى الى تعديل تلك النظرة . كنت اسير في مكتبة كلية ترينتي ، حينما قابلت فتاة تخرج من مكان ما . كانت ترتدي جوارب بيضاء اللون ، وشيء ما في وجهها صدمني صدمة هائلة . لم اكن قد رايتها قبل ذلك ابدا ، وحاولت لمدة عشرة دقائق ان استخلص سبب تلك الصدمة من ذاكرتي . ثم تذكرت : لقد ذكرتني بفتاة تدعى هازل كانت ترعاني في طفولتي . كانت فتاة جميلة ، وكانت في العاشرة او الحادية عشرة من عمرها حينما كنت انا في الرابعة او الخامسة . وكنت انظر اليها كما لو كانت اما اضافية لي . وام اشعر ابدا بمثل السعادة التي كنت اشعر بها حينما كانت تلاطفني او تبدل لي ملابس او تساعدني على ارتداء حذائي . وحينما بلغت العاشرة ، تزوجت ، كنت اعرف التفاصيل الجسدية للفعل الجنسي ، وكان هذا الفعل يبدو لي مثيرا وشريرا الى درجة مرعبة . وذات يوم رايت هازل في محل البقالة ، جميلة مثلما كانت وكانت ترتدي ازارا اسود اللون وجوارب بيضاء . وجعلتني فكرة ان زوجها يملك الحق في رفع هذا الازار

وخلع تلك الجوارب اشعر بفيرة معذبة . فكرت في الاشياء التي لا بد انهما يفعلانها في الظلام ، ونظرت بقوة الى وجهها ، ظانا ان هذه الاشياء لا بد ان تكون قد تركت اثرا ما . ربما كان اثرا من نشوة حاملة ، او ربما علامة شريرة ما . تخيلت ان حياتهما ، حينما يعود زوجها من العمل الى البيت ، لا بد ان تكون حفلا جنسيا طويلا مترعا باللذائد . ورغم هذا فقد بدت طبيعية وعادية تماما ، بالضبط كما عرفتها دائما ، ربما كانت اكثر نحافة بقليل ، ودون شريطها السوردي ..

هذا التفكير في هازل - التي كنت قد نسيتها طوال خمسة عشر عاما او اكثر - اعاد الي ذكريات فتيات اخريات كنت اعجب بهن حين كنت صغيرا جدا: فتاة كانت تسكن على بعد منزل واحد من منزلنا وكانت تبدو لي مثل قديسة . وفتاة اخرى في الشارع التالي لشارعنا كان وجهها البضاوي يدفعني الى الظن بانها اجمل شيء وقع بصري عليه في الحياة . وعمة لي ذات امومة فياضة ، لم تكن تكبر هازل كثيرا ، تعودت ان تاخذني الى السينما ثم الى مشرب شاي قريب . . كان شيئا شبيها بالصدمة ان اتذكر كم كان كبيرا ذلك العدد من الفتيات - وكلهن اكبر مني سنا - اللواتي نظرت اليهن نظرتي للربات المقدسات . لم يكن قد طرا على ذهني من قبل انني قضيت طفولتي في مجتمع امومي ، محاطا بنساء عبدتهن كالالهة ، ولا اطلب من احدهن غير ابتسامة ، او تربية حنون ، لانني في سنوات مراهقتي ، كنت افكر في النساء باعتبارهن مخلوقات تطاردهن الرغبات ، يملكن اليد العليا على الرجل بسبب الكنز الكامن بين افخاذهن ، 'الكنز الذي يستطيع ان يمنعه او يهبه حسب ارادتهن ووفق مشيئتهن . وكانت وظيفة الرجل عندي هي ان يحصل على الكنز ، بالاقتناع ، او الحيلة ، او بالعنف . ومنذ ذلك الحين ، كرست نفسي لمهمة الذكر العادية ، مهمة الكشف عن اكثر ما يمكن من تلك الكنوز . كن الطريدة وكنت انا الصياد . ومع هذا فقد ظل الميل الى تجسيدهن او تخيلهن في صورة مثالية قويا على حاله ، وبدا هذا الميل في حالة تناقض مع فلسفة الحرب الجنسية . والان ادركت هذا التناقض . كانت الحرب الجنسية هراء لا علاقة له بالحقيقة . ما اردته عن النساء هو نفس ما كنت اريد من هازل : تعاطف الاخت الكبرى ورقتها ، الملاطفات والانتباه ، تلك الاشياء التي تولد الاحساس الذاتي بالامان والثقة . لقد لاحظت دائما ذلك الاحساس بالسكينة الذي يأتي حينما يخترق العضو الذكري حلقة العضلات عند فتحة عضو الانثى ، ثم ينزل الى الاعماق الداخلية الدافئة التي تربت عليه بحنان . وقد رايت الان ان هذا كان ببساطة اكثر الملاطفات الرقيقة قربا من المطلق . كانت هازل ، في لحظة من لحظات الود الخالص تمد يدها فتأمس خدي برقة ، او تضع يدها على راسي ، وكنت جديرا في مثل تلك اللحظة بان اشعر بفيضان فوري من الرضا والاحساس بالاشباع . ان عملية ولوج جسد امرأة ليس سوى صورة متضخمة من هذه اللحظة . انه نوع من الملاطفة ، ايماءة رقة ، ولكنها تلاطف - في هذه الحالة - اكثر اجزاء جسدك خفاء والتصاقا بدخيلتك وبما

تخفيه حناياك - تلاطفه باكثر اجزاء جسدها خفاء وحميمة . ان النزعة العدوانية التي اطلق عليها لورنس اسم « الحرب الجنسية » تتطور من الجوع الى ذلك الاحتياج ، تماما مثلما تتطور نزعة الاجرام من الفقر وحتى فكرة « كازانوف » المتسلطة يمكن تفسيرها على هذا الاساس - وخاصة ذلك النوع من ال « كازانوف » الذي يريد ان تظل نسائه في حالة اخلاص كامل له ، بينما يسمح له بان يفعل ما يحلو له . انها الرغبة في الثقة الكاملة بحب الانثى وبخضوعها . كل نساء العالم يحبنه ، وكلهن يرغبن في منحه حبهن ، وحتى معرفتهن لانه الان في الفراش مع امرأة اخرى لا تؤدي الى اي فرق او اختلاف ..

قادني كل هذا الى معرفة السبب انني افقد كل اهتمام بالحرب الجنسية في الاعوام الاخيرة القليلة . لقد حصلت - في شخصيتي ديانا وموبي - على مجتمع مكون من شخصيتين نسائيتين تعجبان بي . وتم اشباع الجوع الى الانثى حتى هذا متخما . اما ذلك النوع من الثقة بالنفس الذي تمنحه النساء فقد تحقق واصبح في وسعي ان اكرس كل انتباهي لامور اكثر جدية ، لمسائل الفلسفة والنمو الانساني .

كل هذا يفسر عدم صبري مع هوراس جيلني ، ومع ما افترضته عند ايزموند دونلاي من فلسفة خلعية قائمة على « فكرة » الفجور . شعرت ان هذه الفلسفة تدل اما على عدم التحقق او عدم النضج : رغبة الصبيان الصغار في الامن . ولم تكن هذه الحكاية بالذات - عن ماري وفيونا - هي التي اقلقتني ، لاني قدرت انها حادثة عارضة وقعت دون تدبير ، لقد اراد جيلني علاقة « عاطفية » فتحولت الى علاقة جنسية . ولكن كانت هناك خطابات اخرى اشارت الى انه كان قادرا على اتباع اسلوب اكثر خشونة واكثر منهجية . فقد حدث على سبيل المثال ان عاد في عيد الميلاد التالي الى البيت عن طريق الشمال ، مبحرا من امستردام الى جريمسي ، فقرر ان يمضي عدة ايام في « اوزنا بروك » ، لكي يتفرج على كاتدرائيتها . قلعتها . كان الفندق الصغير مزدحما فأعطى جيلني غرفة في الطابق العلوي تقع فوق المغسل ، فشاركه فيها خادمه ، وهو من اهالي لندن ويدعى دوجيت . وبعد منتصف الليل بوقت كثير ، هبط الى الطابق الاسفل ليذهب الى دورة المياه ، ثم وقف برهة قصيرة مستندا بظهره الى جدار المغسل الذي كان دافئا . وبينما كان يقف هناك ، خرجت فتاة من الفندق وذهبت الى المغسل ، ولما اصبحت بالداخل خلعت ملابسها ، وصبت ماء دافئا في احد الاحواض ، وغسلت نفسها ، بينما راح جيلني يتلصص عليها من النافذة . ثم ارتدت الفتاة ملابسها ، وذهبت لكي تنام في غرفة اخرى من نفس البناء . وكان جيلني على وشك ان يتبعها ، حينما سمع صوت رجل ، بدا له انه صادر من غرفتها . وفي الصباح التالي ، طلب جيلني من خادمه دوجيت ان يكتشف كل ما يستطيع عن الفتاة ، وما اذا كان من الممكن الحصول عليها ذلك المساء . وجاءه دوجيت بعد عدة ساعات وقال له انها فتاة محترمة ، وانها ابنة اخت صاحب الفندق ، وانها مخطوبة لرجل يعمل مساعدا

لاحد التجارين ، ولكنها لم تستطع ان تتزوجه حتى الان لان « معلمه » رفض ان يعطيه الاذن بذلك ، ورفض صاحب الفندق رفضا قاطعا ان يقرضه ما يكفي من النقود لكي يفتح لنفسه محلا يعمل فيه لحسابه . وقدر جليني انه من المحتمل ان يكون صوت هذا المساعد هو الصوت الذي سمعه يصدر عن غرفتها في الليلة السابقة ، فقرر ان يتخلى عن فكرة النوم معها .

وبعد ذلك في نفس اليوم ، قال دوجيت لجليني انه سمع اشاعة تقول ان الفتاة حامل — فقد كانت تصاب بحالات غثيان في اثناء عملها . واحس جليني بإمكانية اتخاذ سبيل آخر الى الفتاة ، فقال لدوجيت ان يحاول اكتساب ثقتها ، وان يحاول معرفة مقدار المال الذي قد يحتاجه عشيق الفتاة لكن يبدأ عمله الخاص . « كنت على استعداد لان ادفع ألفا من الجنيهات في سبيل متعة ان اترك دفقة من ماء الحياة في هذا الرحم الفاضل . » ولكن اكتشف ان العشيق يمكن ان يبدأ عمله معتمدا على مبلغ اقل من هذا بكثير ، لا يريد على مائة وخمسة وسبعين تاليرا ، وهو ما يساوي خمسة وعشرين جنيها . وقال دوجيت للفتاة ان لسيدة قلبا عظوما وانه قد يستحق ان تلجأ اليه — فان هؤلاء السادة الانجليز مبذرون ومنذفعون . وتبعنا لذلك ، طرقت الفتاة بخجل باب جليني في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم ، فقيل لها ان تدخل . القت الفتاة « خطابها » عن حاجة حبيبها الى النقود ، وعن كيف يتعهد بدفع دينه كاملا ، وما الى ذلك . فتح جليني كيس نقوده واخرج عدة قطع ذهبية . ولما اتسمت حدقتا الفتاة وهي تحمق الى تلك القطع ، احاط خصرها بذراعه ، وهمس لها قائلا انها تستطيع ان تربح تلك النقود بحبيبها بسهولة كبيرة . وحاولت الفتاة ان تخلص نفسها وان تبرح الحجرة ، فقال لها انه يعرف بانها حامل . واخافها هذا القول ، فترددت ، و اشار جليني الى النقود ، وقال ان احدا لن يعرف ابدا ، وان الامر لن يستغرق اكثر من خمس دقائق . وانها ستعيش في سعادة بعد ذلك الى الابد . . . سمحت له بان يقبلها ، وان يداعب صدرها . اغمضت الفتاة عينيها ، ومن الواضح انها قررت ان الامر يستحق التضحية ، حينما سمعا شخصا ينادياها . انفلتت ميتعدة ، فاخذ جليني النقود ووضعها بالقوة في يدها ، ثم قبلها ثانية ، فاسرعت خارجة .

وفي ذلك المساء كانت هي التي تخدم على المائدة ، استطاع جليني ان يجعله ينيه تلتقيان بعينيها مرتين ، فأحمر وجهها في المرتين . كانت قد اصبحت مدينة له بجسدها . وكان جليني يعرف انه لا خطر على نقوده معها . فقد كان دوجيت قد استطاع ان يعرف انها واعدت حبيبها على لقاء في ذلك المساء ، وانها بلا شك قد حملت اليه النقود .

وفي تلك الليلة ، انتظر جليني حتى سمعها تعبر الفناء وتدخل المفضل . وفي تلك المرة تخلع ملابسها كلها ، واحتفظت بقميصها . فتح جليني الباب واندرس داخلا . بدا عليها الذعر ، ورجته ان يخرج . وقالت له انه « هو » كان ينتظرها في حجرتها . همس لها جليني ان الامر ان يستغرق سوى لحظة واحدة . امضى

عدة دقائق في تهدئتها ، واقناعها ان تهدأ وتسكن . . ودفعها حتى استند ظهرها الى
المرجل الخامد ، واخذها في تلك اللحظة ، وعلى الفور . وبعد ذلك ، همس لها
انها اذا كانت تريد خمسة وعشرين جنيتها اخرى لكي تقيم منزلها ، فليس عليها الا
ان تأتي الي غرفته في اليوم التالي . ثم ارتدى ملابسه وتركها .

استبد به الغضب حينما لم تلب الفتاة دعوته . قابلها بالصدفة في احد دهاليز
الفندق ، فنظر اليها متسائلا ، فهزت رأسها واسرعت بتبعده . ولم ينجح دوجيت
هو الآخر في اقناعها . كانت الفتاة قد وقت بنصيبها من الصفقة ، ولكن لاح
لجليني انه من غير المعقول اطلاقا ان تكون قد سلمت نفسها له مرة واحدة ، ثم
نعت نفسها عنه بعد ذلك . « كنت على استعداد لان انفق كل جنيه املكه لكي
اقضي ليلة في الفراش مع هذه الشيطانة الصغيرة الفاضلة . » . قال لدوجيت
ان يحاول ابتزازها بان يهددها باخبار عشيقها ، ولما فشل هذا التهديد راح يفكر في
اختطافها وحملها معه في عربة خاصة . ولكن الفتاة كانت قد نالت كفايتها ، فاختفت
في تلك الليلة . والمفترض انها قد لحقت بعشيقها ، الذي كان الآن قد اصبح
مستقلا عن معلمه . وفي حالة مزاجية سيئة الغاية ، استقل جليني عربة الى
امستردام معزيا نفسه بفكرة ان « تلك الدقائق الخمس في مواجهة المرجل الخامد،
كانت تستحق خمسة وعشرين جنيتها من نقود اي رجل . » هذه الحادثة تفوح منها
نكهة منفرة . كان قد رآها عارية فاراد ان يمتلكها ، ولم يدفعه اكتشاف انها تواجه
بعض المشاكل الا الى زيادة تصميمه على امتلاكها ، كان بوسعه ان ينتظر ، وان
يجعلها تأتي الى غرفته في اليوم التالي . فقد كان من الواضح انها مستعدة للوفاء
بنصيبها من الصفقة ، ولكن كان من الاكثر اثارة ومتعة ان يمتلكها في الظروف
التي كان قد قرر في البداية ان يمتلكها فيها - وخاصة ان عشيقها كان ينتظرها
في حجرتها . ومن المهم ان نلاحظ استخدامه لكلمة « فاضلة » . لم تكن الفتاة
فاضلة ، لانها كانت حاملا . ولكن رؤيته هذه اليها هي ما جعلته يرغبها : رؤيته في
صورة المحترمة الفاضلة ، تعشق رجلا آخر . فكم يكون رائعا ان يخلع عنها قميصها
فيضاجعها مستندا الى مرجل المغسل ، وينظفونه متدل على كاحليه ! ولكن اذ انجز
هذا ، فقد اراد ان يحتل الارض التي غزاها ، وان يكرر كل العملية الممتعة برمتها .
لم يكن من الطبيعي ان يبتز فتاة فيهددها لكي يأخذها الى فراشه ، او ان يفكر في
حملها عنوة في عربة خاصة ، ولكن هذه الفتاة « الفاضلة » ولدت عنده رغبة في
الفزو ، وفي ان يحط من شأنها ، وحتى اذا كان قد شعر بالخيبة في النهاية ، فانه
يعتمد على فكرة انه قد حصل عليها مرة ، واذا ظلت هي مخلصنة لزوجها حتى
نهاية حياتها ، فلا شيء يمكن ان يمحو تلك الحقيقة . ان اكثر انواع النزعة
الصادية عند الرجال خشونة وفظاظة هي ما تجل الحكاية كلها . ولكن جليني يصفها
في خطابه الى دونللي كما لو كان واثقا من موافقته على سلوكه . وكان احساسه
الخاص هو انه اذا لم يكن دونللي قد وجد الحادثة ونظر اليها باعتبارها شيئا رديئا
وغير « مشرف » بنفس نظري لها ، اذن فانه لن يكون احسن من جليني في شيء ،
واذن لكانا مجرد صعلوكين يحملان عقليين قذرين . ولكن لما لم اكن املك شيئا من

خطابات دونللي ، فاني لم اكن املك سبيلا الى معرفة ردود فعله ازاء مكاشفات هوراس جيلني .



طوال الايام العشرة اثنائية لم يحوز « بحثي » عن دونللي اي تقدم . ولا بد لي من الاعتراف ببعض الكسل المحب ، او بالاحرى ، بشيء من الميل العكسي ، الرافض لان استغل طاقاتي بمهمة مدفوعة الاجر او لان انكب عليها وحدها دون غيرها . لقد شعرت وانا اقرا الخطابات المختلفة والوثائق المستعارة من الانستين دونللي بانني اشبه بتلميذ يقوم بأداء واجبه المنزلي ، ولقد كنت اكره مثل هذه الواجبات . وبدلا من هذا رحلت املا صفحة اخرى من مذكراتي حول موضوعات متعلقة بفلسفة الظاهرية وحول دراسة ويتينجشتاين ، الذي كانت روايته « زيتيل » قد وصلت لتوها من بلاك ويلز .

ثم حدثت بعد ذلك عدة اشياء دفعة واحدة . فقد نشرت صحيفة التايمز الايرلندية خطابي الذي اعلن فيه عن طلبي لاية مواد تتعلق بدونللي ، وبعد يومين ، نشر الملحق الادبي للتايمز اللندنية خطابي الذي كتبته في لندن . واخيرا ارسل الي كلاوس دنكمان خطابا اعتذاريا من هامبستيد ، ووضح فيه ان خطابي اليه لم يصله في موعد مناسب ، لانه ترك لمدة طويلة على مائدة قاعة الاستقبال في عنوانه القديم ، حيث لاحظته احد الاصدقاء بالصدفة . وكتب الي رجل يدعى و.س.ل آاوريتش من بلدة كورك ، يقول انه كان صديقا للمرحومة جين آستون التي ماتت في عام ١٩٤٩ والتي كانت تمتلك خطابات مختلفة بخط يد دونللي . ولكنه لم يكن واثقا مما حدث لتلك الخطابات بعد ذلك . واخيرا ، كتب الي كليف م. بيتس ، حفيد ايزاك جينكينسون بيتس ، كتب الي من دبلين ليقول ان جده مريض ، ولكن اذا تصادف وجئت الى دبلين فانه سيكون سعيدا لرؤيتي . واضاف ان جده ابتهج لانني ايدت آراءه حول مرتكب جريمة قتل جزيرة الاي الايرلندية ، وانه يود ان يناقشها معي شخصا . ثم اضاف في لاحقة ذيل بها الخطاب يقول : « لقد رايت خطابك في عدد اليوم من التايمز الايرلندية . واني قد اكون قادرا على تقديم بعض الاقتراحات . » واثارت قلقي هذه الجملة الاخيرة بأسلوبها الحذر . فانه لم يستطع حتى ان يذكر اسم دونللي . وبدا لي هذا الاسلوب دليلا على انه يكاد بالفعل يعرف شيئا ما : ربما كان شيئا اكثر حتى من ان يثق بنفسه اذ يلمح اليه .

وكان خطاب كلاوس دنكمان طويلا جدا ، وراح يناقش كتيبي مناقشة مطولة مستفيضة . ولكن اشاراته الى دونللي كان مختصرة . قال انه سمع الاسم من اوتو كورنر ، تلميذ ويلهلم راينخ ، الذي تحدث عن دونللي باعتباره واحدا من اوائل الكتاب الذين لاحظوا اهمية بلوغ ذروة النشوة الجنسية كعلامة على الصحة النفسية . ثم قال دنكمان ، انه مع ذلك غير قادر لسوء الحظ على ان يزودني بالمزيد من التفاصيل . فعلى قدر علمه ، كان كورنر قد عاد في ذلك الحين الى المانيا .

كان عزمي هو ان اسرع الى دبلين لكي ارى كليف بيتس . ولكن كانت هناك اشياء اخرى كثيرة لا بد من انجازها ، والى جانب هذا ، فان العجلة التي هي من الشيطان قد تدمر كل شيء . وهكذا فقد كتبت اليه خطابا دون توقيع ، اتحدث اليه فيه عن مشروعي لكتابة مقدمة تاريخية لكتابه يتضمن مذكرات دونللي ، واضفت انني ارجو ان اراه عاجلا في فرصة مقبلة . ثم تحولت الى مسألة اقتفاء آثار خطابات دونللي التي كانت في حوزة جين آستون - رغم انني فعلت هذا دون كثير من الحماس . فلا شك انها سوف تكون خطابات دونللي حول موضوع جورتن وتيللوستون وغيرهما من اصحاب محافل التنويم المغناطيسي . ذهبت الى كورك وقابلت مستر آلدريتش الذي كان بوسعه ان يخبرني انه كان لجين آستون اقارب يقيمون في بلدة بيلجولي بالقرب من كينسيل . فذهبت اتي هناك بالسيارة لكي اكتشف ان هؤلاء الاقارب قد ذهبوا الى كورك لكي يتاعوا حاجياتهم وانهم سيفيئون نهارا بأكمله . وهكذا فقد عدت الى كينسيل وحجزت غرفة في الفندق ، ثم عدت لزيارة مستر فيليب آستون - وهو حارس شواطئ متقاعد - في الساعة السابعة مساء . وقد كانت هذه الرحلة سدى ، فالرجل لم يكن يعرف شيئا عن خطابات دونللي ، ولكن اعطاني عنوان قريب آخر له يدعى برنارد آستون في ليمريك . وقصدت هذا الاخير في اليوم التالي في طريق عودتي الى جالاواي ، وكان الرجل قد سمع شيئا عن خطابات دونللي ، ولكن لم تكن لديه فكرة عما حدث لها ، واقترح ان اتصل بطبيب جين آستون ، جورج اوهفرنان في كورك الذي كان يعرفها جيدا . (ولأحظت ان اجفان عيني قد تكسرت قليلا حين ذكر اسم الطبيب الامر الذي وحي الي بان تلك العلاقة مع الطبيب كانت اقوى قليلا مما يستطيع ان يوافق عليه .)

كان احساس « كافكاوي » قد بدا يملكني بانني اوجه من مكتب الى آخر دون الاقتراب ابدا من الهدف المقصود ، وشعرت باغراء الاستسلام . اردت ان اقتطف نصف صفحة من حديث دونللي عن موضوع الخطيئة والفداء ، ولكن بدا الموضوع يلوح اكثر ازعاجا مما يستحق . وحينما وصلت الى البيت ، ودعمت هزيمتي بكأس كبيرة من الكلاريت ، اتصلت باستعلامات هاتف بلدة كورك وسألت عن رقم تليفون الدكتور اوهفرنان . قيل لي انه ليس من يحمل هذا الاسم سوى شخص واحد ، ولكن لم يعد يعمل في المستشفى . بشعور أخذ في التبدل سألت ان كان بوسعهم ان يوصلني بالطبيب المشرف ، ثم اخذت كأسا كبيرة اخرى . بعد قليل جاء رجل يتكلم على الطرف الآخر ، وقال ان الطبيب المشرف كان خارج المستشفى في تلك اللحظة وسألني ان كان يستطيع ان يساعدني في شيء . عرفت انه كان من المستحيل ان اقمعهم بان يعطوني الرقم ، ولكنني رجوت ان يجعلوا الطبيب المشرف يتصل بي لدى عودته . ان ايرلندا بلد من نوع هادىء الاعصاب يكاد يكون مستهترا . وهكذا فقد كان علي ان اوضح نوع العمل الذي اقوم به - وهو انني كاتب وانني اريد ان اتبع مصير بعض الوثائق ، وانني قدرت ان الدكتور اوهفرنان يمكن ان يساعدني . وطلب مني السيد المتحدث على الطرف الاخر ان

انتظر قليلا ، وبعد عشر دقائق عاد لكي يقول لي ان الـ « اوهفرنان » موضع البحث لم يكن مسجلا بآتياره طبيباً . شكرته وقطعت المكالمه ، ولاح ذلك لي كانه نهاية الخيط والطريق .

ولكن ، وبعد ذلك بساعتين ، وبينما كنت على وشك الاستسلام للنعاس وانا استمع الى موسيقى « قراصنة بينزانسه » دق جرس التليفون . فاجابت ديانا على النداء ، وقالت لي ان الطبيب المشرف في مستشفى كورك يريد ان يكلمني . وكان هو نفس الرجل ، وكان قد اتقى نظرة على القوائم القديمة فمشر على اسم الدكتور اوهفرنان ، ثم استطاع بشكل ما ان يعثر على مكانه . كان العنوان في كيلارني . شكرته مضطرا الى ذلك ، ثم اخذت اسمه وعنوانه لكي ارسل اليه نسخة من احد كتبي . ورغم ان الساعة كانت قد جاوزت العاشرة ، فقد قمت بمهمة محاولة طلب رقم الدكتور اوهفرنان . ذكرت له اسمي وقلت انني كاتب ، فاصبح على الفور وديا جدا ، وقال لي انه قد نشر عدة كتب ، ولم يكن قد سمع بي قبل ذلك ابدا ، ولكن حينما وصلت الى موضوع ايزموند دونللي تذكر انه « كان قد » رأى خطابي في التايمز الايرلندية وكان يريد ان يكتب الي . وقال ان نعم ، بالتأكيد . انه يملك عددا كبيرا من خطابات دونللي بالاضافة الى اوراق اخرى ، وانني ساكون موضع الترحيب الكامل اذا شئت ان افحصها في اي وقت يكون ملائما لي . فانفقت معه على موعد في اليوم التالي .

ليس ثمة مهرب هنا من وصف الساعات الاربع والعشرين التي قضيتها مع جورج اوهفرنان ، رغم انها تستحق الوصف بالتأكيد . انه رجل قصير ربعة قوي البنيان ذو خدين متوردين وشعر ابيض وشارب ابيض ، كان يبدو كواحد من اولئك الناس الذين يولدون سعداء مفعمين بالاهتمام بكل ما يجري حولهم من احداث او ظواهر . اهداني نسخا من كتبه : « كلونماكنويز وقصائد اخرى » ، « مانجان ، وعصيته » ، « مذكرات متمرد ايرلندي » . بالاضافة الى مجموعة مترجمات عن اللغة الغالية . كان قد عرف يتس معرفة جيدة ، وامضى عدة امسيات مع جويس في باريس ، وكان نديم شراب لجو جاتي . سجلت ملاحظة طويلة عن اقاصيصه في مذكراتي اليومية ، لان صورة هذه الاقاصيص التي وردت في كتابه « مذكرات متمرد ايرلندي » اكثر تهديبا الى حد كبير واقل نزوعا الى اسلوب رابليه التهكمي اللاذع من الصورة التي سردها لي بنفسه . كان الطبيب مضيافا كريما ، فقد دعا اثني عشر صديقا لتناول العشاء معي فاستهلكنا عدة جالونات من الجعة المصنعة في المنزل بالاضافة الى عدد كبير من زجاجات ويسكي جامسون . وفي الساعات البكرة من الصباح ، حينما تخطب آخر ضيوفه نحو سيارته ، حكى لي قصة علاقته بمسز آستون في خلال السنوات العشرين الاخيرة من حياتها ، وكانت قد ماتت في الثامنة والاربعين من عمرها بسبب الربو . واخيرا اخذني الى صوان هائل ، يمتد من الارض الى السقف في حجرة النوم حيث كان علي ان انام . واطلعني على اكوام من المخطوطات الملفوفة والخطابات الملفقة في

حزم محكمة ووضعت في اضرابات سوداء ثقيلة ، وقال « سوف تعثر على الكثير من تراث دوللي في وسط هذه الكتلة » ، ثم تركني لكي ابحث عما اشاء . كانت الساعة الرابعة صباحا ، والغرفة باردة كالثلج رغم وجود مدفأة كهربائية ذات مشعل واحد . كنت قد شربت كثيرا وانتابني صداع خفيف . ولكنني شرعت في جذب الاوراق من الصوان اعتمادا على الصدفة في رؤية خط يد ايزموند دوللي . وبعد ان ازعجت عددا قليلا من العناكب واثرت كمية لا بأس بها من القبار عثرت على حزمة من الخطابات موجهة الى ويليام آستون . وكنت حتى ذلك الحين قد اخرجت معظم ما كان في الرف السفلي من الصوان . ولكن في نهاية طرف الركن، كان هناك مغلغان اسودا اللون . جذبتها والقيت نظرة على احدهما . كان الخط هو خط ايزموند . نظرت الى الصفحة الاولى ، كانت تبدأ من منتصف فقرة ناقصة من بدايتها . فتحت المجلد الاخر . كان يتكون من اوراق من الحجم المتوسط ، وربطت اطرافها بعضها الى البعض ، وقد كتب على الصفحة الاولى : « ١١ اكتوبر عام ١٧٦٤ . كنت دائما اعقد العزم على الاحفاظ بذكرات يومية اسجل فيها اخمالي يوما بعد يوم ، ولكنني فشلت حتى الان في المداومة على تنفيذ هذا العزم . لقد فقدت ذكرياتي عن عدد كبير من الاحداث الهامة ، حتى كان علي في النهاية ان اصمم على تنفيذ هذا القرار ، مهما كان الثمن من الجهد او الشموع ... »

خلعت ثيابي وارتديت منامتي وصعدت الى الفراش ، ولم اعد راغبا في النوم . في عام ١٧٦٣ كان ايزموند في اسادسة عشرة ما يزال . اذن فان هذه المذكرات هي اقدم ما وقع عليه بصري من كتاباته حتى تلك اللحظة . كان خط اليد اكثر وضوحا وسهولة في القراءة من الخط انذي رايت من قبل في مذكرات لاحقة لهذه التي في يدي الان . كان احساسى بالانتصار قويا لدرجة انني شعرت باغراء ان اذهب الى الدكتور اوهفرنان في حجرة نومه لكي اطلعه على ما وجدت . ولكن لم يمنعني من ذلك الا شكى في انه ينام فيها مع المرأة الشابة الممتلئة التي تخدم منزله ، الامر الذي جعلني اكبح جماح نفسي . وكان ما ادهشني هو ان اوهفرنان لم يذكر لي تلك المذكرات . لقد قال لي انه يعرف ان ثمة خطابات من دوللي ، ولكن كان هذا هو كل شيء . فالاستنتاج اذن هو انه لم يكن يعرف شيئا عن وجودها . وحينما سألته في الصباح التالي ، اكد لي هذا الاستنتاج ، فان مذكرات رجل ايرلندي ، بروتستانتى انجليكاني النزعة والمذهب ، من القرن الثامن عشر ، لم تكن من الامور التي يمكن ان تثير اهتمامه ، لانه كان كاثوليكيًا ووطنيا ، وكانت مشاعره ازاء كرومويل اكثر عنفا من مشاعر اي انجليزي تجاه هتلر .

قرات حتى مطلع الفجر ، ونمت حوالى ثلاث ساعات ، حتى ايقظتني مدبرة المنزل بالشاي ، ثم ارتديت معطفي فوق الناماة وعدت ثانية الى الصوان . وفي خلال نصف ساعة ، كنت قد « فرزت » ثلاث حزم اخرى من الخطابات ، ومجلدين آخرين من المذكرات ، بالإضافة الى مخطوطة « يوميات الرحلات » الخاصة

بدونللي . وحينما دخل الدكتور اوهفرنان لكي يقول لي ان طعام الافطار قد وضع على المائدة ، وجدني محاصرا بالاوراق مغطى بالتراب ، جالسا في مواجهة الصوان الخالي . وحينما اطلعته على المذكرات ، ابتسم وقال :

« حسنا . انني مسرور لانك لم تقم بهذه الرحلة لقاء لا شيء »

حينئذ انتهزت الفرصة لكي اطرح السؤال الذي شغل ذهني طوال الليل :

« اتعني انني استطيع ان استخدم كل هذه المادة ؟ »

« بالتأكيد : لم لا تستخدمها ؟ »

« هل تفضل ان اعمل هنا ، ام ان بوسعي ان استعيرها ؟ »

« اوه ، اي شيء تفضل . انزل الان معي وكل شيئا . »

ثم عرج خارجا في خفته وردائه المنزلي الواسع ، بينما جلست في مكاني اغمفم كمجنون .



ولا بد لي من الاعتراف بأنني حينما درست المذكرات ، بدأت في الندم على قبولي التعاقد مع فليشر . كان مبلغ الخمسة عشر الفا من الدولارات قد لاح لي مبلفا عظيما في ذلك الوقت ، ولكن مع وجود كل هذه المادة « رهن اشارتي » شعرت بأنني استحق اكثر من هذا بكثير . ذلك ان المذكرات الجديدة ازاحت جانبا آخر من شكوكي حول قامة دونللي الثقافية وقيمه الذهنية . اقد اطلعتني هذه المذكرات على—السبب الذي جعل هوراس جليني يعجب به الى هذا الحد . لقد كان رجلا تسلطت عليه الطبيعة المراوغة للتجربة الانسانية . ولكن فلندعه يتحدث عن نفسه:

« يقول لي ابن عمي فرانسيس انني قوي الشعور بذاتي مسرف في الفرور ، ولكنني ادعو السماء لكي تشهد علي ان هذا غير صحيح . انني في الاغلب اكثر من يعيش تحت الشمس من مخلوقات لعنة وتحقيرا لذاته ، وكثيرا ما يبلغ عدم رضاي عن ذاتي ان اشعر باغراء ان اطلق على راسي الرصاص فانسفه . انني اكتب هذه المذكرات عساي استطيع ان ادخل شيئا من النظام والاستمرار على حياتي ، لانني اشعر بالسقام حتى لباب القلب بسبب استهجانني واستنكاري لذاتي . كثيرا ما تشكو النساء من انتقاد الرجال الى الثبات على العهد ، ولكن لماذا ينبغي علينا ان نتمتع بصفة الثبات على العهد في الحب بينما نحن لا نملك شيئا من الثبات فسي اي شكل آخر من اشكال الفكر او الاحساس او الرغبة ؟ بالامس ، اتقى الواعظ المشهور الدكتور جيلليس موعظة في كنيستنا ، وقد حركتني هذه الموعظة الى حد عظيم ، فاقسمت على ان ابدل حياتي في المستقبل لكي اسير تبعا اوصاياه فاعيش فقط على اساس من الاتفاق مع ضميري واحساسي بالفضيلة . ولكن اليوم عاصف الرياح شديد البرد الى درجة اكثر مما يسمح بالمغامرة بالخروج من الباب . وفي هذا الصباح قرأت في خرافات جيلبيرت بالالمانية لمدة ساعة قبل ان يتملكني سوء المزاج المعتاد مرة اخرى ، فاصبحت غارقا في احساس وحشي من الفراغ والخواء . ومنذ ذلك الحين وانا عاجز عن رؤية اي طريق يستطيع من خلاله ضميري او احساسي بالفضيلة ان يؤثر على هذا الاجهاد الذي يستهلك الحياة

ويدمرها . ربما يستطيع ضميري ان يدلني كيف اتجنب ارتكاب الخطأ ، ولكنه لن يستطيع ان يدلني على كيفية الهروب من الملل والضجر . وهل يمكن ان يكون ثمة شيء اقتل للمخلوق الذي صاغه الله على صورته من نفس هذا الضجر ؟ ذلك ان الله اله لانه يستطيع ان يخلق ، ولذلك فان رجلا ينحقه الضجر لاكثر المخلوقات بعدا عن صورة الله .

لقد عقد الدكتور جيليس مقارنة شديدة الحذق والبراعة بين الجسد والعقل ، قائلا ان الجسد يملك نظامه او اسلوبه الخاص للتخلص من الافرازات السيئة او الضارة سواء كانت طبيعية او من نتاج المرض ، بينما لا يملك العقل مثل هذا النظام او الاسلوب . لو اصابني « دمل » لانصرف من تلقاء نفسه . ولو اصابني الامساك فان تفاحة خضراء ستكفي لتخفيف الانقباض ، ولكن لو انني ممتلئ حسدا او ضغينة ، فلن ينفعني اي مظهر مهما كان ، فاما ان اتيح الفرصة للتعبير عما يحتبس في صدري ، او ان اسحبه عن طريق فعل مضاد . وليست هناك قناة طبيعية للتصريف ، لا بد لتصريفه من طريقة تشبه ولادة « ماكدف » قاتل ماكبث في مسرحية شيكسبير : « انتزع من رحم امه قبل اوان النضج والولادة » . اولى يصدق هذا - وحتى اكثر منه - على ذلك « الضجر الحياتي » الذي يخنفني . انه نوع من انقباض الروح ، دمل لا يريد ان ينصرف .

اعرف انني لا يمكن ان اكون سعيدا دون الشعور بان نشاطي موجه نحو غاية ما ، ولكنني لا اعرف كيف احشد روحي فاشحنها بهدف معين او غاية محددة . منذ نصف ساعة ، تناوات ديوان تومسون (١) الذي يحمل عنوان « شتاء » وقرأت فيه :

يتنزل الوابل الابيض عبر الهواء الساكن ،
رقيقا يترنج في البداية ، حتى تأتي في النهاية الرقائق السمكة
تسقط في كل مكان ، طولا وعرضا ، وسريعا ما يعتم النهار
بالفيضان المستمر . الحقول المدللة الحبيبة ،
ترتدي ثيابها الشتائية من انصع الوان البياض .
كلها نضاعة مشرقة ، عدا حيث يدوب الجليد الجديد
على طول المجرى المراوغ ...

لماذا تحمل تلك الكلمات سلاما يشبه سقوط الجليد الهابط على حواسي ؟ الا توجد في داخلي شهية الى السمو الجليل يفسدها الان الاجهاد ، عثما يشم جوع معدتي فاشعر بالفشان اذا اكلت كثيرا من الشطائر المسكرة ؟

(١) جيمس تومسون ١٧٠٠ - ١٧٤٨ شاعر انجليزي ، مؤلف ديوان « الفصول » الذي اخذ فكرته عن استاذة في اللاهوت دوبرت ريكالتون . ظهر ديوان « شتاء » في مارس عام ١٧٢٦ ، واكمل ديوان « الفصول » في خلال السنوات العشر التالية . يعد جيمس تومسون اول شعراء الحركة الرومانتيكية في الشعر الانجليزي ، وكان تمهيدا للهور كاوبر ووردزورث . (هـ - م)

اولا تستثار تلك الشهية فتستيقظ من خمودها اذ تتذكر حقول الشتاء ؟ وكذلك حين تتذكر قعقة السيوف فسي ملحمة اوسيان ؟ (١) وايضا اذ تتذكر اهتزازات نهدين حينما تسرع فتأ في صعود الدرجات . لماذا لا نملك عصا نضرب بها صخرة الروح لكي يتفجر منها ينبوع دفاقا ؟ »

هنا يردد ايزموند الموضوع الرئيسي في المذكرات : انه ما ندعوه الان بالطاقات والقدرات الخفية للاوعي . هذا الموضوع يتسلط عليه كالهاجس المسيطر . وهو يعود اليه مرة بعد مرة . « ان قوى الطبيعة تحيط بنا طول الوقت ، الاندفاع الجبار لتيار الفيضان ، وقذائف مدافع الرياح ، انتجوم نفسها ترقص عبر السموات لكي تقول لنا ان لا شيء في العالم يبقى ساكنا سوى روح ملعون لا يعرف سوى القلق وتائب انذات » . وهو يسأل مرارا عن السبب الذي يجعل ذكاء الانسان « ينفيه » بالضرورة من حياة الكون ويتساءل متأملا فيما اذا كان هذا هو معنى قصة آدم وحواء ؟ ان المعرفة ذاتها ، القدرة على التفكير ، هي التي كانت تفصل الانسان وتفرقه عن الله . وحتى في سن السادسة عشرة يبدي دوللي معرفة واسعة تماما بمقدسات ومشاكل القرن الثامن عشر، بل انه يقتطف عبارات من جورج هربرت (٢) . ولكن في الصحيفة رقم ٤٨ من المجلد الاول - المؤرخة في يوم يسبق عيد الميلاد بأسبوع واحد - تغير النغمة. واطنه قد اعاد قراءة جملته التي يطالب فيها « بعضا نضرب بها الروح لكي يتفجر منها ينبوع دفاقا » ،لانه يتحدث مرة اخرى عن النهود المهتزة . كان النهدان اللذان يفكر بهما هما نهذا ابنة عمه صوفيا ، التي كانت تقيم عندهم فترة الاجازة مع والدها وواندتها . ان صوفيا مونتاجو ، ابنة عم اليزابيت مونتاجو (وهي احدى العضوات الاصليات في جماعة « الجوارب الزرقاء ») ، قد اصبحت واحدة من فائتات هذه المرحلة الرموقات ، وحتى في ذلك الوقت ، حينما كانت في التاسعة عشرة او تكاد - فانها قد جذبت الكثير جدا من الاهتمام حينما كانت تقيم في بيت « ماي فير » انذي اقامته المضيئة الشهيرة. وكان ايزموند يملك ما يكفي من القدرة على التحليل لكي يعرف انه لم يكن

(١) اوسيان - شخصية ذات وجهين ، تاريخي وادبي . في التاريخ كان « اوسيان » احداً الحاربين الغالين الذين نزلوا شمال اسكتلندا في القرن الثالث ، وفسي الادب زام الشاعر الاسكتلندي جيمس ماكفيرسون (١٧٣٦ - ١٧٩٦) ان اوسيان هو الشاعر المؤلف الحقيقي لسا نشره ماكفيرسون نفسه من شعر ملحمي عن حروب الغالين في فرنسا وانجلترا والمانيا ونشرها في عام ١٩٦٠ . وبذلك بدأت المناقشات « الاوسيانية التي ما زالت تجذب بعض الاهتمام (ه.م).
(٢) جورج هربرت ١٥٩٢ - ١٦٣٣ . شاعر انجليزي اخلص للشعر وحده ، ويعد من شعراء مدرسة جون دون الميتافيزيقية. اهتم بنقل الاعمال الشعرية الإيطالية الفرنسية المعاصرة له الى الانجليزية ، فساهم بذلك في ازدهار الشعر الانجليزي في القرن السابع عشر وما بعده ، كما اهتم بالموسيقى ، ودرس علاقة الموسيقى باوزان الشعر الاوروبية ، والف عددا من المقطوعات الموسيقية لكي تصاحب قراءة بعض قصائده . (ه . م .)

واقعا في حبها ، لانه كتب يقول : « انها بلهاء ، ولكنها بلهاء جميلة تتمتع بالكثير من نقاط التشابه مع احدى الربات » . ويكتب عنها فيما بعد قائلا : « قالت لي صوفيا انها سمعت مستر بوزويل يتناقش مع دكتور جونسون مدافعا عن تعدد الزوجات ، وان مسز مونتاجو اجابت بانه ليست هناك امرأة على قيد الحياة تمتلك حكمة ضئيلة الى الحد ان الذي يجعلها تريد اكثر من زوج واحد في الوقت الواحد » . ان لفكرة بوزويل جذورها ، وقد تأصلت فيما بعد ، وكذلك تأصلت افكار روسو في كتاب « هيلويس الجديدة » التي قراها بالفرنسية ، كما قرا رواية ريتشارد سون « كلاريسا هارلو » . ففي رواية روسو تنشأ علاقة حب بين البطلة جولي ومعلمها سانت بربو ، ويدافع عنهما روسو محتجا بان هذا الحب حق وطبيعي بين شخصين يجب احدهما الاخر وتمنعهما الظروف من الزواج . اما رواية ريتشارد سون فهي اخلاقية اذا ما قورنت برواية روسو : انها معالجة لحكاية اغواء كلاريسا الفاضلة واغتصابها على يدي افاق الصعلوك لفليس . وتموت كلاريسا تحت وطأة تعذيبها لنفسها وشعورها بالعار ، ويقتل لفليس في مبارزة . ويكيل ايزموند صنوفا من التهمك لريتشارد سون باسم روسو . لماذا يمكن ان تنهار فتاة وتضمحل حتى الموت لان رجلا قد فعل معها شيئا طبيعيا ؟ ان حضور ابنة عمه الجميلة يحفظ موضوع الاتصال الجنسي في طبيعة ما يشغل ذهنه ، وفي وقت قصير يشرع في التعبير عن آراء تدفعه الى تقرير المحافظة على سرية مذكراته . انه - مثل عدد كبير من النقاد - يشك في ان موقف ريتشارد سون ازاء اغتصاب كلاريسا لم يكن موقف الرفض المرتعب ، وانما المتعة السرية الشريرة . « فمن الذي يمكن الا يستمتع باغتصاب فتاة جميلة ، خاصة اذا لم تكن متألكة لوعيها ولا تعرف شيئا عما يجري لها ؟ » وهو يسأل عن السبب الذي يجعل ريتشارد سون يسمح باغتصاب كلاريسا وهي تحت تأثير المخدر ، بدلا من اتباع طريقة لوريس ، ثم يجيب على تساؤله قائلا : « اذا كانت الفتاة فاضلة الى الدرجة التي تمنعها من تسليم جسدها باي طريقة اخرى ، فان لفليس على حق في اتباعه لهذا الاسلوب . ان جمال الفتاة ، مثل جمال انواع معينة من الطيور الاستوائية ، قد خلق لكي يفري الذكور ويوقعهم في حباله ، فلماذا ينبغي عليها ان تشكو اذا كانت قد حققت كل هذا القدر من النجاح ؟ انها تشكو لان هدفها هو ان تحصل على زوج في مقابل فضيلتها . ولكن لنفترض ان زوجها المحتمل قد وجدها بلهاء ولم يرغب في ان يكرس حياته للدفاع عنها فهل يلزمه شرفه بان يتوقف عن الطراد ؟ لماذا لا يستطيع ان يحاول انتزاع الزهرة بدلا من ان يشتري الحديقة بأكملها ؟ »

ومن المهم ان نلاحظ انه لم يجب بالفعل على سؤاله عما دفع ريتشارد سون الى تفضيل ان تفتصب كلاريسا وهي غائبة عن الوعي . ولكن هذا السؤال يستمر في مداعبة تفكيره . انه يسأل : « اليس ذلك لان احساس الرجل بالالتزام يقلل من متعته ؟ اليس من الحق ان استمتاعي بزجاجة من النبيذ يمكن ان يضيع تماما

إذا عرفت ان علي ان ادفع خمسينا من الجنيهات لقاءها غدا ؟ » وهو يمضي الى مناقشة فكرة بوزويل عن تعدد الازواج ، ويؤكد ان هذه الفكرة ليست سوى تعبير اخر عن رغبة الرجال الطبيعية في ان يعربوا عن ولائهم وان يدفعوا ما قرر عليهم .. « بأن يصبوا دنانا من عصير الخلق في الحلق الصحيح المناسب » .

ولم يؤد الاهتمام بصوفيا الى شيء . ولكنه على الاقل ادى الى بداية تفكير ايزموند في الجنس . ويؤدي هذا به الى كتابة معالجة تقريرية ممتعة عن تجاربه الجنسية حتى ذلك الحين . وكانت هذه التجارب قد وقعت قبل ذلك بستة شهور فحسب ، كانت الفتاة هي خادمة شقيقته الكبرى ، جوديث ، وكانت قد جاءت عائدة من ليونز . وهو يدعوها باسم مينو رغم انه من الواضح ان « ماري » هو اسمها الحقيقي :

حينما عدت من دبلين ، كانت جوديث قد عادت الى البيت منذ نحو ستة اسابيع . وفي البداية لم انتبه الى مينو اقل انتباه ، اذ وجدت ان وجهها على شيء من القبح ، كان صدغها كبيرا جدا ، وكان لها انف مثل الزرار الكبير . ولكن في اليوم التالي لعودتي ، وبينما كنت راقدًا على الحشائش الحديثة التشذيب بالقرب من حافة مجرى الماء ، سمعتها تضحك وتقول : « كلا ، كلا . ليس هذا هو المكان المناسب » ثم سمعت صوت رجل يتهمك على لكنتها قائلاً : « كلا ، كلا . ليس هذا هو المكان المناسب » وكان الرجل هو شون رافرش ، الذي كان يسوس الخيل ويساعد على شؤون الحديقة ، وكان عملاقًا هائلًا ضخم الجثة برزت على صدغه الايمن ندبة كانت نتيجة ركلة قاسية من مهرة عصية . لم تكن سراويله ولا ستراته تناسبه ابداً ، لانها كانت غالباً مما يستغنى عنه شقيقه الاكبر ، الذي كان اقصر منه بمقدار ست بوصات . لم اكن قادراً على رؤية اي منهما ، لانهما كانا راقيدين في وسط الحشائش الطويلة تحت احدى شجرات التفاح . وبعد دقائق قليلة من الصمت ، قالت مرة ثانية : « كلا ، ليس هنا » . اجابها : « اذن تعالى الى الجرن » قالت : « كلا . لا استطيع . يجب ان اعود لاقدم الشاي » . (وكانت جوديث لا بد ان تتناول الشاي في العصر . عادة جاءت بها من الخارج) . ولكنني سمعتها تعده بان تذهب الى الجرن بعد تقديم الشاي ، ثم وقفت ، ونفضت شعرها بيديها ، واسرعت بتباعد . وقف شون رافتي ، وربط بنطاله عند وسطه بقطعة حبل ثم ذهب في اتجاه الجرن .

كنت اعرف سمعة شون بين فتيات القرية ، رغم انني لم اكن قادراً ابداً على فهمها ، لان ندبته وعينه المشقوقة اعطياه مظهراً مفرعاً الى اقصى حد . كانت شقيقتي تطلقن عليه اسم « سيكلويس » . ولكنني كنت الان اتحرق شوقاً وفضولاً لمعرفة ما اتتوى ان يعملها معها ، رغم ان ذلك لم يكن صعب التخمين . كنت قد راقبته وهو يرشد العضو المنتصب لاحد الجناد النافذة الصبر لكي يولجه في مهرة جديدة ، ولم يكن لدي شك في انه جيد التدريب على استخدام « آلتة » والسيطرة عليها . ولكنني لم اكن اعرف شيئاً عن التحام الرجل بالمرأة ، غير انني

قررت الان ، الان وقد سنحت الفرصة من تلقاء نفسها ، ان عليّ ان اعالج هذا !النقص الخطير في تعليمي.وعلى هذا فقد دفعت نفسي الى مخزن القش فسي الجرن - لانني خمنت ان هذا هو المكان الذي كان يقصده - ثم تسلقت صاعدا الى القسم العلوي منه ، بين اكياس الفاصولياء واجولة البذورة . كانت الارضية كلها مغطاة بالقش ، والرائحة لذيدة مثيرة . كان تخميني انهما ينويان ان يستمتعا بالتحامهما فوق هذا البساط الطبيعي ، ولكن اذا كان قد وضع في راسه « ان ينظر الى القسم العلوي ، فانه سيتعين عليّ ان اخبئ وراء الاكياس والاجولة في الركن .

بعد نصف ساعة دخل شون وبدأ في قلب القش بشوكة كبيرة ، لم يكن بوسعي ان اراه ، ولكني عرفت من صوته وهو يفني اغنية « موللي مالون » . ثم صعد بعد ذلك الى الطابق العلوي ، آخذا معه « احضانا » هائلة من انقش ، لكي يعثرها وينشرها على الارضية على بعد بضعة ياردات من المكان الذي رقدت فيه . من هذا التصرف خمنت انهما ينويان ان يخلعا ملابسهما وان يفعلا ما يريدان هنا في القسم العلوي ، وليس في المدخل السفلي كما كنت اظن . بعد دقائق قليلة ، جاءت مينو ، ولبرهة قصيرة لم اسمع صوتا . رفعت جذعي على ركبتي وتلصقت ناظرا فوق الاجولة . كانا واقفين بالقرب من الباب ، وكانت قد احاطت عنقه بذراعيها ، تبادلا حديثا هاما ، وأشار هو الى السلم . خفضت جذعي ورقدت . اغمضت عيني ، حتى يظناني نائما ان وقت عيونهما عليّ . صعد هو اولا ، ثم استدار وعاونها على الصعود على السلم الذي كان ممتدا وراء المنصة العالية . كان الضوء ضعيفا ، ولكن كان بوسعي ان اراهما بشكل جيد . وقف هو وظهره الى الجدار ، فالقت هي بذراعيها حول عنقه ومنحته قبلة طويلة . ثم انزلت احدي يديها ومدتها الى الجبل الذي حلت عقدته بجذبة واحدة . سقط بنطاله الى ركبتيه ، كاشفا عن ردفين هائلين مشعرين كانا في مواجهتي . تحركت يدها متجولة بينهما ولم يكن بوسعي الا ان اخمن ما كانت تفعله في هذا المكان ... رفعت وجهي فوق الاجولة ، ولكن لم استطع ان ارى سوى القليل ، لانهما كانا غارقين وسط القش ، وكان الضوء قليلا بالقرب من الارض . وفجأة صرخت صرخة حادة ، وخشيت انا ان تكون قد رأتني ، فأخفيت نفسي غاطسا الى الوراء من جديد . ثم سمعته يأمرها بالصمت ، فصرخت مرة ثانية ، ولكن بصوت اقل ارتفاعا . همس القش وصر كما لو كانت الاف من الجرذان تمرح داخله ، واستمرت هي في اطلاق الصرخات والانات ، كما لو كانت تتألم . ثم اصبح الصرير عنيفا حتى دفعني الى التلصص من جديد ، فرايته يحرك ردفه فوقها كما لو كان يأمل ان يصنع ثقباً في الارض ... بينما اندست قدمها في ثني ظهره ، ولو كان هناك المزيد قليلا من الضوء ، لكان في وسعي ان ارى المشهد الصحيح الدقيق للعملية . ثم حاولت ان تصرخ مرة ثانية فوضع يده فوق وجهها ، بينما توقفت حركاته كما لو كان قد تجمد فجأة . رقدا في مكانهما ، ساكنين تماما ، ثم تنهد تنهيدة عظيمة ، وبدأ عليه انه يوشك ان

يجفل مرتدا الى الوراء من فوقها . وحلت هي وثاق ساقها من حول ردفه ، وتركتهما تتمددان مستقيمتين ، بينما رقد هو في مكانه فوقها دون حركة .

لا بد لي من الاعتراف بان كل هذا قد دفعني الى حافة قريبة من الاستشارة التي بلغت لحظة انفراجها الخاصة قبل ان تتوقف حركاتهما بوضع دقائق . ولما كنت قد انتهيت ، فقد املت ان يرتديا ثيابهما وان يسمحا لي بالهرب من هذا الوضع المقيد . ولكن الصمت الذي اطبق واستطال اقنعني بانهما قد غرقا في النوم ، رغم اني لم اجرؤ على الحركة لكنني اكتشف ان كان تخميني صحيحا ام باطلا . وبعد ان مرت عشر دقائق ، شرعا في التحرك ثانية ، ولكن الصرير استمر لمدة طويلة حتى انني رجعت انهما لم يفعلوا سوى ان عادا الى مؤتمر العشق الذي يعقدانه . رفعت عيني فوق الاجولة فاكتشفت ان تخميني لم يبلغ سوى نصف الحقيقة ، لانه كان راقدًا على ظهره مثل مجالد مصروع ، بينما جثت هي على اطرافها الاربعة ، وبدت كما لو كانت تحاول ان تنفث قدرا من الحياة في الجمرات الخابية بان تنفخ فيها بعض الهواء . وبعد قليل ، اثمر جهدها ثمرته ، وتأجج اللهب في الجمرات من جديد . .»

يمضي تقرير ايزموند في اطناب واستطالة حتى ليكون من غير المجدي ان ننقل منه المزيد هنا . كانت الفتاة مصابة بالفلمة مستعرة الشبق ، رغم ان ايزموند كان اقل خبرة بكثير من ان يدرك هذا ، لقد دفعت فارسها الى مزيد من النشاط ثلاث مرات ، ثم تركته في النهاية غارقا في نوم بلغ من العمق ان ايزموند كان اخيرا قادرا معه على ان يخطو على اطراف اصابعه فوق جسده دون ان يشعر به .

ولكن الطور التالي كان نموذجيا ومطابقا لما هو منتظر من ايزموند حتى انه يجب ان يسجل هنا . انه يعترف بانه لم يكن قادرا على رؤية ما يجري . ولكن الاصوات كانت دالة ولا يمكن الخطأ في تفسيرها حتى لقد كانت الرؤية غير ضرورية . والان ، وقد رأى الفتاة عارية ، فان فكرته الوحيدة كانت هي كيفية ان يتقاسمها مع فتى الاصطبل . انه يكرر عدة مرات ان جمال جسدها قد ادهشه ، وكان قبل هذا يظن دائما ان المثاليين الاغريق قد اسرفوا في المبالغة في جمال شكل الجسد الانثوي . وفي طريق عودته الى المنزل ، خطر له ان الفتاة يمكن ان تخضع للإبتراز والتهديد لكي تسلم نفسها . لم يكن عليه الا ان يهدد بان يبلغ شقيقته بانها تعشق فتى الاصطبل . ذهب بعد هذا الى حجرته لكي يفتسل وينفض التراب عن ثيابه ، ثم ذهب عبر جناح الخدم الى حجرة مينو . ولم يلح له ان ثمة احدا بالداخل ، فتح الباب واطل براسه في الحجرة .

« كانت حجرتها خالية ، واللحظة ناقشت نفسي الانتظرها ام اكر راجعا الى حجرتي . ثم سمعت صوت مياه تسيل في المراض الملحق بالحجرة . وهو قسم صغير من الحجرة نفسها يفصله عنها حاجز صغير - فعرفت انها هناك بالداخل .

انطلقت الباب خلفي وخطوت الى الداخل على اطراف اصابعي . ولكن احد الواح الارضية صرّ تحتني فنادت : « من هناك ؟ » فقلت باكراً ما استطعت هدوءاً : « ايزموند » . اطلت براسها وقالت : « اوه ، سامحني ، انني دون ثياب » . وقفت في مكاني ، شاعراً بانني ابله لا شأن له ، الامر الذي اغضبني ، امسكت بثوبها ، الذي كان ملقى على احد المقاعد ، ورفعته لتغطي جسدها عند العنق وهي تسأل : « اتحمل رسالة ؟ » ولكنها كانت تبسم كما لو كانت قد وجدتني ممتعاً ، وساعدني هذا على التخلص من توترتي . كنت احدث فيها بقوة ، محاولاً ان اعرف ان كانت ترتدي قميصها ام لا ، حتى انها لم تبق طويلاً في شك من هدفي . كانت هذه هي اول مرة اعرف فيها ان تبادلنا في الاراء يمكن ان يحدث دون نطق بكلمة واحدة . تحركت عيناها من قدمي الى راسي ، وعادت ثانية . قلت : « الجو بارد هنا » او شيئاً من هذه البلاهات ، ثم خطوت الى الامام ، واخذت يديها وامسكت بهما فرفعتهما واطللت تحت الذراعين . كانت ترتدي القميص ، ولكنه كان متديلاً تحت عنقها ، غير ان منظر الكرتيسين غير المحميتين دفعني الى العمل بقوة حتى انني لم اطل التردد ، وانما اخذت الثوب منها والقيته على الفراش . على النهد الايسر رابت آثار صفين من الاسنان ، وحينما بدا عليها انها على وشك الاحتجاج اشرت الى تلك الآثار . هبطت بعينيها نحو صدرها وقالت شيئاً بالفرنسية لم استطع سماعه ، ثم حنيت رأسي الى الحلمة الصغيرة التي وقفت الان عارية . وبينما كانت تنظر ، جذبت حزام القميص . توقعت منها ان تقفز مبتعدة ، ولكنها وقفت في مكانها بهدوء وتركتني لكي اخذها بين شفتي ، ثم بعد لحظة ، وضعت يدها على رأسي وربتت على شعري . ثم حلت رباط حزامي ... لم اضيع وقتاً اكثر من هذا ، وانما دفعتها الى الوراء نحو الفراش الصغير ، ووضعت يدي على الاجزاء المنخفضة التي كانت مبتلة لانها كانت تفلسها حينما دخلت الحجرة . ودون ان اخلع بنطالي او حذائي سقطت فوقها ، ولجتها دون صعوبة

مرة اخرى يبدو الوصف اطول جداً من ان نقتطفه كله . لقد بقيا في حجرتهما ساعة اخرى ، ودفعته الفتاة المدهشة الى ان يمارس الجنس معها ثلاث مرات اخرى . وبعد ذلك تبادلنا الحديث ، واعترف ايزموند بانه قد راقبها مع شون رافرتي . وبدلاً من ان تشعر بالهانة ، ضحكت ضحكة مرتفعة ، وسألته ان لم يكن قد شعر بالفيرة فقال : « لم اكن حينذاك . ولكنني اشعر بها الان » قالت له ان ذلك سخف لا معنى له ، طالما ان المفروض في الرجال والنساء ان يتبادلا المتعة .

من الصعب ان نقول ان كان ايزموند سعيد الحظ ام تاعسه في اختياره عشيقته الاولى . حقا ان آراءه حول الاتصال الجنسي غير الشرعي كانت قد تطورت من قبل تطوراً كبيراً ، ولكن قصة حب اكثر طبيعية - ذات جانب عاطفي - بالاضافة الى جانبها الجسدي - كانت جذيرة بان تساعد على موازنة تلك الآراء . كان ما يزال غير مدرك لان هناك شيئاً ما غير طبيعي في مطالب مينو الجسدية ،

طالما انه وجد نفسه قادرا على ان يمارس معها الجنس بالكثرة التي تريدها .
كذلك فانه ليس من الحقيقي تماما ان الانجذاب القوي بينهما كان محروما من
جانبه الوجداني . بل لقد كانت هناك نقطة اعتبرها هو اندماجا معها . لقد
كف عن التفكير في كلاريسا ولفليس ، او جولي وسانت بيو ، وراح يفكر في
قصتهما باعتبارها قصة مينو ودي جريو - رغم انه يعترف بانه كان قد صرف
النظر من قبل عن مسرحية بريفو باعتبارها شيئا سخيفا وغير واقعي .

من المؤسف ان ايزموند لا يقول لنا شيئا عن تاريخ مينو السابق ، ولا حتى
عما اذا كان قد سألها هو عنه ام لا . لقد كان من المهم ان نعرف ان كانت
حيويتها الجنسية غير العادية فطرية ام مكتسبة ، انها تبدو بشكل واضح
في صورة حالة من حالات الفلمة الشبية جديرة بان تدرس في كتاب مرجعي .
كانت تحب ان تَعْض بالاسنان وخاصة في نهديها وردفيها ، وكانت تحب ان
تضرب على مؤخرتها بشريط من الجلد ..

وفي خلال الشهرين اللذين استمرتتهما تلك العلاقة ، لم تكن تخفي عنه
انها كانت تمضي اكثر ما تستطيع من الوقت مع شون رافيرتي ، وكان ايزموند
واقعا تماما تحت سيطرتها حتى انه لم يشك في ذلك . بل انها حاولت ان
تقنعه بان يختبئ في الجرن مرة ثانية لكي يراقبها وهي تمارس الجنس مع
شون . ولكن كبرياء ايزموند - او ربما تظاهره الاخلاقي البروتستانتى - ثار
ضد ذلك .. بل انه اعترض على اقتراحها الذي قالت فيه انها ستخبر شون عن
علاقتها به هو ، وان ثلاثتهم يمكن ان يشتركوا في الاعيب الجرن .

في اغسطس اتخذت القصة تحولا غير متوقع ، يدفع المرء الى ان يتساءل
اذا كانت مينو (واسمها الاخر لم يسجل) واحدة من اكثر نساء زمنها تعقيدا
وابعدهن عن التقيد بالمواصفات المعتادة . فقد حدث ان فتاة تدعى دلفين لانتير ،
وهي احدى معارف جوديث ، جاءت لكي تقيم في قلعة دوللي . ويستطيع المرء
ان يستنتج من وصف ايزموند لها انها لم تكن ذات جمال تقليدي ، لانه يقول
ان وجهها كان يتمتع بنوع من الجمال الناتج عن رقنها وعينيها الواسعتين البنيتين .
وكان من سوء حظها ايضا ان تكون مشوهة تشويها بسيطا ، فقد حدث ان
سقطت من احدى العربات في طفولتها ، فانكسرت عظام احد رديها واحد
كتفها ولم يستطع الاطباء ان يعيدوا العظمتين الى حالتها الطبيعية ، فكان
عليها ان تحمل نفسها على ساقها بطريقة مضطربة . ورغم ان اباه كان فرنسيا
فقد كانت امها ايرلندية وكانت تتحدث الانجليزية بطلاقة . (ومن الامور ذات
المفزى ان ايزموند يتحمل مشقة تسجيل التفاصيل الشخصية عن فتاة من
طبقتة ، بينما هو يتجاهل تلك التفاصيل الخاصة بمينو ، الاكثر تعقيدا
وجدبا للاهتمام) .

كان ايزموند صبيا في السادسة عشرة من عمره ، رومانتيكا ، وكان ينظر
في تأمل الى كل امرأة يقابلها . فاذا كانت مينو صورة من مانون ليسكو ، فان

دلفين كانت اقرب الى شخصية جولي - او ربما كانت اقرب الى « كليز » الرقيقة الحلوة الطبع في نفس الرواية . رأى ايزموند انها كانت على قدر من الخجل ، فتحمل مشتقة ان يسليها . اعادها كتاب « هيلويز الجديدة » بعد ان انتزع منها وعدا بان تخفيه عن الانظار . (والسبب في هذه اللسنة من السرية ليس واضحا ، لانه يذكر في مكان اخر انه لم يكن يوسع ابيه ولا امه ان يتحدثا الفرنسية وربما كان يريد ان يقيم مع الفتاة نوعا من العلاقة الخاصة) . ولكنه كان يخشى ان تشعر مينو بالغيرة ، فحاول الا يكون اهتمامه بالقادمة الجديدة شديد الوضوح . ولكنه كان يبخس مينو قدرها ! فبعد عدة ايام ، وكان قد قضى معها ساعة في فراشه ، قالت له انها تظن ان دلفين واقعة في هواه ، وقالت له انه غيبي لانه لم يلاحظ ذلك . وقرر ايزموند ان يكشف الامر ، بالاساليب العادية ، وهي ان يجعل يده تحتك بيدها وهي تمر الى جانبه ، وان يلمس يدها او وسطها حينما ينفرد بها ، لكي يرى ان كانت ستقبل هذا النوع من الالفة . وقد قبلته . وفي اثناء نزهة وسط خراب الدير امسك بها في احدا الاركان وقبلها ، فانفجرت في البكاء . ابتعد هو متزعجا وقد اختلط عليه الامر ، لكي يسأل مينو رايها . قانت له مينو ان دلفين كانت اكثر جدية ازاءه منه ازاءها ، وان دموعها كانت لانها حدثت ذلك ، وهذا تحليل جدير بالاحترام . وهكذا فحينما انفرد بها في المرة التالية سألها ايزموند : « الا تحبين ان اقبلك ؟ » واكد لها انه لن يفعل ذلك ثانية اذا هي اعترضت . احمز وجهها ، وقالت عدة جمل لا رابط بينها ، وحينما ضغط عليها ، اعترفت بانها لا تعترض على ذلك . دعاها ايزموند لاجولة اخرى بين اطلال الدير ، وامضى عصر ذلك اليوم وهو يقبلها . وفي عودته ، كان لا بد ان ينطلق الى حجرة مينو لكي يمتلكها ، كانت سيطرته على نفسه طول النهار اكثر مما يحتمل . قالت له مينو انه عاشق بليد ، وان ما يحتاج اليه هو الرقة والملاطفات . ان عليه ان يربت على وجهها وذراعها ، واي جزء من جسدها يتصادف ان يكون مكشوف . اي ان يعودها ان تستجيب باستمتاع للمسته ، ثم يتقدم بحذر نحو المناطق المحرمة . ويستغرق وصف ايزموند لتلك الحملة تسع صفحات من الكتابة الضيقة الحروف والمساحات . كانت دقائق عملية الاغواء تسحر له . وبعد اسبوع سمحت له بان يكشف نهيدها لكي يلاطفهما ، وان يقبلها فوق الركبتين - رغم انها كانت تمسك بقوة بطرف الثوب بكتلي يديها لكي تمنع اي مزيد من التقدم . تناقشا في شخصيتي جولي وسانت بربو ، ووافقت نظريا على ان شخصين في وضعهما لا بد ان يكونا عاشقين . ولكنها - في التطبيق - وضعت خطأ فاصلا حادا بين الملاطفات وممارسة الحب .

غير ان مينو الفريدة في نوعها قدمت اقتراحا ادار رأسه . كانت مقتنعة بان دلفين كانت فاضلة . « فضيلة نظرية وبسبب عدم الخبرة » - حسب تعبيرها - ولكنها كانت تملك فضولا كافيا . قالت لايزموند ان يأتي بدلفين الى الجرن في عصر اليوم التالي ، وان يؤكد عليها الا تنبس بأي صوت حينما يدخل

شون رافيرتي لكي ينشر القش استعدادا لدورتها المعتادة من ممارسة الجنس :
« فاذا رفضت ان تنظر ، فانها فاضلة حقا ، ويكون من الافضل لك ان تهرب قبل
ان تتزوجك . فاذا نظرت ، فانها ملكك بالفعل » .

وبينما كانت الساعة الفاصلة تقترب ، اصبح ايزموند عصبيا ، وقرر عدة
مرات ان يتخلى عن كل هذا المشروع المستحيل المنافي للطبيعة والعقل . وانتابه
الشك في ان الفتاة التي تستطيع ان تضع خطأ فاصلا بمثل تلك الحدة ، جذيرة
بان تهدم اللعبة كلها بان تكشف عن مكان اختبائهما . واعلنت شقيقته عن رغبتها
في القيام بزيارة لبعض الجيران عصر ذلك اليوم ، فقالت دلفين انها تود ان تذهب
معهما ، واطلق ايزموند تنهيدة ارتياح عظيمة . ولكن دلفين - في اللحظة الاخيرة
- عادت فقالت انها تشعر بصداغ ، وقالت امه انها ستذهب بدلا منها . وبدأ
ايزموند يلعب لعبة اشبه بالوليت الروسي ضد القدر . لقد اراد للمشروع ان
يفشل ، واكنه كان راغبا في ان يمضي في تنفيذ كل خطواته - باحثا بلهفة عن
اول عذر يبرر له التخلي عنه . ذهب الى حجرة دلفين في الساعة الثالثة والنصف
وسألها ان كانت تشعر بالرغبة في التمشي معه قليلا . خرجت معه فاتخذوا
طريقهما المحب صوب بلدة آدار ، ثم عادا سائرين الى جانب المجرى المائي وهما
يلقيان الحصى في القيعان الضحلة . وتحدث ايزموند عن طفولته ، وعن الساعات
التي امضاها في قراءة الكتب الممنوعة في الجرن . (ولا يبدو ان في هذا شيئا
اسوا مما جاء في كتاب « الراهبة » لمسز افرا بيهن ، او في كتاب « فردينانا »
او « الكونت فاوم » لسمولالينس) . وبينما كانا يعبران فناء المزرعة ، اقترحت
دلفين ان يلقيان نظرة على الجرن . كانت الساعة الان النصف بعد الرابعة ، وكانت
هناك فرصة لاحتمال ان يكون شون بالداخل بالفعل . ولكنه لم يكن هناك . قادها
ايزموند فوق السلم الى القسم العلوي الشبيه بالمنصة ، ثم ذهب الى المكان الذي
كان قد اعدده بالفعل في الركن - واضعا اجونة نظيفة على الارضية - ثم القى
بنفسه عليها . فعلت دلفين نفس الشيء دون تردد - ولا شك ان هذا كان هو ما
انتوته بينها وبين نفسها .

« اضعنا قليلا من الوقت في الحديث ، ولكننا غرقنا على الفور في القبلات والملاطفات
الناعمة التي عبرت بسرعة الى النقطة المعهودة من الالفة . لم تكن ترتدي اية
مشدات ، ولذلك كان سهلا اكثر من المعتاد ان اكشف نهديها وان ابدا الهجوم
بشفتي . وكنت قد لاحظت من قبل انني استطيع ان ازيد متعتها بان اعض
الحلمتين برقة شديدة ، ولحظتها كانت تشبك كاحليها وتنضفط بشدة في حركة
تلقائية ، الامر الذي استنتجت منه ان النقطة التي تنضفط بينهما كانت مستعدة
لتقبل مزيد من الاهتمام . ولكن حينما تحركت شفتان فوق ركبتيها ، اسرعت
تفرس اصابعها في شعري وتمسكني بقوة . كنا في هذا الوضع حينما سمعنا
صوت الخطوات القادمة صاعدة على السلم ، فاسرعت من فورها تسوي ذيل
ثوبها ، وكانت على وشك ان تنهض جالسة حينما وضعت اصبعي على شفتي

وهززت رأسي محذرا . جاسنا في مكاننا ، لا نكاد نتنفس ، ثم سمعت حفيف القش بينما كان شون يشره ويرتبه فوق الألواح بشوكتة الطويلة، ثم هبط الى اسفل وعاد حاملا « حضنا » آخر من القش وهمست أنا لها ان تظل صامتة وان كل شيء سيكون على ما يرام، لانه لم يكن سوى فتى في الاصطبل ، وهو صديق خاص لي . ولكن حينما حاولت ان اقبلها ثانية هزت رأسها ودفعني بعيدا .

سمعنا شون يهبط ثم يخرج من الباب ، فقالت : « اسرع . هذا هو وقت الخروج . » ولكن حينما وقفنا سمعنا صوت مينو في الطابق الاسفل ، فجلست بسرعة مرة اخرى دون ان احثها على الجلوس . كنت قد رتبت الاكياس المليئة امامنا بحيث تستطيع ان تنظر من ثغرة بين اثنين منهما دون حاجة الى الوقوف . انزعجت دلفين وهمست تقول : « ماذا اذا كانا سيحييان الى هنا ؟ » ولكنني طمأنتها ، مشيرا الى القش . اظن انها في تلك اللحظة بدأت تشك في الفرض الذي كان شون يرتب القش من اجله بهذه الطريقة لانني رأيت وجهها يصطبغ بالحمرة .

صعد شون اولاً ووقف هناك ، وما ان لحقت به مينو حتى القت ذراعيها حول عنقه ومنحته قبلة بالفة الطول ، عرفت طبيعتها لانني كنت قد خبرتها بالفعل، فقد كانت ماهرة مهارة رائعة في اشعال النار في الدماء بحركات جريئة من لسانها. ثم حلت الحبل حول وسطه حتى سقط سرواله حول كاحليه ... لاحظت حينئذ بابتهاج ان دلفين كانت تتابع كل حركة بأكثر ما يمكن من الفضول وتذكرت ما قالته مينو من انها اصبحت بالفعل ملكا لي . حينئذ مددت يدي وجذبت كتفي ثوبها الى اسفل ، ومددت كلا من يدي تحت ابطها لكي اضع كلا منهما فوق احد نهدبها . لم تبدل اية محاولة لمنعي ، كان بوسعي ان احس بقلبها يضرب ضرباته الثقيلة السريعة تحت اصابعي . كانت مينو الان دون ثيابها راکعة امام شون .

وكننت اكثر اهتماما بالبحث عن الكيفية التي قد يمكنني بها ان استفيد من موقعي الحالي مما كنت مهتما بمتابعة تطورات مباحجها الحارة ... وعدت الى ملاطفاتي ... فرفعت ذيل ثوبها فوق مستوى ركبتيهسا ، وسمحت ليدي بأن تضغط على فخذه . وفي هذه المرة لم تأت باية حركة لكي توقفني ... ولكن حينما حاولت ان ادس اصبعي هزت رأسها وضغطت فخذيها باحكام اكثر . كان تنفسها الآن ثقيلاً حتى ان صرير القش وحده هو الذي منع الآخرين من سماعه ... غيرت وضعي ، وبدأت اعض نهدبها ... ثم قبضت اصابعها على شعري ... وانطلقت من صدرها تنهيدة طويلة ، ثم هوى جسمها الى الامام ، وكانت على وشك السقوط بكل ثقلها لو لم اكن على استعداد لدعمها بيدي . كانت الاصوات القادمة من ناحية القش قد بلغت الآن مرحلة الصراع ، ولكنها كانت غير مبالية كما لو كانت تلك اصوات عاصفة تهب في الخارج ، تركت نفسها تسقط على الاجولة ، واغمضت عينيها ، وهي تمد وتفرد وتسوي ثوبها لكي تستعيد رونقها . هذات من لهفتي بشيء من الصعوبة ، وانا لاحظت عودة تنفسها الى انتظامه ، ولكنني بعد خمس دقائق او نحوها ، وخشية ان تفرق في النوم ، تفقدت ما احرزته من تقدم ، فرددت الى جوارها وقبلتها . رقدت في مكانها كما لو كانت

نائمة ، فوضعت يدي على ركبتيها ، ثم زحفت بها . . . وكانت الاصوات القادمة من الناحية الاخرى للحاجز قد توقفت ، وكان كل شيء قد صمت الان حتى كان بوسعنا ان نسمع حركة فار صغير . ولذلك لم ابدل اي محاولة اخرى لتحسين وضعي ، وانما رقدت في مكاني ، ويدي فوق فخها الداخلي البال . . . رقدنا في مكاننا هناك لمدة تقرب من ربع الساعة ، ثم سمعت همس مينو ، فعرفت انها قد جددت طاقتها ، وانها الآن قد عزمت على اثارة خنزيرها النائم الذي كانت اجابته مجرد زمجرة . . . وانطبقت ذراعاها بقوة حولي ، فغطيت فخها بقبلة .

تمنحنا لهجة هذه الحادثة كلها انطبعا بأن ايزموند كان قد اصبح بالفعل كازانوف لا يترك شيئا للظروف او للمصادفات . ولكن الاحداث تكشف عن عدم صحة ذلك الانطباع . ان كازانوف كان جديرا بأن يتناهى التعب من الفتاة قبل ان يعتمد عنها . اما ايزموند فقد قرر ان يحبها ، وانه سوف يتزوجها . ومن المحتمل ان يكون قد شعر بالخل من الخطة التي اتبعها والتي تغلبت على مقاومتها . وكان بالتأكيد يدرك المضر الذي قد ينزله بها اذا ابدى اي تناقض في رقبته ازاء اهتمامه بها . كانت بالفعل تشعر بالخل منه لسماحها له بأن يطلع على استشارتها الجنسية ، ولكن خجلها كان اكبر لانها سمحت له بأن يستفيد من هذه الاستشارة . واو انه قد هجرها كاية بعد استسلامها ، لكان هذا قد بدا لها في صورة الجزاء الذي تستحقه فعلا . ولكن ايزموند صمم على ان يثبت ان هذا لم يكن حقا . لقد انفرد بها - بعد ان غادر شون ومينو الجرن ، وهذا صرير القش مرة ثانية - فقال لها انهما قد اصبحا مخطوبين . وفي تلك الليلة ، حينما ادارت مينو مقبض باب حجرته ، وجدت ان مزلاج الباب مغلق من الداخل . وفي الصباح التالي ، بحث هو عنها واخبرها انه مخطوب وانهما يجب الا يكونا عاشقين من تلك اللحظة . ويبدو انها تقبلت هذا الموقف بطريقة فلسفية ، بل انها كانت متعاطفة معه الى الحد الذي جعلها تحذره من ان يحتفظ بسر هذه الخطوبة بعيدا عن والده . فعلم بنصيحتها . ولكن دلفين لم تكن بهذا القدر من اللباقة ، لانها اطلعت جوديث ، شقيقة ايزموند ، على السر ، الامر الذي ثبت انه اسوأ انواع التقدير . كان من الواضح ان جوديث مفرمة بدلفين ، وربما كانت تستطيع ان ترحب بها كزوجة لايها في ظل ظروف مختلفة . ولكن دلفين كانت كاثوليكية رومانية ، وكان آل دونلي من البروتستانت . وكانت هذه هي اكبر العقبات جدية، لان الكاثوليكي في ايرلندا كان نوعا من المنبوذين . كان سادة الريف من البروتستانت ، اما الكاثوليك فكانوا مطرودين من الدائرة الاجتماعية . وكانت دلفين ابنة لارستقراطي فرنسي ولكن هذا لم يؤد الى اي اختلاف ، طالما انهم كانوا في ايرلندا . وأشارت جوديث الى هذه الحقيقة ، وكانت دمسوع ومناقشات طويلة . وبدأ ايزموند يشعر بأنه ارتكب غلطة جسيمة . كان امرا لا اهمية له عنده على الاطلاق سواء تحولت دلفين الى البروتستانتية ، او اصبح هو كاثوليكي ، او اصبحا كلاهما بوذيين . لقد اراد ان يتزوجها لانه مدين لها بالحب والحماية، ولان اغواءه لها قد منحه احساسا قويا بالرضا عن نفسه . وقد اصبحا الآن

« مخطوبين » وكانت هي ترفض حتى ان تذهب الى الجرن . وهو يقول بسخرية في مذكراته انهما كانا جديرين بأن يكونا اكثر سعادة لو انه لم يذكر كلمة الزواج ابدا .

واستمتعت جوديث بدورها باعتبارها خاطبة وموفقة بين الرؤوس في الحلال ، ونصحت ايزموند بالآي يقول لوالديهما شيئا حتى تتمكن من اعلان انها ستتحول الى البروتستانتية . وبعد ثلاثة ايام ، رحلت هي ودلفين الى دبلين لكي يعرضا القضية على والديها . وكانت هذه هي آخر مرة يراها ايزموند فيها . فقد عادت جوديث بمفردها ، واعلنت ان والد دلفين ، ال « شيفالييه دي سانت آن » قد قرر العودة الى فرنسا على الفور مع عائلته . . واطلق ايزموند تنهيدة ارتياح ، وتسلل عائدا الى فراش مينو . ولكن فقد مينو هي الاخرى بعد شهرين ، حينما ضبطها السيد دونللي الكبير في الجرن مع صبي الاصطبل الجديد . وكان السيد يتمتع بما يكفي من سعة الافق ، ولكنه كان مهتما بفضائل ولده وارثه . ارسلت مينو في عربة البريد الى ليونز ، في الدرجة الثالثة ، حاملة مرتب شهر وعددا من ثياب جوديث القديمة . واهداها ايزموند عشرين جنيتها كان قد ادخلها للترهة والاستمتاع . وقال لنفسه انه اصبح سعيدا بقدرته على ان يقول ان روحه - واعضاءه الاخرى بالتأكيد - قد عادت اليه ، ملكا خالصا له من جديد . ولكن بعد رحيلها بشهر واحد ، بدأ ايزموند يومياته بقوله : « انني غالبا اكثر من يعيشون تحت الشمس لعنة وتعذيبا للذات . . » كان قد تذوق من المباح ما هو اكثر جدا من ان يسمح لنفسه بعدها بالخنوع لهذا الوجود الداجن الساكن لاحد السادة المزارعين . لقد اقتسمت تجربته مع مينو ودلفين منهاج تعليمه الكامل في مجال فن الحب . كان قد خبر بهجة الفوز بالذكرى ، واحساس السيطرة على عواطف امرأة ، بالاضافة الى التخلص من كل مكبوتاته الجنسية . كان يتوق الى الجنس مثلما يتوق مدمن الخمر الى دنانه ، ولكن لم يكن هناك من تقدمه اليه . ومضى يتخفف من احساسه بالاجباط في يومياته ، محاولا ان يعيش ساعاته مع مينو مرة اخرى ، وان يستعيد لحظات اغوائه لمينو . وحاول ان يقرأ ، ولكنه وجد ان روسو صار مضجرا ، وفولتير ضحلا ، وشتينر مزعجا دون مناسبة . ولم تستطع سوى كتب جونسون : « راسيلاز » و « امير الحبشة » ان ترضي توقه الى الجدية ، وراح يقرأ الكتابين ويعيد قراءتهما حتى حفظهما عن ظهر قلب . ان جونسون يثير مسألة رغبة الانسان في شيء « اكبر من » السعادة ، واكثر من مجرد القناعة والرضا . قبل ذلك بستة شهور ، كان ايزموند جدبرا بأن ينظر الى هذه الرغبة باعتبارها رغبة في الاشباع الجسدي ، وفي التجربة ، وفي المتعة ، ولكنه كان يعرف الآن معرفة افضل من ذلك .

بعد ذلك ، ناتي الى ما كان بالنسبة لي اكثر اقسام اليوميات اهمية . فبينما كان ديسمبر المطير يخلي مكانه لينابر المطير ، غرق ايزموند في ازمة من الانقباض العصبي الحاد ، ضاعفها انزعاجه على والده الذي حدث في اواخر ديسمبر ان هاجمته وضربته بقسوة عصابة من المتشردين يبدو بشكل غامض ان دوافعهم كانت

سياسية . وقعت هذه الحادثة في الظلام ، حينما كان الاب عاندا من منزل خاص محلي غير محبوب ، ضرب جواده بحجر ، ثم اصابه على الفور حجر كبير آخر فوق دونه اليسرى ، فسقط عن جواده فاقد للوعي . وحينما لم يعد الى البيت عند منتصف الليل ، خرج ايزموند وجماعته من الاتباع وسط عاصفة لكي يبحثوا عنه ، فوجده يجر نفسه على طول الطريق، نصف عار ، وما زال ينزف دماؤه بشدة . كان منظر الجراح مخيفا اكثر من حقيقتها ، فبعد عشرة ايام في الفراش ، عاد ادوارد دونللي معافى قويا كما كان . ولكن احدا لم يستطع ان يعثر على اثر المعتدين الذين من المحتمل ان يكونوا فريقا من البحارة دلت سفينتهم تحت الاصلاح في ميناء كاربيرت على مصب نهر شانون .

صدم الاقليم كله بسبب هذا العنف ، رغم ان ادوارد دونللي لم يكن بالرجل المحبوب ، فقد كان هناك الكثير جدا من انفاقة والبؤس في ايرلندا ، من نصيب الفلاحين وحدهم ، لدرجة تمنعهم من الشعور بأي تعاطف مع مزارع بروتستانتى على شيء من الثراء . كانت السرقة شائعة ، وكانت هناك اعداد من عصابات قطاع الطرق تساوي ما يوجد منها في كورسيكا . ولكن الريف حتى عام ١٧٦٠ كان هادئا نسبيا ويسوده السلام . ثم بدأت المشاكل مع بداية حكم جورج الثالث ، كان هناك اضطراب في الامور الزراعية ، وبدا سادة الريف الكاثوليك في استعادة شجاعتهم بعد اخضاع العاقبة . ولم يكن ادوارد دونللي مؤيدا لجورج الثالث ، ولكن بأعتباره بروتستانتيا كان ينظر اليه كعميل للمفتشين الانجليز . ولكن ايزموند كان قد شب في جو من الامان ، ولم يكن بوسع الفلاحين ان يكونوا اكثر خنوعا وذلة ، فكان دائما « صبيا لطيفا وسيما يستحق تقدير الشرف » وما الى ذلك . . ولكنه الآن ، وفي حالته العصائية من الانتباض ، بدا له انهم محاصرون من قبل جيران معادين، ينتظرون جميعا الفرصة المناسبة للضرب في الظلام .

بعد ذلك بوقت قصير ، تلقت جوديث اخبارا عن دلفين . كانت مخطوبة وعلى وشك الزواج من محام محلي . ولم يذكر اسم ايزموند في الخطاب الذي من المحتمل ان يكون قد كتب تحت اشراف ام دلفين ، ولكن كانت هناك جملة تقول : « لا استطيع ان اصف البهجة التي اشعر بها حينما اتذكر ساعات حوارنا السعيدة في الجرن القديم » ولم تفهم جوديث معنى هذه الجملة ، فانها لم تذهب ابدا الى الجرن القديم مع دلفين ، ولكن ايزموند ادرك المعنى . غير ان المضحك هو انه كان قد نسي دلفين تقريبا ، ومن المؤكد انه لم تكن لديه اية رغبة في ان يكون زوجها ، ورغم هذا فقد ملأه الخطاب شعورا بالبؤس والفيرة . وعرف ما يتصف به هذا الاحساس من سخف ، وانه لم يحبها ، وانه كان سعيد الحظ اذ تجنب الوقوع في شرك ارتباطات اكثر غورا . ولكن معرفته لكل هذا لم تؤد الى اي فرق ، فكان كلما فكر في ملاطفتها وسط خرائب الدير او في جرن القش ، اجتاحه احساس بالاحساسة الفادحة ، ويتضاعف هذا الاحساس الى درجة لا تطاق لانه كان يعرف انه نتيجة لعدم وجود ما يفكر فيه غير هذا .

في فبراير كان مريضا لمدة ثلاثة اسابيع بتأثير جرثومة معوية ، وتركزت افكاره على الدوام حول الموت وحول عفونة القبر . قرا صلوات جونسون ، وتأمل في كتابات روسو ، ثم اختطف فجأة لمحة من « الحقيقة » التي كانت تروغ منه على الدوام . لقد قال روسو ان ما كان طبيعيا فهو خير ، وان الشر ينبع من تعقيد الانسان الذهني ، ومن تدخله في شؤون الطبيعة . ولكن اليس العقل نفسه تدخل في شؤون الطبيعة وقطعا لمسارها ، نتاجا مصطنعا لها ؟ ان الحيوان لا يحتاج الى اي قدر من العقل يزيد عن القدر الضروري للتغلب على مشاكله اليومية . وقد طور الانسان ذهنه لكي يخدم كسله ، لكي يخلق حضارة مريحة دافئة . ثم لما خلقها (ومن المهم ان نتبين هنا ان ايزموند قد ظن ان القرن الذي عاش فيه هو الكلمة النهائية في التعقيد الذهني الحضاري) لم يعد لديه ما يفعله سوى التفكير . وكل فكرة تبعده خطوة اخرى عن الطبيعة .

ولكن الشيء الذي بث الدعر في قلب ايزموند كان هو شكه في ان تلك الفكرة قد فسرت اجتهاده العصبي وضجره . ان توفقه الذهني قد حكم عليه بأن يمتلكه احساس باللاحقيقة . ووقف الدكتور جونسون امامه باعتباره مثالا حيا لما يمكن ان يحدث حين يكون الانسان متوقد الدهن اكثر من اللازم . سيعيش حياة بكاملها من اليأس وتعذيب الذات ، مع ومضات قصيرة من الاحساس بالارتياح . وبدا ايزموند يفكر جديا فيما اذا لم يكن من الافضل له ان يموت : « كل شيء انظر اليه يذكرني بيؤسي . فمثلما تعيد اي ذكرى لعشيق مفقودة احساسا مقبضا باليأس ، كذلك فان اي شيء طبيعي تقريبا يذكرني ببراءتي المفقودة . تذكرني اطلال الدير بالموت ، ومجرى الماء الموحد يجعلني افكر في الفرق ، والاشجار العارية تذكرني بالمشائخ ، ونباح كلب يشعرني بأنني اسير في جنازة ميت . اما الاشياء التي لا تثير اي تداعيات خاصة - قدر صغيرة ، حذاء ركوب ، كتاب - فانهما يمكن ان تخلق ياسا خائفا يشبه الحزن . »

وذاذ ليلة مطيرة في اواخر فبراير . جلس ايزموند في فراشه وواجه هذا الاحساس بالخيبة وانقطاع الامل . اذا لم يشعر جسده بأي امتنان لوجوده في حجرة دافئة ، بينما تعوي الرياح في الخارج ، فهل يمكن ان يكون هذا الاحساس قد ثار كاستجابة للمطر نفسه ؟ نهض وارتدى ملابسه ، واخذ معطفا ثقيل ، ثم خرج من المنزل . وبدا له ان اسوا مخاوفه قد تحققت . ملأته الريح احساسا بالبرودة ، ولكنه استمر في احساسه بانلايمالا ازاء التعب . سار الى الدير ، وجلس محتما بأحد الجدران . ورغم ان قدميه كانتا مبللتين ، لم تنجح فكرة نار دافئة في ان تمنحه ومضة من المتعة . كانت بعض البقرات تحتمي بالجدار ، حسدها لانها يمكن ان تقدر قيمة ما تقدمه لها حظيرة دافئة جافة من ماوى . وتساءل عن مقدار ما يجب ان يواجهه من برد وتعب لكي يستطيع ان يخرج من حالة سباته اللامبالي .

سار عائدا الى المنزل ، وعبر امام الجرن ، وفجأة تذكر مينو ودلفين -

فممرته ومضة من المتعة . دخل الجرن لكي يستعيد رائحته . سهل جواد عجوز وتنفس تنفسا ثقيلا . تسلق صاعدا الى المنصة العلوية ، فوجد هناك كومة من القش ما تزال . حركها الى ما وراء الاجولة ، ثم خلع ثيابه المبللة ، وغطى نفسه بالقش الخشن الجاف المتكسر . كان هذا هو الموضع الذي رقد فيه بين فخذي دلفين . وحينما رقد في مكانه ، يعيش التجربة من جديد مرة ثانية ، غلبه النعاس ، ففرق في النوم . وكان آخر ما سمعه من الاصوات هو شخير الجواد العجوز وتنفسه الثقيل اسفل الجرن .

كانت ليلته في الجرن نقطة تحول . في اوائل مارس ، اصبح الجو اكثر دفئا على حين فجأة . وذهب ايزموند يمشى في الحقول الموحلة ، ليجدد نشاطه تحت اشعة الشمس التي بدأت تمد كل شيء بفتحة بالحياة . وقف على ضفة نهر ميغ الموحلة ، وتساءل عن السبب الذي جعله عاجزا عن ملاحظة مقدار ما كانت الموجات الصغيرة عليه من جمال . كان صحيح الجسد وكان في السابعة عشرة تقريبا ، وبعد شهور قليلة سيكون على وشك الشروع في الخروج الى « الجولة الكبيرة » . ولا بد ان تكون هناك الكثيرات من مينو ودلفين . وفي يومه في يوم ٢٣ مارس عام ١٧٦٥ ، يكتب قائلا :

« ان ما اجد نفسي عاجزا عجزا مطلقا عن فهمه هو السبب الذي يدفع الكائنات الانسانية الى الفشل في رؤية التصميم الجميل المبارك الذي يتجسد في الطبيعة في كل مكان ؟ اية كارثة غريبة اعمت عيوننا عن رؤية اعظم الحقائق وضوحا وجدارة بالملاحظة ؟ اي رب مظلم يهدم فوق متاهة مصيرنا البشري ، يراقبنا لكي يقبض على عنق ذلك الذي قد يكتشف بالصدفة طريقه الى بساطة الطبيعة السامية ؟ »

قبل اسبوعين من رحيله الى دبلين ، ومن ثم الى باريس (في ابريل عام ١٧٦٥) كان قد انغمس في قصة حب قصيرة اخرى . ففي زيارة قام بها مع والده لاحد المستاجرين من الفلاحين ، رأى ابنة اخي انرجل ذات الثلاثة عشر عاما التي كانت تعيش معه . كانت الفتاة فائقة الجمال . وامضى ايزموند ليلة كاملة يحلم بها ، متسائلا عن الطريق الى رؤيتها مرة اخرى . ولكن الانتصار كان اسهل مما توقع . لقد جاءت الفتاة في اليوم التالي حاملة بعض البيض . وسار ايزموند الى البيت معها ، واتفق معها على موعد في المساء . كانت الفتاة مسحورة به ولم تبدل الا الحد الأدنى من المقاومة ، ورغم انها كانت عذراء ، فإنها كانت ذات تجربة جنسية سابقة . في هذا المساء الاول ، سمحت لايزموند بأن يكتشف نهديها وفخذيها . وفي عصر اليوم التالي قابلها في الجرن ، واستولى على عذريتها في نفس المكان الذي فقدتها فيه دلفين . وفي خلال الاسبوعين التاليين التقيا كلما كان ذلك ممكنا ، وامضيا المزيد من الساعات في الجرن على الاجولة ، واقسما على الاخلاص الابدي . ولكن ايزموند في هذه الحالة كان يعرف انه ليس واقعا في الحب . لقد دفعته سهولة الانتصار الى ما يكاد يكون خيبة امل فورية . كانت

الفتاة جميلة جمالا لا يضارع ، ولكنه حينما اعد قراءة بداية يوميته حول رؤيته لها للمرة الاولى ، بدت له كما لو كانت فكاهة ساخرة اخرى من فكاهات القدر برهانا آخر على وقوع الكائنات الانسانية في شرك المتاهة التي يبدو الهها في صورة اعظم الدهاة المحتالين .

في صباح يوم ١٧ ابريل ، استقل عربة ليمريك - دبلين ، وغمره احساس عميق من الرضا بينما كانت تلال مونستر وحقولها تتراجع الى الوراء . في هذه المرة ، على الاقل ، كان اله المتاهة قد هزم ، فان قصة الحب قد انتهت قبل ان تمنح الفرصة لمראה ما بعد التدفوق بان تتسلل الى اللسان . وقد حدث حينذاك ، في اثناء رحلة الست والثلاثين ساعة من ليمريك الى دبلين (١٢٠ ميلا) ان صاغ ايزموند واحدة من افكاره المحورية : ان الحياة معركة ضد اله المتاهة . ولاح انه يفكر في هذه الحرب كما لو كان صليبا مرسوما بين عنكبوت هائل ورجل سمين ذي اذنين مشرعتين . وان الميدان الذي يجب ان يختاره للمواجهة هو ميدان الجنس ...

ان قراءتي لما كتبه ايزموند عن رحلته الى دبلين قد ذكرتني فجأة بكليف بيتس ، حفيد ايزاك جينكينسويد بيتس . حقا انني كنت الان قد حصلت على ما يزيد عن حاجتي من المادة لاستكمال طبعة فليشر لكتاب «مذكرات افاق ايرلندي» . كنت قد ربحت مبلغ الخمسة عشر الف دولار الموعد . ولكن هذا لم يعد له أهمية . كان هناك الكثير جدا مما اردت معرفته عن ايزموند - وحينما يتم طبع الكتاب ، لا بد ان يكون هناك الكثير جدا من الناس الذين سيتملكهم مثل ما تملكني من الفضول . ولا بد ان سيمتلئ الميدان بالباحثين . وقد اردت ان اعثر على كل ما يمكن العثور عليه قبل ان يبدأ الاندفاع والزحام . كان ايزموند قد بدا يسيطر هلي كالهجس المتسلط . وقد انتهى المجلد الثاني من المذكرات حينما كان قد غادر لندن متجها الى بولوني في ٢٨ مايو عام ١٧٦٥ ، ولكن من المؤكد انه مستحيل ان يكون قد كف عن كتابة يومياته بانتظام بعد ذلك . كانت هناك اسئلة كثيرة اردت الاجابة عليها . ماذا عن جريمة قتل هوراس جليني ، وعن الشائعات حول ايزموند واللادي ماري ؟ وماذا عن « القصة » مع الشقيقات الثلاث ؟

ولماذا يكره دكتور جونسون دونللي ؟ وماذا عن « جماعة العنقاء » تلك ، التي لم اقم بشأنها الا على اشارات مثيرة للشبهة ؟

بعد عودتي من منزل الدكتور اوهفرنان بيومين ، تسلمت بطاقة بريدية من ميس تينا كانت تقول : « ايلين مصابة بنزلة برد قوية ، ولكنها طلبت مني ان اخبرك بأن المشرفين على تنفيذ وصية ايزموند الادبية كانا هما القس ويليام آستون واللورد هوراس جليني . المخلصة تينا دونللي . » للحظة تملكني الارتباك . آستون؟ اجل . كنت قد خمنت هذا من قبل . ولكن كيف يمكن ان يكون هوراس جليني منفذا لوصية دونللي الادبية بينما هو قد سبقه الى الموت ؟ شعرت باغراء قوي

يدفعني الى القفز في السيارة والذهاب الى قلعة دونلي ، لان قراءتي لليوميات جعلتني شغوفا بأن اراها مرة ثانية . ولكنني كنت قد كتبت بالفعل الى كيف يتس لآخره بأنني انوي المذهب الى لندن في اليوم التالي ، وشعرت بالانقباض ازاء فكرة هذا السفر . رفعت سماعة التليفون وادرت رقم قلعة دونلي . اجابني ميس تينا . وتم توضيح مشكلة هوراس جليني في لحظة واحدة . انها كانت تشير الى هوراس جليني الابن ، ابن صديق ايزموند . قالت ميس تينا :
« اعتقد ان هذا مما يمكن ان يدركه المرء بالبداهة ، حقا . اعني اذا كان ايزموند قد وقع في حب ماري جليني . »
« ولكن هل انت واثقة من ذلك ؟ »

« لست واثقة تماما بالطبع . لقد قال والدي لايلى ذات مرة شيئا عن هذا ، ولكنها لا تستطيع ان تتحدث الآن . »
« الا تعرفين - اتفاقا - اين اطلق الرصاص على اورد جليني ؟ »
« اعتقد ان هذا حدث في بيته ، في اسكتلندا . »

شكرتها ووضعت السماعة . الى القدر الذي يمكنني ان اصل اليه من الفهم ، فان ذلك كله يضع نهاية للقصة التي تقول بأن ايزموند قتل هوراس جليني ، فلو كان هناك حتى شك في مثل هذه الواقعة ، فهل كان يستطيع ان يطلب من ابن جليني ان يقوم على تنفيذ وصيته الادبية وان يكون مشرفا على تركته من المؤلفات والمذكرات ؟



كنت اشعر بأبتهاج وتفؤل شديد حينما شرعت في قيادة السيارة متجها الى دبلين في الصباح التالي . ولم يكن هذا مرتبطا كل الارتباط بدونلي . كنت قد نويت ان اسافر بالقطار ، حتى تستطيع ديانا ان تستخدم السيارة ، ولكنها في اليوم السابق رأت اعلانا عن سيارة « لاندروفر » مستعملة . وشعرت بأننا نستطيع الآن ان ندفع ثمن هذه السيارة ، وهكذا فقد اشتريناها على الفور . كنت اعرف ان هذا تصرف سخيف - وانه من السخف ايضا ان يكون حدث بالغ الضلالة مثرا هذا سببا في وميض دائم من التفاؤل يتحول الى نار مستعرة في العظام . ولكن هذا السخف نفسه سحرني ، وبدات غرائزي الخلاقة في الانسياب . ابهجنى ايضا انطلاقي نحو الشرق ، وذكرني بأول مرة جئنا فيها للاقامة في ايرلندا فقضينا ايامنا الاولى في اكتشاف البلاد والاريف . خطر لي في تلك اللحظة ان كل ما بهم في الوجود الانساني هو اتساع معين في الوعي ، وفي المعنى ، واننا يجب ان نكتشف الحيلة . حينما اشتريت هذه السيارة ، كانت ذات ناقلات اوتوماتيكية ، وكان هذا الشيء اللعين ينقل السرعة تقريبا في نفس اللحظة التي اشرع فيها في تشغيل المحرك ، او يقطع التشغيل حتى كانت الآلة تتوقف عند اول تل في طريقي الى البلدة . ولذلك فقد ركب محل الاصلاح القريب فيها ناقلات يدوية بدلا منها ، وعلي الان الا اشغل الناقلات الاصلية حتى تشحن الآلة بالدرجة الكافية لكي تصعد التلال في راحة كاملة . ولكن اذا حدث ان استيقظت في الصباح بعقل بارد

مكتئب ، فاني لا املك « ناقلة ثقيلة » استطيع ان اشغلها حتى يسخن العقل الى الدرجة الكافية . انني كثيرا ما امضي الساعات ، واحيانا الايام ، محاولا ان ادفع عقلي رغما عنه الى حالة من الاتساع ، محاولا تشغيل الضفط الداخلي لكي يصبح مناسباً للكتابة . والى حد ما استطيع القول بانني اكتشف الحيلة : عشر دقائق من التركيز الكلي الكثيف الذي يضم الكائن كله - عضلاتي بالإضافة الى عقلي . وحينما اقوم بهذا ، واذا لم يقاطعني احد ، فاني استطيع تقريبا ان الاحظ ضغط وعي وهو يرتفع ، حتى تكف الاشياء عن التظاهر في صورتها الكئيبة المحايدة . انها حيلة تشبه بالضبط شربك اول كأس لك في المساء - تلك الومضة الدافئة التي لا تستقر في المعدة - وانما في الوعي » .

الآن حدث الشيء الغريب - شيء قد لا استطيع ان انقله الى القارئ ، ولكن قد استطيع على الاقل ان احاول وصفه . خطرت لي فكرة انه بهذا الشكل ، وان هذا هو الشعور الذي انتاب ايزموند حينما بدا خروجه الى « جولته الكبيرة » في عام ١٧٦٥ . وحينئذ امتزجت في ذهني صورتان . الاولى كانت لايزموند جالسا في العربة الرحلة الى « لايمريك » - وكانت صورة كشيء حلمت به في اثناء الليل - والثانية كانت صورة الاشجار في « لونج آيلاند » تبسبدو فجأة كما لو كانت قدت من البيرونز المطلسي بالفوسفور ، بينما يفرلسي تنحني فوقي . كانت هذه الصورة الاخيرة قوية جدا . كان بوسعي ان اشم رائحة بيفرلي ، شاعرا بدفء نهدها العاري على صدغي . ومع هاتين الصورتين انفجرت في داخلي نوافير البهجة . ان ما تريد الكائنات الانسانية ان تحققه لهما تلك اللحظات من الطراوة والاتساع ، والا يفقدوها في كل مرة يتسكع انتاجهم بين الاشياء دون تركيز على شيء محدد . انهم يريدون « استثمارية الوعي » . ولنفترض ان رجلا قال لنفسه : « من الواضح انه لا شيء هاما مثل هذا : منذ هذه اللحظة سأكرس حياتي للبحث عن هذا الاتساع والاستمرارية .. » ؟ وقد عرفت دون ان تخالجنني ذرة من الشك ان شيئا مثل هذا قد عبر بعقل ايزموند في تلك اللحظة ذات صباح وهو في طريقه مسافرا من لايمريك . كيف ؟ لانني عشت مع ايزموند طوال اسابيع ، حتى عرفت كيف كان عقله يعمل .

لحظتها ، ودون اي تغير مفاجيء ، دون اي احساس برؤيا او بالهام ، انتابني احساس كالهوسة بانني « انا ايزموند » . كان احساسا قويا الى درجة سخيفة . كنت اعرف انني اجري بالسيارة عبر مزرعة صغيرة تدعى « فار درام » ، على بعد اميال قليلة وراء آثلون ، وانني كنت انوي ان اتوقف امام الحانة عند بلدة موآت ، لكي اتناول شطيرة باللحم وكوبا من عصير العنب البري . في نفس الوقت كنت جالسا الى جوار سائق العربة فوق صندوق العربة المتقافز ، اتشم عرق الجباد القلوي والهواء النظيف لصباح يوم من ايام ابريل بالإضافة الى رائحة دخان الاذرة والتبغ الصادرة عن ثياب السائق .

كان هناك شيء بالغ الغرابة متعلق بمقدار ما كان في هذه الصورة من حيوية: انها لم تكن « خيالية » بالمعنى العادي ! انني لم اكن « اتعمدها » بشكل ما . وانما كانت كأنما تحرك شيء ما فاقترب مني ، مثل قطار يعبر الى جوار القطار الذي

تصادف ان كنت راكبا داخله فيعطيني لمحة قريبة مفاجئة الى داخل عربة عابرة . ولم يدعيني كل ذلك ، وانما بدا كجزء طبيعي من تصاعد نافورة البهجة . كان ضغطي العقلي مرتفعاً . وكانت السماء اقرب الى ان تكون مساحة زرقاء باردة ، وشعرت بها كما لو كانت صفحة شاسعة من المياه الباردة . خطر لي بثقة يقينية كلية مفاجئة : ان الزمن وهم . انه ليس حالة مطلقة . انك اذا كنت حشرة جالسة على ورقة شجر يجرفها تيار نهر ، فانك قد تظن انه من المحتم ان تظل الاشجار تعبر بك وتتوارى من خلفك ، وان الاشجار ، بطبيعتها ذاتها ، لا تعيش الا لحظات قليلة ، وان الحقيقة الوحيدة الثابتة دون تغير هي انتشار الماء وسقسقته . ولكن الضفة حقيقية ، واذا امكنك ان تفادى ورقة الشجرة التي تجلس عليها لتهبط على الضفة ، فانك جدير بان تكتشف انها صلبة تماما ودائمة باقية .

وحالما تبدت لي هذه الصورة للزمن باعتباره شيئاً وهمياً ، ولحقيقة العالم الذي يعبر خلالي ، رايت طفولتي كما لو كانت شيئاً استطيع ان امد يدي فالمسه ، تماماً مثلما استطيع ان افتح كتاباً عن صفحة قرانها منذ ساعة مضت ، او مثلما اجمل شريط تسجيل يعود الى الوراء نحو قسم منه كنت قد سمعته منذ قليل . وطراً لي ان حياة ايزموند لم تكن اكثر بعداً من هذا . مجرد قرنين مضياً ، اي ما يساوي مقدار حياتين بشريتين . ان مشكلتنا هي ضعف الوعي الذي يتردد مثل التيار الكهربائي الصادر عن بطارية مستهلكة . فاذا كان بوسعنا ان نستبدلها ببطارية جديدة لاستطاع العقل ان يسير بخطوات واسعة عبر القرون .

توقفت عند حانة « مايك كيللي » لاشرب كوب العصير . انها حانة هادئة على الطراز القديم ذات دعامات خشبية واطئة ، ومدفأة اعشاب اسفل الجدار . طلبت شطيرة باللحم ، فقالت لي ابنة صاحبة الحانة انني ساحصل عليها ساخنة يفوح منها دخان الفرن ، وفي الحقيقة ، كانت القطع الضخمة من اللحم الطري تصاعد البخار . وبعد ان قدمت لي طلباتي ، خرجت وتركتني بمفردي . نظرت حولي ، وباغتني فكرة في سرعة الضوء الكهربائي ، ان هذا المكان ربما كان يبدو بنفس الشكل الذي كان عليه في ايام ايزموند دونللي . وحينئذ ، وبشكل اوضح من ذي قبل ، انتابني الشعور بأنني « اصبحت » ايزموند دونللي ، او انني انحني فوقه وانظر الى داخل وعيه بينما هو ينفلت عابراً امامي . وفي هذه المرة ، وقد قويت حواسي برائحة اللحم ومذاق العصير المخمر ، بذلت مجهوداً ارادياً لكي استبقي ذلك الاحساس وامسك به . للحظة راوغي . ثم حينما استرخيت ولم احاول ان ارغمه على البقاء ، عاد ثانية : مزيج من الروائح ، والاحاسيس والافكار . ثم فجأة تماماً ، بدا انه « يتركز » واصبح كل شيء اكثر وضوحاً . بشكل ما تطابق وعي ايزموند مع وعيي ، حتى اصبحت بوسعي ان التفت انا فانظر الى ماضيه ، الى دلفين ومينو ، والى الفتاة الفلاحة الجميلة التي كانت تدعى ايلي (وهو تصغير ايلين) . والاكثر من هذا ان هذا الاسم الاخير كان جديداً بالنسبة لي ، فان ايزموند يشير اليها في يومياته بحرف « ا » - ربما خشية ان يفصح فتاة تعيش قريباً منه الى هذا الحد . واثارني هذا . لم اكن بالسذاجة التي تجعلني اقبل ببساطة بأنني

بشكل ما قد « اصبحت » ايزموند . انني اعرف الكثير جدا من الاعميب العقل الشبيهة بالاحلام لاصطناع مثل تلك الفروض او الاحتمالات . ومن الذي لم يؤلف موسيقى او شعرا في احلامه ، او خلق مواقف من الغرابة بحيث تبدو من اختراع شخص آخر ؟ لو انني استطعت ان اتأكد من ان اسم الفتاة كان ايللي - ولم يكن هذا من المستحيل ، اذن لاستطعت ان اعثر على المزيد من مذكرات ايزموند - اذن لكان في وسمي ان اتيقن من ان هذه التجربة الغريبة كانت نوعا من الحاسة السادسة ، وليست حلما من احلام اليقظة .

قاومت الاغراء بشرب المزيد من العصير المخمر - عارفا انه يمكن ان يدفعني الى النعاس - وقمت لاستغل السيارة حالما انتهيت من تناول طبق اللحم ، لم اكن اريد ان استرخي . ان ما اردته كان هو ان اعمق هذا الشعور بالتبصر العميق ، بالوصول الى المعنى . وبعد عشرين ميلا من السير خارج دبلن بدأت تمطر ، ونسيت كل شيء عن تركيزي ، مستمتعا فجأة بحركة زحف مساحتي انزجاج الاماميتين ، وبطرقات القطرات الضخمة الدافئة . وحينئذ ، ومرة اخرى ، ودون اي مجهود ، اصبحت « ايزموند » . فجأة ادهشتني منازل بلدة « ماي نوه » ودكاينها ، كما لو لم اكن قد رايتها من قبل ابدا . ولكن حينما اقتربت من كارتون وعبرت بها ، ورأيت المنزل الضخم من القرن الثامن عشر الذي آل ذات مرة الى دوقات لاينستر - تحققت من انني كنت اعرف المكان . وانني كنت داخله ذات مرة . بالطبع لم يحدث لي « انا » ان دخلته ، لقد كان ايزموند هو الذي دخله ضيفا على صديق دراسته روبرت فيتزجيرالد ، ماركيز كيلدار .

طول الوقت ، وبينما كنت اقود السيارة الى داخل دبلن ، وعلى مسار شارع كونيجهام ، كنت اشعر بتأثير هذا « الوعي المزدوج » . ولو ان احدا كان معي في السيارة ، لكنت قد قلت له : « كان هذا هو شارع شابيليزود في عام ١٧٦٥ ، وها هو قد اصبحت شارع باراك » . ولكن قيل ان ادخل شارع باراك القديم ، كنت اجري بالسيارة على طول شارع وولف تون كواي ، فتنتابني دهشة بسيطة اذ اجد نفسي بالفعل الى جانب نهر الليفي . في عام ١٧٦٥ كان علي ان اتقدم من شارع شابيليزود المزدحم الى شارع باراك ، بينما ارى النهر عبر حديقة « لونج ميدوز » الى اليمين ، ثم على طول شارع كرافل دوك ، الذي يكون علي عند ناحيتين ان استدير الى اليمين نحو شارع آران كواي - الذي كان في ذلك الوقت اقصى اطراف ضواحي دبلن الغربية . عبرت الشارع الواقع الى يميني - الذي كان دونللي قد نسيه - والذي يؤدي في النهاية الى جسر بلود . وعند جسر جراتان شعمرت باغراء يدفعني الى الاستدارة يمينا ناسيا انه كان بوسعي ان استمر في نفس الشارع حتى اوكونل ؟ ففي ايام دونللي ، كان جسر جراتان (الذي كان يدعى جسر اسكس في ذلك العهد) هو آخر نقطة يمكن للمرء عندها ان يعبر نهر الليفي . كنت مقيدا باتجاه نهر شيلبورن في وادي « سانت ستيفانزجرين » ؟ ان دونللي حينما ذهب الى دبلن في عام ١٧٦٥ قد انطلق الى حانة « الكلب والبطة » في

شارع بودنج رو (الذي يسمى الان وودكواي) وكان المحل تحت ادارة الاسطى فرانسيز ماجين . وهناك اكل عشاء من اسماك السلمون الواردة من بوين ، ولحم حمل مشوي ، وغسل ذلك بكمية كبيرة من البيرة الحلوة ذات النسبة القليلة من الكحول ، ثم غرق في النوم في حجرة مريحة بالطابق الاول مصفيا الى صيحات « نشترى جلد ارانب الغابة وارانب البيوت » ، « سمك البوري من خليج دبلين » . كان كل ذلك حيا امامي حتى انني وجدت نفسي اتجه اتجاهها خاطئا عند كوليج جرين ، فيكون علي ان ادور دورة واسعة لكي اصل الى شيلبورن . في حجرتي هناك ، فتحت زجاجة من نبيذ فولني كنت قد جئت بها معي - رغم ان الساعة كانت في الرابعة والنصف لحسب - ووجدت نفسي اقل انزعاجا بسبب تلك المؤثرات الغريبة ذات الوجهتين الزدوجتين . وحتى في تلك الحالة ، لم يكن علي الا ان اغمض عيني لكي ارى صورا واضحة لدبلين التي كانت من نواح عديدة شبيهة بتلك التي كان بوسعي ان اراها من نافذتي (رغم انه في تلك الايام ، كان وادي ستيفنز جرين محاطا بسور مجري وخندق ، وليس بسياج من قضبان الحديد) - ولكن تلك الـ « دبلين » البعيدة كانت ايضا مزدحمة وصاخبة ، ولكن شوارعها كانت مبلطة بقطع حجرية صفيرة في الغالب ، ومنازلها اكثر نظافة ووقارا . وكانت ايضا تفوح برائحة المقائق والسمك وخاصة في منتصف الصيف . والقوارب ذات الاشرعة المنتفخة التي زحمت نهر الليفي ولدت تأثيرا لم يكن بعيد الشبه بقنوات البندقية الكبيرة . بعد كأسى الثالثة من النبيذ ، كان « الكشف المزدوج » قد خبا من ناحيتين ، وطرا لي انه من المحتمل ان يكون شيريدان لوفانو قد كتب قصة قوية وكثيية محزنة عن عقل انسان ذي طبقتين ، يشغله رجل من قرنين مختلفين . بل لقد كان بوسعي ان ارى - اذ انظر من خلال مزاج يشبه مزاج لوفانو - انها كانت يمكن ان تكون تجربة مخيفة . ولكن في ذلك الحين ، كانت نظرة لوفانو الاساسية نظرة مهزومة وسلبية . وهذا هو السؤال الجوهرى الوحيد .



اتصلت بديانا لكي اخبرها انني وصلت بسلام ، وفي نفس اللحظة التي كنت اعيد فيها السماعه الى مكانها ، جاءتني مكالمة من كليف بيتس وكنت قد كتبت اليه لكي اخبره بانني سأنزل في فندق شيلبورن . سألته ان كان يجب ان ينضم الي في تناول الطعام ، فقبل واقترح ان اذهب اليه لكي نشرب كأسا أولا . كان يقيم في رانيلاغ رود ، في مواجهة المدير ، فسرت الى هناك في حوالي الساعة الخامسة . كان شابا ممتلئ الجسد له صوت ممتد مثل صوت الدارسين في اوكسفورد . وكانت شقته مريحة ، وقد امتلأ صوان المشروبات بالكثير من الاصناف . كانت هناك اعداد عظيمة من الكتب ، بعضها حول المسرح والباليه . كان من الواضح ان كليف بيتس يملك دخلا خاصا او وظيفة حسنة ، او كليهما . كان كل شيء في حجرته يتم عن انه رجل مفرم بأسيايب راحته . وكان يتمتع بجاذبية عظيمة واسلوب سهل في التعامل والسلوك ، ولكن شيئا ما لاح على فمه اوحى الي بانـه

قد يكون بالغ الخشونة او عصبي المزاج اذا فشل في الوصول الى ما يريد او في شق طريقه اليه .

حينما كنا نشرب كؤوس الفودكا والمارتيني ، كان الحوار عاما ، ثم انتقل الموضوع الى كتيبي ، والى اعمال كتاب عديدين قابلهم كل منا . كان قد عمل في وزارة الخارجية لمدة من الزمن - بعد التخرج من ايتون وباليول - وقابل عددا كبيرا من الشخصيات المسرحية والادبية في لندن . اما عني ، فأنني دائما ما كنت اتجنب الكتاب الآخرين ، وكانت محاورات المحترفين تضجرني ، ولم اكن اعجب الا بأعمال عدد قليل منهم . وهكذا فسرعان ما بدأت اضجر من هذا الحديث . وبعد نصف ساعة او نحوها حاولت بلباقة ان اوجهه الى موضوعات اخرى . سألته عن صحة جده .

« أوه ، اجل . الولد المعجوز يريد ان يراك . كنت قد اخبرته عن عملك . »
نظر الى ساعته وقال :

« عادة ما يكون بمفرده في هذا الوقت تقريبا . هل تود ان تذهب اليه قبل ان ناكل ؟ »

قلت نعم ، محاولا الا ابدو متلهفا بالقدر الذي كنت اشعر به .
ذهبنا الى شارع باجون ، رغم انه كان مغلقا بدرجة كافية للتعطيل . كان كليف بيتس يملك سيارة من طراز « بورش » واطئة لدرجة ان انتابني احساس بأن اردافي تجلس على ارتفاع بوصة واحدة من ارض الشارع . وفي الطريق قال بيتس :
« انك بالطبع ، تقوم بكل ذلك في مقابل بعض المال ؟ »
للحظة واحدة لم استطع ان افهمه ، وبدا علي عدم الادراك . قال :

« هذا الشخص دونللي . اعني انه من الدرجة الثانية تماما : اليس كذلك كنت انظر الى كتابه عن « اقتراع العذارى » منذ ايام . انه شيء فح الى حد كبير . »
هممت بان اقول انني اظن ان هذا الكتاب مزيف ومنحول للرجل ، ثم لسبب ما ، التزمت السكون ، وبدلا من هذا شرحت له حكاية فليشر والمهمة التي اوكلها لي .

اوقفنا السيارة في شارع باجون . قال كليف بيتس بشكل عارض :
« بهذه المناسبة ، هل سمعت ابدا عن جماعة العنقاء ؟ »
حدقت فيه . ثم حدث شيء غريب . فجأة كنت ايزموند مرة اخرى ، كان ايزموند يطل عليه من عيني .
قلت :

« بغموض . ألم تكن هذه نوعا من العبادات السحرية ؟ »

« بشكل او بآخر كان دونللي عضوا فيها . »

« كيف عرفت ذلك ؟ »

« هذا مسجل في اوراق جدي . لقد كان مهتما دائما بهذه الجماعة المسماة

« جماعة العنقاء » . وكان قد سمع عنها من ساحر يدعى ماك جريجور ملاترز . ربما كنت قد قابلته ؟ »

« بالطبع . لقد حصلت على ترجمته لكتاب الظهور . »

لم يكن هناك وقت لمزيد من الحديث ، كنا ندق جرس الباب ، وبعد لحظات قليلة فتحت الباب ممرضة شابة . دعاها بيتس باسم « عزيزتي بيتي » وقرصها من مؤخرتها . بدت محرجة لوجودي . صعدنا الى حجرة نوم في الطابق الاول . كانت حجرة معتمة ، رغم ان الضوء كان منتشرا بالخارج . كانت الستائر نصف مسدلة ، ونواصة صغيرة تشتمل فوق الفراش .

كان ايزاك جينكينسون بيتس هزيلا نحيفا كما كنت اتوقع من خلال وصف حفيده : عجوزا ضئيل الحجم اصلع الراس جلده مثل رق قديم مجمد . حينما رفع يديه من فوق المسند لكي يصافحني اهتزتا وارتعشتا رغما عنه ، فأعادهما سريعا مستويتين فوق الفراش مرة اخرى . سألنا ان كنا نود ان نشرب شيئا ، فرفضنا كلانا ، ولكنه اصر وقال : « اعرف انكم ايها الشباب تحبون ان تشربوا كاسا في مثل هذا الوقت . » وقال للممرضة ان تصب لكل منا كاسا من الشيري . قبلته بدافع الادب ، ولكنه كان شيئا كريها . تحدث الرجل العجوز دقائق قليلة عن تاريخ الشيري ، وعن نظريته حول السبب الذي كان الشيري لاجله يدعى «سالك»، اي حقيقية ، لان ثمرات العنب كانت تعصر من خلال اجولة كالحقائب . ثم ، وفي نصف جملة لم يكملها - حول حديثه الى موضوع جريمة قتل في جزيرة الاي البرلندية . كنت قد قرأت كل ما استطعت العثور عليه قبل ان ابرح البيت ، ولكن ثبت ان هذا لم يكن ضروريا . فقد راح الرجل يتحدث في انسياب بمعدل ثابت لمدة عشر دقائق او نحوها .

وحينما توقف للحظة قصيرة ، قال كليف بيتس !

« لقد سمع مستر سورم عن جماعة العنقاء . »

« اوه ، اجل ، حسنا . بالطبع . لقد كان دونللي عضوا في تلك الجماعة . وكانت ايضا شيئا مقرفا من نوع لا يثير البهجة ابدا . اجل ، بالطبع . ينبغي ان نعرف انها نبعت من اعتقاد يقول بأنه اذا تضاجع رجل وامرأة فانهما يصبحان غير قابلين للعدوى بأي مرض . وبذلك اصبحت هذه العقيدة في زمن الموت الاسود مبررا لكل انواع الفجور . ومع حلول عصر دونللي اصبحت مجرد نصبة شبه سحرية تضم جماعة من المهوسين الصعاليك . هل تعرف كتاب دي صاد « مائة وعشرون يوما من ايام سدوم »؟ انني واثق ثقة كاملة من ان دي صاد كان يسخر من جماعة العنقاء في ذلك الكتاب - اتعرف الصعاليك العواجيز القذرين الاربعة الذين اقاموا نوعا من المعرض الجنسي في احد المنازل الريفية ؟ لقد ظن توم وايز العجوز دائما ان هذا هو السبب الذي جعل دي صاد يمضي اكثر حياته في السجن؛ لقد كان يعرف الكثير جدا عنهم . »

تدخل كليف قائلا : « توماس . ج وايز . المزيف الادبي ، انك تعرفه . »

« حسنا ، ربما كان كذلك وربما لم يكن . انهم يقولون ذلك ولكنني لست واثقا الى هذا الحد . غير انه كان دائما صديقا جيدا لي الى حد بعيد . مثلما اقول ، فانه كان على اقتناع كامل بأن جماعة العنقاء هذه ، كانوا يسعون وراء

دي صاد . . »

غمز لي كليف بعينيه

« ولكن لماذا ينبغي ان يطارده اذا كان مثلهم في السوء ؟ »

« انه لم يكن . كلا . لقد كان يسخر منهم . اتفهم ؟ »

يجب علي ان اوضح ان تفسيرات الرجل العجوز لم تكن بمثل الوضوح الذي جعلتها به هنا . كان حديثه من النوع الذي يصعب تتبعه ، تقطعه وترقمه غمغمات واصوات انفية غريبة . لم احاول ان انقض او اناقش حديثه الغريب عن دي صاد ، ولكن املي في الحصول على اية معلومات مفيدة راح يخبو ويتلاشى . سألته عن كيفية بداية اهتمامه بجماعة العنقاء .

« لقد رايت نسخة من تلك النشرة النادرة . وكانت هذه هي بداية معرفتي

بوايز ، في الحقيقة . »

« اية نشرة ، يا سيدي ؟ »

« اوه ، النشرة الشهيرة . . التي كتبها هنري مارتل وجورج سميثسون .

كليف ، انظر في الدرج العلوي هناك ، اتسمح ؟ »

لم تكن النشرة في الدرج العلوي ، ولكن بعد عشر دقائق - راح بيتس في اثنائها يصب الاتهامات القائمة على رأس العالم كله بشكل عام ، وعلى رأس ممرضته خاصة - تم العثور عليها في صوان آخر . اختطفها بلهفة . كانت موضوعة في غلاف خارجي مراكشي احمر ، وكانت في حالة اقرب الى الفساد .

فضح المؤامرة الشريرة ، المعروفة باسم جماعة العنقاء

بقلم هنري مارتل ، م . ا . جورج سميثسون د.د.

طبعها للمؤلفين ج. روبينسون . ضفة النهر القديمة ، ١٩٧٣ .

كان كليف يسأل بأكثر ما يملكه من نعمة وقدرة على الاقتناع :

« لا افهم لماذا تظنها حقيقية مع انها جاءتك من رجل مثل وايز ؟ »

انتفض الرجل العجوز للنقاش واصبح لاذعا حادا :

« سوف اشكرك اذا انت لم تتحدث بهذه الطريقة عن وايز . انه لم يكن

مزيفا اكثر مني . لقد كان يحاول ان يدافع عن ذكرى صديقه هنري باكستون

فورمان . »

قلت :

« على اي حال ، من المؤكد ان النص الاصيل لاي عمل مزيف كان على الدوام

حقيقيا ؟ لم يكن الامر سوى نوع من التاريخ المجترىء على النشرات ؟ »

« تماما . كذلك قال الرجل العجوز ، ثم التفت الى كليف وقال : « انرى ؟ انه

يعرف عن المسألة اكثر مما تعرف انت ! »

تركتهما يتناقشان ، ورحت اقرا بسرعة عاصفة . اتخذت النشرة كلها نفعة

اخلاقية مرتفعة ، وانهت جماعة العنقاء بانها السبب في سقوط لويس الرابع

عشر ملك فرنسا . وطالما ان هذه النشرة سوف تطبع كاملة في ملحق خاص مع

مذكرات دونللي ، فاني لن اقتبس الكثير منها هنا . واذا كانت هذه النشرة هي المصدر الوحيد لمعلومات بيتس العجوز عن الجماعة ، فقد كان بوسعي ان ارى لماذا كان ينظر اليها بعين الرفض . وجدت نفسي اتذكر عددا معيناً من النشرات والمقالات التي صدرت عن راسبوتين بعد مقتله في عام ١٩١٧ ، وكانت مليئة باتهامات غامضة ، صعبة التصديق عن مؤامرات وحشية ، وعن جرائم الاغتصاب والعهر ، والاحتفالات المقرزة . وطبقاً لما قاله كاتبها النشرة ، كانت الجماعة اساساً تنظيمياً من السحرة لممارسة اعمال السحر . وكانت الفقرة التي اثارت اكثر المناقشات - بعد نشر مقالي عنها في مجلة « اثلانتيك منثلي » . كانت هي تلك التي تصف الطريقة التي يتبعها « السيد الاعظم » او اي واحد من اتباعه المصطفين لكي يتمكن من استعباد الفتيات عن طريق جمع ثلاث من « سراويلهن الداخلية الملوثة بالدم » بعد دورتهن الشهرية ، ثم يقطع ثقباً في وسط بقعة من الدم متخذة شكل العضو التناسلي الانثوي ، ثم يرتدي هذا السروال فوق ذكره العاري لمدة سبعة ايام وسبع ليال . وبعد هذه الفترة تصبح العذراء مجبرة على تلبية نداءات السيد الاعظم لكي تسلّم له عذريتها ، ثم تستسلم له بعد ذلك في اي وقت ، حتى ولو كان على بعد الف ميل . وتتلو ذلك ، القصة الغريبة عن « ادبلي كريسين » التي امتلكها السيد الاعظم في ليلة زفافها « في نفس الوقت » الذي كان زوجها يمتلكها فيه ، والتي كان طفلها يحمل ملامح السيد الاعظم - شعراً سود ، وبشرة سمراء ، وما الى ذلك (كان السيد الاعظم في ذلك الوقت هو الفارسي عبدالله يحيى ، الذي تفاخر بأنه قد ترك بذرته في رحم كل امرأة جميلة من المجتمع الروماني الراقص . ويشير المؤلفان الى هذا التفاخر باعتباره مثالا على الفقر الاخلاقي الوحشي بدلا من ان يكون صورة للكذب الخيالي (المخلوق) وقد قتل عبدالله يحيى ومزق جسده في عام ١٧٩١ على يد هندريك فان جريس ، الهولندي الشبيه بالوحش . والمفترض ان فان جريس كان يزن اكثر من ثلاثمائة رطل انجليزي (١٥٠ كيلو جرام) ، وانه غالباً ما كان يفقد ضحاياه الوعي ، بل يقتلهم ، بمجرد ان يترك وزنه الضخم يسقط فوقهم ، واصبح فان جريس سيداً اعظم لمدة لا تزيد على العامين ، اصيب خلالها بمرض الزهري الذي نقلته اليه سيدة البلاط الرومانية ماريا جرينجا التي قيل انها كانت ذات طبيعة قاتلة ، حتى ان فان جريس حينما جاء عام ١٧٩٤ كان قد اصبح جيلاً لا ملامح له من اللحم المترهل . وفي « مجلة التحليل النفسي » الصادرة في شهر يوليو عام ١٩٦٩م فسر البروفيسور آرام روث القصة كلها على اساس التصور الفرويدى - بادئاً من النشاطات الفيتشية (التي تقوم على الولوج الجنسي بالاشياء ذات العلاقة او المدلول الجنسي) المرتبطة بالسراويل الملوثة بالدم - ورفض القصة - او رفض تصديقها - على اساس انها نتاج الخيال القوطي المليء بالاسرار الوحشية . وفي عدد سبتمبر من نفس المجلة ، اشارت ميس مارجانيثا بونديسون الى انه لم تكن ثمة حاجة الى الاختراع ، طالما انه من الممكن العثور على اكثر الطقوس الموصوفة في كتب السحر الاسود العربية والفارسية في القرن الثامن عشر ، وتشير ايضا الى ان ستيف دي لابریتون قد وصف شخصاً ما يبدو شديد الشبه بفان جريس

! تحت اسم كوبيير - بالميزو) في كتابه « ليالي باريس في عام ١٧٨٨) واصفا اياه بانه « المنحرف الاسطوري ». وكنت انا من لفت انتباهها الى الفقرة المتعلقة بريستيف. قال الرجل العجوز : « لقد كانوا مجرمين ، هؤلاء الناس . مجرمين منحطين . ارايت من الذي جاء بالجماعة الى فرنسا ؟ »

كنت قد رايت ذلك حقا . قال مؤلف النشرة ان جيل دي ريز قد اصبح عضوا في الجماعة في السابعة عشرة من عمره (١٤٢١) بعد ان رشحه لها كاهن مخلوع . كان مارتل وسميثسون على اتفاق مع سانت نيلوس سورسكي من ان الجماعة لم تكن اكثر من تطور لتعاليم « اخوة الروح الحرة » . فبعد ان رفضوا كل قانون اخلاقي هدفه الى تحقيق اكمل تعبير عن « اعضاء المتعة » . ويقول المؤلفان ، كان اعضاء الجماعة يرتدون ثياب الرهبان ، ويتخصصون في الاغتصاب او في مضاجعة الجثث . كانوا يتقدمون للتطوع احراسة جثث الفتيات الصغار - والصبيان . وينتظرون حتى ينام الجميع ثم يقتصبون الجثة جنسيا . والشيء الوحيد الذي يمكن ان يقال في صالحهم - في الحقيقة - هو انهم حاولوا دائما ان يتجنبوا ازال اي ضرر جسدي حقيقي بضحاياهم . وقد حدث ان فتاة من بائعات اللبن اغتصبها اثنان منهم ثم تركاها مقيدة مكمة تحت كومة من اوراق الاشجار ، حتى عثر عليها بعد ذلك بيومين . وهددت اخرى بانها ستجد نفسها حاملا بجنين كالوحش اذا فاهت بكلمة واحدة ، وبذلك كتمت السر حتى طمانتها دورتها الشهرية التالية . « ولما كانت القاعدة التي يتبعونها هي الا يقتلوا ضحيتهن ابدا بهدف تجنب التعرف عليهم فيما بعد ، فقد كانوا مضطرين الى ان يكونوا اساتذة في فن التنكر والتخفي ، » . وكان كثيرون منهم يحملون صناديق مليئة بمختلف الادوات (باروكات الشعر والاهداب والعدسات . الخ) من الوان مختلفة حتى يكون بوسعهم ان يغيروا الوان كل شيء ، حتى عاداتهم نفسها . وكان جيل دي ريز هو اول ثري يعتنق آراءهم ، وكان قد استقبله وتلقاه كمضو في الجماعة شخص يدعى جيل دي سبي . كان الحديث عن السيمياء في محاكمته ضربا من السير في طريق مظلم مسدود ، طبقا لما جاء في النشرة . وكان القتل الجماعي للأطفال - ببساطة - تعبيرا عن « الشهوانية الشيطانية » التي افعمت بها قلوب جماعة العنقاء .

فاذا ثبت ان ريز كاو عضوا في جماعة العنقاء ، اذن لاقام مارتل وسميثسون قضيتهما على اساس انها كانت منظمة شريرة ومروعة . ولكنهما في الحقيقة لا يقدمان اي دليل على اعتقادهما في انه كان عضوا في الجماعة . شعرت بالميل الى ان اشير الى ذلك للرجل العجوز ، ولكن كان من الصعب ان تعترض الطوفان الجارف من الذكريات . واخيرا استطعت ان اسأله ان كان لديه المزيد عن جماعة العنقاء .

« اجل . ان لدي اهم خطاب يمكن ان تتصوره كان قد وصلني من توم وايز . كنت اتراسل معه بشأن هذه الجماعة - لا بد ان هذا كان في عام ١٩٠٥ . كليف انظر في هذا الدرج العلوي مرة ثانية » .

اعرض كليف بوجهه ، ولكنه راح يبحث - طائعا - بين اكوام من الاوراق

القديمة . دخلت الممرضة حاملة اناء يحتوي على سائل ساخن يتصاعد منه بخار له رائحة نفاذة وضعت في اطار معدني معلق بالسرير . وحينذاك غطى بيتس العجوز راسه بكيس من البلاستيك وراح يستنشق البخار . واعتقد ان هذا كان نوعا من العلاج للربو . عرضت ان اساعد كليف بيتس في البحث عن الاوراق ، فقال : « اتوقع ان تعثر على شيء هام . . » والتقط النشرة التي كنت اقراها . القيت نظرة على كومة من الخطابات القديمة ، ولكن لما لم تكن لدي فكرة عما كان من المفروض انني ابحث عنه ، فقد شعرت بعدم جدوى هذا العمل كله وعقمه . جذبت اضمامة سوداء من قاع الدرج ونظرت الى ما بداخلها . وجعلني ما رأيته انظر بسرعة الى الرجل العجوز ، ثم الى حفيده ، ولكن لم يكن احدهما منتبها الي . كانت الاضمامة تحتوي على اثنتي عشرة صفحة او نحوها من مخطوطة كتبت باليد ، وتعرفت على الخط ، كان خط بوزويل . كان اول سطر من الصفحة الاولى يقول : « السبت ، اول فبراير » وكان شخص ما قد اضاف عام ١٧٦٦ بالقلم الرصاص . مرة اخرى نظرت الى كليف . كان منغمسا كلية في قراءة النشرة . وكان الرجل العجوز يستنشق بصوت خشن ويشكو حاله للممرضة التي كانت تعيد ترتيب الفراش . جذبت مقعدي قريبا الى الدرج ، وجلست لكي اقرأ المخطوطة . في لحظة ما ، نهض كليف ونظر من فوق كفي . تساءلت صامتا ان كان يمكن ان يسألني عما كنت افعله بحق الشيطان . ولكنه ذهب وجلس في مكانه ثانية ، واستأنف القراءة .

كان التقرير يصف مغادرة بوزويل لباريس في صحة تيريز لوفاسور ، عشيقه روسو (وهي التي كان بوزويل قد وصفها في يومية اخرى - اكتشفتها فيما بعد - بقوله : « انها فتاة فرنسية خالصة مليئة بالحياة ») . وكان الاثنان في طريقهما الى انجلترا ، وقد سافرا معا بحثا عن الموانسة . وفي الليلة الثانية قررا ان يشتركا في فراش واحد في احد الفنادق الصغيرة . ولشدة مهانة بوزويل ، فشل في اداء واجباته الرجولية ، فانفجر باكيا ، وقال : « ويستطيع من يقرأ هذا الكلام ان يجد آثار بكائي على الصفحة السابقة . » ولكن تيريز اعادت اليه ثقته بنفسه في الليلة التالية بان ادت اليه الخدمة التي كانت مينو تؤديها لعاشيقها معا ، - وهي الركوع على ركبتيها امامه وملاطفته بفمها . « جعلني منظرها وهي متكومة امامي في هذا الوضع المهين اشعر بالشفقة الامر الذي اعاد حيويتي الي » بقدر عظيم حتى انني ارقدتها على ظهرها فوق البساط واتيتها في التو والساعة مثل عجل بري . واطن انها رضيت تماما عن « حجمي » لانها شهقت بدهشة ، ثم تركت نفسها المحتبس في صدرها ينطلق في تنهيدة طويلة . « انني انتقل الان من الجمل القليلة التي استطعت ان اقلها بسرعة بالقلم الرصاصي في مذكرة صغيرة كانت في جيبتي . عرفت انني كنت انظر الى مخطوطة بوزويل التي استطاع ابرازك جينكلينسون بيتس ان يخلسها بشكل ما من مالاهايد . ومن الواضح تماما انه لم يكن له اي حق في امتلاكها . ولذلك فقد عرفت انعدام اي فرصة لسماحه لي بان استعيرها او حتى بان انسجها في منزله .

قال كليف بيتس: «هل عثرت على تلك الورقة عن دونلي؟»

جفت وقلت: «لا» ثم نظرت الى الرجل العجوز . كان رأسه مختفيا تماما ، وكنت واثقا من انه لم يسمع ، قال كليف :

« ارجو ان تقرأها . انها مضحكة بشكل مرعب » .

غمغمت بشيء ما ، آملا الا يطرا على ذهن بيتس العجوز ان يسألني عما كنت اقرا ، او ماذا كنت قد عثرت على خطاب. وأيز . قفزت صفحتين من الكلام الذي يحاول فيه بوزويل ان يبرز نفسه ، مخاطبا ذاته بكلمة « انت » متأملا في مميزات من الجاذبية والجدية الاخلاقية . في يومية الاحد ٩ فبراير ، عثرت على الاسم الذي كنت ابحث عنه . وصل بوزويل وتيريز الى كاليه وسط عاصفة ممطرة . ونزلا في فندق يقول عنه ببساطة انه فندق مدام دوتشيزن ، حيث نزل هو وتيريز في غرفة واحدة كبيرة في الطابق الارضي . بدل بوزويل ملابسه وهبط يتمشى في المدينة . « وبالقرب من رصيف الميناء ، ربت شخص ما على كتفي ، والتفت لكي ارى ايزموند دونلي الذي كان قد وصل الى هنا بعربة البريد القادمة من دانكيرك » . وذهبا عاندين الى فندق بوزويل ، حيث كان بوسع دونلي ان يحصل على حجرة لنفسه . ومن الواضح ان بوزويل ودونلي كانا قد التقيا في دريسدن . امرا لنفسيهما بطعام وقنينة كبيرة من النبيذ الجيد ، وتحدثنا عن ويكليز وهوراس والبوك اللذين كانا قد قابلهما في باريس . ودخلت تيريز - ولم يكن بوزويل يعرف انها كانت قد قابلت دونلي وهي مع روسو في نيوشاتل - ويقول بوزويل : « علي ان اعترف بانني شعرت بفصّة لحرارة تحيتها ، وللطريقة التي ظلت تردد بها ان هذه كانت مفاجأة ممتعة » . قرروا ان يتناولوا العشاء معا ، واخذهما ايزموند الى منزل خاص لتناول الطعام . « وعلى مائدة العشاء ، تحدث كثيرا حديثا فاحشا ، ولما لم يبد على الانسة انها تضررت من ذلك فقد اشتركت في الحديث ، وشعرت باختفاء كابتي وانحراف مزاجي » . ثم عادوا الى فندقهم ، وقال بوزويل مازحا انه يأمل من ايزموند ان ينظر الى لقائهم نظرة بريئة اذا حدث والتقى بروسو في لندن . وحينئذ ، وبالصراحة غير المعقولة التي عرف بها بوزويل دائما ، مضى فاخبر ايزموند عن فشله مع تيريز ، وعن كيف شعر بالانزعاج في مناسبة تالية حتى انه شرب زجاجة كاملة من النبيذ قبل ان يذهب معها الى الفراش . واصبح الحديث اكثر ودا وكله جو من الصداقة الحميمة . وتحدثت تيريز عن غلظة الانجليز وغبائهم فيما يتعلق بفن ممارسة الجنس . وحينئذ صدم بوزويل حينما عرض ايزموند ان يعرض استاذيته في هذا الموضوع في التو واللحظة . ثم خطر له انه اذا استحوذ ايزموند على تيريز فانه سيحصل على سبب معقول يشغره بالبراءة اذا التقى بروسو فيما بعد . وهذا فقد عبر عن موافقته على هذه الفكرة . وجاء دور تيريز في اظهار الدهشة وما اصابها من صدمة ، وراح ايزموند يلومها ويسخر منها متهما اياها بالتصنع وعدم الصدق . وعند ذلك ، قرزت انه لن تكون هناك جدوى من اخفاء ميلها الحقيقي ، ووافقت على ان تكون عمليا رايها وتقديرها لقوة ايزموند في فن العشق . قال ايزموند لبوزويل : « هيا ياسيدي ، هيا لكي نثبت لها ان

الكلت هم دم الحياة لاوروبا . « فهقمت تيريز ، وكان بوزويل مصمما على ان يبدؤني صورة لا تقل عقلانية وثقافة عن صديقه الشاب (وكان ايزموند يصغره بثمانى سنوات) فاصطحبهما الى حجرة النوم .

وما حدث بعد ذلك يتلخص في ان بوزويل وايزموند ساعدا تيريز في خلع ثيابها . وحينما اصبحت في ثيابها الداخلية شرع الرجلان في ملاطفتها . وثبت كل منهما فمه على احد نهديهما (. . .)

ان وصفه لمنظر ايزموند وتيريز وهما يمارسان الجنس سوف يكون - دون شك - نموذجاً كلاسيكياً في مجاله . . وهذا الوصف يستمر لصفحتين اخريين ، ولكن كان هذا كل ما استطعت نقله في ذلك الوقت القصير . كانت الممرضة تساعد بيتس العجوز لكي يخلع حقيبة البلاستيك ، ولذلك فقد اسرعت في القراءة حتى اصل الى النهاية ، حيث يصف بوزويل ، بعد فشله الاول ، كيف استطاع ان يشفي نفسه بمضاجعتها بقوة « بأسلوب شعرت بالاسف لانني لم اكن قادرا على مشاهدته بنفسى » . وشعر بالرضا الكامل عن نفسه حينما غمفت تيريز قائلة : « آه » انه لمصير محزن ان اكون عشيقة رجل عجوز » . وامضى بوزويل وتيريز وايزموند الليلة في نفس الفراش - الذي كان كبيرا بما يكفي لثلاثتهم - ونظر الثلاثة الى الموقف بطريقة طبيعية حتى انهم كانوا يفرقون في اغفاءة قصيرة يستيقظون بعدها لاستئناف ممارستهم للجنس . واخيرا غرق بوزويل في النوم بينما كان ايزموند يحاول اقناع تيريز بان ياتيها من الخلف ، ولكنه في النهاية قنع بان يلقيها على ظهرها ثم يصعد فوقها مرة اخرى . وفي هذه المرة ، شبت حتى رغبة تيريز التي طال كبتهها في جوادقوي شاب ، فرقدت مستسلمة في سلبية ، وهي تشهق بضغف ، بينما كان بوزويل يمارس الجنس للمرة السادسة « كنت اخر من امتلكها تلك الليلة » كذلك يقول مفاخرا ، ولكنه يضيف : « ولكن عليّ ان اقول - للامانة - ان دونللي سجل سبع مرات مقابل الست التي سجلتها » . وفي الليلة التالية ، مرض بوزويل بسبب التهاب في معدته ، فامضى الليلة في فراش ايزموند . ويعترف بان قلبه كان قد انصرف تماما عن الاستمرار في تلك المناسبة الرياضية ، « رغم اننا كنا قد راينا فتاة صغيرة في نحو الرابعة عشرة من عمرها في دكان الفران ، كانت جذابة بان تلهمني الحياة طوال ما تبقى من ايام الاسبوع » . وفي اليوم التالي قال لها ايزموند ان لديه عملا لا بد ان يبقيه في كاليه عدة ايام اخرى . وبينما تحرك بهما القارب عن رصيف الميناء الى السفينة التي كانت ستقلهما الى انجلترا ، نظر بوزويل خلفه فرأى ايزموند واقفا على رأس الرصيف مع الفتاة ذات الاربعة عشر وبيعا . ولحسن الحظ فان تيريز لم تلحظهما . « بعد العودة الى دوفرني اليوم التالي (٢) فبراير تمضي يومية بوزويل المنشورة قائلة : « ذهبت صباح امس الى الفراش في ساعة مبكرة جدا ، وقمت بواجبي مرة واحدة ، لكي تبلغ اهدافي ثلاثة عشر في مجموعها . وكنت حقاً متفعلاً بها في ود صادق » . ولكنه لا يسجل كيف اصبحت اهدافه الصحيحة بمائسل عدد اهداف دونللي .

التقت عينا بيتس بعينيّ فhez رأسه محذرا . كانت الممرضة قد خلعت

الحقيبة المصنوعة من البلاستيك . اغلقت المخطوطة التي كنت قد انهيت قراءتها لتوي ، ودسست كراسة مذكراتي الصغيرة في جيبي . التقطت كتيباً صغيراً من تأليف روسكين ، وحينما سألتني الرجل المعجوز عما كنت اقرا قلت انني وجدت هذا الكتيب وانه سحرني . قال حفيده ان علينا ان نرحل الان ، وبدا ان الممرضة توافق على ذلك .

« هل سألتني صديقك كل الاسئلة التي كان يفكر فيها ؟ »
قلت بتردد : « هناك سؤال واحد اخير ، يا سيدي . عن ايزموند دونللي . . »
« دونللي ؟ من ذاك ؟ » .

وضّح كليف من اقصد . قال الرجل المعجوز :
« آه ، اجل ، اذكر الان ، لقد كان عضواً في جماعة العنقاء . . »
« كيف عرفت ؟ » .

« دعني اذكر . . كيف عرفت ؟ آه ، اجل . اخبرني وايز بذلك . قال ذلك في الخطاب الذي اردتك ان تراه . هذه النشرة التي كنت تقرأها . . انها ليست بقلم . . . ايا كانت اسماؤهم . انها بقلم شخص آخر ، صديق لدونللي . لا يستطيع ان اذكر اسمه . ان له لقباً . »

« لا يمكن ان يكون هوراس جليني . ايمكن ذلك ؟ »
« آه ، اجل . هذا هو الرجل . لورد جليني . »
« ولكن كيف عرف وايز بذلك ؟ »

لسوء الحظ ، تدخل كليف بيتس لانه فسر هذا الكلام على انه هجوم آخر ضد وايز ، وشرع يشن دفاعاً طويلاً عن صديقه القديم . قررت ان اترك المسألة عند هذا الحد ، الى جانب انني كنت جائعاً ، شكرته ووعدته بان ازوره مرة اخرى وغادرت المكان . وفي الخارج قال كليف بيتس معتذراً :

« اترى . ان الولد المعجوز ثرثار كبير . »
« هل قرأت الصفحات التي كتبها بوزويل والتي كنت اقراها ؟ »

« آه ، هل عرفت انه بوزويل ؟ اجل ، بالطبع ، لقد قرأتها . اظنها قطعة رائعة من ادب الدعارة . لقد ظللت احاول طويلاً ان اقنعه بارسال نسخة منها الى ذلك الرجل الذي يشرف على نشر مذكرات بوزويل . ولكنه لم يوافق . »
« بالطبع . انها ليست ملكه . »

« انت واثق ؟ »

لخصت له قصة اوراق بوزويل . قال :

« انه يزعم دائماً انه اشتراها مقابل خمسة جنيهات ، ويقول ان لادي كاليوت راتها بالصدفة ذات يوم وطلبت من زوجها ان يحرقها . فقال انه سيفعل ذلك ، ولكنه وافق على بيعها الى جدي مقابل ورقة بخمسة جنيهات . »

« ربما كان هذا صحيحاً . هل لديك المزيد من اوراق بوزويل ؟ »
« كلا على قدر ما اعلم . هذه هي الاوراق الوحيدة التي رايتها . »

كان المطر قد بدا يهطل حينما توقفنا بالسيارة في مقابل فندق شيلبورن .
قلت - بطريقة تقليدية :
« اشكرك لاصطحابي اليه . انه رجل عجوز لطيف » .
« اوه ، انه على ما يرام . انك لا تعرفه » .
عجبت لهذه الاجابة ، ولكني قررت الا اضبط عليه . فلم تكن هناك حاجة الى ذلك . وحينما جلسنا في البار رحنا نحتمي بعض النيذ الاحمر ، قال :
« يحق لي ان اتخيل ان جدي واحد من الشخصيات انتي تمثل اسوا تركيبة من الخصائص المتضاربة التي يمكن ان تجدها في دبلن في هذه الايام . انه - اولا - كذاب . لقد تظاهر بانه لم يعرف اسم دونللي . هراء . انه يعرفه مثلما تعرفه انت ..
« اذن لماذا ... »
قاطعني قائلا : « وهو ثانيا ، ربما كان اصفر رجل في ايرلندا ... »
وطوال الدقائق الخمس التالية راح يضرب لي امثلة على حقارة جده ووضاعته كانت بالتأكيد مقنعة تماما . وربما كان الرجل نموذجاً من الانماط الايرلندية ، لان مانسيورين ، يصف شخصا يماثله في بداية روايته « ميلموث الجوال » ، ويرجو هذا الشخص متوسلا وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة ، ان يدفن في مقبرة من مقابر الصدقة المخصصة للفقراء . ثم تلت ذلك قصص عن عدم امانة جده . « ثم هنالك تلك الفتاة المسكينة التي ترعاه . انها ما تزال طالبة في معهد الترميز ، ولذلك فانه لا يكاد يدفع لها شيئا . ولكنه يقنعها بان تنام معه مقابل وعده لها بان يترك لها مالا في وصيته . وهو بالطبع ما كان يحلم بهذا » .
دهشت وسألته : « انت واثق من هذا ؟ » فان الرجل لم يكن يبدو على صحة كافية لكي ينجو من آثار حلم جنس » .
« بالطبع . ان الفتاة تنام معي في ليلة عطلتها » .
كنت قد بدأت اشعر بالانقباض . كان كليف بيتس يصف خطايا جده واخطائه في تشف وحقد شعرت بأنهما على شيء من الوحشية .
« لماذا لم تخبرها بان الرجل لا ينوي ان يترك لها نقودا في وصيته ؟ »
غمز بعينه وقال : « انها قد تتركه . وهذا لن يفيد . ولن يفيدني » .
اقترح ان نأخذنيذنا معنا الى حجرة الطعام . قال :
« هل تمنع في تناول الطعام في البار الطويل بالطابق الاسفل ؟ »
« كلا . اذا كنت تفضله » .
وجدنا مائدة الى جوار النافذة المطلة على الشارع . سألته :
« من هو وارث جذك ؟ »
« اعتقد انني الوارث » .
« اذن لماذا تحتقره الى هذا الحد ؟ »

« ليس لهذا علاقة بذلك . انه خنزير عجوز . وانا على اي حال لست بحاجة الى نقوده . انني ميسور الحال تماما . وربما كان هذا هو السيب الذي سيدفعه الى ان يجعلني وارثه . ان جيم ، ابن اخيه ، جيم هيرد ، يحتاج اليها أكثر مني . . قطع كلامه فجأة واطل من النافذة . كان المطر ما يزال يهطل ، وكانت طفلة تبدو في صورة تنظر الينا . نظر احدهما الى الآخر ، ثم ابتسم لها . سألته : « اتعرفها؟ »

« كلا . » ولكنه مع ذلك كان يشير اليها باصبعه . هزت راسها رافضة . قام وخرج اليها . توقعت ان اراها تختفي قبل ان يصل اليها . ولكنها وقفت فسي مكانها ، تبدو مقرورة باردة مبتلة ، تكاد تكون زرية المظهر . قال لها شيئاً ما ، هزت راسها علامة الرفض . ثم اخذها من كتفها ، واجبرها على انسير امامه . بعد لحظة كانا قد عادا الى مائدتنا . قال : « انك لن تنزعج اذا انضمت الينا . اليس كذلك ؟ »

قلت انني لن انزعج . ولكنني كنت اكثر اهتماما بما ستشعر به ادارة المحل . كانت اكبر سنا مما بدت عليه من وراء الزجاج . اربعة عشر ، او خمسة عشر عاماً ، تقريباً . كان شعرها مرفوعاً على شكل ذيل فار ، وكان انفها يرشح من البرد ، وتتردي سترة قصيرة ذات كتفين منتفخين وليس فيها سوى « زرار » وحيد . كان المط قد رسم خطوطاً على ما تاصل فوق وجهها من اوساخ ، وكانت تبدو كمن لم يفتسل منذ اسبوعين ، ولكي اكون امينا ، فقد لاح لي ان المطر كان سبباً فيما فاح منها من روائح اكدت تلك الحقيقة . سألتها كليف : « ما اسمك ؟ »

« فلورنس » .

« هل يدعونك فلو ؟ »

« اجل »

كانت لهجتها لندنية فحة Cochsney جلست في مكانها ، تحك يديها الباردتين الواحدة بالآخرى ، فتبدو صورة مجسمة للبؤس . كان النادل ينظر اليها في اشمزاز رافض ، وظننت ان مدير المحل كان على وشك ان يأتي اليها ليطالبها بمغادرة المكان فقد كان يحلق فينا بقوة . قال كليف :

« اتودين ان تأكلي بعض السمك والبطاطس المقلية ؟ »

اومات براسها ، ولكنها ظلت تبدو مخدرة من البرد فاقدة الحياة . نادى كليف على النادل ، وامره بأن يأتي بما ارادته الفتاة بطريقة ظهر عليها الافتعال وتصنع الكبرياء . كانت مشاعري مختلطة غير واضحة . اذا كان قد دعاها الى الدخول بدافع الشفقة او العطف اذن لكنت اوافق ، رغم انني كنت سأفضل اصطحابها الى مكان اكثر هدوءاً وعتمة . ولكنه كان شخصية من نوع غريب ومعقد حتى انه كان من الصعب التأكد من دوافعه . ظننت ان الفتاة بدت غير مستريحة غريبة عن المكان الذي دخلته . واخيراً اقترحت انه من الافضل ان نصعد الى حجرتي ، على ان نطلب ارسال طعامها الى هناك .

« كلا ، كلا . ولماذا يجب علينا ذلك ؟ اننا على ما يرام هنا » .

كنت جالسا الى جانب الفتاة ملاصقا لها . وكنت افضل لو انني كنت اقل قريبا . اخذت سترتها منها لكي اعلقها على المشجب ، ففاحت منها رائحة جعلتني اظنها قد وجدتها على كومة من القمامة بعد ان كانت قد استخدمت في تجفيف بعض السمك . اني انفا حاسا الى درجة غير عادية ، ولكن حتى رغم ذلك ، فان السترة لم تكن شيئا عادلا بالنسبة لجيراننا على الموائد القريبة .

كانت الوجبة واحدة من اكثر ما عرفته بعدا عن الراحة او المتعة ، فطلبت زجاجة اخرى من النبيذ في محاولة نسيان ما شعرت به من حرج . لم استطع ان افهم السبب الذي جعلها توافق على الدخول . كانت تجيب على الاسئلة بكلمات مفردة في خشية واضحة من ان ترفع صوتها ، وقد جلست في وضع متجمد مقيد ، كما لو كانت تتداخل في نفسها لاحساسها المستمر بالبرد . وبدا كليف كما لو كان مستريحا لهذا الجو . راح يتحدث بصوت مرتفع وبابتهاج واضح ، وهو يقص عليّ حكايات عن مهرجان كان السينمائي ، وعن اخر افلام برجمان ، وهي حكايات لم تستطع ان تثير لدي اقل قدر من الاهتمام . حاولت ان اتحدث الى الفتاة ، ولكن كان واضحا انها تفضل لو تركت لشأنها . شعرت براحة اكبر حينما غادر جيراننا على المائدة المجاورة المكان . وحينما وصل سمكها وبطاطها المقلي ، اغرقتهما بالخل والطماطم المحفوظة ، فاصبحت رائحتها هي السمكية الرطبة اقل ظهورا . رفضت الفتاة ان تتناول شيئا من الحلوى ، الامر الذي شعرت له بالراحة والغبطة . كنت قد نويت ان اضيف الوجبة كلها الى حسابي في الفندق ، وبدلا من هذا دفعت الحساب نقدا وتركت للنادل هبة كبيرة . لم اشعر بالرغبة في الظهور بمظهر نزيل الفندق .

قال كليف باقصى ما يملكه صوته من ارتفاع وارستقراطية :

« حسنا ، اذا لم تكن ستتناول المزيد ، فيمكننا ان نذهب الى مسكني لتتناول شيئا من الشطائر بالجبين ! »

كنت بالغ السرور بانتهاء تناول الطعام ، فلم اعترض . الى جانب انشي توقعت ان تتركنا الفتاة بعد هذا . كان منظر وجهها التعيس يجعلني كئيبا . ولم تكن سعادة النادل بالهبة الكبيرة سوى نصر ضئيل .

وفي الخارج قال كليف : « حسنا . انني لا اعرف كيف سننحشر جميعا في سيارتي ذات المقعدين »

ظننت ان هذه الجملة كانت ايعاء مؤدبا للفتاة بالانصراف ، ولكنها ظلت واقفة في مكانها . قال :

« اوه ، حسنا ، سترتب هذا الامر . تعاليا . » وجذب ذراعها بقوة . قلت :

« الا يتوقع والدك عودتك الى البيت ؟ »

هزت كتفها بلا مبالاة وقالت : « لا - اه ! »

في السيارة البورش جلست على ركيتي . في هذه الزنزانة المقفلة . وقد طلب مني كليف بيتس الا افتح النافذة . كانت الرائحة السمكية اكثر قوة . كان

عليها ان تضغط بظهرها عليّ لكي تدخل ركبتيها في مساحة الفراغ الضيق . ربت
كليف على ركبتيها وهو يقول : « سنكون في البيت حالا - او هو - هناك ثقب . .
هنا - » وكان يشير الى جواربها . ثم غمز لي بعينه وقال : « احسدك ! » . نظرت اليه
بدهشة قليلة . من المؤكد انه لم يكن يستطيع ان يرى في هذه الطفلة المبللة
ذات الانف السائب موضعا للرغبة الجنسية ؟ ربما لم تكن لديه حاسة للشم ؟
بدت لي سلبيتها نوعا من الشذوذ . حينما توقفنا امام شقته توقعت منها
ان تبني شيئا من المعارضة . فكيف لها ان تعرف على اي حال اننا - نحن الاثنين -
لا ننوي اغتصابها ؟ ولكنها وقفت في مكانها دون ان تبالي بشيء ، حتى اخذ
كليف بذراعها وقادها نحو الباب .

بدت اكثر غربة وشذوذا في هذه الغرفة الجيدة التاثيث . القت بسترتهما
فوق الاربكة ، ثم ذهبت فقيعت متداخلة بجانب المدفأة ، وبدت غير مهتمة على
الاطلاق بكل ما يحيط بها . قال كليف :

« فلنسمع بعض الموسيقى ، ما رأيكم ؟ هل تعرف كانتاتا جيمس اوزوالد المسماة
عربة التراب ؟ عليك ان تعرفها . انها ممتعة » . تساءلت بيني وبين نفسي ان لم
يكن في هذا الاختيار تعريض ساخر بالفتاة ، ولكنه اخرج اسطوانة موسيقية
تحمل هذا الاسم بالفعل ، ووضعها على الحاكي . عرض عليها ان تشرب كأسا
ولكنها رفضت . اخرج الجبن والشطائر والزيتون المحشو ولكنها رفضتها ايضا .
فير انها حينما قدم اليها علبة كبيرة من الشطائر الجاهزة المحشوة اخذتها
دون ان تنبس كلمة واحدة ، وجلست تلتهمها . وقد باعدت ما بين ساقيها امام
النار ، وراحت تسقط نثار الشطائر فوق مقعده الحديث ذي المسندين وعلى
البساط الابيض الفاخر . اتخذت مقعدا على الجانب الاخر من المدفأة ، ولكن كليف
جلس بالقرب منها . بدت اتساءل ان كانت قد سكرت . ولكن وجهها الصغير
الحاد ظل على لامبالاته الكاملة ، ولم يكن حتى ينم عن الكآبة . وحينما كان
يتحدث اليها كانت تجيبه اما بكلمات مفردة ، واما ان تهز رأسها او توميء بنه .
وبعد ان التهمت عددا هائلا من الشطائر الصغيرة طلبت شيئا تشربه . ذهب الى
المطبخ وجاءها بزجاجة من الكوكاكولا وانبوبة لامتناه من اشراب . وحينما انتهت
كانتاتا « عربة التراب » قالت دون ان يبدو في صوتها الاهتمام الشديد : « لماذا لا
تضع شيئا من الموسيقى اللطيفة » . اخرج اسطوانة من مرسيغى ماتوفاني وفرقته ،
وبدا ان هذا الاختيار قد ارضاها ، ثم انها لم تقل شيئا .

لم اعرف ان كان يأمل ان اقوم انا فأنصرف لكي اتركه معها بمفرده ، ولكن
حينما قلت ان الوقت قد تأخر ، عارضني على الفور ، واضاء جهاز التليفزيون نكي
نشاهد نشرة الاخبار . جلست في مكاني ، ارتشف كأسا من البراندي ، عارفا
بانني سرعان ما سأشعر بالسكر ، ومع ذلك فقد كنت اشعر كما لو كنت لم
اشرب سوى الماء طول النهار .

بعد نشرة الاخبار كان هناك برنامج عن الاضطرابات السياسية في شمال
ايرلندا . ربت كليف على ذراعي وأشار الى الفتاة . كانت نائمة . قال برقة :

« انها لطيفة . الا تظن ذلك ؟ » وجدت انه من الصعب ان اعثر على اجابة مناسبة .
واخيرا قلت : « انها بحاجة الى حمام جيد » . بدا عليه الحزن بشكل غير متوقع ،
وغض بصره وقال : « اجل ، المسكينة . . »
« الا تظن انه يجب عليك ان تأخذها الى البيت ؟ الا يمكن ان يثير والدها
بعض المشاكل ؟ »

« اوه ، لا اظن ذلك . يمكنها ان تنام هنا اذا ارادت ذلك »
سلمت دون مزيد من المعارضة . كان يعرف ما يفعله خيرا مني .
كانت قد غرقت في النوم واطعة احدى ساقيها فوق احد مسندي
المقعد ، ومدت الساق الاخرى امام النار . غيرت وضعها بعض قليل فانزلت ذيل
ثوبها قليلا فوق ركبتيها . ابتسم كليف في وجهي ، وانحنى الى الامام وصوب
نظرة قريبة فوق ذيل الثوب . توقعت ان تستيقظ ولكنها لم تتحرك . التفت الي
وقال : « انظر » ولكني هزرت راسي قائلا : « كلا ، اشكرك » . تظاهر بانه يريد
ان يطلعني على شيء هام ، فغيرت وضعي ونظرت الى ما فوق ذيل الثوب . كان الجوربان
السميكان مليئين بالثقوب والشقوق . كانت ترتدي سروالا طويلا مصنوعا من القطن ،
ولكنه كان ممزق « الحجر » بشكل سيء حتى انه لم يكن يخفي شيئا . ابعدت
عينني سريعا . ليس بدافع الترفع او اللامبالاة ، وانما لانني كنت ساشعر بخجل
شديد لو انها فتحت عينيها في تلك اللحظة . قلت :
« ماذا في ذلك ؟ »

بدا عليه الحزن والتفكير مرة ثانية .
« من الواضح انها تنتمي الى اسرة فقيرة ، فلا عجب انها ليست نظيفة
جدا » .

لمس كتفها وقال : « اتريدين النوم هنا ؟ » . جفلت ولكنها لم تفتح عينيها ،
وفجأة اصبحت عاجزا عن معرفة ما اذا كانت تتظاهر بالنوم . تحسس قماش ثوبها
وقال : « ستصاب بنزلة برد اذا ظلت بهذه الملابس » . نهض واقفا ووضع يدا
تحت ذراعها ويده الاخرى تحت ركبتيها ، ورفعها . حركت راسها وقالت شيئا .
خطر لي الان انها اما ان تكون تتظاهر بالنوم او انه قد وضع شيئا في المشروب
الذي تناولته . فاذا كان ذلك قد حدث ، فلا بد انه استخدم مادة هايدريت الكلور ،
فهي وحدها القادرة على انتاج هذا الخدر الكامل .

تبعته الى حجرة النوم - وكان من الغباء الكامل ان اسأله عما كان يفعله .
كانت الحجرة مريحة ودافئة . وضعها على حافة الفراش الكبير ، ثم خلع
حذاءها ، ثم بحث حول الخصر حتى عثر على الزمام . سألته : « أهذا تصرف حكيم ؟ »
قال : « انني لا انوي ان اضعها في فراشي بهذه الملابس . لقد قلت بنفسك انها
متعفنة » . عثر على الزمام فجذبه وفتحه بعنف ، ثم جذب الثوب النصفين فخلعه
من قدميها . لم تكن ترتدي قميصا داخليا . لا شيء سوى الجوربين المموكين
زوج من دوائر المطاط ، والسروال الداخلي الذي كان رباطه المطاطي بعيدا تقريبا
عن خصرها . قال : « جسد صغير جميل » . وكان في هذا شيء من المبالغة . كانت

نحيفة ، والبطن الصغير كان مسطحا لدرجة ان عظمتي الردفين برزتا بوضوح؛ امسك بطرف الصدر الصوفي الخفيف ، وكان ذا لون اخضر شابه لون الطيسن والتراب - ورفع ، ثم حركها فقلبها على جنبها حتى يستطيع ان يجذبه من فوق راسها . كانت ترتدي حمالة صدر كانت بيضاء ذات يوم ، وكانت اشربة الحماة على ظهرها موصولة بقطعة من المطاط الاسود الى بقايا القماش بطريقة خشنة . وقطع شريط المطاط باظافره . كان النهدان الصغيران مسطحين ولم يكتمل نموهما . نظر اليّ وقال :

« هل سننالها ؟ »

قلت على الفور : « كلا . دعها وشأنها » .

مد يده فجأة ووضعها على مقدمة بنطالي فقفزت الى الخلف كما لو كان قد ضربني . ابتسم وقال :

« لا يمكنك ان تتظاهر بأنك غير مستثار » .

كبحت رغبتني في ضربه وقلت : « لماذا لا تضعها في الفراش ثم تتركها لكبي تنام ؟ »

« كلا . سيخيب املها » .

كانت مشاعري مختلطة وغامضة . كنت واثقا من انها مستيقظة . ولكن اذا لم تكن ، فاني كنت سأعتبر شريكا في اغتصابها . كنت سأعتبر شريكا على اي حال ، طالما انها لم تبد اي نوع من الاستجابة . انحنيت الى الامام وقرصت كتفها . لم تتحرك . كان كليف بيتس في تلك اللحظة يقهقه بطريقة غير عاقلة . قبض على نهدها باصابعه وقال : « قولي له انك مستيقظة يا حلوة » . انحنى الى الامام كما لو كان يريد ان يقبلها ، ولكنه اخذ شفتها السفلى بين اسنانه وعضها (. .)

اقترب مني وامسك ذراعي . وما زال انتصابه ظاهرا ، ووجدت انه من الصعب ان ابعد عيني عنه . قال متعلقا :

« لقد ادبت لك خدمة اليوم . اسمع ، حينما يموت الرجل العجوز ، سوف ارث كل ما لديه من مخطوطات . وسوف اسمع لك بان تأخذ ما تشاء » .

« ذكرني الموقف فجأة بالكولونيل دونلي ، وكان هذا اكثر بكثير مما يمكن ان احتمل ، قلت :

« اسمع ، اذا كنت تريد ان تنالها ، فاذهب وافعل ما تشاء . انني لن امنعك ، ولكنني لا اريد مشاركتك في هذا . وانا لا اريد ايضا ان احميها » .

قلت ذلك بسرعة لانني استطعت ان ادرك انه كان يرمي الى اقامة حفل جنسي ثلاثي الاطراف .

« ان تنصرف ؟ »

« كلا . سوف انتظر » .

« سأترك الباب مفتوحا » . ثم اندفع الى حجرة النوم ، فرايته يقذف بنفسه فوقها مرة اخرى (. . .) ذهبت فعثرت على زجاجة من النبيذ في صوان مشروباته فصببت لنفسي كأسا كبيرة . ولم تدع الاصوات القادمة من حجرة النوم مجالا

للشك في انه كان يستمتع بها . وكانت تتخللها انات وتعليقات مثل : « اوه ، اوو ، ايها العاهرة الصغيرة . » . واخيرا توقفت الاصوات . مضيت في تناول الجبن والزيتون ، مع قراءة نسخة من كتاب وايت : « اخوة الصليب الوردي » وجدها على احد ارفف الكتب . بدأت اشعر بالنعاس ، سوف يكون من الكذب ان اقول انني لم اكن مستشارا جنسيا الى حد ما . كانت سلبية الفتاة المطلقة قد اثاروا فضولي ، وان ما تشعربه من فضول اراء فتاة لقريب جدا من الرغبة في ان تخلع لباسها . واذ جلست على المقعد ذي المسندين الذي كانت تجلس عليه ، تذكرت سرورالها الداخلي الممزق وامضاءها التناسلية المكشوفة وتجدد الشبق . كنت جديرا بان امارس معها الجنس في ظل ظروف مختلفة . ولكن ما اضعف من عزيمتي كانت شخصية كليف بيتس ، ومحاولة لدفعي الى مشاركته في عملية بدت لي كالاغتصاب .

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل وفكرت في العودة الى فندقتي ، ولكنني سمعت صوت حركات صادرة من حجرة النوم ، ولم ارفع عيني لانظر ما يجري . ثم رايت كليف بيتس واقفا على بساط صغير عند باب الحجرة ، عاريا ، حاملا الفتاة بين ذراعيه مرة اخرى .

« لقد جئتُك بها مرة اخرى . »

« هذا عطف منك ، ولكن عليّ ان ارحل »

« اوه ، لا . لا ترحل » رجع على ركبته ، ووضعها على البساط المصنوع من جلد حيوان ابيض عند قدمي . كانت هي الاخرى عارية كما ولدتها امها الان . ثم خرج من الحجرة .

انحنيت فوقها ولمست ذراعيها . قالت : « انت متيقظة ؟ » . لم تصدر عنها حركة . كان صوت المياه الجارية يأتي من الحمام ، وبعد دقائق خرج كليف بيتس من هناك ، حاملا اناء من البلاستيك الاحمر يتصاعد منه البخار .

« ماذا تفعل ؟ »

كان الماء معطرا . اخذ منه اسفنجة استحمام ، وعصرها ، ثم دحكها بصابونة كبيرة معطرة بمطر الليمون . وبدا يفسلها بعناية ، متجاهلا ما جرى على البساط من ماء ، ثم اخذ منشفة وجففها (. . .) ثم رفع عينيه نحوي وقال : « هالهي ، لا يمكن ان تكون انظف من هذا . » .

« ان كل ما تحتاجه الان هو بعض الثياب النظيفة » .

« اوه ، اظن اننا نستطيع ان نرتب ذلك » .

نهض واقفا وقال :

« هاك هي ، انها ملكك . »

استدار وذهب خارجا من الحجرة ، واغلق وراءه باب حجرة النوم . كان هذا نوعا من الاغراء ، كانت مراقبتي له وهو يلطفها بالاسفنجة قد جعلتني انتصب . انحنيت فوقها ولمست نهديها . كانا باردين . خطوات فوقها وانجبت الى خزانة الكتب ، ثم خطوات على اطراف اصابعي نحو باب حجرة النوم وجذبته فانفتح .

سمعت صوتا خافتا ووجدت كليف يبتس جالسا على البساط ،وقد بدا عليه الانزعاج . قلت : « معذرة . انما اردت ان آخذ شيئا اغطيها به . » واتجهت الى الفراش ، واخذت غطاء ثم عدت ثانية الى الفتاة الراقدة على البساط امام المدفأة . وبينما كنت اغطيها ظننت انني رايت ابتسامة على شفيتها .

سمعت صرير قفازات السرير في الحجرة الاخرى . جلست وفتحت كتاب وايت على فصل « الصلب الوردى » . ثم غلبني النعاس ولا بد انني نمت فعلا . استيقظت حينما انزلت الكتاب من فوق ركبتي . نظرت الى الساعة ، كانت في الثانية والنصف . فجأة ، جلست فلورنس ، ونظرت الى الغطاء الذي غطيتها به . « كان هذا شيئا لطيفا منك » .

« عفوا » . وكنا كلانا نتحدث بصوت منخفض .
قالت : « حسنا ، اظن ان من الافضل لي ان ارحل »
« بهذا الشكل ؟ »
« كلا » .

عبرت الحجرة واتجهت الى صندوق اثري مليء بالادراج في احد الاركان ، وجذبت احد الادراج ففتحته . بدأت في لقاء الملابس الداخلية على الارض . فتحت الدرج الاخير ، واخرجت زوجا من الاحذية . قلت : « لقد جئت الى هنا من قبل ؟ »
« آخذ حماما مرة واحدة في الاسبوع ، في المتوسط » .

ودون ان يبدو عليها الخرج ارتدت مشدا ذا حزام ، وقد بدا هذه المرة جديدا ومن طراز حديث . ثم ارتدت جوربين . ارتدت بعد ذلك سروالا داخليا ، ثم حمالة صدر : طلبت مني ان اربط خطافها . زحفت نحو باب حجرة النوم ونظرت داخليا ، ولكن لم يكن هنالك شك في هذه المرة في ان كليف بيتس كان غارقا في نوم عميق . كانت فلورنس قد ارتدت قميصا داخليا دون صدر صنع من النايلون من نفس لون حمالة الصدر والسروال الداخلي ، وقد بدا غالي الثمن لعيني غيسر الخبيرتين . ذهبت الى صوان قريب من الباب واخذت حقيبة طويلة من البلاستيك كانت معلقة على مشجب في الصوان ، اتضح انها كانت تحتوي على حلة خضراء اللون كالليمون مكونة من قطعتين . اتجهت الى المرأة المعلقة فوق المدفأة ومشطت شعرها بفرشاة اخذتها من الدرج . كان شعرها الان جافا ، وبعد ان مشطته بدا اللون الاحمر الذهبي نفسه الذي رأيته في مكان آخر . زينت وجهها بضربات قليلة من احمر الشفاه وبعض البودرة التي نثرتها بقطيفة صغيرة على صدغيها . حينما التفتت الي لم اكد اتعرف عليها . كانت ما تزال تبدو صغيرة السن ، ولكن كان يمكنني الان ان اقدر عمرها بعشرين عاما . كانت قد ارتدت الملابس الجيدة التفصيل كما لو كانت معتادة عليها .

« مستعد ؟ »

« ايه .. اجل » .

من صوان البهو اخرجت معطفا كله متناسبا مع الحلة ، ومظلة من نفس اللون .

واخيرا وضعت قبعة حمراء صغيرة على راسها . اطفأت المدفأة الكهربائية ، ثم اطفأت النور ، وخرجنا ، واغلقنا الباب وراءنا بهدوء .

سألتها : « اين تقيمين ؟ »

« اوه ، لن اعود الان الى البيت ، انت تقيم في شيلبورن ؟ »

« اجل . »

« سأعود معك الى هناك لارى ان كانت لديهم حجرة لي . لا يمكن ان اتحمل

مشقة الخروج الى مالاهايد . »

كانت لهجتها مازلة لندنية بوضوح ، ولكنها لم تعد لهجة الكوكني (سوقة لندن) .

كان المطر قد توقف . فسرنا في الشوارع الخالية . سألتها ان كانت

تعرف جيد كليف بيتس .

« اوه ، اجل . انه كان يعيش في مالاهايد . وهناك قابلت كليف . والولد

العجوز لا يقل عنه سوءا . »

« باي شكل ؟ »

« انه يحبهن صغيرات . كان من عادته ان يناوشني حينما كنت في العاشرة . »

بدت راغبة تماما في الحديث ، وتكلمت بطريقة تلقائية ، واحيانا بطريقة

تشبه اسلوب رجال الاعمال ، وليست كمن تبوح بدخيلتها او تكشف عما بنفسها .

كان كليف قد اغواها حينما كانت في الثانية عشرة - اي انه عرض ان يعطيها

ما يكفي من النقود لكي تشتري دراجة غالية اذا هي جاءت الى حجرته بعد نصف

ساعة من انصرافها من المدرسة لعدة ايام . كانت ابنة غير شرعية لامرأة تعمل سائقة

سيارة عامة ، وكانت ترتدي ثيابا سيئة ولا تتناول ما يكفي من الطعام . كان من

الواضح تماما - رغم انها لم تصرح بذلك بوضوح - ان ما جذب كليف اليها هو

انها السائب وثيابها الممزقة . كان فقدوها لعذريتها صدمة مؤلمة . وكان كليف

يعاملها معاملة طيبة جدا ، فلاطفها وهداها ، وجعلها تشعر بالثقة والامان . وذات

يوم ، بعد ان خلع ثيابها بعناية ودلكها بزيت الزيتون ، انقض عليها بكل قوته

وازال بكارتها بضربة واحدة عنيفة . صرخت وبكت لمدة نصف ساعة ، حتى خرج

من المنزل واشترى لها الدراجة التي كانت تريدها منذ وقت طويل . واستمرت

مواعيد لقائها معه في حجرته ، وسرعان ما اشترك معها الرجل العجوز ، كانا

يدفعان لها نقودا كثيرة ، وتحديث الرجل العجوز مع امها عن تربيته لها . كانت

الام تعرف ما يجري بالطبع ، ولكن النقود كانت اكثر من ان ترفض .

كان اعتراض كليف الوحيد هو انها تنفق على الملابس اكثر مما ينبغي . كان

جزءا من خياله الجذاب انها يجب ان تظل مشردة مهلهلة الثياب . وكان قد

اعتاد ان يتسكع امام محلات الثياب المستعملة لكي يشتري لها ثيابا مهلهلة قدرة .

وكانت هذه الثياب تصلها بالبريد ، مع بطاقة صغيرة يخبرها فيها ان تقابله ،

وفي اي وقت . كان عليه ان يمثل دور من يلتقط فتاة من الشارع ، وكان عليها

ان تتصرف كما لو كانت لم تره من قبل ابدا . وكلما كان في مقدوره ، كان يأتي

معه بشخص اخر ، ثم يقوم بتمثيل مشهد الاغتصاب العجيب الذي شاهدته بنفسه .

سألتهما ان كان اصدقاؤه قد قبلوا ان يمتلكوها بناء على دعوته بينما تكون هي غائبة عن الومي بشكل واضح . قالت :

« اوه ، اجل انك الثاني - الذي يرفض ذلك » .
« فماذا يحدث حينذاك ؟ »

« انك ، انك جدير بان تدهش . احيانا تبلغ بهم الاستشارة حدا كبيرا حتى انهم يستمرون في تبادل الفرجة طول الليل . فاذا كنت سعيدة الحظ ، انشغل الرجلان احدهما بالآخر وتركاني وشأني » .
« اذن فان كليف شاذ جنسيا ؟ »
« اوه ، انه كل شيء »

لاح لي ان كاتب الفندق كان يعرفها . اخذت منه المفتاح ، وصعدنا الى الطابق العلوي معا . وفي الطابق الثاني ، حيث كان يجب ان نفرق ، قالت : « هل آتي اليك واتحدث معك ؟ » عرفت ما كانت تعنيه قلت :

« اظن ان عليك ان تنالي قسطا من النوم ، لقد قضيت ليلة متعبة » .
ابتسمت في وجهي وقالت :
« انك لطيف . لن يهمني التعب .. »

وقفت على اطراف اصابعها واحاطت عنقي بذرعايها . قبلتها وشمرت نضرة شبق مفاجئة .

قالت : « ليلة سعيدة » . ثم سارت مبتعدة في الدهليز . كبحت رغبتني في متابعتها ، وذهبت الى حجرتي . وقبل ان ادخل الفراش ، تناولت ستة اقراص من فيتامين «ب» وشربت كأسا من الماء . ولكن هذا لم يؤد الى النتيجة المرجوة . استيقظت في الصباح بغم جاف ورأس يثق ويلف كالمحرك او مولد الكهرباء .

فدحان من القهوة وبعض قطع الخبز الجاف بالزبد جعلتني اشعر بمزيد من الانسانية . جلست في الفراش ، اقرأ صحيفة الصباح ، واتساءل ان كانت الرحلة الى قلعة مالاهايد يمكن ان تساوي ما سوف يضيع فيها من وقت وطاقة ، ولكن الاغراء كان اقوى بأن اضع الورقة التي كتب عليها « لا تزعجني » على باب حجرتي من الخارج ثم اناهم ما تبقى من ساعات الصباح . دق جرس التليفون ، فكان مثل محراث دائري يغوص في تربة تركيزي الهشة . تساءلت بيني وبين نفسي وانا ارفع السماعة ان كان المتكلم هو كليف بيتس ، وشعرت باغراء يدفعني الى وضع السماعة في مكانها دون ان اجيب . دق الجرس ثانية ، فرفعت السماعة . سمعت صوت رجل يقول :

« مستر سورم ؟ »

« انه يتكلم » .

« انا الستير جليني . هل كتبت الي رسالة ؟ »

قلت : « يا رحمة السماء . كيف حالك ؟ جميل منك ان تطلبني » .

« اخبرتني زوجتك بانك تنزل في فندق شيلبورن . اسمع ، ما الغرض

المتاحة لقدومك الى لندن؟»

« هذا ممكن . ما الذي تفكر فيه ؟ »

« هذا شيء اطول من ان اشرحه في التليفون ، ولكنني مسحور اللب تماما بكل هذه الحكاية عن دونلي . وان لدي فكرة عن احتمال قدرتي على مساعدتك . هل تعرف ان قصر جلوسبي قد بيع ؟ »
« كلا . لم اعرف بذلك . »

« اخشى ان يكون هذا هو ما حدث ، منذ عامين . لقد تنبأوا بخطابك . كان اخي الاكبر قد قتل في سويسرا - غرق في حادث قارب . واكتشفنا ان اوضاعنا اكثر تعقيدا مما كنا نظن - ضرائب التركات وما الى ذلك - مع اننا قررنا ان نبيع قصر جلوسبي . اشتراه رجل من كندا يدعى ميللر . اعرف ان هناك ادراجا ضخمة مليئة بالاوراق . وهي ما تزال ملكي بالطبع . »
« هل حاولت الاقتراب منها ؟ »

« اوه ، اجل . هذا الرجل ميللر ، شخص لطيف تماما . لو استطعت المجيء الى لندن لامكننا ان نذهب معا الى هناك . »
فكرت بسرعة ثم قلت :

« متى ستكون خاليا من العمل ؟ »

« اي وقت . انني لا اعمل الآن . »

« لو انني اخذت طائرة الى لندن اليوم ، هل ستكون خاليا ؟ »

« اوه ، اجل ، بالتأكيد . سأسعد لرؤيتك . »

اخذت رقم تليفونه ، وقلت له انني سأتصل به ثانية . وانتهيت المكالمة . اتصلت اولاً بالمطار فعرفت ان طائرة من شركة « اير لينجوس » ستطير الى لندن في الثانية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة ، وان علي ان اكون في المطار قبل ذلك بثلاث ساعة لكي احصل على تذكرتي ، فاكذت لهم انني حجزت التذكرة لنفسني ، ثم اتصلت بمكتب الفندق ليعدوا قائمة حسابي . اتصلت بديانا بعد ذلك ولكنني لم اجد غير موبسي التي كانت في رعاية المرأة التي تأتي لتنظيف المنزل بينما خرجت ديانا لتصفيف شعرها . قلت لها ان تقول لامها انني ساطير الى لندن وانني سأتصل بها فيما بعد . ثم اتصلت بالمستير جليني مرة أخرى ، وقلت له انني ساكون في مطار هيث رو في الواحدة وخمس واربعين دقيقة . كنت في عجلة من امري ، وراح راسي يدق محذرا . ولكنني اتخذت موقفي النهائي ، وصعدت الى الطائرة قبل خمس دقائق من اقلاعها . نعمت قليلا خلال الرحلة ، وصحوت فجأة بينما كان الطيار يعلن هبوطنا .

في مبنى المطار اعلن صوت في مكبر الصوت عن اسمي وعن طلبهم لي ان اذهب الى مكتب شركة « ايرلينجوس » للطيران . ذهبت الى هناك ، فوجدت في انتظاري شابا طويلا اشقر الشعر .
« مستر سورم ؟ انا المستير جليني . »

كان اصغر سنا مما توقعت - لا يكاد يكون قد انهى عقده الثاني . كان شعره طويلا ، وكان بنطاله « البلوجينز » وسترته المصنوعة من جلد الحمار ابعدا ما كنت اتوقع ان اجده في نطاق هذا العمل . كان ويسيم الطلعة الى اقصى حد ، ولو كان شعره اقصر قليلا لاستطاع ان يجمع ثروة اذا عمل « مودبلا » للرجال .

قلت انه لطيف منه ان يقابلني . فقال :

« عفوا . لو انك لم تأت الى لندن ، لجنث انا الى ايرلندا . »

سرنا نحو ميل حتى بلغنا المكان الذي ترك فيه سيارته من طراز « ميني مايستور » . في طريق العودة في لندن ، سرد علي بالتفصيل ما كان قد اخبرني به في التليفون . كان اخوه جوردون قد مات في الثامنة والعشرين من عمره ، بعد عام واحد من زواجه . وكانا آخر من تبقى من عائلة جليني ، واصبح قصر جلوسبي ملكية مشتركة بين الستير وبين زوجة شقيقه ، وكان الستير ما يزال يدرس في كلية سانت أندروز . وكانت الضرائب المفروضة على التركة ثقيلة ، وحينما تم تصفية حسابات الستير لم يكن قد بقي له الا القليل بالإضافة الى قصر جلوسبي . رغم ان الستير كان له دخل مستقل ورثه من جدته لامة (. كان قصر جلوسبي نادرا مثل فيل ابيض ، ولكنه ايضا كان متهاكما وقال لهم الوكيل انه لم يكن يساوي متاعب بيعه ، وان الثمن المحتمل ان يكفي لتغطية الرسوم القانونية للبيع . ومع ذلك فقد قرر هو وزوجة اخيه ان يبيعه . وفي خلال اسابيع قليلة تسلما عرضا كبيرا الى درجة لا تصدق من رجل اعمال كندي كان يريد « قلعة اسكتلندية » لكي يستخدمها كمقر له في اجازاته . ابرما الصفقة بسرعة ، وقرر الستير ان هذا هو الوقت المناسب لتحقيق امله في تكوين فرقة للفناء (البوب) فانتقل الى لندن . ولكن مشروع الفرقة لم يتحقق ، فاصبح يعيش بهدوء في هولاندبارك ويدرس فن التصوير على امل ان يصبح مصورا صحفيا .

سألته كيف اصبح مهتما بدونلي .

« اظن انه من الافضل ان اترك انجيلا لكي تشرح ذلك . انها زوجة شقيقي

جوردون . وهي تنتظرنا في الشقة . »

يجب علي ان اعترف بأنني شعرت بنوع من خيبة الامل . كان الستير جليني شابا لطيفا يبعث على البهجة بشكل واضح ، غير انه كان من الصعب ان يبدو في صورة تتلاءم مع بحثي عن دونلي . ولكنني ظننت انه من الممكن ان تكون لمسة ساخرة في مقدمتي لكتاب « مذكرات افاق ايرلندي » اذا ذكرت ان لورد جيني الحالي مقني « بوب » فاشل وانه يطمح في الدخول الى عالم الصحافة . ولاح انه - على الاقل - مهتم بتاريخ أسرته ، فقد لخص لي ما حدث لهم في القرن التاسع عشر ، وكيف حدث ان تزوج اللورد اسكندر جليني - جده - وارثة اميركية في عام ١٩٠١ فاستعاد بذلك ثروة الأسرة . ولكن والده عاد بهم الى الفقر باقامته في لندن واتخاذ نصف « دستة » من العشيقات .

وصلنا الى شقته في حوالي الثالثة والنصف . كان عصرا ناعما ذهبيا ،

واجتاحني فجأة احساس بالرشاء وسعادة الحظ وانا اقف على رصيف الشارع في « هولانديوز » اراقبه وهو يفلق السيارة . كانت فتاة تقف في النافذة وتنظر الينا ، وتلوح لنا . فقال لي : « هذه هي انجيلا » .

كانت انجيلا جليني « اسكتلندية » جدا بشكل ما : نحيفة ، جميلة ، حيوية ، ذات شعر متموج في تجعدات صغيرة ووجه محدودب قليلا . كانت ترتدي صدارا صوفيا كاد يبلغ ركبتيها ، وبنظالا من التيل .
« اتود شرب الشاي ؟ ام مشروبا آخر ؟ »

قلت انني افضل الشاي في هذه الساعة ، فذهبا معا الى المطبخ ورحت أنظر الى الكتب على الرفوف والى الصور المعلقة على الجدران . كان من الواضح ان المستير قد اتى بهم من جلوسبي . فقد كانت هناك مجموعة جيدة من كتب سكوت وجون جالت في طبعتها الاصلية ، ولعدد كبير آخر من الكتاب الاسكتلنديين الذين لم اسمع بهم من قبل . كانت ظهور « الكتب تحمل اسم هوراس جليني ، ولكن التواريخ المصاحبة للاسم دلتنني على ان هذا لا بد ان يكون هوراس الابن ، منفذ وصية دونللي .

في ركن رف الكتب رايت كتابا يحمل اسم « خطابات من احد الجبال » تأليف ريجنالد سميتسون . لم يكن على الصفحة الاولى اسم الناشر ولا تاريخ النشرة ، ولكن احدهم كتب تاريخ « ١٧٨٠ » على ورقة ملصقة بالفلاف . كان هناك رسم على الصفحة الاولى - يمثل جبلا تعلوه شجرة جرداء وظليا طويل القرنين . شعرت فجأة بان فيه شيئا مألوفا لي بصورة غريبة . احسست فجأة بالدوار ، وجلست ، واغمضت عيني . بدا لي ان صداعي ما زال مستمرا . حينما اغمضت عيني أصبح الدوار عنيفا كما لو سقطت في دوامة ، ففتحت عيني ثانية ونظرت الى الكتاب . وحينئذ وفي وضوح كامل عرفت ما كان يحدث . كنت « اصبح » ايزموند مرة اخرى . ولكنني في هذه المرة لم اكن ارى العالم بعينه . وانما كان الامر كما لو كنا نقسم رأسي . فنرى الاشياء بصورة مزدوجة وبمعنيين مختلفين . ولكنني عرفت الآن لماذا كان الكتاب مألوفا لدي . كنت قد رأيته من قبل ، فاثار لدي احساسا بالنفور . كان شيء منفر غير سار مرتبطا به .

حدثت في الكتاب ، والى ماوراءه شاعرا بصدمة مفاجئة . فتح الباب ، ودخل منه هوراس جليني ، حاملا صينية . نظر الي وقال :
« أنت بخير ؟ »

أخفت الرؤية المزدوجة ، وتعرفت في المتكلم على المستير جليني . قلت :
« أجل . انني اعاني من صداع خفيف . هذا كل شيء . »
نظر الى الكتاب على حجري :
« اوه ، اتعرف ذلك الكتاب ؟ »
« كلا »

دخلت انجيلا ، فقال :

« اليس هذا مدهشا يا آنجي ؟ لقد عثر على كتاب « خطابات من أحد الجبال »
الا يثبت هذا شيئا ما ؟ »

كانا قد اعدا بعض الشطائر ، فتبينت انني كنت جائعا . وبينما كنت اتناول
الشطائر واحدة بعد الاخرى ، اختفت آخر آثار الدمار . كنت قد اصبحت «نفسى»
تماما مرة ثانية . واكمل العلاج بثلاثة اقداح من الشاي الساخن . وبينما كنت
أكل اخبرني عن سبب اهتمامهم بأيزموند دونلي . فبعد موت زوجها ، قررت
انجيلا ان تكمل دراستها الجامعية التي كانت قد هجرتها لتتزوج ، فأدرجت اسمها
في جامعة ادنبرة ، وكان استاذها هو البروفيسور ديفيد سميللي ، كاتب ترجمة
جيمس هوج ، الراعي الصالح الاتريكي. وحينما اكتشف سميللي ان انجيلا هي
لادي جليني ، سر وثارت حميته العلمية . كان يكتب تاريخا عن مجلة « ادنبرة
ريفيو » وكان جليني واحدا من كتابها الاصليين ، ولكنه كان قد ابعد عنها على يد
الدكتور جيلبرت ستيوارت ، وهو رجل كانت سمته الميزة الاساسية هي الحقد
والضغينة . كانت حدة اللهجة سببا في ان حققت مجلة « الريفيو » نجاحا فوريا
منذ صدور عددها الاول في شهر يونية عام ١٧٧٣ : وكان جليني قد كتب في العدد
مقالا نقديا ممتازا عن لورد مومبودو ، كما كتب عرضا على شي من الخشونة لكتاب
في التاريخ من تأليف الدكتور هنري ، وهو واحد من اكثر الكتاب الاسكتلنديين
نجاحا في عصره . واخيرا ، وبشكل واضح ، بدا جليني يشعر - مثل عدد كبير
آخر من الناس ، بان كل هذه الماراة والسخرية لم تكن لتبلغ اي هدف ، فكتب
الى ستيوارت خطابا طويلا - في اكتوبر ١٧٧٣ - موضحا احساسه بأن على مجلة
« ريفيو » ان تهدف الى ان تكون اكثر بناء ، وانه لا شك في ان كلا من هنري ،
وروبرتسون وبلاير يتمتع بقيمة حقيقية ، مثلهم في ذلك مثل عدد كبير آخر من
الكتاب الذين حقر من شأنهم على صفحاتها . وكتب ستيوارت ردا وديا ومعقولا ،
ولكن يبدو انه شك في ذلك الوقت من ان جليني قد وقع تحت تأثير هنري او
بلاير ، فكتب خطابا ثانيا وصف فيه جليني بأنه « كلب حراسة كهوتي » ، (وكان
هنري « كاهنا » مسيحيا) .

ويمكن ان يعثر القارئ على ملخص لهذه القصة من كتاب ايزاك ديزرائيلي
« خصومات المؤلفين ومعاركهم » . وفي شهر نوفمبر ، نشرت مجلة « سكوتس
مجازين » وهي مجلة منافسة ، دفاعا قويا وذكيا عن هنري وروبرتسون ، اختتم
بهجوم ماهر مميت ضد ستيوارت . ويقتطف ديزرائيلي هذا الدفاع كله . وعلى
صفحات مجلة « ريفيو » اكد ستيوارت ان كاتب الهجوم - الذي وقع بحروف
« ام د » - كان هوراس جليني . واجاب جليني بخطاب على الفور ، يقول فيه
لستيوارت انه بينما يوافق على كل ما جاء في الهجوم ، فان كاتبه الحقيقي كان
صديق ايزموند دونلي . وكانت نتيجة هذا الخطاب نقدا عنيفا لكتاب دونلي
« ملاحظات عابر في فرنسا وسويسرا » في عدد فبراير من مجلة ستيوارت .
ويقول ديزرائيلي ان جليني اراد ان يتحدى ستيوارت بما رزقه ، ولكن دونلي منعه
من ذلك وبط من عزمه .

استمرت المعركة ، حتى بعد ان انهارت مجلة ستيوارت . ذهب ستيوارت الى لندن ، وساهم بانتظام في الكتابة لمجلة « جنتلمان مجازين » . وفي هذه المجلة ، في يونية عام ١٧٨١ ، حدث ان ظهر عرض قصير وان كان شريرا سيء النية لكتاب « خطابات من احد الجبال » وصف فيه الكتاب بأنه : « ابخرة عقل مختل بسبب الشهوات المريضة والحماس الهوائي » . وفي العدد التالي من المجلة ، اعلن ان مؤلف كتاب « خطابات من احد الجبال » كان في الحقيقة هوراس جليني . مات ستيوارت بعد ذلك بخمس سنوات ، في سن الرابعة والاربعين ، مليئا بالمرارة ، يمور صدره بالكراهية ، مقتنعا بأن اعداءه قد تأمروا لكي يحطموه .

كانت هذه هي القصة التي سردها على انجيلا جليني . وكان من الممكن ان تثيرني اكثر مما فعلت بالفعل . او انسي كنت اقل تعبا . في كل مرة ذكرت فيها اسم هوراس جليني ، كنت انظر الى آلستير جليني ، واتعجب ان كان حقا يشبه جده كل هذا الشبه الذي خيل الي . فاذا تحققت من ذلك ، لحصلت على برهان يثبت انني كنت على اتصال نفسي (او روحي) بأيزموند . وحينما انتهت من حكايتها ، سألت ان كانت هناك صورة لهوراس جليني في جلوسبي .

« اوه ، اجل » .

« كيف يبدو ؟ »

نظر احدهما الى الآخر وضحكا . قالت انجيلا :

« انه يشبه آلستير الى حد مذهل . وهذا هو السبب الذي يجعله مهتما به الى هذه الدرجة ! »

وبذلك لم يكن هناك اي احتمال للشك . وبدلا من ان احس بالاستشارة لهذا الكشف ، شعرت بالانقياض .

التقطت كتاب « خطابات من احد الجبال » وقلت :

« ما موضوع هذا الكتاب ؟ »

« اوه ، انه عمل معقد متشابك . يظن دكتور سميللي انه متأثر بكتاب « المواطن العالمي » الذي كتبه جولد سميث . انه في الحقيقة قريب الشبه بالروايات القوطية - اقرب شبيها برواية « قلعة اوترانتو » التي كتبها والبول . انه كتاب مدهش حقا بالنسبة لعصره - حينما تضع في اعتبارك ان مسز رادكليف وماتيورين لم يكونا قد شرعا في الكتابة بعد . »

« ايمكنك ان تسردني علي ملخصا لحبكة الكتاب ؟ »

« القصة تدور حول صديقين اسم الاول كونراد والآخر رودولفو . انهما يشبهان داود وجوناфан في الكتاب المقدس . حينما يقعان في حب نفس الفتاة ، يحاول كل منهما اقناعها بأن تقبل الآخر . يذهبان الى الجامعة معا ويقسمان على الصداقة الابدية واخوة الدم - انت تعرف مثل هذه المشاعر . وذات يوم ، بينما كان رودولفو واقفا في احدى المكتبات ، يقترب منه مراكشي غامض يدعى عبدالله صباح ، يعرض عليه ان يقرأ له طالع . يقول له ان من المقدر له ان يكون واحدا من

حكام العالم ، ثم يدعو للذهاب الى بيته . ويذهب رودلفو - رغم تحذيرات كونراد - فيقع في حب فتاة تدعى نوري - من المفترض انها ابنة عبدالله صباح ... »
عند هذا ، قاطعها آلستير قائلا : « من المؤكد انه لا يريد ان يسمع كل كلمة جاءت في هذا الكتاب . »

اكدت له انني اريد هذا . استمرت انجيلا في سردها بشرك المراكشي رودلفو في احتفالات طقوس سحرية تتضمن كرة من البلور ، يقفان في اثنائها فوق قمة برج مرتفع تحت ضوء القمر المكتمل وينظر رودلفو الى الكرة البلورية . يرى فيها شعبانا ضخما ينظر اليه بعينيه الصفراوين ، ثم يبدو انه ينقض عليه . وتنقل نوري رودلفو من السقوط من فوق البرج ، ومن ثم تصبح عشيقتة وتعهده بأنها ستتزوجها اذا وافقت اسرته على ذلك . وتتعرف له بأن عبدالله ليس والدها ، وان العملية كلها مؤامرة الهدف منها ضم رودلفو الى جمعية سرية فرعية تخطط لتدمير اوروبا .

وفي اليوم التالي يكتشف ان نوري و « اباها » قد رحلا . يمتلكه اليأس ويبحث عنهما في كل مكان . وذات يوم ، وفي كنيسة قديمة يرى تمثالا لشعبان ضخم مصبوب من البرونز فيشتره بعدد قليل من الكرونات . ثم يكتب كتابا في ادب الرحلات ، يصف فيه الاماكن التي زارها في اثناء بحثه عن نوري ، ويطبع على الغلاف صورة الشعبان . وبعد بضعة اسابيع يتلقى رودلفو مظلوما مقلقا يحتوي على رسم للشعبان ، وامر بأن يحرق كل نسخ كتابه . وينفذ رودلفو الامر بأن يشعل النار في مخزن ناشره في لندن ، ويموت عدد من الناس في الحريق ، الذي انتشر حتى اشتعل في المنازل المجاورة . وحينما يتم ذلك ، يتصل به المراكشي مرة اخرى ، فيصبح في مقدوره ان يرى حبيبته وسيدة احلامه . وبذلك يصبح عضوا كامل العضوية في الجمعية الشريرة المعروفة باسم « امر الشعبان » . ويشعر اعضاء الجمعية بأن لنوري تأثيرا سيئا او بالاحرى طيبا - عليه ، فيأمرونها بالابتعاد عنه . ولكنها ترفض فيقتلونها . ولما كان رودلفو قد اصبح خاضعا تماما لاوامر الشعبان فانه يقبل بدلا منها عتيقة جديدة تدعى فاتيما ، وهي الاخرى ساحرة ...

قد يكون من الممل ان نلخص بقية القصة المضطربة والميلودرامية . ولا يمكن ان يكون ثمة شك في انها تدين بالكثير لرواية « قلعة اوترانتو » وانها بدورها قد اثرت في كتابات مسز رادكليف وماتيورين . ان رودلفو يقع فريسة الاغراء بالقيام باعمال اكثر شرا باستمرار ، على الرغم من محاولات كونراد لانتقاذ حياته . واخيرا يؤمر بأن يقتل كونراد ، ولكن هذا كان اكثر مما يحتمل . ان الرابطة التي تربطهما والتي تشبه علاقة داود بجوناثان قوية قوة بالغة رغم تعاقب السنين . وفي اللحظة الاخيرة يرمي رودلفو بالخنجر ويتعاق هو وكونراد . ويتملك اليأس رودلفو بسبب افعاله الشريرة ، فيقرر ان الذهاب الى جبل آشوس لكي يطلب المغفرة . وفي المرحلة الاخيرة من رحلتها ، يستيقظ رودلفو في الليل على صوت نوري الميتة ، ويستيقظ لكي يتبع الصوت ، ولكنه يسقط من فوق قمة الصخرة . وحينما يعثر

على جثته ، يكون الوجه قد تشوه تشوهات فظيمة حتى ان رهيان جبل آتوس يرفضون دفنه في ارضهم المقدسة ، معلنين انه من الواضح ان هذه جثة شيطان . ويقوم كونراد بنفسه بدفنها في وسط منطقة جرداء ، ثم يذهب الى جبل آتوس ، حيث يكتب قصته على شكل خطابات الى القسيس الكاهن اندي يتلقى اعترافاته . بينما كانت انجيلا جليني تلخص حبكة الرواية ، اختفى ما كنت اشعر به من التعب . عرفت في تلك اللحظة ان بحثي عن دونللي قد دخل مرحلة حرجة . ان اكثر اجزاء لغز الخطوط المتشابكة اهمية قد كشف عن مكانه الصحيح . كنت اعرف ان ايزموند كان قد تلقى - في الحقيقة - رسم العنقاء بعد طبع كتابه « ملاحظات » عام ١٧٧١ بوقت قصير . وكنت اعرف ان الطبعة كلها كانت قد دمرت في حريق اتى على مخزن الناشر في لندن . والآن كان من المستحيل ان اشك في ان ايزموند قد تلقى رسالة اتصال من جانب جماعة العنقاء في عام ١٧٧١ . ولكن في نفس الوقت ، لا يمكن النظر الى بقية القصة بعجدية ، فان ايزموند لم يشترك في اية خطط شريرة بعد ذلك التاريخ . وظل هو وجليني على صلة ودية وثيقة بعد ذلك طوال سنوات ، والمقالة المنشورة في مجلة « سكوتس مجازين » في عام ١٧٧٤ : قد كشفت عن انه كان ما يزال قارئاً مخلصاً لكتب الصلوات . ولم يحدث ان كتب جليني رواية « خطابات من احد الجبال » الا بعد ذلك بعشر سنوات .

انني مدين بهذا المفتاح الرئيسي لكل من آلستير وانجيلا جليني . وبذلك ، فقد كان من الواضح انني ادين لهما بحكاية القصة الكاملة لبحوثي الخاصة . وهكذا ، فحينما سالتني انجيلا : « والآن ، ما الذي اكتشفته عن ايزموند دونللي ؟ » اقترحت ان تشرب كأساً من انيسكي ، ثم سردت عليهما القصة الكاملة ، بالصورة التي كتبتها بها هنا . استغرقت عملية السرد ثلاث ساعات ، وانتهيت منها في مطعم في نوتينج هيل ونحن نتناول طعام العشاء . كنت احمل معي مذكرات ايزموند ، بالإضافة الى خطابات جليني ، كنت سعيداً بهما لانه كانت هناك اوقات لاح لي الامر كله سخيلاً لدرجة انه كان من بواعث الراحة ان اقنع نفسي بأنه لم يكن حلماً متشابك الاطراف انتابني وانا غارق في النوم . اصفت انجيلا دون ان تقول الكثير ، ولم تصرف عينيها عن وجهي طول الوقت . وظل آلستير يردد : « يا الهي » وهو يتمشى في الغرفة جيئةً وذهاباً . وبينما كنا نسير متجهين الى المطعم ، قال : « هل تعرف ان هذا هو اكبر اكتشاف ادبي منذ اكتشاف اوراق البحر الميت ؟ » ، وكان فكاهياً ان شرعت انا وانجيلا على الفور في الضحك .

ولكنهما لم يثارا حقاً الا حينما اخبرتهما بأن ايزموند كان قد اعيد اليه هوراس جليني منفذاً لوصيته الادبية ومتصرفاً في تراثه الادبي . كانا ياملان في العثور على بعض ما تركه جليني من مواد في جلوسيبي ، فاصبح من الممكن الآن ان يعثر ايضاً على بعض من اوراق ايزموند هناك . وأشارت انجيلا الى انه من الممكن ان يعتبر آلستير منفذاً لوصية ايزموند الادبية ومتصرفاً في تراثه الادبي طالما انه حفيد مباشر لهوراس جليني الابن ، ولم يكن هناك من بقي على قيد الحياة من اسرة آيستون . وهذا يعني انه اذا نشر المزيد من اوراق ايزموند فان آلستير وانجيلا

يمكن ان يشتركا في الارباح . وكنت انا قد حصلت بالفعل على اكثر مما يكفي لطبعتي الخاصة من كتاب « مذكرات افاق ايرلندي » .
جلسنا حتى الثانية من صباح اليوم التالي نبادل الحديث عن ايزوموند وهوراس جليني . وكان ندمهما الرئيسي بالطبع صادرا من ان احدا منهما لم يهتم بحياة جليني قبل بيع قصر جلوسبي . وتذكرت انجيلا ان زوجها كان قد اطلعها على حجرة في قصر جلوسبي حيث وقعت في الماضي جريمة قتل - اذ عثر على رجل ميتا في ظروف غامضة . وظن المستير انه يتذكر شيئا من هذا النوع هو الآخر . ولكنها حين وصفت الحجرة ، لم تكن هي التي تذكرها المستير باعتبارها « حجرة القتل » .

نمت ليلتي على اريكة في حجرة الجلوس ، كانت انجيلا تحتل السرير الموجود في حجرة الضيوف . وكان المستير يريد ان يرحل الى اسكتلندا في صباح اليوم التالي ، ولكن انجيلا قالت انه ما يزال عليها ان تقوم ببعض البحوث في مكتبة المتحف . وقررت انا انه من المناسب لي ان اذهب معها . قضيت الصباح هناك، وعثرت على نسخة من نشرة « مارتل وسميثسون » التي كتبها عن جماعة العنقاء . شعر تيم موريسون بالحرج حينما اشرت له اليها ، وقال انه لم يلتفت اليها في بحثه لان عنوانها كان « جمعية العنقاء » . ولكي اقارن بينها وبين النسخة التي رايتها معه من قبل، طلبت منه ان يصورها لي لكي احمل الصورة معي .

تناولت انا وانجيلا طعام الغداء في مطعم يوناني بالقرب من سيرك كامبريدج . قلت لها فجأة انه كان عطفيا من جانبهم ان يثقوا بي على هذا النحو . فنحن ، على اي حال ، متنافسون من الناحية التكنيكية . فقد كان من المحتمل ان يقوما - عاجلا او آجلا - والاكثر احتمالا ان يكون ذلك عاجلا - بالبحث عن اوراق جليني في قصر جلوسبي ، وان الاكتشاف في تلك الحالة - اذا افترضنا انهما حققا اي نوع من الاكتشافات - كان سيعزى اليهما بشكل كامل . قالت :
« كلا . انني سعيدة بانضمامك الينا . اننا نثق بك . »
قلت لها شكرا لك ، قالت :

« في الحقيقة ، انني مبتهجة لمجيئك . اتعرف ان المستير كان يعبد اخاه جوردون . وكان المستير هو الذي اقنعني بالزواج من جوردون في الحقيقة . كان مصرا على التحدث عن فضائله والاسراف في ابرازها لكي يقتني بان التقى به . وينبغي ان تعرف انني كنت صديقة المستير في البداية . »
« ألم يجرحه زواجك من جوردون ؟ »

« اوه ، كلا . لقد ابتهج بذلك . اتفهم ذلك ؟ هذا الزواج قربه من جوردون اكثر - كان معنى هذا انه قد منح لجوردون شيئا ذا اهمية حقيقية . على اي حال ، انما اردت ان اقول لك في البداية انني اظن انه مال الى ان ينظر اليك بنفس الطريقة التي كان ينظر بها الى جوردون . »

« ولكنه لم يعرفني الا منذ اربع وعشرين ساعة . »
« لا يؤدي هذا الى اي فرق . والشيء الغريب هو انك على شيء من التشابه

مع جورردون ، من الناحية الجسدية . »

توقفت عن الكلام ، وظننت ان وجهها علاه شيء من الاحمرار . شربت جرعة كبيرة من الجعة المعتقة لكي تغطي احمرار وجهها . ادركت ما كانت تفكر فيه : وهو انه اذا كان آلتير قد اهداها الى جورردون ، فاني يجب ان اعتبر صاحب المكان التالي من بعده . غيرنا الموضوع وتحديثنا عن دوللي . وحينذاك تذكرت شيئا كنت قد نسيت ذكره من قبل : الخطاب الذي جاءني من كلاوس دنكمان . كنت احمل عنوانه ورقم تليفونه في كراسة العناوين التي احملها . قالت :

« لماذا لا تتصل به ؟ قد يكون على شيء من الاهمية ؟ »

« اعتقد انه يجب علي ذلك . »

ذهبت الى تليفون المطعم . اجابني امرأة ذات لكنة اجنبية ، ولاح على صوتها شيء من العداء حتى ذكرت لها اسمي ، فاصبحت ودية للغاية ، وقدمت نفسها باسم اناليزا دنكمان ، وشرعت تتحدث باسهاب عن كتي . واخيرا جاء زوجها لكي يكلمني بالتليفون ؟ سألني ان كان بوسعي ان اذهب اليهما لتناول طعام الغداء . قلت انني ساذهب اليهما في ذلك الموعد ، ولكنني سألت ان كان بوسعي ان اذهب في وقت متأخر من عصر اليوم ، فاتفقنا على موعد في الساعة الرابعة .

لم اكن سعيدا سعادة كاملة بهذا التطور ، وبدا لي انه ان يؤدي الا اني طريق مسدود . ولكن انجيلا قالت : « جيد جدا ، انه يبدو على شيء من الاهمية . ايزعجك ان آتي معك ؟ » .

امضيينا ساعة اخرى في المتحف ، ولما كان عصر اليوم دافنا ومشمسا فقد قررنا ان نتمشى حتى هامبستيد . سرنا عبر حدائق بلو مزبري على طول كامدن تاون ، ثم اخذنا سيارة عامة الى بلزي بارك . كان عنوان اسرة دنكمان في كيتس جروف .

فتح الباب فظهر وراءه رجل طويل نحيل يرتدي نظارة سمكة جدا جعلت عينيه تبدوان بعيدتين وغريبتين ، مثل اخطبوط ينظر من وراء حوض زجاجي كبير . بدت عليه دهشة ضئيلة حينما رأى انجيلا ، ولكنه دعانا للدخول بطريقة مهذبة . تبعناه عبر دهليز طويل حتى قاعة عمل (استديو) تسطع بنور الشمس . كانت الارضية مغطاة بتراب الاحجار المنحوتة ، وكانت هناك تماثيل هائلة الحجم لنساء امازونيات ذوات اثناء واردا ف هائلة . تقدمت الينا لتحييتنا امرأة ضخمة الحجم ومادية الشعر بعد ان وضعت على المائدة مطرقها وازميلها . صافحتني بحماسة بقبضة مثل قبضة مصارع ، واومات في لا مبالاة ميكانيكية الى انجيلا . كانت اقل طولا من زوجها ، ولكنها في بنية مصارع حقيقي ، وبدا ان ذراعيها المكشوفتين تحت الكمين المشمرين الى ما فوق المرفقين - قادرتان على الاطاحة بأي واحد منا بضربة واحدة . كانت لكتنها الالمانية اوضح من لكنة زوجها ، ولكنني لن احاول ابرازها هنا ، وأن احاول ابراز تكوينات جملها القريبة . وضعت يدا على كتفي وقالت :

« حسنا ، لقد كنت انتظر نافذة الصبر تماما . فمنذ ان قرأت كتابك

« اليوميات الجنسية » اردت ان اقابلك . تعال معي الى حجرتي الصغيرة الخاصة . » ثم التفتت الى انجيلا وابتسمت وقالت : « اسمحين ؟ اريد ان اتحدث اليه على انفراد . كلاوس سيفرجك على الحديقة . »

كانت دهشة انجيلا اقوى من ان تسمح لها بالاعتراض . اما السيدة دنكان فقد جذبت ذراعي بقبضة من حديد ، ودفعني لكي اصعد بضع درجات . التقت فيناي بعيني انجيلا للحظة ، فرفعت حاجبيها وعضت على شفتها السفلى .

قادتني اتا - اسمها الاول اندي اصرت علي ان ادعوها به على الفور - الى غرفة صغيرة مريحة كانت تفوح منها رائحة التبغ . في انصوان الجانبي المفتوح ، كانت هناك ثلاث زجاجات سعة كل منها « جالون » تحتوي بالتتالي على مشروبات الجين والويسكي والبراندي . عرضت علي ان آخذ كأسا ، ولكنني قلت ان الوقت مبكر جدا على الشرب . صبت لنفسها كأسا ضخمة من الجين ، ثم ملأته حتى الحافة بعصير الليمون الحامض ، ثم اشعلت سيجارة وضعتها في « مبسم » للتدخين لا يقل طوله عن قدم ، والقت نفسها على مقعد مريح في مسندين وقد صالبت ساقيها . وفي نفس الوقت ، شعرت بالقلق وعدم الراحة لقدرتي على رؤيتها تفعل الكثير من الاشياء ، ورؤية جزء كبير من جسدها في مثل هذه اللحظة الخاطفة والنظرة القصيرة ، ذلك ان الازار القصير المصنوع من صوف التويد لم يكن يبلغ الطرف العلوي اجوربها الطويل الا بصعوبة وهي واقفة . اشارت الي نكي اجلس على المقعد المقابل لها الذي لم يترك لي فرصة سوى النظر اليها وتأملها .

« اجل ، انك تتمتع بقدرة على انفاذ اكثر جدا مما يسمح به اشباب صغير . كم عمرك ؟ حقا ؟ انك تبدو اصفر بكثير . حينما قرأت كتابك قلت لكلاوس ! « آه ، لشد ما آسف لانه لا يعيش في لندن . هناك الكثير الذي نستطيع ان نعلمه اياه . » وها انه الان هنا لمدة يوم واحد ! ياله من امر شنيع ! ماذا يمكنك ان تفعله في يوم واحد . »

قالت لي ان كل كتبي تشهد على انني املاك قدرا كبيرا من الذكاء ، والحدس العظيم ، ولكن التجربة هي ما ينقصني . « يجب الا تشعر بالفضب اذا قلت انك انك غير ناضج من جوانب كثيرة . » قلت انني لست غاضبا . حينئذ ، ودون ان تكلف نفسها مشقة تفسير تحول مجرى الحديث ، بدأت تتحدث عن مؤهلاتها الخاصة التي تسمح لها بتعليم الشباب . كان المفروض ان اصبح مدرسة مثل امي . ولكنني لا املك صبرا مع الاعداد الكبيرة من الطلبة . ان ما ارغب فيه هو اثنان او ثلاثة من التلاميذ النجباء . انني خلاقة مبدعة ، اتفهم ؟ لا بد ليدي من تشكيل الحجر والطين ، ولا بد لعقلي من تشكيل الارواح . »

حدقت في عيني بطريقة نفاذة وقالت : « والان اريد ان اسالك سؤال صريحا . حينما تمارس الجنس مع امرأة ما ، هل تستطيع ان تسيطر على ذروة نشوتك فلا تبلفها الا بد ان تعطيها كل ما تحتاج اليه من متعة ؟ »

فكرت في ديانا ، ثم قلت انني اظن انني افعل هذا .

« كلا ، كلا . ليس هذا ما اردت سماعه . انما اردت اجابة مخصصة صريحة .
يجب ان تفكر في اعتباري طبية - كما او كنت طبيبتك النفسية ... »

اخذت جرعة طويلة من الجين ، ومدت يدها لتأخذ سيجارة جديدة ، وفكت
تصالب ساقها . كان من الصعب ان احتفظ بعيني مركبتين على وجهها . صرفت
نظرها عني للحظة ، ثم رمقتني بنظرة سريعة ، وكان من الواضح انها تأمل ان
« تضبطني » وانا افحص جسدها . ثم ألقت براسها الى الوراء فأسندته على
وسادة المقعد ، واصبح وجهها مصوبا الى السقف ، واغمضت عينيها . تساءلت ان
كان في هذا الوضع نوع من الاختبار . كانت ترتدي سروالا داخليا ربما كان
مصنوعا من السيلوفان القرمزي ، وكانت تواجهني بقدميها اللتين رفعتهما على
وسادة جلدية على الارض ، وقد انفرج ما بين ركبتيها ... كانت مؤخرتها وساقها
جميلة . ولكن الذراعين القويتين والكتفين العريضتين والشعر الرمادي ، جعلتها
تبدو كما لو كانت وحشا اسطوريا ، نصفه الاعلى من جنس يختلف عن نصفه
السفلي . نظرت عامدا الى ناحية المدفأة الخالية ، وركزت نظري هناك . كانت
تقول :

« احس انك شخص بالغ الخجل يحاول ان يخفي تلك الحقيقة . في هذا
انت تشبه كلاوس الى حد ما . ان كلاوس هو ابني ، بالطبع ..
« ابنك ؟ » صدمتني الدهشة لسماحي ذلك .

« ليس حرفيا . اعني ان علاقتنا هي علاقة ام بابنها . انني اطرف الخلاق
في العلاقة . الارض الام . مثل « اردا » عند فاجنر . علاقتنا قوية جدا . انني
مدرسته . لو انك سألته لقال لك انه قد اصبح شخصا مختلفا منذ ان عرفني ،
اكثر عمقا واكثر حساسية . انني املك تلك القدرة على نقل مواهبي الى اولئك
الذين احبهم . وحينما اقول « الحب » اعني بالطبع حب المدرسة للتلميذ ، لانه
ليس هناك ما هو اعمق من هذا الحب ... »

كنت القى عليها نظرة سريعة من حين الى حين ، لكي اكتشف انها قد غرقت
في مقعدها اكثر ، حتى انها كانت تجلس في وضع الجماع على الظهر . ولكنها
ظلت تتحدث دون علامة تدل على الحرج . كما او كانت تفف في مواجهة صف من
التلاميذ تناقش رسما توضيحيا على السبورة . لاح لي ان ما كانت تسأل عنه -
بطريقة معقدة وملتوية - هو ما اذا كنت اود ان انضم الى كلاوس كواحد من
تلاميذها ، لكي امتص بركات معرفتها وموهبتها الاخلاقية . كانت تشرح لي الفرق
بين ذهن الانثى وذهن الذكر وذكائهما ، حينما سمعنا طريقة رقيقة على الباب .
تجاهلتها واستمرت في الكلام . توقعت منها ان تضم ساقها ، او ان تعتدل قليلا
في جلستها على الاقل ، ولكنها ظلت في وضعها دون حركة على الإطلاق . اطل
كلاوس من الباب لينظر الى الداخل .

« هل ستأتين الى الطابق الاسفل يا شانز ؟ »
« بعد لحظة . »

كان منظر ساقها المنفرجتين من المكان الذي نظرت هو منه اقل قربا الى مكاني - فقد كان بوسعي ان انحنى الى الامام فادس اصبعي - ولكنه كان يستطيع ان يستوعب هذا المنظر كاملا . لم تلح عليه الدهشة . قال :

« ربما ارادت السيدة الشابة ان تتناول كأسا هي الاخرى . وهذه الحجرة صغيرة جدا . حينئذ سمعت خطوات « السيدة الشابة » وهي تصعد الدرجات . كان عليّ ان اعجب بتوقيتها المناسب . للحظة ، ظننت انها كانت تعني ان تظل راقدة في وضعها لكي تسمح لانجيلا بالانضمام الى المتفرجين ، ولكن قبل وصول الخطوات الى الباب بثوان قليلة ، تشاءت ، وضمت ساقها واعتدلت جالسة وقالت :

« اذن ، فلنذهب » .

واتجهت الى الباب ، وناولت كلاوس ضربة مداعية ولكنها قاسية على مؤخرته ، ثم اشارت اليّ وهبطنا الى الطابق الاسفل في « طابور » واحد . حينما وقعت عينها على انجيلا ، قطبت تقطيبة خفيفة ، كما لو كانت تجد صعوبة في تذكر من تكون ، ثم لاح عليها تعبير من استطاع اخيرا ان يتذكر وهو يقول لنفسه « يا للتعجب ! »

ذهبنا الى حجرة اكبر واوسع . اثاثها اكثر طبيعية . قبلت كأسا صغيرة من الشيري ، وكذلك فعلت انجيلا . ولدهشتي ، أصبحت السيدة دنكلمان الان ودية جدا مع انجيلا . وربما كان ذلك لان انجيلا قالت انها لم تقابلني الا بالامس فقط . سألتها كم من كتبتي قرأت ؟ وحينما اكتشفت ان الاجابة كانت « لا اكاد اكون قرأت له شيئا على الاطلاق . » اشارت اليها بسبابتها اليمنى وهي تقول : « عليك ان تبداي قراءتها على الفور » . وبذلك كانت انجيلا قد لقيت القبول في انقطاع بوصفها تلميذة ، وسمعت محاضرة عن القدرة على الابداع والخلق . جلس كلاوس في احد الاركان ، وهو يرشف ماء الصودا (« ليس من المسموح له ان يشرب . فالشرب يجعله مسرف العاطفية ») ودون ان يبذل اية محاولة للتدخل في الحديث . وحينما توقفت انا عن الكلام لكي تاخذ كأسا اخرى ، دأبت منه ان يقص عليّ شيئا عن كورنر . قال بسرعة :

« انني لانصحك بان تهتم به او تنزعج بشأنه . انه « شارلتان » مهرج حتى النخاع » .

قالت زوجته : « ليس هذا انقول عادلا تماما . انني اوافق على انه قد اصبح مهرجا . ولكنه لم يكن كذلك دائما » . ثم وجهت كلامها اليّ : « هل تعرف شيئا عن راينخ ؟ »
« ليس الكثير » .

« كان عالما سيكولوجيا عظيما - في مثل عظمة فرويد . وقد آمن بان الطريق الوحيد الفردي الى خلق مجتمع صحي هو الحصول على اناس لا يعانون من اي كيت جنسي » .

« هذا يماثل ما قال به فرويد » .

« بالتأكيد . ان افكازي الانسانية تشبه تلك التي قال بها فرويد الى حد كبير ، وكانت مساهمته العلمية العظيمة في مجال معالجة الامراض العصابية . لقد آمن بان انواع الكبت تشكل نوعا من الصدفة او المصادفة الصلبة فوق الشخصية ، مثل السلحفاة ، اتعرفها؟ »

لوت وجهها التواءة شنيعة ورسمت بيديها حركة تشير الى الذراع التي تحملها السلحفاة . اشارت الى زوجها وقالت :

« حينما التقيت به اول مرة كان وجهه يشبه القناع - كانت كل عضلاته متوترة مشدودة . كان من الضروري ان اعلمه كيف يسترخي استرخاء كاملا وان يحب امضاءه التناسلية » .

جفلت انجيلا لسماعها التعبير الغريب . سألها بحذر :

« بأي شكل ؟ »

« بأي شكل ؟ »

« ان يكون صريحا وواضحا في كل ما يتعلق بوظائفه الجنسية . كان من عادتنا في ستوكهولم ان نقعد اجتماعات للعلاج النفسي الجماعي . كان علينا ان نجلس دون اي بنطالات او ثياب ، وندير مناقشة فيما بيننا ، ونشرب القهوة ، ويشجع الرجال على ان يلعبوا باعضائهم التناسلية . تماما مثل الاطفال . كان هذا رائعا » .

قال كلاوس بوقار :

« تعودت ان تأتي فتجلس الى جوارى ، ثم تجلد لي عميرة بينما نحن نناقش مشاكلنا . كان في هذا تخفيف عظيم لكل التوترات . ان اتعلم الا اخجل من اللعب بالاعضاء التناسلية . حينما كنت صغيرا ، كان من عادة مربتي ان تضربني اذا لمست عضوي . وقد علمني راينخ ان العضو التناسلي ليس سوى اداة للتواصل الاجتماعي ، تماما مثل اللسان او اليد » .

نفذ صبرانا لكل هذه المقاطعة ، فضربت ذراع المقعد بقبضتها وقالت :

« أو فهم الناس نظريات راينخ فهما صحيحا ، لكائنات الحرب الاخيرة مستحيلة . لقد استخدم هتلر الكبت الجنسي كسلاح سياسي . ان الالمان هم اكثر الامم كبتا في العالم . وهذا هو السبب في عدوانيتهم الشديدة » .

سألتها : « وماذا من امر كورنر ؟ الى اين وصل ؟ »

« انه هو الذي نظم جماعات العلاج النفسي في ستوكهولم . انه هو مبتكر فكرة الكبت الجنسي الجماعي وليس راينخ . كان راينخ ما يزال تلميذا نجيبا صغيرا . انت تعرف هذا النوع ، وفي ذلك الوقت كان ما يزال مصرا على تلك الافكار المجنونة حول الطاقة الاصلية العضوية ، قائلا انها زرقاء اللون - وقال ان الطاقة العضوية الاصلية هي التي تجعل السماء زرقاء » .

قال كلاوس بكآبة :

« في هذا الوقت ، آمنا بان كورنر وحده هو الذي يحفظ التعاليم الحقبة في نقائها الاصلي . ولذلك فانه حينما جاء الى لندن ، جئنا معه » .

« وهل مضيتم في عقد اجتماعاتكم للتعبير الجنسي الذاتي؟ »

« آخ ، اجل . اكثر من ذي قبل . وكانت هذه هي المشكلة . كان راينخ قد حذرنا من اننا اذا لم ننتبه بما فيه الكفاية ، فان هذه الاجتماعات لن نفل ذات قيمة علاجية ، فتنحول الى احتفالات جنسية صاخبة . ولكن كورنر لم يلق اذنا صاغية لهذا التحذير . كانت تسيطر عليه فكرة معينة مؤداها ان يظهر الدافع الجنسي وكان هذا هو تعبيره عن فكرته . قال ان الجنس يجب ان يتخلص من كل خجل . وعلى اي حال ، فان اكثر الحساسين من الناس مصابون بالخجل الاجتماعي . فاذا كان عليهم ان يقفوا على منصة مرتفعة وان يخطبوا في جمهور محتشد ، يصابون بما يسمى « خوف من المنصة » . ولكنهم يستطيعون التغلب على هذا الخوف ، وحينما يتقبلون عليه يعبرون عن انفسهم بحرية ، دون خوف . لقد اراد كورنر ان يتغلب الناس على خوفهم الجنسي من المنصة » .

كان قائل هذا الكلام هو كلاوس . كانت انجليزته اكثرطلاقة بكثير من انجليزية زوجته . كانت انجيلا تقطب حاجبيها . قالت :

« ولكن الا تكون من نتيجة الحرية الجنسية الاكثر جدا من اللازم ان تدمر كل ما فيه من متعة ؟ »

« كلا ! » كذلك صاحا في لحظة واحدة . اسكتت انا زوجها بنظرة صارمة ، ثم استمرت تقول في تصميم :

« بالعكس ، ان الخجل الشديد يستبد بالناس من ان يتعلموا كيف يستمتعون بالجنس . لماذا تظن ان هناك الكثير جدا من حوادث الاغتصاب وجرائم القتل الجنسية ؟ لان هناك جدرانا سمكة بين الجنسين . يركب رجل سيارة عامة ، وتكون هناك فتاة جميلة ، فيصبح مثل الثعلب مع الدجاجة . انه لا يفتصبها لانه ليست هناك فرصة لذلك ، وربما كان خائفا من القانون . هذه ليست علاقة طبيعية بين الجنسين . المجتمع كله جائع جنسيا . في مجتمع صحي ، يستطيع ان يجلس الى جوارها ، وان يقنعهما بان تجلد له عميرة ، دون ان يولي اي انسان الامر اية اهتمام . لم لا؟ انت - انطلق اصبعها فجأة نحو انجيلا ، التي كانت تجلس منحنية الى الامام ، وقد وضعت معصمها على ركبتيها . - لماذا تجلسين في هذا الوضع ؟ لانك تظنين انه وضع طبيعي . ولكنه ليس كذلك . انك ترتدين « جونلة » قصيرة لانك تظنين انها جذابة . لماذا لا تفتحين ركبتيك في جسارة؟ »

ابتسمت انجيلا - وقد تراجعت قليلا الى الخلف - وحاولت ان تحول الامر الى نكتة ، وقالت :

« اذا فعلت هذا فاني قد اغتصب » .

« كلا ! ليس هذا منطقيا ! لماذا ترتدي النساء « جونلات » قصيرة؟ لكي يثرن اهتمام الرجال . انك تلعبين مباراة مع نفسك لكي تنظري الى اي حديممكنك

ان ترفعي « جونتلك » الى اعلى . الا ترين ما يعنيه هذا ؟ انك تريدن استعراض
اعضاءك التناسلية . ولكنك خائفة . انك تريدن ان تجعلي الرجال يحدقون فيك ،
ولكنك خائفة من الاغتصاب . اليس هذا دليلا على ان ثمة خطافي مكان ما ؟
بشكل تلقائي امسكت انجيلا بطرف « جونتلك » وجذبتة الى اسفل . اكملت
الاخرى تقول :

« اترين ؟ لماذا ترتدينها اذا كنت تريدن ان تنزليها الى اسفل ؟ لماذا لا تجلسين
هكذا ؟ »

انحنت في مقعدها الى الوراء وفتحت ركبتيها ، حتى استطاعت انجيلا ان
تري نفس المنظر الذي كنت قد رايتة في الحجرة الصغيرة الخاصة بالطابق
العلوي . غضت انجيلا من بصرها ، دون ان تضم اثنا ساقيها ثانية ، مضت
تقول :

« كلا ! ان علينا ان نمي وجود مجتمع دون مخاوف جنسية ودون رغبات
محبطة مكبوتة . اذا اراد الشاب الذي يركب السيارة العامة معك ان يعرف ان
كنت ترتدين سروالا او مشدا ، فانه يجب ان يسمح له بالقاء نظرة ليتأكد !
تدخلت لكي الفت الانظار عن انجيلا :
« لماذا تقولين ان كورنر اصبح مهرجا ؟ »

« لانه بنظرية مثل تلك ، يمكنك ان تجذب كل الناس غير المناسبين الذين
تدفعهم كل الاسباب غير المناسبة . هذا هو ما فعله . انه يقول بان غرضه هو ان
يعلم الناس الوصول الى النشوة الصوفية عن طريق الجنس . ولكن كل ما يفعله
هو تنظيم حفلات للفسق » .

كان من الصعب ايقاف هذا الفيضان من الكلام الذي استمر على هذه الصورة
لمدة نصف ساعة اخرى وبدا لي ما قالته في صورة فهم جيد الى حد ما لبعض
المشاكل النفسية . من الحق ان اكثر الناس يسيطر عليهم هاجس جنسي من
نوع ما بطريقة سلبية . ولكنني حينما فكرت في ديانا وفي موبسي ، وفي
مكتبي التي تحيط بها الكتب على الجدران من كل جانب ، طرأ لي ان هناك اشياء
كثيرة اكثر اهمية من الجنس . ليست الطريقة المثلى لمعالجة رجل يسيطر عليه
هاجس الجنس هو ان اقول له ان يجلد عميرة في السيارات العامة ، ولكن ان ادفعه
الى ان يتعلم كيفية الاستمتاع بالموسيقى والافكار والشعر . وحينما اقترحت ذلك
لاسرة دنكان ، وجهت بانفجار من الاحتقار العاصف .

« ليس هذا سوى ما دعاه فرويد بالاغلاء . انه رفض لمواجهة المشكلة
الحقيقية . انك تكبت مصدر المشكلة ، ثم تتظاهر بالاهتمام بشيء اخر . »

بدأت اشعر بنفاد الصبر . كانت الساعة - على اية حال - قد قاربت
السابعة - وكان لا بد ان يبدأ استير في التساؤل عن مكاننا . قلت ان علينا ان
نرحل . حاولا ان يقنعانا بالبقاء لتناول العشاء ، ولكننا انتحلنا بعض الاعداد . قالت
اثنا انها سوف تكتب الي خطابا طويلا ، وانني ربما اجد الفرصة لمساعدتها علي

انجيز تأليف كتابها حول الحرية الجنسية للجميع .
وحيثما وقفنا استعدادا للانصراف، سألت انجيلا :
« بالمناسبة ،هل تعرفان شيئا عن جماعة العنقاء ؟»
هزت اثنا كتفها وقالت :
« وما تلك ؟ جماعة متهوسة جديدة من الشبان ؟»
كان من الواضح ان الاسم لا يعني شيئا بالنسبة لها، فلم تلح انجيلا على
طرق الموضوع . وعند الباب ، قال دانكلهام :
« انك مفادر لندن اليوم، صحيح ؟»
« غدا . »

« آمل ان نلتقي حينما تأتي الى هنا في المرة القادمة » .
انحنى انحناء يابسة ، قلت :
« يجب ايضا ان اكتب الى اليروفور كورنر » .
قالت اثنا : « لن يكون في هذا فائدة . لقد امرته الشرطة بمغادرة انجلترا .
لقد عاد الى المانيا » .

« اوه . اني آسف لذلك . ولكن ، لماذا ؟»
قال كلاوس : « لم يكن اكثر من صاحب بيت دعارة محترف » .
في سيارة الاجرة ، وفي طريق العودة الى هولنديبارك ، قالت آنجيلا :
« من المؤكد انك تبدو كما لو كنت قد قابلت اناسا يبعثون على الدهشة . من
المؤسف حقا اننا لا نستطيع ان نقابل الدكتور كورنر » .
« ولكن من المحتمل جدا ان تكون هذه طريقا مسدودة . عليّ ان اعترف بأن
دانكلمان قال لي ان كورنر كان اول من ذكر ايزموند دونللي ، ولكنني افترض
ببساطة انه كان قد قرا كتابه « عن افتراء العذارى » .
تحدثنا عن اسرة دانكلمان . قالت انجيلا :
« لا اظن انك على صواب في النظر الى كلاوس باعتباره زوجا ضعيفا
تسيطر عليه زوجته . لقد اجتاحني احساس غريب جدا حينما نظر اليّ اول
مرة » .

« بأي شكل كان هذا الاحساس ؟ »
« احسست احساسا فكاهيا بانه كان يريدني ان افتح ساقي . لقد رايت
الوضع الذي كنت اجلس به - حتى زوجته لاحظت ذلك » .
« انني اظن - على اي حال - انها نصف شاذة جنسيا » .
« ما كنت لادهش من هذا . لم يسبق ايدا ان شعرت بمثل الشعور السيء
الذي اجتاحني وانا اتحدث معهما . هل لاحظت ذلك ؟»
« اي نوع من المشاعر السيئة ؟»

« حسنا - انهما « قبيحان » جدا ، وهما حقا منفردان جدا حينما يتحدثان
كل هذا الحديث عن الجنس . ومع هذا فقد كان لحدِيثهما - من جانب اخر -

سحر من نوع خاص » .

كنت اعرف ما تعنيه . فحتى ذهابنا الى اسرة دانكلمان، كنت قد نظرت الى انجيلا باعتبارها شخصية تبعث على السرور الى حد كبير ، ولكن دون مزيد من الاهتمام الجنسي الذي يزيد عن شعوري ازاءها لو كانت شقيقتي . اما الان وانا اجلس الى جوارها ، فقد وجدت نفسي انظر الى استدارة نهدها تحت الصدر الصوفي الاسود ، واشعر بان عليّ ان اكبت رغبتني في مداعبته . كانت اثنا دانكلمان قد دفعتني الى هذا الشعور بشكل ما ، بتوجيه الانتباه الى انجيلا باعتبارها موضوعا جنسيا .

قالت فجأة : « انا سعيدة لانك كنت هناك » ، وارتجفت وهي تتحرك لتصبح اقرب اليّ . كان من الطبيعي ان اضع ذراعي حول كتفيها . بعد لحظة ، ارتفع وجهها نحو وجهي ، وكنت اقبلها بانفعال عاطفي جفلت اثنا لقوته . كان الامر مثل التهام ملاء فم من الطعام ، ثم تكتشف بعد هذا انك جائع جوعا وحشيا ، تعاقنا بقوة متعلقين احدهما بالآخر ، ولساني داخل فمها ، ويدي تسحق النهد الذي كنت انظر اليه منذ لحظة واحدة . لم تكن هناك مجرد رغبة بسيطة في ملاطفة جسدها ، ولكن كانت الرغبة هي جرحها ، عصرها ، التهامها وامتصاصها . كانت متعلقة بي في استسلام كامل ، وحينما تركت يدي الى اسفل ، ضاغطة بقوة على ضلوعها ، ثم على معدتها، انفرج ساقاها (.) كنت في حالة حادة من التعب في جلستي ، بعد ان وصلت الى هذه النقطة ، كان الامر الطبيعي ان اخلع ما تبقى من ثيابها . . ولما كان ذلك مستحيلا ، فقد تحول جسدي الى قضيب حديدي من الشهوة .

انحرفت السيارة مرتين متتاليتين لكي تتفادى سيارة اخرى كانت تندفع ناحيتنا باضوائها الباهرة . انفصل احدها عن الاخر ثقلا بالاحساس بالاثم . قالت : « آسفة » .

« لماذا ؟ »

« كانت هذه غلطتي . لقد كنت اريدك ان تفعل هذا منذ غادرنا منزل دانكلمان » . كنا ما نزال متعائنين ، وكان قلبي ما يزال يضرب بعنف حتى كان من الصعب ان اتكلم . قالت :

« لم افعل هذا ابدا من قبل - ليس بهذا الشكل . لا اعرف ان كنت ستصدقني . ولكنني طهرية متزمتة تماما من الداخل » .

قلت ، بطريقة نصف تهكمية : « لقد نوتانا مفناطيسيا ! »

« نظرت الي بجدية وقالت : « اظن ان هذا يمكن ان يكون صحيحا . انسي واثقة من ان لهما قوة غريبة من نوع ما . سوف اقول لك شيئا يصدمك من الدهشة . لو انني هناك بمفردي ، لانتهيت الى ان امنح نفسي لهذا المنفر كلاوس » . قلت ضاحكا : « ولو انني ظلت وحيدا في تلك الحجرة الصغيرة لمدة عشر دقائق اخرى ، لانتهيت الى ممارسة الجنس مع اثنا »

« ولكنها منفرة الى حد مروع»!

اخبرتها بما كان من جلوسها وقد فتحت ساقها ، وكان صحيحا ما قلته من انني لو ظلت جالسا امامها بمفردي لمدة خمس دقائق اخرى ، لانهيت الى الامام لكي المسها (...) ومن المؤكد انه كان من البلاهة ان ارفض ذلك .

توقفت سيارة الاجرة خارج المنزل . قالت :

« من الافضل ان ارتب ثيابي » .

ادركت ما كانت تعنيه . فقد كنت اتوهم انا ايضا انني مهوش الشعر والثياب كما لو كنت قد نهضت من الفراش لتوي . دفعت الحساب لسائق السيارة بينما مرت بسرعة على شفاهها باصبع الاحمر وجرت بالمشط في شعرها على عجل .

فتحت انجيلا الباب بمفتاحها ، ودخلنا الى الشقة . كان كل شيء ما يزال على حاله كما تركناه في الصباح . نادى قائلة : « آالستير » ، ولكن لم تسمع اجبته . هزت راسها وقالت : « لا » وعرفت انها لم تكن تعلق على غياب آالستير ، وضعت يدي على صدرها . قالت : « ليس هناك وقت » . ولكني ادركت انها لم تكن جادة . كنت ما ازال ساخنا مفعما بوهج الشهوة الفرية العنف ، التي كادت تكون كالحمى . جذبت طرف الصدر الصوفي فنزعته من تحت وسط الازرار ودسست يدي تحت الصدر . كانت ترتدي حمالة صدر ، وبحركة جذب بسيطة هربت النهدين . اخذت الحلمة بن سبابتني وابهامي ودعكتها . اندفعت الى حضني وفتحت فمها مرة اخرى (...) وقادتني الى غرفة النوم ...

نادرا ما وجدت الجنس مدوخا كالدوران بهذا الشكل . واطن انه لو ظهر في تلك اللحظة حشد كامل من المصورين عند الباب بالآلات تصويرهم ذات الاضواء الخاطفة ، لظللنا على ممارستنا الجنس ، عاجزين عجزا مطلقا عن الفصل بين جسدينا . كان الاحساس الشبيه بالحمى ما يزال قائما مضفيا على الغرفة جوا غير واقعي . بدونا كما لو كنا قد غرقنا في مياه العرق والافرازات الرطبة ... خطر لي ان آالستير قد يدخل الان في اية لحظة ، ولكن كان هناك نوع من المتعة من التفكير بأن يراقبنا شخص ما . ثم اصبحت اللذة اكثر حدة من ان تكبح او تمنع من الوصول الى ذروتها ..

بعد عدة دقائق ، رقدنا جنبا الى جنب ، وبدا العرق يبرد . فتحت عيني ونظرت اليها ، وتبينت مصدوما ان انجيلا هي التي كانت بجاني ، الفتاة الاسكتلندية الرزينة المحتشمة التي بدت لي في صورة الفتاة « اللطيفة » ولكنها ليست من النوع الذي احبه . فتحت عينيها ، ولاح انها جفلت عندما رأتني . وفجأة ، تذكرنا معا ان نصف ملابسنا ملقاة على الارض في الحجرة الاخرى ، وان الباب كان مفتوحا . نهضت وذهبت الى الحجرة الخارجية لكي اجيء بالملابس . وحينما عدت كانت واقفة تشد سروالها الداخلي الى وسطها . ذهبت اليها وقبلتها . اعطتني فمها بطريقة آلية ، كما لو كانت تمنحني قبلة ما قبل النوم بشكل عادي كل يوم . ثم ، كما لو كانت تتأسف على ذلك ، وضعت

ذراءيهما حول عنقي . قالت :

« ما الذي حدث لنا ؟ »

ادركت ما كانت تعنيه . لم يكن ذلك جنسا « عاديا » ، الجنس الذي يمارسه شخصان قررا ان احدهما يروق للآخر واراد كل منهما ان يكتشف جسد صاحبه ويرتاده لنفسه . انما كان نوعا من النوبة العصبية ، كما لو كنا زوجا من الحيوانات . ولكنني كنت الان « مستر سورم » مرة اخرى ، وكانت هي قد عادت فاصبحت لادي انجيلا جليني ، وكنا شخصين راق كل منهما للآخر ، ولكن لسنا عاشقين ، بالطبع ، فيما عدا انه كان من المستحيل بالنسبة لنا الا نكون مدركين ان كلا منا قد افنى نفسه في جسد الآخر منذ قليل .

قالت فجأة : « يا الهي ، لقد نسيت . هذه اسوا فترة من الشهر . »
وضعت يدي برقة على معدتها ، قلت : « اذن فمن المحتمل ان يكون هناك سورم صغير هنا بالداخل . »

« هذا محتمل . »

« هل يزعجك هذا ؟ »

ضحكت فجأة .

« كلا . لا اظن ذلك . »

دق جرس التليفون . كان ألتير هو المتكلم ، ليقول انه يحتسي كاسا مع بعض اصدقاء دراسته ، وانه لن يعود الا بعد ساعة اخرى .

دخلت انا وانجيلا الحمام وتحمنا معا . احسست بانني منتعش رطب الجسد بشكل غريب ، مسترخ تماما . وفي كل مرة نظرت الى انجيلا ، عانيت صدمة واهنة كما لو كان ما حدث مجرد خيال جنسي حدث داخل رأسي فحسب .
بعد نصف ساعة ، وبينما كنا نجلس متقابلين امام جانبي المدفأة . نحتسي كؤوس الفودكا ، قالت :

« اظن انهما وضعنا لنا شيئا في كؤوس الشيري . »

« اتعنين عقارا مثيرا الشهوة الجنسية ؟ لا اظن هذا . ان للذبابة الاسبانية تأثيرا مزعجا ومنبها للعصاة المعوية - وقد ذقت شيئا منها في الجزائر . »
« ولكنك بالتأكيد لا تعتقد ان المنبه هنا كان نفسيا . اتعتقد ذلك ؟ »

قلت : « ساقول لك ما اعتقده . اعتقد ان كلاوس اراد ان يمارس معك الجنس ، وانها ارادتني ان امارس الجنس معها . ولو اننا تناولنا العشاء معهما ، لانهى كل منا الى الفراش مع صاحبه . ولكن ما حدث ، وايا كان ما فعلاه بنا ، هو انهما جعلانا يرغب كل منا في الآخر . »

وحينما عدت بذاكرتي لكي افكر في عنف وسخونة ممارستنا للجنس ، عرفت انه كان على شيء من الفرابية .

قالت : « ان هذه الفرابية تجعلك تتساءل عما اذا كان هناك حقا شيء ما في تلك القصص التي تحكى عن تعائم الحب - مثلما قيل في اسطورة تريستان وايزولده ، وما الى ذلك ؟ »

« لقد عرفت رجلا يوسعه ان يقول لك - رجلا يدعى كارادوك كانيجهام . »
« اجل ، انني اسمع عنه . لقد قرأت كتابك . ولا اظنني احب ان اقبله . »
حينما جاء الاستير بعد نصف ساعة ، كانت تطهو وجبة طعام ، وكانت
الشقة مفعمة برائحة الخل والثوم . قال :
« ارجو الا تكونا قد سئمتما من الضجر بدوني » .
قالت انجيلا : « كلا ، لقد وجدنا الكثير مما نفعل » .
« تفعلان ؟ »
« اعني مما نقول ونتحدث عنه . »

كان ينكت بالطبع ؟ كان يعرف انه لا آنجيلا ولا انا من النوع الذي يمكن ان
يقع في حب الآخر في خلال ساعات من اللقاء الاول .

في الليل ، انتابني احلام مزعجة لا استطيع ان اتذكرها . ولكنني حينما
استيقظت كنت ايزموند مرة اخرى . كان هذا هو اغرب ما احساست به حتى ذلك
الحين ، كنت قد شربت قدرا كبيرا من عصير التفاح المخمر بعد العشاء ، ورغم
انني لم اكن سكران ، فقد انتابني ذلك الاحساس بالانفصال البسيط عن الواقع ،
وباللامعنى . ومن الجانب الآخر ، كان ايزموند مستيقظا يقظة كاملة . بالنسبة له ،
بدت هذه الحجرة ذات السقف المرتفع مألوفة بشكل كاف ، وكان العنصر الذي
يسبب له قدرا بسيطا من عدم الفهم هو صوت سيارة ركوب او شحن عابرة تجري
على طريق هولاند بارك . كان احساسني بالعودة الى القرن الثامن عشر اكثر قوة
مما كان في دبلين ، ربما لانه لم تكن هناك عناصر تشتت في وسط الظلام . غرقت
في النوم مرة ثانية ، ورحت احلم احلاما مشوشة عن هوراس والبول ، وليتشينيرج
وبوزويل وجونسون . وحينما استيقظت في الصباح ، كنت اذكر جونسون بوضوح
تام وهو يقول مؤكدا بقوة - وهو ينثر الرذاذ بشفته السفلى الكبيرة المتدللة : « ان
الرجل متشرد محتال وغد شرير يا سيدي ، وسوف تحسن صنعا لو انك تجنبته
تماما . »

اخذنا طائرة في الحادية عشرة والنصف ، فوصلنا ادنبرة بعد ساعة ونصف .
تناولنا طعام الغداء في غرفة خلفية باحدى الحانات مع الدكتور دافيد سميلي ،
استاذ آنجيلا ، وهو رجل ضئيل الحجم له وجه كوجه كلب صيد صغير . كان قد
كتب ذات مرة عرضا شريرا بشكل خاص لاحد كتبي ، ولذلك فقد ابتسم بخنوع
وهو يقدم الي ، ولكنه حينما اشار الى الموضوع اشارة متعمدة ، تظاهرت بانني لم
ار المقال وان علاقتنا طيبة بشكل كاف . لم تكن بي حاجة الى ان اتحدث كثيرا -
فقد اراد كل من الاستير وآنجيلا ان يخبراه بكل ما يتعلق بايزموند دونللي
وباكشافاتي . انصت بادب لبرهة ، ثم قال :

« أخشى ان اقول انني لا ارى السبب الذي يجعلك تنظر اليه بكل هذا
الاهتمام . انه يبدو لي كما لو كان افاقا نموذجيا من افاق القرن الثامن عشر . هل

حدث ابدا ان فكر في اي شيء آخر باستثناء الجنس ؟ »

نظرت آنجيلا الي ، واظن انها كانت تميل الى الموافقة . قلت :

« بمعنى ما ، كلا . وبمعنى آخر ، فان الجنس لم يكن يهمه على الإطلاق . »

قال بXBث : « اليس هذا هو ما يدعى بالتحايل الشرعي على القوانين ؟ »

لم يكن متعاطفا ولم يكن لطيفا ، ولكنني قررت ان احاول الشرح . قلت :

« كلا . انما ارى ايزموند كرجل تملكته وسيطرت عليه مشكلة المعنى . »

« معنى ماذا ؟ الوجود الانساني ؟ » تذكرت انه كان قد كتب عددا من التعليقات

الحادة المرتفعة النبرة في مقاله عن كتابي حول ما دعاه بانه « هاجس العجز الديني المتسلط علي » . ولكنني اردت ان اوضح الموقف للاثنتين الآخرين ، قلت :

« انها مسألة اما ان تفهم او تعجز عن الفهم . بالنسبة لي ، انها مشكلة

راضحة في حد ذاتها . احيانا تبدو الحياة مثيرة للاهتمام بشكل واسع وعميق

مفعمة بالمعنى ، فيبدو هذا المعنى حقيقة موضوعية ، مثل ضوء الشمس . وفي

احيان اخرى تبدو عقيما خالية من المعنى مثل الريح . اننا نقبل هذا الخواء من

المعنى ، هذا الانهيار في وجوده ، مثلما نقبل تقلبات الطقس . انني اذا استيقظت

مصابا بالصداع او بنزلة برد سيئة ، فأنني ابدو كما لو كنت قابل لادراك اي

معنى . والان ، اذا استيقظت وانا مصاب بصمم حقيقي او وانا نصف اعمى حقا ،

فأنني ساحس بان ثمة خطأ ما في جسدي وسوف اذهب لاستشارة طبيب .

ولكنني اذا كنت غير قابل لادراك اي معنى ، فأنني اقبل هذا الوضع كما لو كان

شيئا طبيعيا . ولكن ايزموند لم يقبله كشيء طبيعي . وقد لاحظ هو الآخر اننا في

كل مرة نستشار فيها جنسيا ، يعود الينا المعنى . يمكننا حينذاك ان نسمع من

جديد . وهكذا فقد الح في طلب الجنس باعتباره سبيلا لاستعادة المعنى . »

سالت آنجيلا : « وماذا من امر هوراس جليني ؟ »

« كلا . انه لم يكن مهتما ببحث ايزموند عن المعنى . لقد اعجب بايزموند ،

ولكنه لم يفهمه . »

ظل سيميللي على عدم اقتناعه وقال : « انني وقد قرأت كتابه » عن افتراع

المعذاري « فأنني لم اجد شيئا يمكن فهمه » . قلت :

« انني لا اعتقد ان ايزموند كتب هذا الكتاب . »

« لم يكتبه ؟ اذن من كتبه ؟ »

« لا اعرف . ولكن اسلوبه ليس اسلوب ايزموند . »

هز كتفيه كما لو كان يقول انني استطيع ان اغرق في اي نوع من الخيالات

يروق لي ، ولكن هذا ليس من شأنه . قلت :

« هل حدث ان رايت التاريخ المكتوب على الطبعة التي قراتها ؟ »

« بالطبع . كان ١٧٩٠ . »

اثارني هذا . كانت الطبعة التي رايتها في جالاواي قد طبعت في لايبزيغ عام

. ١٨٣٠ .

« من الذي طبعها ، واين ؟ »

« لم يذكر اسم الطابع . ولكن قائمة انجامة تقول ان الكتاب طبع في مطبعة خاصة في ادنبرة . »

« انت واثق من هذا ؟ »

« ليس من عادتي ان اخطئ بين ما ا قوله من حقائق . » تذكرت ان هذه كانت واحدة اخرى من لمزاته القارصة لي ، وهكذا فقد تجاهلت الموضوع . ولكن الادب والمجاملة اللذين ابديتهما وانا اصادفه منذ نصف ساعة مضت لم يكونا قد وهنا تماما . هكذا اتضح جزء آخر من اللفظ وطرح سؤاله الجديد . وبدأ احد الشكوك التي كانت قد راودتني من قبل يظهر في صورة اقل عبثية . لانه اذا افترضنا ان كتاب «عن افتراء العذارى» كان مزيفا ومنحولا ، فمن يمكن ان يكون قد كتبه ؟ من الواضح انه شخص كان يهتم بأن يظهر ايزموند في صورة الافاق كاتب ادب الدعارة . من السهل ان نفترض ان الكاتب هو جيلبرت ستيوارت ، الذي كان على علاقة ودية مع هوراس جليني ، والذي كانت له مصلحة في ان يطلع سمعة ايزموند بالوحل . ولكنه كان قد مات في عام ١٧٨٦ . وهذا يؤدي الى « مرشح » واحد لتأليف الكتاب : جليني نفسه . واذا كان كتاب « الافتراء » قد طبع في ادنبرة ، فان الاحتمال يصبح قويا الى اقصى حد .

كانت الساعة قد جاوزت الرابعة بعد الظهر حينما غادرنا ادنبرة اخيرا في سيارة استأجرناها وشرعنا في مسيرتنا الطويلة نحو الشمال - وهي مسافة تكاد تبلغ المسافة بين لندن وادنبرة نفسها . قطعنا السير في مدينة بيتلو شيري ، وغادرناها في ساعة مبكرة من الصباح . وفي الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم كنا نقطع المرحلة الاخيرة من رحلتنا ، وهي المسافة من بلدة دورنوش الى جلوسبي . كانت المروج البرية الواسعة ومناظر البحر المفاجئة شديدة الوقع ، ولكن الشيء الذي احتل افكاري حقا هو المجهود الخالص الرامي الى استعادة نفس هذه الرحلة في عام ١٧٧٠ ، في عربة متارجحة ، فوق طرق كانت احسن قليلا من « المذقات » الترابية القذرة . من المحتمل ان اكثر قاطني جلوسبي لم يسافروا الى ابعد من دورنوش او اينفرنيس . فلا عجب ان كان هوراس جليني موضع كل هذا الاعجاب بعد عودته من رحلاته الاوروبية . توقفنا في القرية لكي نتصل بفزانكلين ميللر - المالك الجديد لمنزل جلوسبي - ثم اتجهنا الى الشمال اشرقي . يقع قصر جلوسبي فوق منحدرات جبل بين هورن ، مطلا على بحيرة لوش برورا . وبينما كنا نقطع هذه المرحلة القصيرة الاخيرة من الرحلة ، حاولت جاهدا ان استرخي ، وان اراها بعيني ايزموند ، ولكن لم تكن ثمة جدوى ، كان الامر كله بالغ الغرابة . سطعت ومضة من التعرف كالذكرى وانا انظر الى الميدان والمنزل الرمادي . ولكن كان من الممكن انني اخدع نفسي .

كان هناك عدد كبير من الدعامات الخشبية مرتفعة امام واجهة المبنى ، ومن الواضح ان المالك الجديد كان يصلح المنزل . كان الطريق الخاص المؤدي من الشارع

العام الى المبنى قد اميد رصفه ، وبدت احواض الحديقة في حالة جيدة . كان من الممكن ان يكون فندقا غاليا .

كان فرانكلين ميللر رجلا ضخيم الجسد ودودا بدا كما لو كان قد ولد لكي يكون مالكا من ملاك الارياف . وبدا مبتهجا حقا - « حصوله » علينا ضيوفا في منزله الجديد . قادنا الى المكتبة الضخمة ، حيث كانت مدفأة ضخمة - تعمل بكتل الخشب - مشتعلة بنار كبيرة . قبلنا كؤوس الويسكي ، وقابلنا مسز ميللر التي رجتنا ان نبقي عندها اطول مدة ممكنة . بعد ان تمثينا حول الحديقة وهبطنا الى جانب المنحدر الملحق بالقصر ، سألت ان كان بوسعنا ان نمضي ساعة قبل العشاء لنلقي نظرة على الطابق العلوي المعلق (السقيفة) حيث كان آلستير قد رأى رزما من الاوراق القديمة . قال لنا مضيفنا ان نعامل المنزل كما لو كان مالكة لم يتغير ابدا ، وخرج لكي يرى ما كان عماله يفعلون .

قال آلستير : « انني اعرف اين يجب ان نبدا . يجب ان ننظر الى كتاب العائلة المقدس . انه يضم قائمة بتواريخ ميلاد وموت كل من عاش من اسرة جليني في جلوسي » .

كان الكتاب المقدس في المكتبة ، موضوعا فوق رف مرتفع - كان مجلدا فخما ، ذا غلاف من الجلد اللامع ، يزيد ما لا يقل عن خمسين رطلا . كانت نسخة من « الكتاب المقدس العظيم » - طبعة جرانمر التي صدرت في ١٥٣٩ . وخطر لي انها يمكن ان تساوي مثلما دفع في منزل جلوسي نفسه ، ولكنني لم احب ان اقول ذلك . كانت الصفحات الست في نهاية المجلد مغطاة بكتابات صفحة بعد اخرى في خط كالخريشة لا يقرأ ، كتب بحبر ذوى لونه وبهت ، بدأت باسم اسكندر جليني ، الذي مات في عام ١٥٧٩ (قبل ان يفادر شكسبير بلدة ستراتفورد اون آفون) والذي كان من الواضح انه نال مرتبة فارس من الملك هنري الثامن . كانت اسرة جليني قد رفعت الى مرتبة النبالة على يد جيمس الاول . وفي بعض الاحيان كانت تتلو الاسماء اسباب الموت : « حمى » ، « تسمم كحولي » ، « خصر مكسور » (ايا كان معنى ذلك) . كانت هناك سطور تعليقات عديدة بخط تعرفت فيه على خط هوراس جليني . كان اسمه متبوعا بتاريخين : ١٧٤٧ ، ١٧٩٦ ، ولكن لم يكن هناك ذكر لسبب الموت . مات والده في عام ١٧٧٨ ، فأصبح اخوه موراي هولورد جليني . وقتل موراي بسبب « السقوط من فوق ساري » ، (هل كان يقصد « صاري » المؤخرة في سفينة ؟) في عام ١٧٨١ ، مما ادى الى ان ورث اخوه الاصغر لقب الاسرة .

كان في هذا بعض العون على الاقل ، فقد عرفت ساعتها تواريخ ميلاد وموت هوراس جليني على وجه الدقة . ولكنني لم اعرف سبب موته . سألت آلستير ان كان يستطيع ان يتذكر الغرفة التي قيل له انها « غرفة القتل » .

« اوه ، اجل ، بالطبع . » قادني الى خارج المكتبة ، وصعدنا السلم الرئيسي ، وعلى طول ممر بين بعض الحجرات . طرق الباب ، ثم فتحه . كان من الواضح

ان الحجرة الآن هيئت لتكون غرفة نوم الضيوف ، كانت تطل على المنحدر ، وكان احد العمال يصفر على « الصقالة » خارج النافذة .
قالت آنجيلا : « بالتأكيد لم تكن هذه هي الغرفة انتي اطلعتني عليها جورودون .
كانت الاخرى في الجناح الآخر . »

وبعد بعض التردد عثرنا على هذه الاخرى . كانت تطل على القسم الخلفي من المنزل ، وكانت النافذة تؤدي الى مسقط عميق يؤدي الى فناء صغير . كانت حجرة عارية باردة ، ولم يكن احد جدرانها يحمل اي شيء من الزخرفة او التجميل . كان حجر الجرانيت قد سجع حتى اصبح مسطحا ناعما . اشارت آنجيلا الى اثر طولي بني اللون جرى فوق ذلك السطح حتى بلغ الارض وقالت : « قال لي جورودون ان هذا الاثر كان لبعض الدماء — وان القتل كان يرقد على السرير حينما اطلق عليه احدهم النار من النافذة . »

كان هذا ممكنا ، وقد بدا الاثر كما لو كان اثرا للدماء فعلا . ومن جانب آخر ، بدا لي انه من الامور البعيدة الاحتمال ان ينام سيد المنزل في حجرة بهذا الشكل . وكان الاكثر احتمالا ان آثار الدم هي التي ادت الى خلق قصة عن جريمة قتل .

ثلاثة منعطفات اخرى من الدرجات قادتنا الى السقيفة العلوية التي وجدناها مظلمة ومتربة حتى اضطر الاستير ان يهبط ثانية لكي يستعير مصباحا . جلست انا وآنجيلا فوق صندوق ادراج قديم ، بعد ان نفضت التراب بمنديلي . كنا متعبين ، فقد كانت الرحلة طويلة وكنا بحاجة الى راحة طيبة تلك الليلة . وضعت ذراعي حول كتفيها ، فعانت برأسها واسندته على كتفي . تركت خدي يستريح على شعرها واغمضت عيني . كان المكان بالغ الهدوء ، ولم يكن ثمة صوت سوى هسيس الرياح اذ تصطدم بحواف الجدران العليا بالخارج ، مصحوبة بسقسقة طائر بعيد . كان احساسني بدفئها ملاصقا لي احساسا ممتعا . وفجأة ، ودون مقدمات ، تذكرت . او بالاحرى ، تذكر ايزموند . كانت رائحة التراب مألوفة ، كذلك كانت رائحة شعر آنجيلا . تحققت من الخطأ الذي لم اتبينه من قبل . فاننا حينما نرى اماكن جديدة بالنسبة لنا ، يجدها العقل غريبة ، فيبذل « مجهودا » لكي يحيط بها من اجل ان يتواءم معها ويقبل بوجوده داخلها . وهذا المجهود هو ما يدمر اللفة الفريزية للذاكرة . كنت شديد التلهف الى دخول ردىح هذا المنزل ، لكي اتذكره ، حتى انني كنت اخلق انطباعاتي عنه اختلافا . والان ، للحظة ، كفت عن النظر اليه باعتباري غريبا ، استرخيت وشعرت كما لو ان صورة قديمة قد طبعت نفسها بقوة فوق انطباعاته الجديدة عن المنزل ، ثم امتزجت معها . كنت اعرف هذا المكان ، كنت اعرف المنحدر والتلال ومنظر البحر البعيد تحت الوادي . وكنت اعرف ايضا ان آنجيلا كانت على صواب . لم تكن الحجرة انتي رايناها منذ لحظات هي الحجرة التي قتل فيها هوراس جليني . ولكن آنجيلا كانت مخطئة في نقطة واحدة ، انه لم يطلق عليه الرصاص . لقد طعن بنصل حاد . شعرت بيقين عجيب من هذا .

عاد ألتير يجر وراءه حبلا طويلا من السلك الكهربائي وواحدا من تلك الاقفاص المعدنية المزودة بمصباح في داخلها والتي يستخدمها مصلحو آلات السيارات . وصلنا طرف السلك بنقطة توصيل كهربائية في الطابق الاسفل ، وعلقنا المصباح داخل قفصه فوق دعامة خشبية منخفضة في سقف السقيفة . ثم اخذنا في مسح المكان . لم يكن ثمة شيء واضح اكثر من ان هذا المكان لم يطأه انسان منذ سنوات . ولم يستطع ألتير ان يتذكر انه قد بحث فيه عن شيء حتى فسي طفولته . كان كل شيء غارقا تحت عدة بوصات من التراب مع نوع من الزغب المندوف ، وكان نصف السقيفة مغلقا بواسطة سلسلة متتالية من نسيج العنكبوت التي جللها التراب حتى صنعت ستارة كثيفة عازلة . (وكنت دائما اتعجب من كيفية محافظة العنكبوت على حياته في الامكنة المغلقة) . ولكن كان هناك الكثير - بوضوح - الذي لا بد من استقصاء حقيقته ، بما في ذلك كومة من الغلايين الكبيرة المحطمة . مع كل خطوة تحركناها كان التراب يغزو انوفنا . حطمت نسيج العنكبوت بمحرك مدفئة معدني قديم ، ونظرت الى القسم الثاني من السقيفة . كانت هناك كل انواع الصناديق والعلب الورقية واكوام من دفاتر الحسابات وحزم الاوراق . حاولت ان افك احدى تلك الحزم ، فبدت الاوراق تهشم تماما كما لو كان الورق الذي صنعت منه قد جفف بالنار . وكانت حزم اخرى غارقة في نوع من الطلاء الزيتي جعلها مستحيلة القراءة .

بعد نصف ساعة من هذا البحث اصبحنا جميعا في غاية العطش ورحنا نعطس مرة كل دقيقة . صعد الينا فرانكلين ميللر لكي يستقصي امرنا ، ونظر حوله لمدة دقيقة او اثنتين ثم انصرف وهو يقول : « الافضل ان تبحثوا انتم ، لا انا . » واخيرا قال ألتير : « اظن انني ساهبط الى الطابق الارضي لاشرب زجاجة من البيرة . هل يأتي احدكما ؟ » قالت آنجيلا انها ذاهبة معه ، ولكنني قررت ان ابقى هناك لفترة اخرى ، ولكن خمس دقائق كانت كافية . بدأت افكر باشتياق في قدح من الجعة كبير وبارد في الحانة المحلية . كانت عيناى تدمعان ، وكان صبري ينفد بسرعة ، حتى انني كنت كلما تحركت ثرت معي قدرا من الفبار والتراب لا ضرورة لمزيد منه . شعرت كما لو كنت بحاجة الى حمام جيد ، وكما لو كان شعري قد امتلا بعناكب صغيرة خرجت لثوها من بطن امها . وبعد ان جذبت درجا هائل الحجم من قلب صوان ، وكافحت من اجل ان اصل شريطا جلديا ربطت به احدى الحزم وتجمد حتى صار في صلابة الفولاذ ، تحركت الى الباب الواطئ لكي استنشق بعضا من الهواء النقي . جلست عند الباب ، انشاءب ، وافكر في انه اذا كان ايزموند ينوي ان يساعدني فان الآن هي اللحظة المناسبة لتلك المساعدة . سار عنكبوت فجأة على عنقي ، فوقفت على قدمي مجفلا حتى انني ضربت رأسي في احدى الدعامات الواطئة ، فجلست على الارض ، وراحت الاضواء تتراقص ملتعة وخاوية امام عيني . جلست في مكاني محدقا بانزعاج في العنكبوت الذي تعلق هاربا بخيط طويل متدل من فجوة صغيرة ثبت فيها شيء مثل توصيلة كهربائية قديمة علقت في السقف بمسمار كبير . تسلقت السلم هابطا ، وجسدي يحتك بالحاجز هابطا نحو

الارض وانا انظر بحسد الى رجل يصيد السمك من قارب في البحيرة القريبة .

مددت يدي الى اعلى لكي اقطع التوصيلة الكهربائية التي كانت تضيء السقيفة، حينما خطرت الفكرة فجأة على ذهني . اذا لم تكن هناك اضاءة في السقيفة ، فلماذا كانت هناك تلك التوصيلة الكهربائية التي تعلق بها خيط العنكبوت ؟ صعدت السلم ثانية وتناولت منفضة ، ونفخت نسيج العنكبوت الذي كان يغطي مساحة الورق المفرد . ونظرت نظرة اكثر تدقيقا ، فعرفت السبب الذي جعلني اخطئ فاذن الشيء الذي رأيته توصيلة كهربائية . كانت مساحة الورق صندوقا كبيرا رسمت على ظهره رسوم دقيقة ، ويحتوي على عدد كبير من الصناديق الصغيرة التي ربط بعضها الى البعض بخيط واحد . كان على كل صندوق حروف كتبت فوق ظهره ، وعلى احد جوانب كل صندوق كانت هناك قائمة اخرى من الحروف الابجدية التسلسل ، وهناك كتابة امام كل منها . لم اكن اعرف ماهية تلك الصناديق وانا !حملها الى اسفل ، كان حدسي يعمل مرة اخرى . كان التراب كثيفا عليها حتى هجرت عن قراءتها في هذا الضوء المغم ، هبطت الى الطابق الاسفل ، ونفخت عنها التراب بعناية مستخدما منديلا ، واخذتها الى قرب النافذة . وقد كانت « رسما » - رسما توضيحيا للسقيفة نفسها . ولو انني فكرت فيها بعناية منذ رأيته ، او لو انني فكرت في السقيفة نفسها منذ اقيمت عليها نظرتي الاولى ، لكنت قد لاحظت ان الاصونة المختلفة والحزم الموجودة في السقيفة كانت موضوعة بطريقة مرتبة ومنظمة توحي بان شخصا ما قد وضع هذا النظام ، وايا كان الشخص انذي رتبها فانه قد صنع ايضا هذا الرسم كدليل لمن يريد البحث عن اي شيء فيه .

سمعت آلستير ينادي : « ان تهبط الان يا جيرارد ؟ سيعد العشاء بعد نصف ساعة . »

قلت : « من كان الشخص الذي اسمه ج . راليون ؟ »

« جورج راليون ؟ كان شيئا كالمساعد العام هنا في زمن جدي . وقد عاش حتى بلغ الواحدة والتسعين وهو يسكن منزل البوابة . لماذا ؟ »

اربته انجانب الاخر من الرسم . كان التوقيع الواضح يقول : « ج . راليون » . جريت باصبعي حتى توقفت عند حرف « ك » : « اوراق ، ل ، حتى ٩ . لورد جليني » كان هذا هوراس جليني . قلبت الورقة الى الزاوية المقابلة . كان « ك » موجودا في الركن القصي من السقيفة .

تبينت ان « ك » كان صوانا ضخما من الصفيح او الصاج ، وكان المقبض قد علاه الصدا حتى اصبح فتحه عسيرا . فتحناه عنوة بالاستعانة بمحراك المدفأة . كان مزدحما مشوشا بكراسات الحسابات ، والخطابات والاوراق السائية ، فاما ان احدا قد عبث به منذ عهد « ج . راليون » واما ان محتوياته قد وضعت دون محاولة لترتيبها بالداخل . فتحت خطابا . وكان يبدأ : « عزيزتي ماري » وبدأ من المضمون ان الخطاب كان حول مشكلة عائلية عن بيع احد المنازل في جيلفورد . دفعت يدي

في الصوان ، وفتحت عددا آخر من الخطابات عشوائيا . كان احدها موجها الى ميس فيونا جوتري . ، وكان يبدأ : « عزيزتي ميس جوتري » وينتهي بعباراة : « المخلص الذي يحترمك » . كان هذا مؤرخا في اغسطس عام ١٧٦٦ ، وموجهها من جوتينجين - وهذا معناه انه ارسل قبل شهور قليلة من الاحداث التي وصفها في خطابه الى ايزموند .

حاولت انا والستير ان نحمل الصوان لكي نهبط به السلام ولكنه كان ثقيلًا جدا . فقررنا تركه في مكانه ، وسرنا شاعرين بالانتصار فهبطنا الى حجرة الطعام لكي نعلن عن الاكتشاف ، فآثرنا من الانفعال ما كان مكافاة معقولة ومؤقتة لسي . تركتهم بعد قليل وصعدت ثانية لكي افحص الصوان ، بينما كنت احتسي كأسا من الجعة المثلجة ، ثم ذهبت لكي استحم . وحينما عدت اليهم ، كانوا قد كوموا حزما من الاوراق والملفات على بساط المدفأة ، وكانوا ينظرون انى ما فيها . نظرت الى ما تم العثور عليه ، ولكنني لم اجد شيئا ذا اهمية .

تأخر العشاء نصف ساعة . فاكلنا كميات كبيرة من شواء الحجل وطيور الفأبة وشربنا نبيذ بوجوليه ، الامر الذي جعلنا جميعا نشعر بالنعاس ، فذهبنا الى الصالون لكي نشرب القهوة ونشاهد الاشياء في التليفزيون . في التاسعة والنصف ، سألت ان كان بوسعي ان استخدم التليفون ، وانني لم اكن قد اتصلت بديانا منذ تركنا لندن .

كان الخط التليفوني جيدا ، فكان بوسعي ان اسمعها كما لو كانت على بعد ميل واحد . اخبرتها بالاشياء - عن انني قد عثرت على شيء من اوراق جليني ، ولكن لا شيء يمكن ان يعد بشيء كثير . سألتها ان كان لديها اي اخبار .

« ليس الكثير . هناك خطاب من فتاة تريدك ان تذهب لكي تعيش معها في ميامي ، وخطاب آخر من رجل يريدك ان تؤلف كتابا تحمل فيه على العقول الالكترونية . وهناك خطاب قصير من رجل يدعى كورنر يقول انه يجب ان يراك حينما تذهب الى لندن في المرة القادمة . »

« كيف تهجين هذا الاسم ؟ »

« ك - و - ر - ن - ر . »

صحت : « ماذا ؟ ما اسمه الاول ؟ »

« لا اذكر ، هل ابحت عن الخطاب ؟ »

« اجل ، ارجوك . »

عادت بعد دقائق قليلة ، وقرأت لي الخطاب . كان المرسل هو اوتو كورنر ، الرجل الذي قالت لي اسرة دانكان انه ابعد عن البلاد . كان يعيش في ويست هامبستيد . قال انه قرا خطابي عن ايزموند دونلي في الملحق الادبي للتايمز ، وانه يود ان يتحدث معي بشأنه ، وكتب رقم تليفون في النهاية .

حينما انتهت ديانا المكالمة ، اندفعت الى حجرة الجلوس ، صائحا وانا ارقص ماوحا بالورقة التي تحمل عنوان كورنر . شعرت بأن هذه الخطوة ستكون انطلاقة

كبرى الى الامام - ليس لانني توقعت من كورنر ان يعرف شيئا عن دونللي لم اعرف انا به بعد ، وانما لانني شعرت بان الالهة تقف الى جانبنا . كاد سرور ميللر بهذه الانباء يعادل سرورنا ، كان قد شرع يقع في شبكة « البحث عن ايزموند دونللي » . قال : « لماذا لا تتصل به الآن على الفور ؟ » ولم اكن بحاجة الى مزيد من الحث او التشجيع فبعد خمس دقائق ، كنت اسمع صوتا مثل صوت ممثل كوميدى يقلد استاذ المانيا عجوزا ، يقول :

« جميل جدا انك تكلمت ، يا زورم . حننسا (عندنا) الكثير الذي يجب ان نناقشه . »

قلت : « لقد رايت دانكمان وزوجته في لندن منذ يومين . وقد قالا لي انك هدت الى المانيا . »

« ماذا ! انهما يعرفان ان هذا غير صحيح ! يجب الا تثق بهما ... »

استمر يتحدث طوال عشر دقائق عن دانكمان وزوجته ، مستخدما كلمات من الالمانية من حين الى حين . وانتهى الى ان نصحني بقوة الا اعود الى رؤيتهما مرة ثانية حاولت ان اكتشف السبب الذي يجعله يعاديهما الى هذا الحد ، ولهذا قلت له انهما يدوان كزوجين لا ضرر منهما . صاح يقول :

« ماذا ؟ لا ضرر منهما ؟ كيف : ان هذا الرجل قاتل . »

« انت واثق ؟ »

« واثق تماما . انه قاتل . لقد تزوج فتاة ثرية في سويسرا ثم ساق جسدها في وعاء صنع الفراء . كان في هذا الوقت يملك مصنعا للفراء - واختفت بعد زواجها منه بأسابيع قليلة . وقد قام طبيب بتحليل عينة من الفراء الذي انتجه في تلك الفترة وقال انه كان مصنوعا من عظام آدمية . ولكنهم لم يستطيعوا اثبات اي شيء . وانه جدير بان يسجن ثلاث سنوات بتهمة تعدد الزوجات . »

بدت لي القصة مثيرة الى درجة تجعلها غير قابلة للتصديق . (وفي الحقيقة ، اكتشفت فيما بعد ان كورنر لم يسرد علي اكثر التفاصيل رعبا - وهو ان كلاوس مزق جسد زوجته السويسرية قطعا صغيرة بشفرة حلاقة ، واطعمها السمكة البيرانها المتوحشة التي كان يربيهها في منزله) . تحدثت مع كورنر لعدة دقائق اخرى ، ووعده بان اتصل به في طريق عودتي الى ايرلندا . قال : « حسنا . ارجو ان تمضي في لندن عدة ايام . ان لدي الكثير الذي اود ان ا قوله لك . »

لاح لي هذا محملا بالوعود انطية . عدت لكي اخبر آنجيلا بالتفاصيل الجديدة عن كلاوس دانكمان ، وانتهينا الى سرد حكاية زيارتنا بالتفصيل لمضيفنا ومضيفتنا ، ولكننا حذفنا ما حدث بعد ذلك .



كنت بالغ التعب حتى انني ذهبت مبكرا الى الفراش . ولكنني استيقظت في السابعة من صباح اليوم التالي ، فأرتديت معطفا فوق سترتي ، وجلست على مقعد صغير واطيء في السقيفة ، ورحت احمل بعناية كل حزمة او ملف من الصوان ،

راضعا الاوراق السائبة في كومة مستقلة مرتبة . كان قد مضى علي نصف ساعة من البحث قبل ان التقي بأول اكتشاف منعهش للامل : حزمة من الخطابات ربطت بشريط جميل ، وقد كتب العنوان على كل منها بخط بناتي مستدير : « السيد هوراس جليني . فرديناند ستراسه رقم ٩ (منزل فون هير يوليش) جوتينجن » كانت كاتبة تلك الخطابات هي فيونا جوتري ، وارسلتها الى هوراس جليني ، وبدأت في فبراير عام ١٧٦٧ - بعد شهر من حادثة اقتراه من اغوائها . كانت الخطابات من فتاة واقعة في الحب ، والاكثر من هذا ، كانت خطابات من فتاة شعرت بانها مرتبطة ومخطوبة . كانت الخطابات مليئة بما يدور في بيتها من اشاعات وهمسات، وعن شقيقته ماري ، وعن كلب كان قد اعطاه لها . وجدت قراءة تلك الخطابات مشيرة للشفقة ، لانها اعطت لكاكتبها مساحة من الحقيقة الواقعية - تلميذة تقع في الحب لأول مرة ، فتاة منحت لحبيبها شيئا من الحرية في التصرف معها لانها لا تستطيع ان ترفض له اي طلب . وتظن انه يفكر فيها باستمرار بنفس الطريقة التي تفكر بها هي فيه . كانت هناك ملاحظة من ماري في احد الخطابات تقول : « ارجو ان تكون الفتيات عندك في مثل قبج الحمير » ويبدو ان هوراس قد اجاب عليها اجابة مطولة ، وراح يذكر ايزموند بحماس كبير ، لان فيونا تقول : « انا واثقة من ان صديقك ايزموند دونلي طالب متقدم و (ذكي) ولكنني (انا) لا استطيع حقا ان اعجب به دون ان اقبله ... انني افضل ان اسمع تفاصيل عن اعمالك انت . » فمن الواضح ان هوراس قد استهلك الكثير من الوقت في الشناء على ايزموند .

في عيد الميلاد التالي (١٧٦٧) يبدو انهما تشاجرا بسبب احدى الخدمات . « انني اتمنى لو استطيع ان افهم لماذا تحب ان تلمس مثل هذه المخلوقة الملوثة بالدهن » : الامر الذي يفسر دون شك السبب الذي جعل فيونا تحافظ على عذريتها ماما آخر . ولا بد انه كان عيد ميلاد مليئا بعوامل الاحباط بالنسبة لجليني بعد فشله في محاولة الاغواء المخططة التي قام بها في اوزنا بروك .

وضعت خطابات فيونا جانبا لكي اتمكن من دراستها فيما بعد دراسة اكثر دقة ، ومضيت في عملية افراغ الصوان . بالقرب من القاع ، بدت لي المحتويات اقل فوضى واكثر ترتيبا ، وقد كومت دفاتر الحسابات في ركن واحد . اخرجت كل هذه الدفاتر ، وحينما ازحت آخرها ، رايت صندوقا معدنيا اسود اللون مدفونا تحت حزم كثيرة من الاوراق . اخرجته بجهد ، ووجدت انه يبلغ حوالي ثماني عشرة بوصة طولا ، وان عمقه يبلغ حوالي تسع بوصات . لم يكن مفلقا . فتحته ، فوجدت نفسي انظر الى الصفحة الاولى من مخطوطة كتاب كتبت بخط اليد ، وتقول : « خطابات من فوق احد الجبال » تأليف « جورج سيمثسون ، د.د. » عثرت على الكراسة الصغيرة التي استخدمها لجمع مادتي عن دونلي . وكان الامر كما قدرت هو ان الطبعة المنشورة من كتاب « خطابات من فوق احد الجبال » كانت من تأليف ريجنالد سيمثسون . ولكن النشرة المكتوبة حول « جمعية العناية الشريفة » كانت من تأليف هنري مارتل وجورج سيمثسون ، د.د. وكانت هذه النشرة قد صدرت

بعد عشر سنوات من صدور الرواية . ومع هذا فان جليني قد غير الاسم الاول للمؤلف . وتفسير ذلك عندي ان جليني كان قد كتب النشرة قبل كتابة الرواية ، وقد غير الاسم الموجود على الرواية لكي يتجنب تكرار ذلك الاسم الذي وضعه على النشرة .

تناولت حفنة من الاوراق بطريقة عشوائية والقيت عليها نظرة فاحصة . وعلى الفور تقريبا وقعت عيني على عبارة « جماعة العنقاء » . قرأت النص . لم يكن هناك احتمال للشك . ففي المخطوطة الاصلية - وقد وضحت التصحيحات والتغييرات ان هذه المخطوطة كانت هي المخطوطة الاصلية حقا الرواية - كان جليني قد اشار الى « جماعة العنقاء » وليس الى « امر الثعبان » . ومن الواضح انه كان قد قرر ان يغير اسم الجماعة . اخرجت المخطوطة كلها من الصندوق . لم تكن الاوراق التي كتبت عليها موحدة الحجم ، ولكن تلك التي كانت في قاع الصندوق من حجم اصغر . لم رايت انها لم تكن جزءا من المخطوطة ، وانها كانت مكتوبة بخط ايزموند دونللي . وقد بدأت الصفحة الاولى كما يلي :

جليني العزيز

ارجوك ان تصدقني حينما اؤكد لك ، مقسما على كلمة الشرف الاكثر صدقا من اي كلمة ، انك مخطيء في خوفك على سلامتي . واستطيع ايضا ان اؤكد لك انك مخطيء تماما في تصورك عن طبيعة جمعيتنا . انها ليست « سرية » بالمعنى العادي لهذه الكلمة . هل يمكنك ان تقول ان الجمعية الملكية سرية ؟ ومع ذلك فانه اذا حدث ان تسلسل شحاذا الى اجتماع للجمعية الملكية فانه سوف يعتقد انهم يتحدثون بلغة غريبة لكي يخفوا عن القرباء اغراضهم الحقيقية .

لقد اكتشفت هنا شيئا كنت احلم به في يقظتي طوال الاسبوع الماضي او نحوه : دايلا حاسما على انضمام ايزموند الى جماعة العنقاء .

مرتجفا من النشوة - ومن برودة السقيفة الرطبة ، شققت طريقي عائدا الى حجرة نومي ، محتضنا صندوق الصفيح الاسود . استخدمت التليفون الموضوع بجانب الفراش - الذي ادخله مضيفنا بناء على فكرة صائبة - لكي اسأل المطبخ ان كان من الممكن ان يرسلوا الي انظارا خفيفا في حجرتي . لم يزعجني احد او يقطع علي وحدتي ، رغم انني سمعت آلستير يمر امام باب حجرتي في طريقه الى السقيفة . وفي خلال الساعة التالية عرفت عن ايزموند اكثر مما عرفت في خلال اسابيع البحث السابقة .

لن انقل هنا تلك الخطابات كاملة ، لاسباب المساحة الواضحة : فانها قد تحتل خمسين صفحة . كانت القصة التي جمعت اجزاءها من الخطابات كالتالي: كان ايزموند قد عرف بوجود جماعة العنقاء من مصدرين : روسو ورستيف دي لا بريتون . وكان الاخير عضوا فيها ، مثلما اكتشف ايزموند فيما بعد . وكان ايزموند قد وصل بنفسه الى افكار قريبة من افكارهم مثلما راينا - ومثلما وضحت

تلك الخطابات توضيحا كاملا . عرف بوجود الجماعة ، ولكن لم تكن لديه فكرة عن كيفية الاتصال بها . وهكذا فقد اصدر كتاب « ملاحظات على فرنسا وسويسرا » ورسم على الغلاف صورة العنقاء ، و اضاف الى الكتاب قصة مختصرة تحكي تاريخ الجماعة وعزاها الى الراهب اللوثري (الوهمي والذي لم يكن له وجود) . ونحن نعرف ما حدث بعد ذلك . فقد وصلت به بالبريد صورة العنقاء الجميلة المرسومة . ومن كان اول شخص يصله بالجماعة بصورة فعلية ؟ من المضحك والسخيف معا ان تكون هي اول فتاة ادخلته عالم مباحج الحب ، خادمة شقيقته ماري ، او مينو . كانت مينو قد استأنفت حياتها المفعمة بالفلمة الجنسية في باريس ، واصبحت عشيقة احد اعضاء الجماعة الذي رأى في عبادتها الخاصة من أي هوى لاءضاء الذكر التناسلية جوهر المؤمن الحق بافكار الجماعة .

كان جليني وايزموند صديقين حميمين . ولكن جليني يفتقر الى الميزة الاساسية اللازمة لعضو الجماعة : السعي الذي لا يكل وراء الجنس باعتباره تجربة تسمى على أي تجربة شخصية . ورشحه ايزموند لكي يكون عضوا ، وامضى جليني يومين في باريس بصحبة ايزموند وعبدالله مؤمن (الذي يظهر في رواية « خطابات من فوق احد الجبال » باسم عبدالله صباح ، وقد اختار جليني هذا الاسم بعد ان استعاره من الاستاذ الاعظم لجماعة الحشاشين) (١) . ولكن ما حدث في خلال هذين اليومين ليس واضحا ، فيما عدا ان ايزموند تعارك مع جليني فرحل جليني غاضبا . وبعد شهرين التقى بايزموند مرة اخرى في لندن ، فتصالحا وسويا خلافهما ، وكان ذلك بمبادرة من جليني فيما هو واضح . وفي خلال هذه الزيارة ، حدث ان قابلا ماري وشارلوت انجستر ، ابنتي ايرل فلاكستيد ، الذي كان يقيم مع ابنة هم ايزموند ، اليزابيث مونتاجو ، وعقدا اتفاقا فكاها يتزوجان بمقتضاه من الفتاتين على ان يقتسماهما فيما بينهما . وفي احد الايام طلب جليني من ايزموند ان يخبره

(١) الحشاشون — assassin
 اخذت الانجليزية وبعض اللغات الاوروبية هذا الاسم لجماعة الحشاشين التي اسسها الحسن الصباح في القرن الحادي عشر شمالي العراق وايران وحولوها الى كلمة تدل على القتل غيلة بطريقة دموية عنيفة (وخاصة قتل الخصوم السياسيين والفكرين) . وكان الحسن الصباح (المولود في خراسان) مؤيدا لعقائد الفاطميين المصريين القريبة من عقيدة الاسماعيليه — وهم فرع من الشيعة الامامية — واصبح قائدا لحركة الاحياء الشيعة في ايران والتي عبرت عن مصالح الامة الفارسية في مواجهة سيطرة دولة السلاجقة الاتراك في حلقة من حلقات الصراع التاريخي بين الامتين (التركية والفارسية) في العصر الاسلامي الوسيط . وقد نسجت حول شخصية الحسن الصباح وجماعته من الحشاشين اساطير كثيرة ، خاصة لسرية تنظيمهم واحتمالهم بقلعة « الموت » المنيع ، ولتسللهم سرا في كل انحاء العالم الاسلامي واتباعهم اساليب دموية خفية في الاغتيال للتخلص من خصومهم ولعدائهم العنيف لصالح الدين الايوبي الذي قوض دولة الفاطميين في مصر ، ولاتباعهم بعد موت الحسن الصباح (الاستاذ الاعظم وشيخ الجبل) سياسة انتهازية موالية حينا للصليبيين وحينا للتتار الوثنيين بهدف القضاء علي اي دولة سنية غير فارسية (وغير شيعية بالضرورة) . (هـ . م)

بما يعرفه عن جماعة العنقاء . وفي لندن قابلا رستيف ايضا مرة اخرى - وكانت النتيجة مشاجرة اخرى ، او بالاحرى ، انفجارا غاضبا آخر من جانب هوراس جليني ، (وقد اكد كل ذلك تخميني السابق من انه كانت في هذه العلاقة ، من جانب هوراس جليني ، ميول شاذة جنسيا) . واستاجر جليني منزلا صغيرا في شارع جراب ليقوم فيه ببحوثه ، وكتب نشرة « حول جمعية العنقاء الشريرة » . ووصلت اخبار هذه النشرة الى ايزموند ، فاقنع جليني الا ينشرها . ووافق جليني، فكريس خريف عام ١٧٧٢ لاغواء ماري انجستر ، بينما القى ايزموند حصارا ناجحا حول شارلوت . ولكن وقعت في نوفمبر مشاجرة اخرى ، وعاد جليني الى اسكتلندا وكتب هناك رواية « خطابات من فوق احد الجبال » في الفترة بين ديسمبر وفبراير التالي . وكتب الى ايزموند لكي يقول له انه بينما يقبده وعده له بالا ينشر النشرة التي كتبها ، فانه شعر بأن هذا العمل الروائي الخيالي كان شيئا مختلفا كل الاختلاف . (وماذا كان هذا التصرف سوى محاولة لجذب انتباه ايزموند بأي ثمن ؟) وكانت النتيجة هي الخطاب الطويل الذي وصل من ايزموند وهو الخطاب الذي وجدته في نهاية المخطوطة .

لقد كنا صديقين - انا وانت - سنين عديدة - ولا اقول شقيقين . كثيرة هي الزججات التي افرغناها معا ، وكثيرات هن الخادمت اللواتي حررناهن من - فضيلتهن بملاطفاتنا وارجحاتنا المتبادلة . فلماذا ، اذن ، تختار هذا الوقت بالذات لكي تتهمني بانني اتعامل على الوجهين ؟ ما الذي حدث لتلك الاخوة التي اقسمتا عليها في الفندق في هايدلبرج ، حينما مزقت ذراع شخص سافل ، وضربت انت سافلا آخر على عينيه حتى اغميته ؟

تبدو هذه الذكريات عن الصداقة القديمة ، عن وجبات الطعام التي تناولوها معا والنساء اللواتي اشتركا في اغوائهن ، تبدو شيئا لا قيمة له وتصرفا لا جدوى منه من جانب ايزموند . كان هوراس جليني مجبولا من عنصر اكثر خشونة ، وكان هو يعرف ذلك . وكان ما يقوم به في تلك اللحظة شيئا اقرب الى ابتزاز ايزموند، - كانا - كلاهما - يعرفان ذلك . كانت علاقتهما علاقة استاذ بتابعه . لقد التقيا حينما كان المتفوق - ايزموند - قد اكتشف مباهج الجسد الانثوي ، فراح يعظ حواريه الجديد عن موضوع اغواء النساء بحرارة ثوري وحماسته . ولقد رأينا كيف استجاب جليني لهذه المواعظ - في قصته عن فيونا وماري . ومن قائمة الاسماء التي يذكرها ايزموند ، يمكننا ان نستخلص انهما اشتركا معا في عدد كبير من المشيقات في جوتينجين . ولكن ايزموند لم يكن مهتما بصورة اساسية بالجنس في حد ذاته . بالنسبة اليه كان الجنس مفتاحا لحل لغز معين ، وكان هذا اللغز هو ما يشير اهتمامه . ولكن هوراس جليني - من ناحية تكوينه المزاجي - كان يتشابه في كثير من الجوانب مع كازانوفا ، الذي كان قد قابله ذات مرة في اوترخت . كان يحب طبقات الحياة ، وقد احب من بينها النساء . ولم يستطع ان يفهم لماذا لا يستطيع ايزموند - استاذة في فن الاغواء - ان يعيش في لندن عاصمة انجلترا فيشترك في نادي نيران الجحيم الذي كان السير فرانسيس داشوود قد

ترك رئاسته . بالنسبة لجيني ، كانت لندن هذه - مدينة شيريدان وويلكيز وداشود - هي اكثر مكان في العالم سحرا وجاذبية : صراع الديوك وسباق الخيل ومباريات الملاكمة بالقبضات العارية (رياضة كانت جديدة تماما) وليالي دروري لين ، وصحبة النساء الجميلات . فما الذي يريده ايزموند اكثر من هذا ؟ لماذا اصبح مفسدا لجمال اللعبة الى هذا الحد ؟ وقد كشف اغواؤهما المشترك للشقيقتين انجستر عن ان زمالتهما كانت قوية كمهدهما ابدا . فمن كان هذا العربي الذي لا يقاوم والذي يتحدث الفرنسية بطلاقة كاملة والذي لا يبدو ان من الممكن ابعاده عن ايزموند ؟ وحينما اعترف ايزموند اخيرا بان الرجل ينتمي الى جماعة العنقاء ، بهت جيني . كان ايزموند ما يفتأ يحدثه عن هذه الرابطة الاخوية التي تربط اعضاء الجماعة ، فقد سحرته منذ حدثه عنها روسو . ولكن جيني لم يصدق ابدا بوجودها . وها هو ايزموند . الان يصبح عضوا فيها ! لقد فسر « ذلك » كل شيء . ان ايزموند لم يعد مطاردا حرا للنساء لانه وقع بين ايدي جمعية سرية يديرها بعض الاجانب ، كان هذا العربي العملاق ذو الندبة الواضحة نموذجاً لاعضائها . كان رد فعل جيني مزيجا من الخوف والاشتياق والغيرة - مع غلبة هذه العاطفة الاخيرة . فراح يتحدث بصراحة في كل مكان زاره في لندن عن جماعة العنقاء - ولا بد ان جونسون التقط في احد هذه الاماكن ما كان يقال عن ايزموند همسا وفي الشائعات - فكتب نشرته . ولو ان ايزموند كان اقل اخلاصا لصديقه لكان قد عاد الى ايرلندا وقطع علاقته به . ولكنه بدلا من هذا حاول ان يهدئ ثأرته . وربما كان الاصدق ان نقول انه حاول ان يفهم جيني ما طرأ عليه من تغيرات منذ ايام وجودهما معا في جوتينجين .

« كنت اؤمن دائما بالرأي القائل بان هذا العالم في قرارته عالم سحري ، واننا اذا لم نكن سحرة فان الخطأ يقع على عاتقنا نحن . ان ديدرو يجعل دالامبير يقول : لماذا اكون على ما انا عليه ؟ لان هذا امر حتمي ولا مفر منه . . . ولقد سألت نفسي دائما : لماذا اكون على ما انا عليه ؟ لان هذا يبدو لي في صورة اكثر الاشياء تحكيمية واطلاقا في العالم . » انني قد اكون اي شيء او في اي مكان . قد لا يكون شكلي اكثر ثباتا من قبضة دخان تتصاعد من نار مشتعلة . في صباح ساكن الهواء ، قد تبدو قبضة الدخان ساكنة ثابتة مثل عمود من المرمر ، ولكننا نعرف ان اقل هبة هواء يمكن ان تغير شكلها وان تبددها في الفضاء دون نهاية . لقد جلست ذات صباح على احد الجسور ورحت ارقب شلال المياه الذي يسقط بالقرب من مونت بلانك ، وتملكتني فجأة فكرة ان الناس تحاصرهم قوى يعجزون عن فهمها ، ومع ذلك فانهم يتوهمون انهم باقون بقاء الصخور في العصور التي عاش فيها الناس كصيادين ومحاربين لم يكن لديهم من الوقت ما يكفي للتوقف والركود ، لقد ادركوا طبيعتهم الخاصة ، ولم يظنوا قبضة الدخان عمودا من المرمر . وفي هذا الجانب يمكن ان نقول انهم فهموا العالم بشكل افضل من فهم مستر ديدرو او مستر فولتيرله . ولكن الابله وحده هو من يجب ان يعود الى الحياة التي عاشها المتوحشون الرعاة ، وبالنسبة لنفسي ، فاني لست بالصيد ولا بالمحارب . ولكنني طالما لاحظت

انني حينما يفرق مهري المنطلق في بيته الذي كان ينتظره ، سواء كان ذلك البيت بين فخذي سيدة ذات لقب رفيع او خادمة في اصطبل ، فاني كنت ارى لحظتها ان العالم ثري دون حاجة الى برهان ، وانه دافئ ولا نهائي . تسقط القمامة التي تعميني عن عيني ، وينزاح الثقل الذي يكبل حواسي ، فأرى في لحظة واحدة وعلى التو ان الانسان قد ترك ما كفه له ميلاده من حقوق نهبا للسارقين والناهبين . لكن اذا كانت هذه الرؤية السحرية هي حقي بحكم المولد ، فلماذا ينبغي علي ان اتقبلها في شكل شذرات متفرقة غير موصولة ، مثل كلب يختطف مزقا من اللحم يلقيها اليه على الارض سيده ؟ انها ملكي ، ان امسكها واقبض عليها باليمين ؟

هذا ما آمنت به دائما ، وانا اعرف الان ما يكفي من اللاهوت لكي اعرف ان حق المولد هذا هو ما فقدته البشر بسبب خطيئة آدم . ولكن كيف لنا ان نأمل في العثور على ما فقدناه الا بالبحث المنهجي المنظم ؟ لقد آمنت دائما بانه لا بد ان يكون ثمة سبيل لاستعادة تلك القوة الضائعة . ولقد اكتشفت الان ان هناك رجالا كرسوا حياتهم للبحث عن هذا السبيل، وانه يمكنهم ان يعلموني شيئا من اساليبهم . فهل يمكنك حقا ان تصدق ان مثل هؤلاء الرجال يمكن ان يكونوا اشرارا ، وان هدفهم هو ان يستواوا على روجي الخالدة ؟ وما الذي يمكن ان يعنيه هذا حتى ولو كان صحيحا ما تقوله عنهم ؟ لا اني ، ولا انت ، اصدق ان الروح يمكن ان تسلم رهينة او سبية ، الا اذا اسرتها البلادة والغلظة وكثرة الاهتمام بما لا اهمية له .

كلا ، انني اسعى وراء شيء اكثر اهمية بكثير من بكاارات الفتيات اللواتي لم يمسن بشر قلبي .

ولكن ما الذي كانت جماعة العنقاء تفعله بالتحديد ؟ يعبر ايزموند عن هدفها الاساسي في جملة واحدة : « ليس هدفنا هو توليث الاحاسيس الدينية ، او الانحدار بها عن طريق التلذذ الحسي ، وانما هو الصعود بالتلذذ الحسي الى مستوى الاحاسيس الدينية » . ولكن كيف كان من المفروض ان يتحقق ذلك ؟ يعتمد ايزموند ان يكون غامضا في هذا الصدد . كان لديه السبب الذي يدفعه الى عدم الوثوق في جليني . ولكن كان من الواضح انه حينما جاء الى جلوسبي - في ابريل عام ١٧٧٣ - اخبر جليني بالتفصيل اكثر بكثير مما كان على استعداد لان يسجله كتابة ، وكتب جليني بدوره بعضا مما اخبره به ايزموند ، بنية ان يستخدمه كمادة في كتابه الروائي الذي ازمع كتابته . واطن انه من المستحيل ان تشك في ان جليني كان ينتوي دائما ان ينشر الكتاب . وانا شخصا مترددا في امر ادانته . ان الكتاب عمل جذير بالاعجاب ، رغم كل ما يمتلىء به من سخافات عاثة . وقد يكون من حق المرء ان يقول انه يكون ما او كله هوراس جليني من مهام الى الاجيال القادمة . فهل يمكن ان يوجه اللوم الى كاتب لانه لم يدمر احسن اعماله بيده ؟

من خلال مذكرات جليني - التي سوف الخصها اكثر مما اقتطفها كاملة هنا - يبدو واضحا ان جماعة العنقاء تشترك في الكثير مع جماعة « الصلب الوردي » او الماسونيين الاحرار . كان هناك استاذ اعظم ، كان اشبه بالبابا ، تنتخبه لجنة

تعرف بـ « لجنة المشرفين » ، واسمهم بالانجليزية The dominoes ربما يدل على انه جاء من انهم كانوا يرتدون عيادات ذات اقنعة تغطي رؤوسهم ، من النوع الذي يرتديه الرجال في الحفلات التنكرية . وكان لكل بلمشرف واحد . في فرنسا كان المشرف هو الكاتب شوديرول دي لاكلو ، مؤلف رواية « العلاقات الغرامية الخطيرة » وقد اصبح ايزموند فيما بعد هو المشرف في ايرلندا .

والشي الواضح تماما ، من مذكرات جليني ومن كتابه « خطابات من فوق احد الجبال » هو انه كان هناك دائما نوع من الخلاف الاساسي في الراي داخل الجماعة حول نقطة جوهرية من نقاط القانون الاساسي . كانت الجماعة تؤمن بان الانسان ينظر الى معنى العالم باعتباره « لغزا سحريا » بصورة اكثر دواما من خلال الفعل الجنسي مما يحدث من خلال الدين او الفن . (والكلمة الهامة هنا هي كلمة «الدوام» . ان احدا لم يفكر ابدا ان ما تحققه التجليات الصوفية من انواع النشوة يمكن ان تبلغ اعماقا اعظم من اي اعماق يمكن ان يبلغها الانسان عن طريق الجنس . ولكن الانسان من ناحية اخرى ، يستطيع ان يقترب من اسرار الجنس كل يوم) .

وقد لاح لي ان كل اعضاء الجماعة وافقوا على ان مجرد الاتصالات الجنسية غير الشرعية ، دون سيطرة ، ستؤدي الى الضرر والملل . ولكن كان هناك اختلاف كبير في الراي حول العلاج المفترض لذلك . كان التقليد الذي اتبعته الجماعة - منذ اربعة قرون - هو انه لا بد ان ينظر الى النساء باعتبارهن اوعية تحتوي السر المفضى القامض . وقد دفع اباء ورهبان جنوبي روسيا بهذه الفكرة الى اكمل تطور لها في القسم الاخير من القرن السادس عشر . ومن جانب اخر ، فان الهولديانيين ، وهم جماعة نشأت بين قبائل الالمان (استمد اسمهم من اسم ربة الزواج التيوتونية) كانوا اقرب الى اولئك « الرهبان » الاوائل الذين ارتكبوا جرائم الاغتصاب كلما امكنهم ذلك ، فقد آمنوا بأن الجنس يصبح اكثر اشباعا ووصولا الى السر القامض كلما كان عنيفا ومفاجئا . وفي القرن الثامن عشر ، كان الانضمام الى جماعة الهولديانيين ، يعني ان العضو يرمى الى ولوج اكثر عدد ممكن من الاعضاء الانثوية ، والافضل ان تكون لعذراوات . وكان هوراس جليني هولديانيا دون ان يعرف ذلك ، وكذلك كان ايزموند في ايامه الاولى . وكان لاكلو هولديانيا ، وكذلك كان الاستاذ الاعظم ، عبدالله يحيى ، وخلفه هندريك فان جريس ، اما الرجل الذي كان مسؤولا عن انضمام ايزموند ، عبدالله مؤمن ، فقد كان ينتمي الى تقاليد آباء الكنيسة الروسية ورهبانها الهيجمونيين (Hegumenos)

وكان الهيجمونيون الاوائل (الذين اخذوا اسمهم من قائدهم الاول (الاب الراهب المطرود من الدير ، والذي كان عضوا راهبا بين جماعة من رهبان الابراج) قد اختاروا فتاة صغيرة جميلة كنوع من الكاهنة الاولى ، واختاروا اثنتي عشرة فتاة اخرى بوصفهن وصيفات لها . وكانت هؤلاء الاخيرات كاهنات ايضا . وعبدت النسوة بوصفهن كائنات مقدسة . ولكن الاعضاء الذكور في

الجماعة كانوا يتمتعون بقدر معين من الحرية مع هذه الكائنات المقدسة ، وهي الحرية التي كان من الممكن حتى ان تصل الى مرحلة الجماع الجنسي الكامل . ومن اجل الوصول الى هذه المرحلة ، كان على الذكر ان يصوم ثلاثة ايام من كل اسبوع طوال عدة شهور قبل ان يتم الاتصال ، ثم يمر بسلسلة من المراحل المحددة بدقة يقترب فيها من السر بالتدريج . فاذا استطاع ان يرقد عاريا على درجات « المبد » الحجرية في ليلة شتائية - من الفسق حتى الشروق - فانه كان يسمح له بان يقوم بدور الخادم لثلاث من الكاهنات لمدة ساعة كل يوم ، فيحمل اليهن الطعام وينظف حجراتهن . وكان يسمح له بان يأكل بقايا الطعام . وبعد مزيد من الاختبارات ، تتضمن غرس شظايا من الخشب تحت اظافره ، ولسع نفسه بالنار عند الاجزاء اللينة من ذراعه ، فانه كان يسمح له بان يصبح « خادما خاصا » لثلاث كاهنات اخريات ، فيفصل ثيابهن ، ويخيطها ويفسل لهن شعورهن . كانت افراقات اجسادهن تعتبر اشياء مقدسة ، وكانت وظيفة هذا الخادم الخاص ان يأخذ تلك الافراقات الى مكان قصي من القابة فيدفنها هناك حتى لا يستطيع اي ذكر اخر من القبيلة ان يعثر عليها . ولكنه - وحده - كان يسمح له بان يلوث نفسه ببرازهن ، ثم يحمم جسده ببولهن . وهذه ميزة كان يحسده عليها كل ذكور القبيلة الاخرين . وكان مزج السائل المنوي للعباد بافراقات « المقدسات » ينظر اليه باعتباره المرحلة الاولى من مراحل الاتحاد بالكائن المقدس . فاذا استطاع ان يعبر بالمزيد من المهام المتزايدة الصعوبة والالم ، فانه كان ينال الاذن بممارسة المزيد من الامتيازات ، حتى قد يصبح واحدا من الرجال الثمانية الذين يقومون بدور « الخدم الخصوصيين » للكاهنة الاولى المقدسة نفسها . وفي هذه الحالة فانه قد يكون الشخص الوحيد الذي يختار بالقرعة من بين الثمانية لكي يشترك معها في طقوس الاحتفالات التي تقام ليلة اكتمال القمر بعد الحصاد ، ثم يجامعها مرتديا جلد عجل . كان عضو الكاهنة الاولى وعضو عابدها الذي شاركها في اقامة الشعائر يجفان بقطعة مقدسة من نسيج التيل بعد الاحتفال ، ثم تمزق قطعة النسيج وتقسّم الى ثمانية اقسام ويعطى كل واحد من الخدم الثمانية قطعة منها ، يعلقها كل منهم على رأس مضوه طوال ما بقي لهم من زمن يقضونه في وظيفتهم السامية .

واظن انه من الممكن ان نرى ان الفكرة الاساسية لدى الهيجوميين ، كانت هي محاولة بناء حالة من الشبق والتوتر الجنسي مرتبطة بالوله الديني ، وان كل مرحلة صعبة او مؤلة كانت مرسومة بحيث تمنع الطامح في الوصول من ان يصبح باي شكل مسترخيا او غير مبال بمهمته . فانه اذا فقد حالة اتعاضه في اي وقت في حضرة الكاهنات ، فانه يجلد ويعاد الى القبيلة محقرا مهانا . وكان معنى هذا انه اصبح يعتمد على خياله الى حد كبير . ويجب ايضا ان نلاحظ ان وضعه الحقيقي كان اشبه بوضع خادمة احدى السيدات ، فكان يعامل باعتباره امراة ، حتى يشعر بالمهانة ، وحتى تصبح ميوله الجنسية قوية ومثمرة . وتقدم الفكرة كلها على انه لا ينبغي ابدا ان يعامل الجنس كشيء « فوق المستوى » او كشيء عادي ، او ان ينظر اليه كشيء من المسلمات . كل شيء مرتبط بشعائر الطقوس اصبح

مقدسا مخيفا ، ومثيرا جنسيا ايضا . واصبح عضو الكاهنة هدفا مقدسا نهائيا، وينظر كل ذكور القبيلة بحسد الى الخدم الثمانية لانهم يحملون على رؤوس اعضائهم قطعة النسيج المبللة بافرازها الجنسي .

وقد فضل ايزموند تعاليم الهيجوميين على تعاليم اليهودانيين . وقسم كبير من الخطاب الطويل الذي كتبه الى جليبي مكرس للمناقشة ضد النوع من الاغواء الذي كان ايزموند يدعو له من قبل . ويظل يردد ان هذا النوع ليس له تأثير دائم ، انه يؤدي الى الاشباع .

والقصة التالية تعد واحدة من اكثر قصص العلاقة بين ايزموند وجليبي أهمية - ومن اسوأها تسجيلا . وقد امكنتني ان اجمع اجزاءها من عدة مصادر ، بما في ذلك بعض خطابات ايزموند - تلك التي وجدت في الصندوق في السقيفة - وخطابات ويوميات كتبها هوراس جليبي ، وخطابات اخرى كتبها ماري ومورين انجستر . وهذه كلها سوف تنقل بنصها في المجلد التالي . اما القصة التي يمكن استخلاصها منها فهي كالتالي :

حينما تم الصلح بين ايزموند وهوراس جليبي في لندن في شهر اكتوبر عام ١٧٧٢ ، كان ايزموند يقيم في منزل ابنة عمه صوفيا في سانت جيمس . كانت صوفيا الان تسمى صوفيا بلاك وود بعد ان تزوجت السير ادموند بلاك وود ، وهو مالك ثري ل احد مصانع الجعة ، كان والده احد من عضدوا الموسيقىار هاندي . وكانت لادي ماري وشارلوت انجستر تقيمان مع اليزابيت مونتاجو ، صاحبة الجورب الازرق ، التي كانت تلقنهما علم الفلك والتنجيم . وافتتن ايزموند بشارلوت اللذيذة البريئة ، التي كانت عند ذاك في التاسعة عشرة والنصف من عمرها . اما جليبي فقد اسرته لادي ماري ، الذكية الجميلة والاكثر تماكلا لنفسها من اختها ، رغم انها كانت تصفرها بعام كامل . (وهذا الاختلاف يعبر بدقة نموذجية عن الاختلاف بين شخصيتي الرجلين ، ان ايزموند الماهر المسيطر ، قد فضل الحلاوة والبراءة ، وجليبي ، غير الواثق بنفسه تماما ، دوخته الاكثر ذكاء وثقافة بين الاثنين) .

ويبدو انه من المحتمل ان جليبي ما كان يمكن ان يرمي الى مثل هذا الهدف البعيد لولا تشجيع ايزموند ، فقد كان يشعر براحة اكبر وهو يفوي من هم دونه في الوضع الاجتماعي . اما ما كان مصدر التأثير على ايزموند ، فهو ان اكثر الرجال نباهة كانوا يدخلون من ابنتي انجستر لما اشتهر عنهما من ذكاء وثروة كبيرة . كانت جماعة الرياضيين تعقد مراهنات سخيفة عليهما ، وكانوا يشعرون بصعوبة منال الفتاتين الراجحتي العقل والمركز الاجتماعي ، اما المحترمون من الشباب - الذين من المحتمل انهم كانوا يبدون في صورة قريبة من شخصية « دارسي » التي رسمتها جين اوستين او مستر بنجلي - فانهم كانوا يغمرون الفتاتين بكلمات الثناء والمجاملة وكانوا يحاولون فتح المناقشات الثقافية معهما . اما استجابة ايزموند فكانت اكثر بساطة . لقد فكر فيهما معا باعتبارهما فتاتين لذيذتين ، وقال لجليبي ان الرجل جدير بان يقضي ليلة مشهودة بينهما معا .

وكان جليبي يعرف انه حينما يقول ايزموند شيئا من هذا القبيل، فانه لا يكون يعبر عن مجرد امنياته التي لا سبيل لتحقيقها . ولو كان هناك اي رجل في لندن قادر على اغواء ابنتي انجستر ، فان هذا الرجل هو ايزموند . كان يتمتع بالموهلات المثالية لاغواء الفتيات المثقفات المدربات على التعامل الاجتماعي : العقل الجيد . فقد كان هووليتشبرج ابرز وافضل طلبة الرياضيات بين جيلهما فسي جوتينجين . وكانت ابنتا انجستر تعرفان ليتشبرج بالفعل - فقد حدث ان قدم اليهما عن طريق شخص لا يقل مرتبة عن الملك نفسه ، فسي هامبتون كورن ، وفحصت الفتاتان منظار الملك العظيم هناك تحت اشراف ليتشبرج . ومن الواضح ان ايزموند لم يكن يجد صعوبة في ان يلتقي كثيرا بابنتي انجستر ، طالما انهما كانتا تقيمان عند اليزابيت ابنة عمه صوفيا . وكان منظار ايزموند الخاص - الذي قام بصنعه مصنع شوارمز في ليدن - قويا قوة غير عادية ، فاقامه في حجرة السفينة في منزل صوفيا بلاكودود ، وثبت رسومه التوضيحية وخرائطه بالدبابيس فسي الحائط ، ثم دعا اليزابيت مونتاجو وضيفتها الساحرتين لدراسة النجوم معه ومع ليتشبرج ، وكانت اليزابيت متلهفة الى هذا العمل . وكان من حسن تصرف ايزموند ان اعد وجبة صغيرة في « مرقبه » - من دجاج الحجل وطيور الغابة (تقار الخشب) والسمن ، والخنزير الايرلندي، وبعض الطيبات الرقيقة الاخرى . طرحت السيدات اسئلة عديدة ، وحدقن في المنظار لمدة تزيد على الساعة . ثم انتقلت المحادثة الى الفلسفة ، وراح ايزموند ولتشبرج يتناقشان في لينيز وفولتير وهيوم ، وفي المقالة الافتتاحية للاماني الكبير ايمانويل كانط التي يقول فيها ان الحقيقة غير قابلة للمعرفة ، وان الحواس هي التي تملئ شكل معرفتنا لكل الظواهر . (كان كتاب « النقد » الذي تطورت فيه هذه الاراء لم يصدر بعد، اذ لم يصدره كانط الا بعد ذلك بتسع سنوات) . تأثرت اليزابيت مونتاجو تأثرا عميقا ، وقالت انها لم تستمع ابدا الى مثل تلك المناقشة العميقة الشاملة المقلقة . كلا ، ولا حتى من بيرك وجاريك ، ولا حتى من جونون نفسه . لقد كانت شيئا فقيلا على الراس ، تلك الفلسفة النقدية الالمانية . ولكن التأثير المطلوب كان قد تحقق . وقالت اليزابيت مونتاجو فيما بعد ان ايزموند كان واحدا من اكثر « العازبين » الشبان نباهة في لندن . واقتنع ايزموند بالفعل بانه قد ترك انطباعا طيبا عند شارلوت . اخذ يدها للحظة متظاهرا بانه يساعدها على الهبوط في ركن مظلم من السلم ، فسمحت له بان يستبقي يدها في يده لمدة ثوان اكثر من اللازم .

ولم يكن هوراس جليبي حاضرا في تلك المناسبة . ونحن نعرف السبب بالتحديد ، لان ايزموند يفسره في واحد من الخطابات الموجودة في مخطوطة «خطابات من فوق احد الجبال» . كان ايزموند يعرف ان جليبي لن يستطيع ان يترك تأثيرا فوريا على السيدتين ، لانه على شيء من الخجل (ولكن ما كان ايزموند يعنيه بوضوح هو ان جليبي ما كان يمكن ان يلاحظه احد وسط جماعة تضم ليتشبرج واليزابيت مونتاجو وهو نفسه) . كان عليه ان يحسن اعداد « مدخله » . واكتشف

ايزموند ما كانت ماري انجستر تقراه ، وامضى جليني اربعا وعشرين ساعة في تفحص الكتاب ووضع ملاحظات ذكية . خرج ايزموند للركوب في الحديقة مع الشقيقتين بعد يومين من ليلة المنظار ، وحكى لهما عن شخصية صديقه جليني الرقيق الخجول النبيل . قال لماري ان جليني قد نشئ بأسلوب ديني مترم ، وان معرفته بالفلسفة الالمانية تدمر عقيدته ، ثم اخترع حكاية مؤثرة بشكل خاص عن جليني في كاتدرائية تشارتر ، وهو يسأل والدوموع في عينيه : « هل كل هذا المجال مجرد نصب تذكاري لقدرة الانسان على ان يخدع نفسه ؟ » . وهكذا فانه حينما اخذ جليني لزيارة اليزابيت مونتاجو بعد ذلك بيومين ، لم تكن هناك حاجة لتشجيع ماري لكي تهتم به . فقد انتهزت اول فرصة لكي تأخذه الى ركن هادىء ، حيث تستطيع ان تسأله باخلاص عن شكوكه . وكانت المقابلة اكثر نجاحا مما كان يتوقمه اي منهما . فقد وافقت على ان تخرج للركوب مع جليني في الحديقة في اليوم التالي ، وانفقت الليلة في حفظ الحجج التي اوردها بترل وتيللوتسون للبرهنة على وجود اثر صناعة الله في الطبيعة . وفي مقابل هذا ، قام جليني ببعض العمل التأثيري لصالح ايزموند ، باشارات غامضة عن احزان سرية وحب مفقود . ولا شك في انهما كانا يكونان فريقا قوي التأثير .

وتم اختيار ايزموند لكي يشكل مكانا مثاليا بتكليفه بتمضية قدر كبير من الوقت مع شارلوت . كانت اليزابيت هي ابنة عمه ، وكانت الفتاتان قد اصبحتا صديقتين لصوفيا بلاك وود . ولم يكن بمقدور احد ان يظن انه من غير الطبيعي اذا سارت شارلوت من ماي فير حتى سانت جيمس لكي تزور صوفيا وتناقشها في الثوب الذي ينبغي ان ترتديه في حفلة الخريف التي تقيمها لادي ساندويتش . فاذا لم تكن صوفيا في البيت ، فلماذا لا تمضي ساعة او نحوها في مناقشة الفلك والميتافيزيقا مع ابن عم صوفيا ؟ .

وعندما وصل شهر اكتوبر الى منتصفه ، كانت شارلوت تعترف لماري بانها ستكون ميالة الى القبول او ان ايزموند تقدم لخطبتها . ولمحت ماري بذلك الى جليني الذي اخبر ايزموند . ودهش حينما لم ير ان صديقه يفره سرور من نوع خاص لسماعه هذه الانباء . ولكن ايزموند كان يرى الامور بوضوح صاف الى درجة كافية لكي يرى ان الموقف كان يتطور بسرعة اكثر من اللازم ، وانه بدأ يبدو موقفا خطيرا . فاذا كانت صوفيا واليزابيت وماري قد عقدن عزمهن على القيام بخطبة ، فانه قد يجد نفسه مرتبطا بخطوبة قبل نهاية الموسم . كان الوقت قد حان للقيام بتراجع مؤقت .

عند هذه النقطة قرر هوراس جليني ان يزيد من وضوح قصته عن « الحب المفقود » وان يضيف اليها تفصيلات ضرورية فأسر الى ماري ان ايزموند مرتبط بابنة كاهن سويسري ، وان والد ايزموند قد اعترض على فكرة ارتباط ولده بابنة قسيس كاليفني وانه هدد بحرمانه من الميراث . وان ايزموند ، مثلما قال جيبون : « تنهد كما يتنهد العاشق ، واطاع كما يجدر بالابن ان يطيع » ، وان العاشقين قد انفصلا منذ ما يقرب من العام ، وان الفتاة قد كتبت الى ايزموند تقول له انها قد خطبت

الى تاجر نبيد من جنيف ،ولكن ايزموند قد بلغه اخيرا ان هذا غير صحيح،
وانها ما تزال دون زواج وانها لم تخطب ، وانها ربما كانت تنتظر ايزموند.

استبد الغضب بايزموند حينما اخبره جيلني بما فعله . لم تكن لديه رغبة
في ان يثير غيرة شارلوت ولا ان يشعرها بالتعاسة ، وانما اراد فقط ان يختفي
لمدة طويلة حتى تياس منه الخاطبات . اما الان فقد اعتقد الجميع انه اراد ان يعود
الى سويسرا لكي يلقي نظرة اخرى جديدة على حبه الضائع . ولم يكن من صالحه ان
ينكر وجود مثل هذا الحب ، فان احدا ما كان ليصدقه .

وبينما كان راكبا مع شارلوت في مارليبون فيلدز سألته ان يظل في لندن
حتى يستطيع ان يصحبها الى حفلة لادي ساندويتش . وعرف ايزموند ان هذا
التصرف يمكن ان يكون قاتلا ، فشرح لها استحالة ذلك ،وعادت شارلوت الى
البيت باكية . وفي اليوم التالي ذهبت ماري انجستر لزيارة صوفيا ، واشتركت
الاثنان في الاحاح عليه للبقاء . وقالت صوفيا انه من السخف وقلة العقل ان
يبرح لندن في قمة الموسم ،وان عمله في ايرلندا يمكن ان ينتظر . وحاول ايزموند
ان يقلل من الضغط الموجه اليه بالقول بانه سوف يعود الى لندن حالما ينتهي من
أعماله ، ولكن لم تكن في هذا اية فائدة ،فقد كانت شارلوت مقتنعة بانه اذا
غادر لندن الان ، فانه لن يعود اليها ثانية ابدا .

جاءت الى المنزل في عصر اليوم التالي وكانت صوفيا بالخارج - وحاولت اقناعه
بالبقاء . واعتذر لها ايزموند بلباقة قائلا انه لا بد ان يرحل للقيام ببعض الاعمال
العائلية المضجرة المتعلقة بالزرعة . سألته بصراحة عن طبيعة هذا العمل ، ولماذا
لا يستطيع ان ينتظر، ثم لجأت الى البكاء ،ووجد ايزموند نفسه يلاطفها ويهدئها
ويربت عليها . كان في الرابعة والعشرين وكان كثير الشكوك . وكانت هي فائقة
الجمال . وقد كتب يقول في خطاب الى لاكلو بعد ذلك بعدة سنوات :

لقد كنت اؤمن دائما بالرأي القائل بان اكثر انفتيات فضيلة وبراة ، هن اولئك
اللواتي دربتهن طبيعتهم افضل تدريب على فن الاغواء ، فاذا وقعن في الحب،
فان مقاومتهن تكاد تكون مستحيلة . والمرة الوحيدة التي وقعت انا فيها
فريسة للاغواء ، حدثت على يد عذراء من هذا النوع . وقد حدث ان صديقا غبيا
جعلها تصدق انني انوي ان اسرع الى الزواج من امرأة اخرى كنت قد برهنت لها
على جداتي بحبها . وجاءت ذات يوم - كنت فيه وحيدا في المنزل، لكي تقنمني .
وحتى تلك اللحظة لم اكن قد فعلت معها اكثر من تقبيلها . وحاولت فسي
البداية جاهدا وبأمانة ان اقنعها ، قلت لها ان صديقي كان ابله ، وانني لم اكن
انوي ان اذهب الى سويسرا . فسألتني عن السبب الذي يجعلني - في هذه
الحالة - مصرا على الرحيل والذي يمنني من البقاء عدة اسابيع اخرى . ثم راحت
تبكي فاخذتها بين ذراعي . حينما قبلتها كفت عن البكاء ، ثم بدأت تقبلني
بشفف وحرارة حتى انني بدأت اتساءل عما اذا كانت فاضلة حقا بالشكل الذي
كنت اظنها عليه . دلني ذوقي على ان الوقت قد حان للتوقف عن تبادل القبلات ،

ولكن حينما حاولت ان اهدئها ، اغلقت فمي بالقبلات وضممتني بشكل اقوى . ثم قالت انها تشعر بانها على وشك الاغماء ، ثم جلست على اريكة ، قلت انني ساذهب للبحث عن بعض الماء ، ولكنها رجعتني ان ابقى وان اجلس الى جانبها . والان ، هل يمكن ان تعتقد انه من غير المعقول - في ظل تلك الظروف - الا افترض انها لم تكن بريئة - او انها لم تكن تتعمد التأثير الذي احدثته بالفعل على العضو الذي اعبدتها به ؟ دلني منطقي على انني اذا جابقتها بما اكتشفته عن نواياها، فربما صدمت وتخلت عن تواضعها ولجأت الى التظاهر الكذاب . ولذلك ، فاني بعد ان ركعت الى جوارها ووضعت راسي على صدرها ، دست يدي تحت صدر ثوبها المفتوح وحررت احدهما من حمائمه المشدودة . وحينما لم تحتج، ادركت انها سمحت لي بذلك لانها احست انها بهذا الشكل تكسبني وتأخذني من الفتاة الوهمية التي تنتظرني في جنيف . وثار فضولي لاكتشاف المدى الذي يمكن ان يصل اليه بها هذا التفكير . تحولت بشفتي الى قدميها ، لم تكن ترتدي جوربا وكانت ساقاها ناعمتين لينتين . وحينما بلغ راسي ركبتيها ، دست اصابعها في راسي ، فظننت ان هذا كان يهدف مني من القيام باي تقدم اخر ، ولذلك فقد تقدمت فعلا ولكن بتصميم اشد . ولكنها لم تبذل اية محاولة لايقافي ، حتى حينما رفعت ذبول ثيابها الداخلية الى اعلى ، حتى وسطها وكشفت من تل صغير ناهد (...) قالت الان « لا ، لا » وحررت ردفها الى جانب من الاريكة ، ولكنها - فيما عدا هذا - لم تبذل اية محاولة جادة لمنهي (...) وركدت بعد ذلك في مكانها ، وقد احتضنتني بقوة ، عارفة انها ليس لها الان ان تخشى اي هجران ، وربما كان من المعقول ان تنتظرني اتقدم لخطبتها . شعرت بانها كسبت انتصارها بسهولة بالغة . ولذلك فاني بعد ان استعدت قواي الحيوية ، ذهبت الى الباب فاغلقت بالفتاح والقيت مزيدا من كتل الخشب في النار، ثم عدت اليها - كانت واقفة تنظر في منظار فلكي كان منصوبا على حامل منخفض - وشرعت احل اشربة ثوبها . احتجت ولكنني تجاهلتها ، لانني شعرت بانها اذا كانت قد عزمت على ان تصبح زوجتي ، فان عليها ان تبدا في اداء واجباتها على الفور . ولم تكن الاحتجاجات مقصودة بشكل جدي ، لانها سمحت لي بان اخلع عنها كل ثيابها قطعة قطعة . بعد ذلك جعلتها ترقد امام نار المدفأة ، ورحلت ابذل جهودي مع نهديها بارادة قوية ...

وبعد ان سمحت لها بارتداء ملابسها ، هبطنا الى الطابق السفلي ودققنا الجرس طلبا للشاي ، وامضينا نصف ساعة نتحدث عن الزواج . وبعد ذلك ، ولما كنا ما نزال وحيدين ، قلت لها ان تاتي معي الى حجرتي لكي نبذل محاولة اخرى واحدة ، فجاءت معي على غير رغبة منها

وهكذا نعرف كيف تحقق ما كان يبدو من الظاهر مستحيلا ، وسلمت لادي شارلوت انجستر عذريتها لرجل كان مصمما على ان يرفضها . ونادرا ما تدخل خطابات ايزموند الى لاكلو الى مثل تلك التفاصيل الجسدية . فقد كان كل من الرجلين مهتما اكثر بمناقشة الخصائص النفسية للنساء . ففي سن الرابعة

والعشرين ، لم يكن ايزموند يملك الخبرة الكافية لكي يدرك ان شارلوت انجستر كانت تتميز ببعض خصائص الشخصية الماسوشية الواضحة ، لقد ارادت ان يمتلكها الرجل القادر على ان يأمرها ان ترقد على الارض وان تفتح ساقها . اصبحت عشيقته ايزموند ، وراحت تتابعه في كل مكان بنفس الطريقة التي تابعت بها لادبي كارولين لامب فيما بعد اللورد بايرون . ومما يشير ايضا - بنفس القدر من الاهمية - الى مزاجها الاستسلامي انها بعد ان اصبحت عشيقته كفت عن حديث الزواج . فمرة اخرى ، اثارَت نزعته الماسوشية في داخلها وضعها الشاذ غير السوي .

ولا بد ان يلخص ما حدث بعد ذلك باختصار . ربما كانت بعض الاشاعات قد وصلت الى اذني ايرل اوف فلاكستيد عن ابنته مع ايزموند . فقد اخبرها ذات يوم بأنه قد اختار لها زوجا . وهو بارون اسكتلندي محترم يمضي جل ايامه في الصيد في احراشه الشمالية . فقالت انها تريد ان تتزوج ايزموند ، ولكن اباهما اجابها بان عليها ان تنسى كل شيء من هذا القبيل . ان ايزموند لم يكن شيئا مذكورا ، اذ هو ابن احد ملاكي الاراضي الايرلنديين لا يملك ما يكفي من المال لاعالة بيت محترم في لندن . وكانت هناك مواقف مشهودة كثيرة ، وتعددت نوبات الفضب واليكاء . فأخذت الفتاة واعيدت الى بيت الاسرة في ويستون على نهر ترينت ، حيث سقطت مريضة لعدة اسابيع . وكتبت ماري انجستر الى صوفيا ، تطلب منها ان تنصح ايزموند بالعودة الى ايرلندا ، لان اباهما كان مصمما على ابعاد شارلوت عن لندن طالما كان ايزموند موجودا فيها . ورحل ايزموند . ومن الغريب تماما ان ماري اصبحت معادية لشقيقتهما بعد تلك الازمة . ربما كانت حانقة للسهولة التي اسرت بها هذه الفتاة الرقيقة الحلوة الطباع شخصا مثل ايزموند ، الذي كان ملائما اكثر لماري نفسها .

فماذا كانت الفضيحة التي عرفت عن لادبي ماري والتي اخبرتني بامرها الانستان دونللي ؟ كانت الفضيحة هي ان ماري قد فضلت ايزموند على هوراس جليني الذي تزوجته في اغسطس عام ١٧٧٣ . وكانت هذه غلطة جليني الى حد كبير . فبعد ان اسكن زوجته في الجناح الغربي من قصر جلوسبي ، ودعا شارلوت لكي تأتي للاقامة عندهما ، لم يتأخر عن دعوة ايزموند . ولبي ايزموند الدعوة على الفور ، واستأنف علاقاته بشارلوت فور وصوله . امضت الفتاة كل ليلاتها في حجرته ، لكي تعود الى حجرتها عند الفجر .

وقد وصلنا وصف الحادثة في خطاب كتبه ايزموند الى لاكلو ، حيث ينتقد ايزموند قصة وردت في كتاب بريفو « ذكريات ومغامرات رجل ذي حيثة » يصف فيها كيف دفعت سيدة فاضلة خادمتها للنوم مع حبيبها حتى تستطيع ان تحافظ على طهرها . ويقول ايزموند ان هذا كلام سخيف ومستحيل الا اذا كان الحبيب سكران .

لقد حدث منذ بضعة سنوات ان كنت مع احد الاصدقاء ، وكنا نشرب البورت

امام نار المدفأة ، بعد وقت طويل من انصراف زوجته وشقيقتها - كل الى غرفتها - للنوم . ودفعنا الحديث الى مناقشة اختلاف بين مزاج كل من المراتين ، فقال انه كان من الممكن ان يكون اكثر سعادة لو انه تزوج شقيقة زوجته . وناقشنا كيف ينعكس مزاج كل منهما في طريقة ممارستها للجنس ، وسرعان ما اكتشفنا ان الشقيقتين تتشابهان في شيء واحد . وهو انهما اذا كانتا نائميتين ، فانهما تسمحان لرجليهما بمواقعتهم دون ان تستيقظ احدهما يقظلة كاملة . وادى بنا هذا الى فكرة اننا قد نجرب ان نكتشف ما قد يحدث لو انه اتيج لي ان اذهب للنوم مع زوجته ، وان يذهب هو للنوم مع شقيقتها التي هي عشيقتي . بدت لنا الفكرة مسلية ، فجربناها ونجحت ...

ولكن ما لم يذكره ايزموند في ذلك الخطاب ، هو انه نتيجة لتلك الليلة التي قضاها مع ماري ، شرعت هي تعامله بصراحة كما لو كان زوجا ثانيا لها - والامر الذي كان فيه مهانة لشارلوت . وبعد ان قضيا هذه الليلة معا ، لم تعد ماري تشعر بحاجة الى اخفاء مشاعرها ازاء ايزموند . كانت مفتونة به منذ البداية ، منذ ذلك اللقاء الاول الذي شرح فيه مع ليتشنبرج فلسفة كانط النقدية . اما علاقتها بزوجها فكانت مختلفة اختلافا كاملا . كانت مغرمة به ولكنها لم تستطع ان تعجب به . وكانت تدرك ان عقله - على صورته التي عرفتھا - كان باكملة تقريبا من صنع ايزموند - الى درجة اقل - من صنع ليتشنبرج . وحينما عاد ايزموند الى لندن - وكان في ذلك الوقت قد اشترى المنزل الطويل الضيق في فيل ستريت قريبا من منزل الدكتور جونسون - تبعته ماري ، واقامت عند صوفيا بلاك وود . وسرعان ما انتشرت اشاعة تقول ان ايزموند نام مع شارلوت وماري في فراش واحد . وليس هناك دليل يثبت هذا ، رغم انه من الاكثر احتمالا ان ايزموند ظل عشيقا للمراتين معا . ونحن نعرف ان ايزموند كتب الى ايرل اوف فلاكستيد في ٢٣ نوفمبر عام ١٧٧٣ ، طالبا يد ابنته بشكل رسمي ، وانه في ٢٨ من نفس الشهر ، تسلم ردا باردا مختصرا يقول فيه الايرل ان شارلوت كانت مخطوبة بالفعل « لسيد نبيل من نبلاء كنت » . ونحن لا نعرف اي نوع من الضغوط استخدمه الايرل ضد ابنته التي كانت ما تزال اقل من سن الرشد . وقد قالت شارلوت فيما بعد لماري انه هدهدها بان يحلق شعر راسها ثم يرسلها الى دير بلجيكي . وبعد يومين من عيد الميلاد التالي ، تزوجت شارلوت بهدوء من السير راسل فريزر ، لورد اوف سيفين اوكس . وهو نبيل يشير اليه دالبول بقوله انه « معتوه » . ويقال ان الايرل قد قال لواند توماس جريفي ، كاتب اليوميات المشهور : « انها الان قد خرجت من يدي ، فلا يعنيني ما تفعله بنفسها » . اما القصة التي يحكيها جريفي عن مبارزة حدثت بين ايزموند وبين والد شارلوت فتبدو واحدة من تلك الاختراعات الخيالية التي لا يمكن اقتفاء اثرها لاكتشاف مصدرها . واذا كان فريزر « المعتوه » قد عرف مقدما بقصة افتتان زوجته بايزموند وتعلقها به ، فانه يكون جديرا بالايثار من بعد . ذلك ان ايزموند وجليني كانا زائرين كثيري التردد على « بلايدز هاوس » في سيفين اوكس خلال الاعوام التي تلت عام ١٧٨٠ . لقد

ذهبت شارلوت الى فريزر بدوطة كبيرة ، ويقال ان فريزر كانت له عشيقة فرنسية في دوفر . وعلى ذلك فان الامر يبدو كما لو كان صورة نموذجية من تلك الاتفاقات المتحضرة التي تميز بها القرن الثامن عشر . وقد وصفت صوفيا بلاك وود صديقتها شارلوت بعد عام من زواجها قائلة انها « تزدهر وفي غاية السعادة » .



وربما كانت قصة مورين انجستر، اصغر الشقيقات الثلاث، هي اكثر القصص الثلاث اهمية وامتاعا، ولكن سوء الحظ، انها اسواها تسجيلا وحفظا . ويقتطف بوزويل من هوراس والبول قوله انها لا بد ان تكون تجربة مبهجة ان ينال المرء حب مثل اولئك الشقيقات الجميلات الثلاث، وانها تجربة لا بد ان يحاول كل رجل ان يمر بمثلها في خلال حياته . كانت مورين - حينما تزوجت ماري من هوراس جليني - في الثالثة عشرة من عمرها فحسب، ورفض والدها ان يسمح لها بالذهاب الى لندن لكي تقيم عند اليزابيت مونتاجو، بعد ان عرف - دون شك - بما حدث لابنتيه الاخريين هناك . ولكن طالما ان ماري قد تزوجت، فقد كان من المستحيل ان تمنع مورين من الذهاب الى جلوسي والبقاء هناك . ومن الغريب تماما، ان الايرل كان يقدر هوراس جليني تقديرا عظيما، وفي عام ١٧٨١، بعد ان ورث جليني اللقب من اخيه، وصفه الايرل بانه « اكثر الرجال عطفًا وبهجة في انجلترا » . وهذا جانب من جوانب جليني لا بد ان تذكره . ولما كان صديقا ملازما لايزموند، فانه عندما كان يقف بالقرب منه، كان يظهر في صورة غير مناسبة . ولكن اذا لم تأسره الفقرة، او اذا لم يحاول ان يقلد ايزموند او ان يعتمد التفوق عليه، فانه يبدو كما لو كان رجلا جذابا مثيرا للاعجاب، اصبح بالتدريج نموذجا من نماذج الارستقراطيين الرياضيين . (وهناك جانب اخر من طبيعته، يتمثل في اهتمامه بالحكايات الشعبية الاسكتلندية . وكان اقتناعه بأن ملحمة « او سيان » كانت عملا مزيفا هو الذي دفعه الى اكتشاف قصص المرتفعات الشمالية الشعبية الاصلية، التي قام بتجميعها، في شكل اقرب الى شكل مجموعة لونرود كالفالا، وحولها الى بناء قصصي واحد تحت عنوان « ذخائر الشمال » في عام ١٧٩٣) .

وفي الخطابات التي وجدتها في نهاية مخطوطة جليني، لم اعثر الا على اشارة واحدة لما حدث بين ايزموند ومورين انجستر . ففي الخطاب الثاني، يكتب ايزموند قائلا : « تؤمن قبيلة جرمانية معينة تعيش في المناطق الشرقية العليا من الدانوب بأن بعض العذارى لهن قدسية خاصة، وانه يجب النظر اليهن باعتبارهن الحافظات المقدسات لاسرار الخليقة . . ويمكن معرفة مثل تلك النسوة من خلال ما يبدو في عيونهن من قدرة دائمة على الحلم وابتعاث الاحلام في الاخرين، مع رقة في التعبير المصحوبة بالرشاقة الطبيعية الجديرة بربة من الربات . وحينما يلتقي الرجال بمثل تلك النساء، فانهم يصبحون غير مطالبين الا باداء واجب واحد : ان يعبدوهن . وبعبادتهن، اعني تأكيد جلال الربة في قدسيتها الابدية » . وعلى

هامش هذا الخطاب الى جوار تلك السطور ، هناك سطر بخط هوراس جليني يقول فيه : « بهذا ، فاز بدكاء ، بمورين انج » .

وكانت هذه ، حتى تلك اللحظة ، هي كل معلوماتي عن مورين انجستر . وفي وقت متأخر من ذلك اليوم ، قمت انا وانجيلا والستير بفحص كل ما وجدناه في الصوان الذي اخذناه من السقيفة . ولكننا لم نعثر على المزيد الذي يمكن ان يؤدي الى هدفنا . وسوف اكتب في مكان اخر عن الرواية التي كتبها ايزموند في مرحلة باكرة - في سن التاسعة عشرة - تحت عنوان « الارديس وايونيتا » - حينما كان في جوتينجين ، وعن قصيدته الطويلة « في ذكرى تشارلس تشيرشيل » التي كتبت في نفس الوقت تقريبا . وقد عثرت على الرواية والقصيدة معا في المكتبة الكبيرة في قصر جلوسبي ، ولا شك انهما وصلا الى يدي هوراس جليني الابن تنفيذاً لوصية ايزموند . والقصيدة لا يمكن ان تكون خالية من اي قيمة . كان تشارلس تشيرشيل واحدا من افضل الشعراء المعروفين في عصره . كان قسيسا ، ساخرا في أسلوبه ، مصارعا (فقد كان ذا جسد هائل القوة) وكان عضوا في نادي نيران الجحيم ، ومات في سن الثالثة والثلاثين نتيجة حمى اصابته عدواها حينما كان يزور ويكليز في فرنسا . وقابله ايزموند ، واعجب به بوضوح ، وفي مخطوطة رواية « خطابات من فوق احد الجبال » يذكر تشيرشيل (كذا) باعتباره « واحدا من اسوأ اعضاء جماعة العنقاء شهرة . فاذا كان هذا صحيحا - وهو محتمل تماما كما نعرف خلال كل المعلومات المنقولة عنه - فان هذا يثير الاهتمام باحتمال ان تشيرشيل كان اول من اخبر ايزموند بأمر الجماعة .

بلغت استشارتي بسبب اكتشافي لذلك المزيد من المواد حدا جعلني اكتب خطابا طويلا الى فليشر من قصر جلوسبي - الخص له فيه اكتشافاتي حتى تلك اللحظة - بما في ذلك بعض المعلومات عن جماعة العنقاء - مقترحا انه من الافضل ان اكتب هذا الكتاب (الذي تقرأه الان) كمقدمة مستقلة لمذكرات ايزموند . كانت ما تزال هناك بعض الاسئلة دون جواب : كيف مات هوراس جليني ؟ ما الذي حدث لمورين انجستر ؟ وقبل كل شيء ، ما الذي حدث لايوموند في سنواته الاخيرة ؟ ولكن كان من الممكن ان تترك هذه الاسئلة جانبا لتكون موضوعا لباحث اخرى .

وقبل مغادرة قصر جلوسبي - بعد يومين من كتابة هذا الخطاب - اكتشفت اجوبة جزئية لاثنتين من تلك الاسئلة . كنا قد قرنا ان نرحل في الساعة العاشرة صباحا تقريبا ، لكي نحاول الوصول الى ادنبرة في وقت متأخر من الليل . تناولنا طعام الافطار مبكرين . وبينما كانت آنجيلا تحزم اخر ما سوف نأخذه معنا في الدقائق الاخيرة ، درت انا دورة حول المكتبة . كان الكثير من الكتب قد افسدته الرطوبة احيانا ، وكان احدهم قد صنع كومة من تلك الكتب التالفة في احد اركان الحجرة ، ربما بنية ان يرسلها لكي يعاد تغليفها في مكان ما . كنت اعرف ان هذه الفرفة لا بد وانها تبدو بنفس الصورة التي كانت عليها حينما اشترك ايزموند وهوراس جليني في الشراب في اواخر كل ليلة هنا - ثم قررا ان يتبادلا الفراش .

حاولت عدة مرات ان اضع عقلي في وضع او حالة سلبية ، لكي احاول ان « اتلقى » ايزموند (كما يتلقى جهاز الاستقبال رسالة لاسلكية) ولكن المنزل كان يعج بالحركة واصبحت عاجزا عن التركيز . وفجأة تماما ، وصات الرسالة . اصبحت المكتبة مألوفة لي بطريقة غير مألوفة . وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني ان اصف بها احساسى . ان احساسنا تجاه الاماكن تصنعها غالبا ذكرياتنا وما يمكن ان تبعثه لدينا تلك الذكريات من تداعيات داخلية . ولكن ذكريات ايزموند عن تلك المكتبة كانت مختلفة كل الاختلاف عن ذكرياتي . وهكذا ، اصبحت المكتبة - بمعنى من المعاني - مكانا مختلفا . ووجدت نفسي انظر الى رف مرتفع في احد الاركان قريبا من النافذة . عبرت الحجرة الى هذا الرف . كان « ايزموند » قد كاد يتلاشى الان بالفعل . كان الرف خاليا ، والخشب المشغول من خلفه كان مكحوتا وقد بللته الرطوبة ولزوجة الطلاء الجديد . وخطر لي انه لو كانت هناك كتب فوق هذا الرف قبل طلائه ، لكانت الان موجودة بين الاكوام المتراكمة في ركن الحجرة . ذهبت الى تلك الاكوام ورتبتها على شكل صف طويل على الارض ، وقد قلبت كعوبها الى اعلى . ولم يبد لي اي عنوان من عناوينها ذا اهمية خاصة : كتب صلوات ، وكتب رحلات ، قصائد كاوبر ، بعض كتب سكوت . بل كانت هناك نسخة من طبعة توشفيتز لاحد كتب هنري جيمس . رحت افتحها ، واحدا بعد الاخر ، عشوائيا ، ملقيا نظرات سريعة الى صفحات العناوين الداخلية الاولى . التقطت نسخة من كتاب « تقرير عن جزر ساندويتش » كانت قد افسدت بشدة بسبب الرطوبة ، والصفحات تمعجت من البلل . وحينما نظرت الى صفحة العنوان الداخلية الاولى ، عرفت انني وجدت ما كنت ابحث عنه . كان الكتاب بقلم مورين انجستر . وهو من نشر موراي ، ناشر اللورد بايرون ، في لندن عام ١٨١٢ ، اي في العام الذي بلغت فيه مورين عامها الثاني والاربعين . كان الكتاب مهدي الى « ذكرى هوراس ، لورد جليني » . وتحت هذا الاهداء ، كتب احدهم : « طعن في عينه اليمنى بيد احد القتلة المجهولين في ٢٨ يوليو عام ١٧٩٦ » . كانت الكلمات قد تبللت الى درجة سيئة وامتزج الحبر باليا ف اللورق متشعبا منتشرا حتى اصبحت قراءتها عملا على شيء من الصعوبة .

وهكذا ، فقبل ان نغادر قصر جلوسبي في ذلك الصباح ، كنت قد عرفت شيئين آخرين عن عائلة جليني : ان هوراس قد طعن ولم يطلق عليه الرصاص . وان مورين انجستر قد سافرت الى الشرق في ايامها الاخيرة ، وزارت اليابان واستراليا وجزر ساندويتش . وقد تأكدت فيما بعد من ان الكلمات التي كتبت تحت الاهداء ، كان كاتبها هو ابن جليني .

كنت مسرورا من نفسي الى درجة كبيرة . لم تكن الزيارة قد اثمرت بالدرجة التي كنت ارجوها . ولكن كانت كل ثمارها ثمينة وذات قيمة كبيرة . كان الستير وانجيلا سعيدين ايضا . لم يكونا قد عثرا على بقية مذكرات دونللي . ولكنهما كانا قد عثرا على نسخة من الكتاب المقدس تساوي عشرين الفا من الجنيهات .

زودتني معرفتي بان جليني كان قد طعن بمادة للتأمل ، وخاصة بالنظر الى

ما اضافهُ ايزموند على خطابه الاول بعد التوقيع عليه : « انني ارجوك ان تدمر ، او على الاقل ان تخفي هذا الكتاب عن الانظار ، ليس فقط باسم صداقتنا ، ولكن من اجل سلامتك انت وسلامتي » . فهل كان ايزموند يواجه اي خطر تهدده به الجماعة ؟ هل يمكن ان يكون موت جليني نتيجة لتجاهله تحذير ايزموند ؟ كانت هناك سمة واحدة غريبة - على الاقل - في جريمة القتل : انها حدثت في حجرة صغيرة بالطابق الثاني . فاذا كان جليني قد طمن وهو في الفراش وقتل هناك ، فلماذا لم يكن نائما في احدى حجرات النوم الكبيرة المطلّة على البحيرة والمنحدر ؟ وجدت نفسي اتمنى لو كان بوسعي ان اتصل بايزموند لكي اسأله . ولكن لم احظ باي قدر من التركيز يعطيني المفتاح الذي كنت بحاجة اليه .

عدنا الى شقة الستير في لندن في الساعة الثانية من عصر يوم الجمعة . كان يوما مشمساً . وفي الحقيقة كان اكثر حرارة من ان يسمح بالراحة . وجدت نفسي اتمنى لو كنت قد اتيت معي بملابس الصيف . كنت افكر في ايزموند الذي كان جسده يلدوب ويتلاشى في قلب مقبرة العائلة منذ اكثر من مائة عام - فاتمى لو استطيع بشكل ما ان اشاركه رقدته .

كان الستير مشغولا بعمل ما في المدينة . فتناولت انا وانجيلا غداء متأخرا . من المستحيل ان تقوم بين شخصين علاقة حميمة على حين فجأة وبشكل عنيف ، دون ان يستمرا في التفكير احدهما في الآخر - بمعنى من المعاني - بوصفهما عاشقين . ولكن الدفاء الذي شرع ينمو بيننا لم يكن من ذلك النوع الذي ينمو بين الرجل وبين زوجته . وجدت نفسي اخبرها بتلك التجارب الغريبة التي «اصبح» في اثناها ايزموند ، وكيف ادت بي آخر تلك التجارب الى العثور على كتاب موريس انجستر . توقعت منها ان تجد في الامر ما يبعث على الاشتمام ، او ان تنظر اليه باعتباره شيئا مسليا ، ولكنني لم اتوقع منها ان تجده امرا قابلا للتصديق بشكل كامل . فقد كنت على كل حال ، اغرق نفسي بشيء من العمق في ايزموند ، وربما الى درجة اكثر من اللازم . ولكن رد فعلها ادهشني . ارنبتك وبدأ عليها الانزعاج . قلت :

« لا شيء يستحق القلق . انما نظرت الى الامر كشيء يثير الاهتمام » .

وجدتني احتج بوجهة النظر العقلانية التي توقعت منها ان تأخذ بها . ولكنها قالت ان الستير قد تحدث معها عن شعوره بالغربة في قصر جلوسبي ، وانه تسأل عما اذا كانت حجراته مسكونة » .

بعد الغداء بنصف ساعة ، وبينما كنت افحص مخطوطة رواية جليني ، قالت :

« هل تظن انه يحاول ان يقول لك شيئا ؟ »

« من ؟ »

« ايزموند . »

حاولت ان اوضح لها انني لا اشعر - او انه ليس لدي احساس - بحضور ايزموند . وانما انا ارى الاشياء - ببساطة - بعينين هو كما لو كنت انا ايزموند .

والمرء لا يحاول ان يخبر نفسه بشيء ما »
 قالت : « اظن اننا يجب ان نتصل بهذا الدكتور كورنر » .
 كنت قد انتويت ذلك ، ولكنني كنت اريد ان اؤجل ذلك الاتصال لمدة اربع
 وعشرين ساعة اخرى . كنت اريد ان امضي امسية هادئة في فحص الاوراق
 المختلفة التي جئنا بها معنا من جلوسبي . قالت انجيلا :
 « اسمح لي بأن اتصل به » .
 « حسنا . اذا كنت تريدين ذلك » .
 وبعد عشر دقائق ، قالت :
 « لقد دعوته لشرب كأس معنا في الساعة السادسة » .
 وفي حوالي الخامسة والنصف ، دق جرس التليفون ، فرفعت انجيلا الساعة .
 وضعت يدها على الساعة وقالت :
 « انها آنا دانكلمان .. »
 هزرت رأسي بقوة لكي اؤكد لها انني لا اريد محادثتها ، فقالت لها انجيلا
 انني بالخارج وانني لن اعود الى وقت متأخر . ذهبت الى الحمام بينما كانتا
 تتحدثان ، وتحممت . وحينما عدت بعد عشر دقائق كانت انجيلا ما تزال تتحدث ،
 ولكنها انتهت المكالمة بينما كنت ابدل ملابسني في حجرة النوم .
 « تلك المرأة مرعبة تماما . اتمنى لو انني لم أعطيها هذا الرقم » .
 « ماذا كانت تريد ؟ »
 « لا بد انها تملك حاسة سادسة . لقد قالت انها قد سمعت الان توا ان
 كورنر موجود في لندن وانها ارادت ان تنصحك الا تراه . ثم راحت تسرد علي
 قصصا طويلة متشابهة عن مقدار ما يملكه من شر وقدرة على الابداء » .
 « ماذا قالت من افعاله ؟ » .
 « اوه .. مشاجرات عما كان يعنيه راينخ وما الى ذلك . ولكنها قالت انه
 يذيع عنهما اشاعات كاذبة ، وانها تنوي ان تقاضيه بتهمة القذف . اما كل ما
 كانت تقصده فهو انها تريدك ان تتجنب كورنر . فاذا حدث ان قابلته ، فلا تمدق
 كلمة واحدة مما يقول » .
 كنت جالسا على الفراش ، اعقد رباط رقبتني . اقتربت مني انجيلا وغرست
 اصابعها في شعري المتل . انتابني دهشة بسيطة ، ولكنني افترضت ان هذه
 المكالمة قد صدمتها بشكل ما وانها تريد شيئا من التدليل . احطت خصرها
 بذراعي وضغطت عليها قليلا . اخذت يدي بكلتا يديها وضغطت بهما على نهديهما .
 نهضت واقفا ، وانحيت عليها ومنحتها قبلة لكي اطمئنها ، فوجدت نفسي اضمها
 بقوة حتى التصقت بي ، واصبح جسدا كلة واحدة مندمجة . وبعد ان تبادلنا
 القبلات للحظة . قالت بصوت متوتر :
 « انه شيء مرعب . ولكنني اريدك ان تمارس الجنس معي » .
 « لا يكاد يكون هناك وقت » .

ولكن كان باستطاعتها ان تشعر بي وانا اتصلب في التصاقى بها . . . كانت اكثر من مستعدة لممارسة الحب . وحينئذ ، فجأة ، انفلتت من بين ذراعي وابتعدت عني . قلت :

« ماذا حدث ؟ »

انفجرت باكية وقالت :

« انني اكراه نفسي . »

« لماذا ؟ »

« انها هذه المرأة الكريهة العفنة . اعتقد انها تستخدم التنويم المغناطيسي .

فحينما كانت تتحدث معي . . . »

لم تستطع الاستمرار في الكلام . احتضنتها مرة اخرى ، ولكن دون رغبة في هذه المرة . قلت لها مؤكدا انه من الصعب القول انه من المخجل ان يكون المرء قابلا للتأثر بالايحاء . وبعد قليل من الاسئلة اكتشفت ان السيدة دانكلمان قد تحدثت عن الاحتفالات الجنسية الجماعية . قالت انجيلا :

« اعرف هذا ، ولكنها مسألة تبدو كريهة جدا . لقد اردت ان اغتصبك . »

« لا تسمح لي بأن اطفئ شعلتك الملتهبة . »

ولكننا نعرف معا ان نوبة الحمى قد انتهت . ولكي اؤكد ذلك ، ارقدتها على الفراش ، وقبلتها برقة ، ثم ربت على نهديهما وفخذيها بيدي . استرخت مثل طفلة صغيرة . كان بوسعنا ان نمارس الجنس في تلك اللحظة ، ولكنه كان سيصبح جنسا رقيقا هادئا مثل ما يمارسه زوجان طيبان ، كما لو كان امتدادا لقبلتنا ، ولن يكون حمى مسعورة متأججة . وبعد عشر دقائق، حينما كان جرس الباب يدق ، كنت اشرب كاسا من المارتيني اشتدت حاجتي اليه ، وكانت انجيلا تتحجم في الحمام .

كان كورنر رجلا غريب الهيئة : طويلا ، محدودب الكتفين ، رأسه يكاد يكون اصلع . وقد ذكرني على الفور بقائد الفرقة الموسيقية فورتو انجلر . لاح لي صدغه ضعيفا ، ولم ينم الوجه - بشكل ما - عن عزيمة قوية . ومع ذلك فقد كان الاثر العام الذي يخلفه هذا الشكل الغريب هو الاحساس بذكاء داخلي وقاد غير مألوف . كان صوته مرتفع النبرة الى حد ما ، ولكنه كان رقيقا ، يكاد يكون ذا تأثير مغناطيسي منوم بعد ان يتكلم عدة دقائق . كانت اللكنة الالمانية قوية ، وبدأت بذاته الرمادية غالية الثمن ، ولكنها ظلت تلبس منذ وقت طويل حتى علتها لمعة خفيفة .

رفض ان يشرب كاسا : « انني لا اشرب سوى القليل من عصير الفاكهة » ثم جلس على حافة مقعد كبير عميق ذي مسندين وقد وضع يديه البارزتي العظام بين ركبتيه ، عاملا على ان يبده في وقت واحد بمظهر فيه كثير من الاسترخاء وعدم

الراحة معا . حينما دخلت انجيلا ، قفز واقفا على قدميه ، وانحنى مقبلا يدها
بدمائة وتهذيب طبيعيين ، وفي رشاقة بدت تعبيرا عن شخصيته الداخلية .
اقترحت انجيلا ان يجلس على الارىكة . وفي هذه المرة ، قذف بنفسه الى الخلف
في احد ركني الارىكة بتلقائية مبالغ فيها ثم وضع ساقا على ساق ، كاشفا عن
جوربه المصنوع من الحرير ذي الخط الابيض الناصع الطولي . ثم بدا يتكلم :

« حسنا ، يا عزيزي مستر سورم ، هذا حقا شرف عظيم لي . انني اعرف
كتبك معرفة جيدة بالطبع . (وقد اتضح لي فيما بعد ان هذا صحيح ، فقد كان
يقتبس منها اقتباسات طويلة في حديثه بطريقته الالمانية التعليمية) واسمح لي ان
اقول منذ اللحظة الاولى انني اتمنى ان تجد في بعض آرائي ما يثير اهتمامك ، مثلما
اجد انا في آرائك ... »

كان يوسفي ان ارى ان انجيلا كانت تكاد تموت من تلهفها الى ان تسأله عن
اسرة دانكان ، ولكن كان من الصعب ان نوقف مجرى الحديث الدائر عن الافكار
والآراء بالاضافة الى ان المرء كان جديرا بأن يشعر بتفاهة مثل هذا الموضوع بالمقارنة
الى مناقشة افكار هولدرلين وباسبرز .»

لن احاول هنا ان انقل تقريراً كاملاً عن محادثته . فقد مضى في حديثه ،
باستمرار وثبات تقريبا ، حتى غادرنا عند منتصف الليل . وبدا حديثه من النزعة
الرومانتيكية الالمانية والميتافيزيقا الفلسفية عند فلاسفة الالمان ، حتى وصل الى
افكار راينخ وتطويرة هو لتلك الافكار . ولا يمكنني هنا سوى ان اقدم صورة سريعة
لافكاره المحورية الرئيسية .

كان دانكان وزوجته قد لخصا لنا وضع ويلهلم راينخ . ولكن كورنر وصفه
بشكل اكثر اكتمالا : المراحل الثلاث ، بدءا من عمله بوصفه احد اتباع المدرسة
الفرويدية ، ثم انفصاله وابتعاده عن فرويد الى « تحليل الشخصية » - التي قد
يعتبرها اكثر علماء النفس مساهمته العظمى في هذا العلم - واخيرا ، مرحلته
« النزعة » او المتهوسة ، حينما اعتبر نفسه « عالما طبيعيا » ، وحينما اعتقد انه قد
اكتشف نوعا غامضا من الطاقة يدعى « الاورجون » يمكن ان يركز بطرق مختلفة .
ولكن ما ادهشني كان ما اثبته كورنر من ان راينخ كانت له نظريات مادية النزعة -
بقدر ما من المادية - حول الامراض العصبية (وقد كان راينخ عضوا في الحزب
الشيوعي حتى فصل منه بسبب آرائه المعارضة لآراء الحزب حول اسباب الفاشية) .

وقد بدأت افهم كورنر بصورة افضل حينما تحدث عن فكرة راينخ حول « درع
الشخصية » . كيف ينمي الناس انواعا مختلفة من القشور الصلبة حول شخصياتهم
لكي يغطوا انواع قصورهم وتقاط ضعفهم والثغرات التي يخشون منها على امنهم
الداخلي ، وكيف يمكن لتلك القشور في الوقت المناسب ان تتحول الى درع سابعة
- مثل الحلة الفولاذية التي كان فرسان القرون الوسطى يرتدونها في الحرب -
تخلق الشخص في داخلها . ومن الواضح ان كورنر قد آمن بهذه الفكرة ايمانا
مطلقا واستقرت في اعماقه . ولاح لي ان هدفه قد اصبح هو الا تكون لشخصيته

اي دروع على الإطلاق ، وبدا لي كما لو كان في حالة سيولة كاملة دون حماية – او تحصين – من اي نوع . وسرد علينا بصراحة كيف عالجه راينج من اصابته بتصلب العضلات كانت تسبب له آلام تقلصات الياف العضلات المضنية . وكان هذا التصلب راجعا بشكل اساسي الى الحرج الذي يمكن ان يشعر به رجل شديد الحساسية – مثلما تبدا كتابة تلميذ تتصلب وتتشنج يده حينما يطل المدرس الى كراسته من فوق كتفه اثناء الكتابة .

وبعد كل ذلك كان من الصعب ان افهم كيف حقق كورنر تحوله الى نظريته عن الوعي الباطن – رغم انه هو نفسه قد اعترف بأنه لا يرى اي ترابط بين الفكرتين . وفكرته – اساسا – تتلخص في ان الحضارة والعقل المنطقي ، قد دفعا الانسان الى حالة اصطناعية زائفة . وقد نظر الى قدرة الانسان على التفكير باعتبارها نوعا من السقوط من حالة النعيم المبارك ، شكلا من اشكال الخطيئة الاصلية . وقد اطلق على الوعي اسم : « ضوء النهار الصناعي » ، وقارنه بالضوء الكهربائي الذي اعانى الانسان على ان يرى في الظلمة ، ولكن الضوء الذي كان من نتيجته ان عزل الانسان بحدّة عن الليل الممتد خارج نافذته . قال ان الحيوانات بشكل ما تتطابق مع الطبيعة، اما الانسان فقد وقع في شرك حجرة وعيه ذات الضوء الكهربائي .

ويظهر هذا بشكل خاص في المجال الجنسي ، لان الجنس ينتمي بشكل اساسي الى ذلك « الليل » الممتد خارج النوافذ . الحيوانات تنزل الى الجنس مثل تمساح ينزل من ضفة النهر الرملية الى المياه (هذه صورة كورنر) ، اما الانسان فلا بد ان يقفز الى المياه من فوق منصة مرتفعة . انه يصل الى هناك لا خلاف ، ولكن ان لم يكن غواصا ماهرا ، فان تأثير القفزة والفوضى المفاجيء يمكن ان يدمره . قال انه من الحق ان الجنس يعتمد على الانفصال القائم بين الذكر والانثى ، مثلما يعتمد مولد الكهرباء على التنافر بين قطبي المغناطيس . ولكننا بالفنا في هذا الانفصال حتى اصبح « قفلا » آخر اضافيا وضع على باب السجن . وتكاثرت انواع الاحباط والخيبة ، اصبحنا معزولين غرباء عن المجتمع واحدا عن الآخر ، بالاضافة الى اغترابنا عن الطبيعة . وتتبدى مظاهر المرض في تزايد نسبة الجريمة ، وفي الطبيعة البربرية المفثية التي تبدو بها بعض الجرائم – وقد اشار هنا الى بعض الجرائم المذكورة في كتيبي .

الاجابة ، او الحل طبقا لما يقوله كورنر بسيطة بسيطة جميلة . ان الجنس ينبغي ان « يطهر » حتى تصبح العلاقة الجنسية بين البشر طبيعية مثلما هي بين الحيوانات . فاذا ما تمكنا من ازالة الحاجز الجنسي الهائل بين الناس ، عادت الرابطة القوية القديمة بين الوعي والوعي الباطن الى سابق عهدها ، وسوف يستفيد الانسان من حضارته – التي لن تعود وحشا مثل وحش فرانكشتاين كما هي الآن – بالاضافة الى استفادته من بساطة الحيوان الصحيح التكوين . ان « سفر التكوين » مصيب في قوله ان « الخطيئة » جاءت من وعي الانسان او شعوره بالخلج الجنسي . يجب ان يختفي « كل » خجل من اي نوع .

عاد آلستير الى البيت حينما كان كورنر يشرح آراء راينغ ، وافتتن به آلستير حتى انه نسي ان يصب لنفسه ما يشربه . وبعد ساعة ، اقترحت ان نخرج جميعا لكي نتناول طعام العشاء ، ولكي نمضي في « المناقشة » (التي كانت تكاد تكون محاضرة تقريبا ، رغم انها كانت تلقى باكثر الاشكال العادية وغير الرسمية سحرا وجاذبية) . طلبنا عصير نبيد تشابليس الفرنسي مع الطعام ، وشرب كورنر كأسين بعد ان اضاف اليهما الماء . ثم سرنا حول الميدان مدة من الزمن - فقد قال كورنر انه يحتاج دائما الى الحركة الجسدية اذا كان عقله يعمل بصورة جيدة - ثم عدنا الى الشقة . كانت لدي بحفظات معينة ازاء افكار كورنر ، ولكن كان بوسعي ان ارى ان صاحبي الآخرين سوف ينظران اليها كشيء من المماحكة . ودون اي تردد ، وصفت آنجيلا ما كانت تجده من كوابح جنسية في طفولتها ، وقال لنا آلستير كيف انه لم يتخلص ابدا من الاحساس بالخجل والعار حينما نظر اليه شخص ما من فوق حاجز المرحاض في المدرسة فضبطه وهو يمارس العادة السرية . رايت آنجيلا وهي تجفل ازاء هذا الاعتراف ، واعتقدت انها لم تتخيل ابدا ان الصبية يمكن ان يكونوا على هذه الدرجة من الحيوية الجنسية . ولشدة دهشتي ، مضت آنجيلا لكي تصف ما حدث لنا حينما زرنا اسرة دانكمان لآخر مرة . وظننت في البداية انها لم تكن تريد الا ان تخبره بان انا دانكمان اصررت على ان تعري نفسها ، ولكنها بعد ان احمر وجهها ورمقتني بنظرة سريعة ، انتقلت الى الحديث عما حدث في السيارة . وكان هذا هو دور آلستير في الجفول ، ان لم يكن في الظهور بمظهر المصدوم . وانتهت بقولها : « كيف يمكنك ان تفسر ذلك ؟ »

لاح الاهتمام والاستغراق في الموضوع على كورنر . وظل يومىء براسه ببطء .

« انهما ماكران » ماكران جدا . لقد كان علي ان اطردهما من مجموعتنا لان ما اراداه حقا كان هو ان ينظما جمعية للاحتفالات الجنسية الداعرة . (حينما قالت آنجيلا : « هذا هو ما قاله عنك . » او ما براسه في حركة اكثر وقارا) اتفهمون ؟ انهما ليسا من البشر المتحضرين . انهما ينتميان الى مرحلة من مراحل تطور المجتمع اكثر بدائية - مرحلة التابو (المحرمات) والتضحية بالبشر كالتقريبات . سأحكي لكم ما ادى الى انفصالنا النهائي . كان علي ان اذهب الى المانيا للقيام ببعض الاعمال القانونية . كنت اعرف ان راينغ كان يثق فيهما ، ولذلك فقد تركت لهما مسؤولية الاشراف على مجموعتنا . وجاءت انا ذات يوم الى الاجتماع حاملة رمزا ضخما لعضو التناسل الذكري مصنوعا من الخشب - يمكن ان تطلقوا عليه صفة الشيء الخرافي . وزعمت ان هذا الرمز الخشبي الضخم كانت تستخدمه قبيلة افريقية في احتفالات افتراع العذارى الاسيرات قبل تقديمهن ضحايا وقرابين للآلهة . وانتم تعرفون ان واحدا من اهم مبادئنا هو ان تمريناتنا على خلق الالفة بين البشر تقوم على التوقف قبل الاتصال الجنسي الكامل . وليس هذا لاننا نعتبره شيئا سيئا ، وانما لانه يخفف التوتر بسرعة كبيرة ، والتوتر ينبغي ان يتصاعد حتى يمكن ان يستخدم في تحويل اتجاه العقل . (فكرت في الهولديانيين واحتفالاتهم مع العذارى المقدسات) .

ولم يحاول هذان الاثنان - دانكمان وزوجته هذان - ان يعارضا هذه الفكرة بطريقة مباشرة ، ولكنهما اصرا على ان تمرينانا على خلق اللفة ينبغي ان تتصاعد حتى تصل الى ان يمارس شخص مثل الكاهن الجنس مع احدى النساء باستخدام رمز خرافي لعضو الذكورة التناسلي ، ثم يقذف لبنا دافئا داخلها في لحظة بلوغها ذروة النشوة . وقد استمتعوا جميعا بهذه العملية بالطبع ، واصبحت الفتيات يصرخن من التهيج حينما تبلغ المرأة ذروة نشوتها . وكان كلاوس دانكمان بالطبع هو « الكاهن » في كل مرة . وكان دائما يصصر على ان يرتدي ملابسه كاملة ، فكان يرتدي حلة كاملة قاتمة اللون ، ولكنه يخرج عضوه بارزا من فتحة بنطاله بعد ان يطلبه ببعض الالوان الزاهية مثل الثعبان . (وكان راينغ يقول ان دانكمان وزوجته يعانيان من كل انواع الانتكاس الجنسي التي وصفها فرويد) . ولحسن الحظ عدت انا بعد بداية هذه العمليات بوقت قصير . وطالب دانكمان وزوجته بتصويت ديموقراطي بين الاعضاء لتوضيح من يريد الاستمرار في هذا « التمرين » . (هنا احمر وجه كورنر ، وبرزت عروق جبهته) . قلت لهما انه لن يكون هناك تصويت . فان هذا كان مناقضا لافكاري ، فاذا لم يوافقا عليها كان يوسعهما ان يذهبا لتكوين مجموعتهما الخاصة . وعرضت انا ان استقيل تماما لكي اكون مجموعتي الخاصة في مكان آخر . ولكن لم يكن هناك من يريد ذلك بالطبع - فقد كنت اكتسبت شخصية الاب وبوضعه بالنسبة للمجموعة . ولم يكن هناك من يظن انها فكرة طيبة سوى دانكمان وزوجته . فكان علي ان اطردهما . وبعد ذلك حاولا ان يكونا مجموعتهما الخاصة ، دون نجاح . ولكنكم ترون (هنا رفع اصبعه الى السماء مثل نبي ينذر بنيران الجحيم او يستنزل صواعق السماء) انهما لا يملكان اي اساس فكرية . باختصار انهما لا عقل لهما » ثم اشار باصبعه نحوي : « وهذا هو سبب لهفتهم الى اكتساب تأييدك . فان افكارك تستطيع ان تكسب لهما المؤيدين والانصار . انك يمكن ان تكون عشيقا للسيدة دانكمان ... »

قلت : « معاذ الله ! »

« ولكنك قد تكون . انها تعرف كيف تسيطر على الرجال ، مثلما رايت . حينما كانت كانت عضوا في جماعتنا ، كانت دائما ترتدي اجمل الملابس الداخلية ، كما لو كانت فتاة صغيرة مترعة بالحياة فوارة الرغبات بدلا من ان تكون المرأة النصف ذات الاربعين عاما . وانا اعرف انها وجدت عشاقا عديدين ... »

سالت آنجيلا : « هل تظن انها تملك نوعا من القدرات المغناطيسية اذن ؟ »

« كلا ! بالطبع لا . ان ما قلته لي الآن توا هو ببساطة برهان على ما كنت اشرحه لك . ان الهوة الجنسية التي تفصل بين البشر ليست هوة طبيعية . ولكن حتى اكثر الناس صحة نفسية مليئون بانواع الكبت . انك فتاة طهرية متمزمة الى حد ما . وانني لعلى استعداد للقول بانك لم يكن لك سوى عشيق واحد ؟ (اومات براسها) . وهكذا هو الامر . ان هذه المرأة لا تتحدث فقط بصراحة عن الجنس وعن الاحتياج الى التخلص من كل انواع الكبت ، وانما هي تظهر بنفسها وتتعري

لكي تثبت بجسدها ما تقول وما تعني . وهكذا يختل التوازن القائم بين عقلك وبين طاقاتك الجنسية . وتنفجر الطاقات مثل الحمم المتفجرة من بركان ، فتظنين انت انها سحرتك ، بينما انت التي تقومين بكل شيء . »

ابتسم بسعادة عندما اكتملت فكرته وتلاقت خطوطه بهذا الشكل الواضح .
قالت آنجيلا :

« فماذا حدث حينما اتصلت بالتليفون هذا المساء ... »

« لقد حدث التأثير مرة اخرى ؟ فقد تذكرت ما حدث في المرة الاولى ! »
فجأة ادرك ما قالته ، صاح بها : « هل اتصلت بك ؟ لماذا ؟ »
اخبرته آنجيلا بالسبب فhez رأسه وقال :

« آه ، الشيطانان الماكران . هل قلت لك انه كان قاتلا ؟ لقد كان جديرا بأن يعدم في اي بلد باستثناء سويسرا » السويسريون متسامحون جدا . »

حينما دقت الساعة معلنة منتصف الليل ، نظر الى ساعته ثم قفز واقفا على قدميه مثل احد رجال سلاح الفرسان يهب لصيحة « انتباه » . قال :

« يجب ان اترككم . ان الغد يوم صعب بالنسبة لي . »

نظر الينا مفكرا ، ثم قال : « لا بد ان اكون صريحا معكم . ان مجموعتي تربطها علاقة قوية شديدة الانسجام لاننا عملنا معا لسنوات عديدة ، ولذلك فان الاعضاء الجدد يقعون طويلا في مرحلة الاعداد كمرشحين للعضوية . ولكنني اشعر في حالتكم ان الاسراع له ما يبرره . ولقد قررت بالفعل ان ادعو صديقي جيرار لحضور اجتماع جماعة اللفة . فاذا راق لكما انتما الاثنين ان تأتيا معه ... »

لو ان هذه الدعوة وصلتها منذ ست ساعات فحسب لرفضها على التودون تردد ، ولكنهما الآن كانا واقعين تحت تأثيره حتى انهما وافقا مع ابداء كثير من الامتنان المتحمس . سألته عن الموعد فقال :

« غدا بعد الظهر . الديكم سيارة ؟ »

اوأما الاستير براسه .

« حسنا .. سوف ارسل شخصا ما المجيء بكم في منتصف نهار الغد .

وسوف تبينون السبب الذي يجعلني عاجزا عن اعطائكم العنوان . »

خبط بكعبيه وهو ينحني انحناء خفيفة ، ثم رحل . توقعت ان يسرع الاستير وآنجيلا الى فراشيهما - وكنت مستعدا للنوم . ولكنني نسيت انهما يصفراني بخمسة عشر عاما على الأقل . شرعا في مناقشة ما قاله لهما ، وظلا يطالباي بابداء رأيي . كنت مرهقا لدرجة تمنعني من الحديث عن تحفظاتي . ثم سألته آنجيلا عما اذا كان قد صدم بما روته عما حدث في سيارة الاجرة . احجم اولاً عن الكلام ، ثم برز لمواجهة الحقيقة . قال :

« لم تكن صدمة على وجه التحديد . انما كانت اقرب الى الفيرة . اعتقد انني افكر فيك كما لو كنت احد افراد العائلة . »

سألته : « وكيف ستفكر في الفيرة او اننا اتبعنا جميعا افكار اوتو ؟ » (وكنا

جميعا نتنادى بأسمائنا الاولى .)

« لا اعرف . الحيوانات ايضا تغار . اليس كذلك ؟ »

« ليست هذه حالة واحدة . انها ليست نفس الفيرة . لقد قال اوتو اننا لا نحاول العودة الى حالة الحيوان ، انما نحاول ان نمزج بين طبيعيات الحيوان وذكاء الانسان وذهنه . »

كان بوسعي ان ارى كيف يمكن لها ان تكون تلميذة جديرة بالاعجاب ، فقد طوعت لنفسها كل الاجابات المطلوبة على كل الاسئلة المتوقعة .

قال مسالما لكي يتجنب المناقشة : « اعتقد انك على صواب . »

« بالطبع انا على صواب . انني احب جيرار (طرقت عيناى من الدهشة) وانا احبك انت ايضا . وانت تروق لجيرار وجيرار يروق لك . فلماذا لا يعامل احدا الآخر كما لو كنا ننتمي لنفس العائلة ؟ »

شعرت بأن منطقها كان قد بدا يشوبه نوع من الاضطراب ، ولكنني تمسكت بصمتي . واخيرا ، تشاءت واشعرتهما بأنني اريد ان انام . كانت الاريكة (التي تتحول الى سرير للنوم) موجودة في حجرة الجلوس . وعندما ابدت رغبتى في النوم اقترحت انهما يجب ان يتركانى ، وان يذهبا لمتابعة المناقشة في حجرته . فتحت الاريكة واعدتها للنوم ، وبدلت ثيابى فارتديت البيجاما ، ففرقت في النوم بعد دقائق . استيقظت بعد وقت لا اعرف مقداره حينما صفق الباب بخفة ، وعلى ضوء النور القادم من النافذة ، رايت جسدا لم استطع ان اتبين ان كان جسد الستير ام جسد آنجيلا - متجها الى الحمام . ثم خرج الجسد مرة اخرى ، فعاد الى حجرة النوم . عدت ففرقت في نومي . ايقظني ضوء الشمس في حوالى الخامسة صباحا . فتحت عيني ، فتملكنى شيء من الدهشة حينما رايت رأس آنجيلا الى جوارى على الوسادة . وحينما رفعت رأسى ، تزايدت دهشتى عندما وجدت ان الستير كان ينام الى جانبها من الناحية الاخرى . ذهبت الى الحمام ، ثم رقدت في فراش آنجيلا الخالي ، فنمت لمدة اربع ساعات اخرى . انني لا اعارض « الالفة » ، ولكن لى « انام » افضل ان اكون في سرير مستقل خاص بى .

دق جرس التليفون خمس مرات في ذلك الصباح . ولكننا افترضنا جميعا انها انا دانكان فتركناه يدق دون رد . وفي المرة السادسة ، اجابها الستير ، فكانت انا دانكان بالفعل . قال الستير اننى وانجيلا بالخارج واننا سنبقى خارج المنزل طول النهار ، ثم قطع المكالمة قبل نشوء المزيد من التعقيدات .

قبل ربع ساعة من منتصف النهار ، دق جرس الباب . ولما فتح احدا ، وجدنا وراء الباب شابا قوي البنية ، رأسه مثل طلبة الرصاص . دعوانه للدخول ، فجلس على الاريكة باذى الخجل . رفض شرب الشاي او القهوة . وقال انه شرب شايه وقهوته قبل ان ياتى بقليل . سألناه عما ينبغي ان نأخذه معنا لقضاء عطلة نهاية الاسبوع ، هز رأسه بغموض وقال :

« ايه ... لا شيء . »

كان اسمه كريس رامزي ، وكان بعيدا عن ان يشبه تصوري عن تلامذة كورنر ، كانت تبدو عليه سمة من سمات البراءة تجعله محببا الى النفس الى حد بعيد ، ولكن كان من الصعب ان نقول انه صاحب افكار او من نوع الرجال المفكرين . تحدث عن المصارعة ، والانزلاق على الماء والقفز بالمظلة من الطائرات . القينا قليلا من الملابس في حقيبة واحدة ، وخرجنا من المنزل مع كريس . كان يقود سيارة رياضية صغيرة ، فاقترح ان اركب انا معه ، على ان يتبعنا صديقا في سيارة آنجيلا من طراز كورتيانا . مضينا بالسيارتين حتى بلغنا طريق ادجار رود ، ثم عبرناه في مواجهة حانة « بارنيت وبوترز » . عبرنا ضاحية ويلوين جاردن سيتي ، ثم استدرنا الى الطريق الرئيسي . بعد نحو ميل وصلنا الى حائط طويل من القرميد الاحمر ، تبدو ورائه بعض الاشجار . استدرنا بين نصيين على ناصيتي طريق جانبي مصنوعين من الاسمنت فدخلنا الطريق الصغير المليء بالحفر الصغيرة . كان المنزل كبيرا الى درجة واضحة ولكنه كان يحمل علامة تقول انه من بناء وكالة « ريجنسي » للتشييد . وكانت جدران الحديقة المغطاة باننباتات المتسلقة وأحواض الزهور — بشكل عام — في حالة احسن من حالة المنزل .

كان عصر ذلك اليوم معتدلا طيب الجو ، تفوح في هوائه رائحة الحشائش المقطوعة ، وقد سمعت اصوات المياه في مجرى صغير يجري وراء المنزل . اخبرني كريس بان المنزل كان مملوكا لاحدى جماعات جيورديف ، ثم اخذته جماعة كورنر منهم . ولما كان سكان القرية المجاورة قد اعتادوا على الضرائب التي تصدر من تلامذة جيورديف ، فان فضولهم ازاء الجماعة الجديدة كان محدودا . وكان هذا صحيحا كما تبين بالفعل ، وان كانت هذه الجماعة جديدة بان تقدم مادة جيدة لتحقيق لاذع في مجلة « نيوز اوف ذي وورلدي » ، ثم ثبت لي ما كنت افكر فيه على الفور . فطالما كان كورنر ما زال مختفيا ، او انه لم يكن قد وصل ، فقد رحت اتمشى حول المنزل ، عبر الحشائش المبتلة (فقد امطرت السماء مطرا خفيفا حينما كنا نعب ضاحية ويلومين) . بالقرب من الجانب الخلفي للمنزل ، وتحت ظلال الاشجار ، كان هناك جسدان عاريان يتدحرجان ملتصقين على الحشائش . جلسا ، وابتسما لي ، ثم استمرا في دحرجتهما . كان احد الجسدين لفتاة ممثلة — وان كانت جميلة . في نحو السادسة عشرة من عمرها ؟ وكان الجسد الثاني لرجل نحيل مقتول في منتصف العمر . قلت : « معذرة » وانا اشرع في الابتعاد . صاحت الفتاة : « تعال وانضم الينا »

« انضم اليكما في ماذا ؟ »

« انها دورة اللفة مع الطبيعة . الحشائش المبتلة تعطيك احساسا لذيذا . » وضحت لها انني جئت الى هذا المكان لأول مرة . سألتني :

« آنت خجول ؟ »

« كلا . » كان سؤالها نوعا من التحدي .

« اذن تعال . »

لاح على الرجل انه مرحب بانضمامي قدر ترحيب الفتاة ، ولو كنت في مكانه لرفضت تطفل طرف ثالث . خلعت كل ملابسي ولم يكن في هذا اي حرج ، لان من عادتي ان اسير في منزلي عاريا لمدة من الوقت بعد ان استيقظ من النوم - ثم ذهبت اليهما لكي اجلس بجوارهما ، قال الرجل :
« اجلس ، جرب ما نفعله . »

جلست ثم تعددت على الحشائش وتدرجت ، شاعرا بشيء من الغباء . ولكنه كان على صوابه ؟ فقد غمرني احساس للذيل من ملاسة الحشائش المبتلة للجلد العاري . بعد ان تدرجت حتى شعرت بقشعريرة البرد ، ذهبت فرقدت في الشمس التي سرعان ما جنتني . كان الرجل لحظتها يرقد على ظهره ، وكانت الفتاة تجذب بيدها حزما من الحشائش وتذلك بها جسده ، تلاففه بها . بعد دقائق قليلة من تلك الملاطفة ، رقدت على ظهرها ، وقد باعدت ما بين فخذيها ، ففعل معها نفس الشيء ، وهو يجذب حزما كبيرة من الحشائش ، وتنف التربة المبتلة ما زالت عالقة بجذورها ، وظل يدلك نهديها وبطنها برقة متناهية بما يجذبه . قال لي :
« تعال وساعدني . »

فضلت ان اجلس عاقدا ركبتي امام صدري لكي اداري اهتمامي المتزايد بالفتاة ، التي كانت ساقاها المفتوحتان يثيران استجابات بافلوفية . ولكن بعد ان اخفت هذه الاستجابات بمجهود خاص من جانبي قمت فذهبت اليهما وجذبت قبضة من الحشائش - وكانا قد تحركا بعد ان جرذا البقعة التي كانا يرقدان فيها - فحاولت ان ادلكها مثلما كان يفعل الرجل . وسرعان ما تخليت عن هذه العملية وتبعت ما املته علي غريزتي ، فرحت اقرب اطراف الحشائش المبتلة من جسدها حتى لمست نهديها ، ثم هبطت بها اكثر لكي تلافف النهدين برقة . نجحت في تجربتي الجديدة ، فسرعان ما شهقت شهقة المستمتع ، وحركت رديها حركة شهوة واضحة . قالت للرجل :
« ان له لمسة رائعة . »

استخدمت الحشائش بالطريقة التي كان يمكن ان استخدم بها لساني لو كنت احاول ان استثير شهوتيها . وحينما وصلت الى السرة ، زادت من تباعد فخلديها .

عند هذا ، التفت الرجل الى الناحية الاخرى وقال :

« اظن انني ساذهب لاستحم في مجرى الماء . »

سار مسرعا وقد اولانا ظهره . قلت :

« اخشى الا يكون على وشك الموت لهفة الى خطايا الجسد . »

فانفجرت في كركرة من الضحكات الطويلة ، قطعتها شهقة حينما لمستها بقبضة باردة جديدة من الحشائش ، قالت حالة :

« اتمنى لو كنا في حجرة نوم . »

« لم اكن اظن ان مثل هذه الاشياء مسموح بها لكم . »

« ليست مسموحا بها ، وبصراحة . ولكننا لا نستمتع جميعا بسيطرتك على نفسك . »

تحركت على مرفقيها وهي تنهد ، ثم دفنت رأسها بين فخذي . كان دفء فمها من حولي للذيذا ، ولكنني كنت متوترا خشية ان يأتي احد الينا . كنا مكشوفين تماما دون غطاء او حجاب ، والمنزل على احد الجوانب - مكشوفين لاي شخص يمكن ان يطل من احدى النوافذ - وللرجل الذي يمكن ان يعود من مجرى الماء في اي لحظة . وضعت يدي بين شعرها ثم ابتعدتها برقة وقلت لها : « فيما بعد . ليس الآن » .

قالت : « اهذا وعد ؟ »

قلت اجل ، فتراجعت الى الحشائش لترقد من جديد . وسمعت سيارة تتوقف عند الجانب الآخر من المنزل . وكان الرجل قد لاح عائدا من الجرى . قلت : « اظن ان علي ان اذهب لكي ارى الدكتور كورنر » .

وبينما كنت ارتدي ملابسني ثانية ، لاحظت ان فقداني للسيطرة على نفسي قد خفف من درجة التوتر الذي شعرت به من قبل . رقدت الفتاة في مكانها تحت الشمس ، وقد اغمضت عينيها ، وبدت ابتسامة على شفيتها المنفرجتين ، ولاح عليها كما لو كانت تبلغ ذروة نشوة بطيئة الاشتعال .

لم يكن الدكتور كورنر هو من وصل بالسيارة ، وانما كن اربعة نسوة يرتدين النظارات ، يشبهن مدرسات في مدرسة لتعليم عمال العقول الالكترونية ، ومعهن رجل نحيف يضع على عينيه نظارة رفيعة . ولكنني وجدت الدكتور كورنر داخل المنزل ، في الهواء الواسع الخالي الذي بدا لي كأنه مليء بالتماثيل الصغيرة المهشمة لقاذفات البراعم والزهور، والربات الاغريقيات حاملات عناقيد العنب. لاح الانشغال على كورنر وهو يلقي توجيهاته عن الاماكن التي يجب ان توضع فيها التماثيل ، ولكنه حينما رأيته ، جاء الي وعلى وجهه ابتسامة دائمة ، وصافحني بحرارة ، ثم رفع يده طالبا الصمت . جاء الآخرون والتفوا حولنا ، فقدمني اليهم كورنر واصفا اياي بالمؤلف المعروف والفيلسوف . بدا عليهم جميعا انهم تأثروا بتقديمه لي . وشعرت بالحرج في داخلي يتزايد ويشتد ، كانوا ينظرون الي كما لو كانوا يتوقعون مني ان ارتفع ببطء فوق الارض لكي اطفو في الهواء . اخذني كورنر من ذراعي وقال :

« احد اعضاء جماعتنا سمسار للعاديات القديمة ، وقد اهدانا تلك التماثيل . ان بعضها ليس على قيمة فنية كبيرة ، ولكننا سوف نخصصها كرموز لشخصيات بعض الاعضاء » .

« رموز ؟ »

« لكي يجعلوها موضوعا لتأملاتهم » ومن الواضح انه شعر ان جملته كانت واضحة وضوحا كافيا لانه اضاف يقول : « اسمح لي بان اطالعك على بقية المنزل » . كان المنزل كبيرا اشبه بمعسكر مهيا لنزول العشرات ، من النوع الذي لا يمكن

الا للميونير ان يجعله مريحا للساكنين . كان كورنر وتلامذته يحاولون انجازهم بانفسهم . ومن المؤكد ان عددا قليلا من الحجرات كان مؤثثا تأثيثا مريحا للغاية ، مما يشير الى ان بعض التلامذة على الاقل يستطيعون ان يدفعوا ثمن هدايا من الاثاث الجيد .

اطلعتني كورنر على حجرة نوم تضيئها اشعة الشمس وقال :
« هنا ستنام انت . الا - بالطبع - اذا كنت تفضل ان تنضم الى جماعة خلق الالفة بالطابق الاسفل » .
« هل ينامون معا ؟ »

« اجل ، ولكن مع روح خيرة كاملة بالطبع . ليس صعبا عليهم ان يكبحوا جماح رغباتهم . انهم يعرفون انهم يربحون عمقا جديدا لذواتهم بهذا العمل . »
استمر يتحدث بطريقة التي تشبه اسلوب القاء المحاضرات ، وهو يلتقط حزمة من الاسلاك الكهربائية كان احد عمال الكهرباء قد تركها على مقعد تحت النافذة .

« انظر الي ، ان السبب الذي يجعل الجنس مخيبا للآمال بالنسبة لمعظم الناس بهذا الشكل ، هو انهم يشبهون سلكا رقيقا حتى لا يمكن ان يحمل أي تيار . هل ستوافق على ان النشوة الجنسية تشبه تيارا كهربائيا . فاذا كنت صحيح الجسم ثم كبت رغباتك لمدة طويلة فان التيار سيصبح ذا شحنة عالية . وهذا هو كل هدفنا - ان نتحول الى سلك سميك ثقيل ، مثل هذا . » ولوح تحت انفي بالسلك السميك الثقيل النحاسي . ثم مضى يقول : « فاذا استطاع السلك ان يحمل التيار ، فاننا لن نشكو من نقص التيار نفسه . اظنك جديرا بالموافقة على هذا ؟ »

قلت انني اوافق ، كنت اعرف ان التنظيم الذاتي الكثيف يزيد من قدرة المرء على بلوغ النشوة والاستمتاع بها . ولكن قبل ان اتمكن من طرح بعض التحفظات ، وضع كورنر يده على ذراعي .

« والان ، اريد ان اتحدث اليك . سوف تدرك ان لي هدفا من الاتيان بك الى هنا . تعال فاجلس . » من الواضح انه كان يشعر بجدية حديثه . جلسنا في ضوء الشمس على الاريقة تحت النافذة .
قال :

« ليس الامر ببساطة هو انني اريدك عضوا في جماعتنا - فهذا واضح دون حاجة الى سؤالك . انك مؤهل تماما لهذه العضوية . انني احب ان تكون نائبي في القيادة ، خلفي ، والرجل الثاني من بعدي في الوقت المناسب » .
رفع يده لكي يمنيني من مقاطعته ، واستمر يقول :

« ليس عليك ان تتخذ قرارك الآن ، بل ولا حتى في الاسبوع التالي او الشهر التالي . انما اريدك ان ترى كيف تعمل ، انظر ان كان بوسعنا ان نساعدك ، او اذا كان بوسعك ان تساعدنا . اسمع انك تملك ما يكفي من التناسق والانسجام .

ان اكثر من حولي تلاميذ جيدون ، ولكنني حتى الآن لا ادري المميزات التي يحتاج اليها القائد . لقد اراد دانكمان وزوجته ان يكونا قائدين - ولكنهما كانا جديرين - ببساطة - بأن يحولا مجموعتنا الى بيت للدعارة ، حريم خاص لكل منهما . ان عملا مثل هذا يحتاج الى تكريس خالص للنفس ، يحتاج الى الروح العلمية . وانت تملك هذه القدرة وتلك الروح . »

اطلقت بعض الاصوات الدالة على الاعتذار ، ثم قلت انني بحاجة الى بعض الوقت للتفكير واتخاذ القرار . ولكن في اعماقي ، كنت اعرف ان هذا ليس من الامور التي يمكن ان اناقشها . انني وحيد منفرد ، ليس ببساطة بحكم ميولي ، ولكن بحكم طبيعتي . انني لم ارد ان اختلط بكل هؤلاء الناس .

ربت على كففي وقال : « بالطبع . خذ من الوقت ما تشاء . ولكن هناك شيء واحد من الافضل ان اقوله لك بصراحة . فقد حاولنا حتى الآن ان نحافظ على اعتماد نشاطاتنا عن الانظار ، لانها من الممكن ان يساء فهمها . ولكن لقد آن اوان الخروج واطهار انفسنا بوضوح ، لكي نكتسب الانتصار ، ولكي نعلن اهدافنا على العالم . لان هدفنا هو ان نثبت ان الحضارة لن تستقر ابدا حتى يفكر كل انسان بالطريقة التي نفكر بها . »

كان قد اصبح جادا كل الجدية ، ولم اكن انا خاليا من كل تعاطف معه ، ولكنني رحت فجأة افكر في الصورة التي رسمتها انا دانكمان عن الغرباء الذين يتبادلون جلد عميرة في السيارات العامة ، فوجدت انه من الضروري ان اطل قليلا من النافذة حتى اتمكن من السيطرة على تعبير وجهي . وبينما كنا نهبط الى الطابق الاسفل ، قلت :

« اظن ان هذه فكرة عظيمة . لقد امتلأ الستير وانجيلا بالحماس الى حد الانفجار في الليلة الماضية . لقد اكتسبت امس نصيرين متحمسين . »
« هذا شيء جيد . ولكننا لن نقنع حتى اتمكن من ان اقول نفس الشيء عنك . »

وحينما اقتربنا من الجماعة الذين كانوا ما يزالون مشغولين بترتيب التماثيل ، قبض على ذراعي وقال « مؤقتا » احتفظ بسرية ما قلته لك بشكل كامل . »

في الساعة الثانية ، اعلن ان الفداء قد اعد . في حجرة الطعام ، التي تطل على الحديقة الكبيرة الخضراء ، كانت وجبة بسيطة قد وضعت على الموائد الخشبية البسيطة الخشنة - كان هناك صحنان كبيران عميقان مملووان بالحساء ، وصحون صغيرة فيها اكوام من مكعبات الجبن ، وكعك من طحين القمح وكعك آخر مزود بالسكر . قدمني كودرن الى رجل شاب ذي لحية كبيرة اسمه بول ، بدا لي انه مساعده . كان بول يضع نظارات ذات اطار صنع من قرن حيوان ، لكنته شمالية واضحة ، واسلوب في التعامل بالغ الجدية .
قال :

« اننا نحاول ان ناكل وجبات خفيفة ، والا واجه الجسم مشاكل كثيرة في

هضم الطعام ، فيفسد النظام ولا يؤدي الى اية فائدة . اما هذه الوجبة فهي وجبة كبيرة الى حد بعيد . اما مجموعتنا الاخرى - وهي مجموعة من تعدوا الاربعين - فتأكل اقل من هذا بكثير . »

فهمت ان كورنر يحافظ على الفاصل بين المجموعتين ، وان لكل من المجموعتين موعدا خاصا لاجتماعها كل اسبوعين . قال بول :

« لا بد ان نكون عمليين في هذا الصدد . نظريا ، ليس هناك بالطبع حد يفرضه السن . ولكن تجربتنا دلت على ان المتقدمين في السن يهتمون بالجنس اكثر من اهتمام الشبان . فاذا سمحنا لما هو اكثر من اللازم منهم بالانضمام الينا لتركنا الشبان . ان الكثير من الفتيات الصغيرات لا يبدو عليهن الانزعاج من الرجال الاكبر عمرا ، ولكن ليس كثيرا ان يختار الاولاد الاقل عمرا نساء يزيد عمرهن على الاربعين . من الطبيعي ان المجموعتين تستطيعان الاختلاط فيما بينهما ، ولكن هذا يحدث في حدود معينة ، وبدعوات خاصة . »

وكان واضحا ان هذا يفسر حضور عدد من الرجال والنساء يزيدون على الاربعين ، بل على الخمسين .

كان عدد الحاضرين في البهو يبلغ الستين تقريبا ، مع اغلبية قليلة من النساء . وبدأت لي المجموعة عينة عادلة من الناس . لاحظت ان هناك ما يشبه الزي الشائع بين نساء المجموعة ، تغلب عليه الثياب ذات الاكمام الطويلة والنظارات ذات الاطر الثقيلة الى حد ما ، الامر الذي يعطيهم مظهر الدارسات المجندات . لم يكن هناك مراهقون يقل عمرهم عن العشرين ، وكانت الفتاة التي رايتها في الحديقة تبدو واحدة من اصغر الحاضرين . لاحظت ان نسبة كبيرة من الرجال يدون ذوي بنية قوية ، او يرتدون صدارات صوفية مفلقة مرتفعة الاعناق عريضة الصدر لكي تعطي انطباعا بضخامة حجم من يرتديها . ولم يكن سوى عدد قليل جدا من الحاضرين هو من يبدو وسيم الطلعة بشكل ملفت . ولكنني لم ار شخصا واحدا يمكن ان يقال عنه انه غير جذاب من الوهلة الاولى . وبشكل عام ، كان للنساء مظهر الذكاء وارتفاع المستوى الذهني بشكل يزيد عما يتمتع به الرجال . لقد رايت عددا قليلا جدا - بينهم - من الرجال ، يمكن ان يقال انهم من النوع العصبي في النشاط الذهني الزائد . وبسبب ما بدا عليهم من سمات تدل على انهم مجموعة « متوسطة » ، مثل عينة عادلة ، احسست بانهم ربما جاؤوا نتيجة اختيار دقيق باكثر مما يظهر لمن يراهم للمرة الاولى .

لاح عليهم انهم يعرف احدهم الاخر معرفة جيدة جدا ، كان هناك قدر كبير من الضحك ، ومن التجاذب والمعاكسات ، من المصافحات والقبلات بين المعارف والاصدقاء ، ومن قيام بعضهم بتقديم صحاف الطعام واطباق الحساء للآخرين . احسست بالتأثير القوي لهذا الجو الودي ، رغم انني شعرت بان من وراء هذا الجو يكمن توتر من نوع ما ، يوشك ان يكون افتقارا الى التلقائية والتصرف بطريقة مستريحة .

ذهب بول لكي يتحدث الى شخص ما . قال صوت في مقابلي : « اهلا » ،

فوجدت نفسي اطل نحو العينين البنيتين للفتاة التي قابلتها وسط حشائش الحديقة الخضراء المبتلة . كان الزحام يحيط بنا معا ، وبينما رفعت وجهها وادارته نحوي مبتسمة لي . امتدت يدها من ورائها وقرصت عضوي قرصة ودية . قالت : « اسمي تيسا » ثم اشارت الي لكي احنى راسي نحوها . همست : « لا اريد تناول الفداء . فلنذهب الى الفراش . »

« انني جوعان » .

« يا مفسد اللعبة ! »

« الى جانب انهم قد يلاحظون انصرافنا معا . انني اتلقى تدريبا خاصا . » عاد بول ، ورمق الفتاة بنظرة مقطبة تدل على عدم موافقته . . احسست انهم يعتبرونها ذات تأثير مفسد وغير صحي .

اكلت خبزي وقطعة الجبن وشربت حسائي . ثم خرجنا من نوافذ الشرفة الفرنسية ومنها الى الحديقة الكبيرة . كانت مجموعة من الناس تقف على شكل دائرة ، وبدا انهم يؤدون نوعا ما من التمرينات . وضع كل منهم يده على كتف الشخص الذي يجاوره ، ثم تحركوا الى الامام حتى تلاصقوا ، ثم انحنى كل منهم الى الامام بحركة واحدة حتى اصبحوا كالعقدة على هيئة البداية في لعبة «الرجبي» ذات الخمسة عشر لاعبا . قال بول :

« هذه جماعة من جماعات الالفة في مرحلة التسخين . انهم يحاولون التخلص من ضغوط الحياة المدنية – يلمس احدهم الآخر ، يقومون ببعض الاشياء معا ، يحاولون التخلص من الاحساس بالانفصال والعزلة » .

كان رجل شاب يرتدي صدارا ذا عنق مرتفع يلقي بالتعليمات للجماعة ، ويتحرك من حين الى حين وسطهم ويصفع بعضهم برقة على الكتفين او على الظهر . وبينما كنت واقفا في مكاني ، اتجه الى امرأة في نحو الاربعين ، وفعل شيئا ما بنهديها – من الواضح انه كان يعدل من وضع مشد صدرها من فوق صدارها الصوفي – وانتهى بان صفع رديها صغعة حادة كما لو كانت بقرة تقاد الى الحقل . قال بول :

« ها انت ترى ، انهم يحبون ان تلقى عليهم الاوامر . انها تساعدهم على التخلص من الاحساس بالمسؤولية – مرض الحضارة العصابي . والفرض هو جعلهم يشعرون مثل شعور الاطفال الابرياء مرة اخرى . »

لاحظت ان كل المشتركين في هذه الجماعة من « جماعات الالفة » كانوا يرتدون ملابس ثقيلة الى حد ما ، بالنسبة لحرارة الجو . وفسر لي بول ذلك بأنه جزء من عملية التدريب ، فبينما يشعرون في التخلص من احساسهم بالقهر، يمكنهم ان يرتدوا ملابس اخف ثقلا . وقال في النهاية : « سوف ترى ما اعنيه بعينيك في المساء » .

ذكرت له الفكرة الاساسية التي ساورتني : وهو انه طالما يأتي الجنس للبشر بشكل طبيعي الى هذا الحد ، فان كل الاهداف الشديدة التعقل لجماعة مثل هذه – لا بد ان تتجه نحو تبادل الاستثارة الجنسية في النهاية ، ورغما عن الجميع .

أوماً براسه موافقا ، وقال :

« في مجموعة بهذا الحجم ، لا بد ان يحدث هذا في حدود معينة بالطبع . . ونحن نحاول ان نتخذ الاحتياطات اللازمة . ولكنك سوف تدهش اذا عرفت مقدار قلة حدوثها . ليست هنا محرمات ، ولا كوابت او موضوعات للكبت ، وهذا يؤدي الى فرق كبير . »

عدنا فدخلنا المنزل . سألته عما كان يعنيه بكلمة « احتياطات » فقال : « سوف اطلعك عليها . »

صعدنا الى حجرة في الطابق الاول . كنت قد عرفت انها حجرة نوم جماعية للنساء . دخلها بول دون ان يطرق الباب . كان هناك ست من النساء يرقدن على الاسرة ، او جالسات يعدن ترتيب زينتهن ، وكانت احدهن جالسة بسرورالها الداخلي ومشد صدرها وهي تخلع جوربها . ابتسمت لنا ، ولم يبد عليهن الاهتمام . اتجه بول الى سرير فوقه حقيبة مفتوحة ، فقلب محتوياتها على السرير . نشر المحتويات وبعرها على سطح الفراش - ثوب قصير رمادي من الصوف ، مشدات ، زوج من الملابس الداخلية ، بعض ادوات التجميل - ثم القى نظرة على حقيبة غسيل قرمزية اللون . لم يبد على احدهن انها نظرت نحوه او انتبهت الى ما يفعله . قال : « انني ابحث عن موانع للحمل . انها افضل طريقة لتأكيد ان شخصا ما ينوي ان يكسر القواعد المتبعة » .

التقط حقيبة المرأة التي كانت ما تزال ترتدي ملابسها . قالت :

« اوه . بحق السماء لا تبعر كل شيء . دعني اطلعك على ما فيها . »

اخرجت الثياب من الحقيبة قطعة وراء اخرى ، وفردت كل قطعة ونفستها . اشار بول الى سروال طويل فرنسي وردي اللون وقال :

« ليس هذا جميلا جدا . »

« اعرف هذا . ولكنني غادرت المنزل في عجلة والقيت في الحقيبة باول شيء رأيته امامي . »

وفي خارج الغرفة قال موضحا :

« لدينا نقاط تفتيش كل عطلة من عطلات نهاية الاسبوع ، لكي نرى ان كانوا قد جاءوا معهم بموانع الحمل ام لا . وبالطبع ، ليست لدينا وسيلة نعرف بها ان كانت النساء قد تناولن « قرصا » قبل مجيئهن ام لا . »

« الا يفسد هذا من تأثيرها بشكل ما ؟ »

« اوه ، لا . ان اوتو يتحدث اليهم ضد « اقراص منع الحمل » على اي حال ، لاسباب صحية . »

« وماذا عن الرجال ؟ »

« النساء تفتشهم . من المسموح لكل واحد ان يفتش اي شخص اخر ، اننا نحاول ان نكون اسرة واحدة . »

« لماذا اعترضت على السروال الوردي لتلك الفتاة ؟ »

« فتحات الساقين واسعة . ليست هناك قاعدة بشأنه بالطبع ، ولكن اذا كان في نية الناس ان يمارسوا الجنس ، فان هذا النوع من السراويل هو النوع المثالي - فاذا اضيئت الانوار فجأة ، بدت الفتاة في كامل ملابسها » .

« اذن فان من المفترض ان تظل النساء مرتديات سراويلهن الداخلية ؟ » هكذا سألت وانا افكر في تيسا وهي راقدة على حشائش الحديقة الخضراء المبتلة .

لاح انه قد صدم تقريبا . صاح : « اوه ، لا . ان هذا جدير بان يعمدك تماما عن الهدف الاساسي لمجموعتنا - اللفة . ولكن اذا شرعن في تلقي الملاحظات من احد الرجال ، فان عليهن ان ينزلن سراويلهن ، على الاقل حتى الافخاذ » واستمر يتحدث باخلاص شديد : « لا يبدو عليك انك تفهم . اننا لا نحاول ان نجند الناس او ان ننظمهم في كتائب صارمة النظام كالجنود . ولكنك تعرفت بنفسك انه كلما زادت العقبات كلما زاد ما تثيره من اهتمام . ولهذا فاننا نحاول ان « نصف » لنساء مجموعتنا ان يرتدين السراويل الحريرية ذات فتحات السيقان الضيقة المحكمة الى حد كبير ، وبذلك فاذا حدث ان رغبت الفتاة في ممارسة الجنس فان عليها ان تخلعه تماما . اننا لا نحب السراويل المصنوعة من النايلون او السراويل الفرنسية الواسعة لانها يمكن ان تجذب جانبا بسهولة كبيرة . وبعض هذه الاشياء لا تشكل اية حماية على الإطلاق .

سمع صوت جرس نحاسي صادر من البهو . سألته : « ماذا يحدث الان ؟ » « لدينا محاضرات حتى الساعة الخامسة ، وانا نفسي ينبغي ان اتقسي محاضرة ، ولذلك سيكون علي ان اتركك . ان حضور المحاضرات اجباري بالمناسبة . واي شخص « يزوغ » من المحاضرات لا يكون جادا حقا . ونحن لا نقول ذلك للقادمين الجدد ، لان هذا يساعدنا على التخاطب ممن يأتون لدوافع لا تتفق مع اهدافنا . »

نصحتني بأن اتجول بين قاعات المحاضرات المختلفة ، وان القي الاسئلة اذا رغبت في هذا .

عملت بنصيحته ، اتقسم « الطلبة » الى اربع مجموعات . تحدث كورنر الى المجموعة الاولى ، وبول الى المجموعة الثانية ، وكريس لمجموعة ثالثة ، وتحدثت للمجموعة الرابعة امرأة جذابة ، وان كانت تبدو عليها مسحة طفيفة تجعلها اشبه بمدرسات المدارس الثانوية ، تدعى جوينيث . كنت سعيدا بان ارى الستير وانجيلا يجلسان بلهفة في الصف الاول من مجموعة كورنر ، التي كانت تجلس في الحديقة . جلست في الصف الاخير من تلك المجموعة لمدة عشرين دقيقة او نحوها ، وسمعتة يشرح الاسباب التي تجعله ماديا . قال :

« يعتقد المثاليون ان اشياء مثل الحياة والفكر والافكار يمكن ان توجد « بمعزل عن » المادة ، بمعنى من المعاني » . وكانت حججه ضد هذا الرأي كاسحة ، ومقنعة تماما بالنسبة لي . ولكنها لم تبلغ هدفها ، بقدر ما يتعلق الامر بما اهتم انا به . انني اوافق على انه لا يمكن ان تنفصل العقول والعمليات

العقلية عن المادة . ولكنني ما زلت اعتقد ان الحياة - بشكل ما - قد دخلت المادة من « خارجها » ، وليست فيضا منبثقا عن المادة ، مثلما تنبثق النار عن الفحم .

احسست بان كورنر لن يرحب بتوجيه اية اسئلة ، ولذلك فقد انتقلت الى المجموعة التالية ، التي كانت تحضرها السيدة المدعوة جوينيث . كانت تقدم ملخصا متحمسا - وان كنت قد رأيته مشوشا - لافكار راين . ولاح لي حديثها عن « السائل الحيوي » الذي يتراكم بين الفخذين لحظة الاستثارة الجنسية ، لاح لي قريبا الى درجة خطيرة من الطاقة العضوية التي قال بها راين . تساءلت في داخلي عما يمكن ان يحس به كورنرازاءهذا . حاولت جوينيث بنشاط ان تجرني الى المناقشة ، التي سرعان ما دبّت فيها الحياة . بدت لي مجموعتها مفعمة بالذكاء والفهم ، واكثر استقلالا عقليا مما توقعت - فقد رفضوا الاتفاق معها حول عدد كبير من النقاط . بذلت بعض المحاولات لشرح نظرياتي الخاصة من اصل الدافع الجنسي ، ونظريتي حول الاستجابة الرمزية ، ولكن كان بوسعي ان ارى كيف نظروا الى هذه الافكار باستغراب كامل ، وانها - كما قالت احدي السيدات : « مجردة بشكل لا ضرورة له » . اصبحت المناقشة ساخنة حتى لقد دهشنا جميعا حينما زحف اعضاء المجموعات الاخرى اليها في الحديقة وقالوا ان وقت الشاي قد ازف .

ولكننا في الحقيقة لم نشرب شايا - وهو الذي يبعثه كورنر - وانما شراب السانكا ، وهي قهوة منقاة من الكافاين . اكلنا ايضا معجنات مسكرة دهنت بطبقة خفيفة من الزبد . هجمت عليّ جوينيث وقالت لي انها اقتنعت بافكارني . وراقت لي هي جدا . كانت في نحو الاربعين من عمرها ، ذات مزاج دموي حار ، واسنان كبيرة بيضاء اضفت على ابتسامتها لطفا وجاذبية ، وكانت تميل الى المبالغة في صورة المدرسة المسددة التي لاحت لي انها الصورة التي وصفتها « قيادة » المجموعة لنسائها ، بثوبها الاسود الطويل الاكمام ، وعقدها ذي الوريقات الذهبية والصليب في وسطها . ادركت انها عضو في المجلس البلدي الذي يتبعه مسكنها ، وانها تشغل وظيفة حسنة في مكتب للعلاقات العامة . كانت تتمتع بطريقة حماسية مشوشة قليلا في مناقشة الافكار ذات الجاذبية الخاصة او السحر بالنسبة لها . ولكنني لم استطع ان اتخيل كيفية انضمامها الى مجموعة كورنر .

بعد شرب الشاي ، ذهبنا جميعا الى الحجرة الرئيسية . لم يكن فيها سوى اثاث قليل ، ولكنها كانت مزودة ببساطة جيدة ، بدت كما لو كانت قد كلفت المجموعة ثمننا يساوي ثمن كل الاثاث الموجود في المنزل . (قالت جوينيث ان هذه البساطة كانت « هبات » قدمها الاعضاء الاكبر سنا ، وقد انتابني شكوك حول ان بعض الاعضاء الكبار السن قد اشترؤوا عضويتهم في المجموعة بالهدايا الغالية التي تزيد كثيرا - وبلاضافة - الى الرسوم المقررة) .

ورغم ان البرد كان يتزايد بالخارج ، فان هذه الفرفة كانت دافئة بسبب مدفأة الخشب الذي كان يحترق في نارها الكبيرة .

انقسم الناس في الحجرة الى جماعات الفة صغيرة ، ورحلت انتقل من مجموعة الى اخرى ، مراقبا نشاطاتهم باهتمام . وسرعان ما اتضح لي ان القسم الاول من النهار لم يكن سوى مقدمة مبدئية مثل افتتاحية الاوبرا الموسيقية . اما هذا القسم الاخر فكان هو القسم الجدي والهام . تشابكوا في حلقات ضيقة ، متلاصقين بشدة احدهم الى الاخر ، ويجري كل منهم بيديه على اجساد الاخرين ، بادئين من الكاحلين ، متجهين الى الرؤوس . انقسمت جماعات كثيرة الى أزواج ، وكرروا عمليات الضغط والتدليك . لم تكن هناك تصرفات جنسية بشكل خاص في هذه العملية ، ولاحظت ان الايدي لم تتلبث الا قليلا عند المناطق الحساسة ، ولكنها بدت اكثر اهتماما بالرؤوس والاذرع . جذبتني فتاة نحيلة طويلة الى داخل احدى المجموعات حينما كنت واقفا اراقبها ، وبدأت تربت علي ، ضاغطة بكلتا يديها على بطني او صدري ، ثم تباعد بينهما وتضفط بقوة اكثر . بعد ذلك فعلت معها نفس الشيء ، وانا واقف وراءها ، ضاغطة بيدي الاثنتين بقوة على بطنها ، ثم مدلكا جسدها حتى ابلغ الردفين . كررت هذه العملية على نهديها وعلى الفخذين . ثم طبقا لتعليماتها - بدأت اربت على ظاهري الساقين ، بادئا من الخصر ، جازيا بيدي فوق ثوبها ، هابطا الى القدمين . لاحظت انها كانت ترتدي حزاما ارفع الجوربين مع الجورب نفسه . وبعد ذلك بدأت تلاطف كففي وذراعي ورأسي ، جارية باصابعها في شعري ، وعلى صدغي ، فاتحة فمي لكي تدس طرف اصبعها داخله ، ثم تدس اصبعها الصغير (بنصرها) في اذني . كانت ما تفعله هو ملاطفتي كما لو كنا عاشقين ، ولكن لما كنا قد بقينا بكامل ملابسنا ، فقد كان للعملية خاصية غريبة من الاستثارة ، وقدرة غريبة على ابراز ما هو محرم وممنوع . ولو اننا كنا مفردين ، وقد خلعنا بعض ملابسنا ، لانتهد العملية بالجماع في خلال دقائق . ولكن هذا التدليك الطويل المدى في حجرة يشاركك فيها خمسون او نحوهم من الناس ، ادت الى خلق مجموعة جديدة من الاستجابات ، محطمة كل العادات القديمة .

لاحظت ان بعض الأزواج الاخرين قد جاؤوا باوان مليئة بالماء وراحوا يتبادلون غسل الوجوه والشعر ، قاموا بذلك بالقرب من نوافذ الشرفة المفتوحة ، حيث لم تكن هناك ابسطة . كثيرا ما اخترق الأزواج وتبادلوا الشركاء . وبعد عشر دقائق من ملاطفة الفتاة النحيلة الطويلة ، حصلت على امرأة ثقيلة البنيان متوسطة العمر . شعرت في البداية ان التغيير لم يكن مفيدا . ولكن بعد خمس دقائق من الملاطفة لاحظت اننا حققنا الالفة المطلوبة ، ووصلنا الى ان يعرف احدها الاخر وان يروق احدها للآخر . بعد ذلك حصلت على نيسا التي ابتسمت وهيمت لي بطريقة فيها قدر من التفكه : « اخشى ان لا بد ان يكون هذا ذروة مضادة ، هوة مقابلة للذروة « anticlimax » . كانت على صواب الى درجة ما . لم يخف بنطالي

عنها اي سر . كما لم يخف ثوبها عني اي سر . ولكن الاحساس بنعومتها تحت الثوب كان مشيرا . اختلقت شيئا كالفكاهة من هذا الموقف ، فدست يدها تحت صداري الصوفي وقرصت ثديي بقوة . وحينما دلكتها ودفعت ثوبها بين فخذيهما قالت : « ارجو الا يفحصني الان احد . انني مبتلة » . سألها :

« اهذا من المحرمات ؟ »

« بالطبع . ولكن ماذا يمكنني ان افعل ؟ اذا لمسني الناس مجرد لمسة هنا ، بلغت ذروة نشوتي على الفور . لقد بلغت مرتين الان » .

بعد بضع دقائق قالت : « انني جائمة الى درجة لعينة . عندي كثير من انشيكولاتة في حجرتي ، اذا كنت تريد بعضها » .

« اهذا مسموح به ؟ »

« ليس بشكل حقيقي . ولكن كل هذه الالفة تثير نهemi الى الطعام . »
في الساعة السابعة والنصف ارتفع صوت الجرس النحاسي فقالت نيسا :
« الحمد لله على ذلك » .

اتجهنا جميعا في حركة واحدة كالتيار الى حجرة الطعام . كنت بحاجة الى طعام ، وكانت كل هذه الاستشارة تجعلني اشعر كما لو كنت قد سرت عشرين ميلا . كان العشاء اقل قليلا في شحه من الوجبة السابقة : صحاف ضخمة من لحم البقر والخنزير البارد ، وصحاف عميقة صغيرة من حساء الطماطم ، وخضروات ساخنة . ولدهشتي ، لاحظت انه كان ثمة مشرب للخمور ايضا ، وقالت لي جرينويث - التي تولت امر رعايتي - بان في وسمي ان احصل على بيرة اوعلى نبيذ . قالت انه ليست هناك مشروبات ثقيلة قوية ، ولكن قليلا من الكحول يساعد اكثر الناس على الاسترخاء والاستمتاع بوجبتهم . لاحظت باهتمام ان « الالفة » استمرت في قاعة الطعام . فقد انتهز الرجال والنساء التمازحون الفرصة لكي يلاطف احدهم الآخر ، بل وان يتبادلوا القبلات . كان هناك قدر معين من القبلات في المرحلة السابقة ، واغلبها كان على الاذرع والاعناق ، اما الان فقد رايت انهم يحيون بعضهم البعض غالبا بالتقبيل على الفم . ورغم ان اللسنة لعبت دورا في بعض هذه القبلات ، فان احدا لا يستطيع ان يصفها بالشهوانية ، بمعنى دلالتها على الرغبة في الذهاب الى الفراش .

« اكلت بشكل جيد ، وانهشتني كأس من البيرة انعاشا كبيرا . وبعد تناول الطعام ، شققت طريقي الى المرحاض ، ولكنه كان مشغولا . فشققت طريقي الى الطابق العلوي الى مكان تذكرت انني رايت - وهو مكان ملحق بفرف النوم تذكرت انني رايت على بابيه قبة رجل وحقيبة يد نسائية ، مع سهم تحتها يشير الى نهاية الدهليز . سرت في الاتجاه المشار اليه ، فوصلت الى مرحاض من الواضح انه كان قد بني حديثا ، مع عدد من الابواب للاماكن الخاصة مثل مرحاض عمومي . ولكن لم تكن هناك اشارة على الباب تدل على ما اذا كان المرحاض للرجال ام للسيدات . وبينما كنت واقفا هناك ، سمعت صوت خطوات تأتي من

آخر الدهليز . وتنفس الصعداء حينما رايت ان تيسا كانت هي القادمة .

« انا مسرور لرؤيتك . ايهما للرجال ؟ »

« اوه ، ايهما اردت ، فليس لدينا اثنان . انها الالفة ، اترى؟ هل ستأتي؟ »

« اعتقد هذا »

يجب علي ان اعترف بانني احسست بالخجل ، ولكن كان بوسعي ان ارى عدم منطقية هذا الاحساس . ذهبت الى المحل الاخير بين المحلات الصغيرة المتجاورة ، ولشدة دهشتي اكتشفت ان الجدار الذي كان يفصله عن المحل المجاور كان مصنوعا من الزجاج . ذهبت تيسا الى المحل المجاور وابتمت لي . ثم - ودون اي احساس بنفسها - جذبت ثوبها الى اعلى ، ثم جذبت سروالها الداخلي الى ركبتيها ، وجلست .

قلت :

« يا الهي الرحيم . هذا اكثر قليلا مما ينبغي . اليس كذلك ؟ »

« ظننت هذا حينما جئت لأول مرة . ولكنك سرعان ما تعود عليها . »

« ولكنني لا احب ان اتخفف من هوائي الفاسد حيث يمكن ان يسمعي احد . »

« لماذا تهتم بذلك ؟ الدكتور كورنر يقول انه صوت طبيعي من اصوات

الجسم ، مثل صوتك وانت تتكلم . »

شعرت بالبلاهة وانا واقف في مكاني ، فانزلت بنطالي وجلست . لم اشعر من قبل ابدا بعدم الراحة التي شعرت بها في تلك اللحظة . ثم سمعت صوت مزيد من الاصوات بالخارج ، ثم دخلت امرأتان اخريان . اتجهتا الى المكانين في الطرف الاخر ، وكشفتا عن مؤخرتيهما ، وجلستا - وكان الزجاج نقياً بصورة غير عادية . لم تلتفتا لي اقل التفاتة ، وانما استمرت في الحديث عما قاله كورنر عصر ذلك اليوم . اراحني صوتهما ، فانفجر الينيوع الحبوس في داخلي . ولما راقبت تيسا وهي تنظف نفسها بالورق فكرت في اننا جميعا مخلوقات مليئة بالكوابيت والرغبات المكبوتة او المحبطة باكثر مما نعرف عن انفسنا ، وانه من المحتمل ان يكون كورنر على صواب مرة اخرى . ولكنني صممت على ان استخدم مرحاض الطابق الارضي في المستقبل ، لان له جدراناً عادية .

هبطت الى الطابق السفلي مع تيسا .

حينما عدت ثانية الى القاعة الرئيسية ، وجدت معظم الطلبة جالسين على الارض فوق وسائل متناثرة . وحينما دخلت ، اشار كورنر الذي كان واقفا الى جدار المدفأة . ذهبت اليه . ضرب على المائدة باحدى الزجاجات طالبا الصمت ، ثم قال :

« والان اريد ان اقدمكم جميعا الى الروائي والفيلسوف البارز جيرارد سورم ؛

الذي وصف بانه اكثر كاتب بريطاني اثارة للاهتمام منذ الدوس هكسلي ود . ه لورنس . (واعتقد انه اخترع تلك المقارنة من وحي اللحظة) . ان اراء مستر سورم حول الجنس تختلف عن آرائنا في نواح متعددة ، وانا الان اريد ان

اطلب منه ان يلقي بضع كلمات عن ارائه تلك . ويجب على ان اقول انني لسم انبئه قبلًا بانني سأطلب منه هذا ، وهكذا فإن كلمته سوف تكون مرتجلة تماما » .

لم يكن لدي ما يكفي من الوقت لكي ادهش فيه او لكي تتوتر اعصابي . وقفت ولخصت بسرعة نظريتي عن الدافع الجنسي ، وطبيعته العمدية ، والطريقة التي يصور بها الدافع الجنسي نظريتي الظاهرية (الفينومينولوجية) على كل تفاعل الانسان مع العالم . وحينما شعرت بانني اوشك ان اتوه بهم في دهايلز هوسرل (١) ، تحدثت عن احساسي بالدافع الجنسي باعتباره « مفتاحا لحاملي مفاتيح الوجود » وعن العلاقة بين الجنس والتجربة الصوفية . انتهيت بمحاولة شرح النقطة الأكثر جوهرية عندي : وهي ان الجنس يمنحنا لمحة خاطفة من تركيز العقل يمكن ان تجعلنا اشبه بالالهة لو استطعنا ان نبتعثها اراديا في مجالات اخرى وان نسيطر عليها . ذكرت فكري عن ان الكائنات البشرية تشبه ساعات الاجداد التي كانت تديرها القوافز المضغوطة ، وان الجسد اثقل من ان يحركه القافز الضئيل الذي تمثله قوة الارادة . ولا يحدث الا في الجنس ان نتمكن من تنمية قافز يتمتع بالقوة الكافية لتحريك ساعة الاجداد الثقيلة . وانتهيت بقولي ان اهتمامي الرئيسي كان يتركز في التساؤل عن كيفية تعلم ادارة وتقوية قوافز الارادة .

كانت المناقشة التي تلت كلمتي ممتعة ومثيرة للاهتمام ، ولكنها لم تصل الحد الأقصى من ذلك . فقد اعترض الكثيرون على اساس انهم الخطورة الشديدة السماح بمثل تلك الاهمية الكبيرة للارادة . كانوا يحتجون بوجهة نظر تشبه نظرية لورنس وكورنر . واستطعت ان اري ان تلك كانت النقطة التي اختلفت فيها معهم جميعا ، انني لم انزع ثقتي عن الارادة ولا الذهن .

كان يوما طويلا ، وكنت اشعر بالتعب . كانت الساعة الان قد قاربت التاسعة - وكان الوقت قد مر بسرعة شديدة . وكنت قد بدأت اشعر بالرغبة في النوم . كان الامر كله بالغ الامتناع مليئا بالوعود الكثيرة ، وشعرت بان كورنر كان في طريقه الى شيء هام دون شك ، ولكن كان الامر يتطلب قدرا كبيرا من التفكير لتوضيح موقعي من المسألة كلها . وامنت ان ينجلي المساء عن شيء

(١) ادوموند هوسرل - ١٨٩٥ - ١٩٢٨ فيلسوف الماني ، ولد في موراها من اسرة يهودية ، ويعتد مكتشف المنهج الظاهراتي في الفلسفة الحديثة لوصف وتعريف المعنى الحقيقي لمادة الوعي في كتابه « ابحاث في المنطق » في عام ١٩٠٠ - ١٩٠١ ، حيث طبق المنهج اساسا على المعاني الشكلية للمنطق والرياضيات ، وحيث يحاول البت ان فكرة « عمدية الوعي » هي القانون الشامل لعملية الادراك (اي وجود علاقة ضرورية بين كل عمل من اعمال الوعي وبين موضوع له معنى محدد) وقد اصبح لانكار هوسرل ومنهجه الوصفي ونظرياته عن العمدية والعس تأثير كبير على الفلسفة المعاصرة (هايدجر وسارتر وميرلو بوتني) وعلى علم النفس ، وعلم الاجتماع الحديث (ماكس فيبر) ه . م .

اكثر اجتماعية بشكل نقي ، وانني اتمنى لو اندس في الفراش . وقد كان هذا على بعد كبير من الموقع الذي بدأ منه ، حيث كان ايزموند وهوراس جليبي . شكرني كورنر وقال انه يأمل ان يتمكنوا من رؤيتي كثيرا . ثم قدم المجموعة الى الستير وانجيلا ، اللذين كان عليهما ان يقفا ، وقد بدأ عليهما الحرج . صفق الجميع بأدب ، ثم شرعوا في الوقوف والتحرك للخروج من الحجرة . سألت كورنر : « ثم ماذا بعد ؟ »

« آه ، الان يبدأ القسم الاكثر اهمية . سنمر الان بمرحلة اخرى من مراحل الالفه » .

لم اسعد بذلك سعادة كاملة . كانت المرحلة السابقة ممتعة ولكنها متعبة ، فانني لم اشعر برغبة في ان اثير توتر ملكاتي مرة اخرى . اشار الي فتبعته الى خارج الحجرة ، متسائلا بيني وبين نفسي ان كان سيتمتع اذا اقترحت الا اشترك في تلك المرحلة . بدأت اتحدث ، ثم غيرت رأيي . وبدلا من هذا ، سألته : « اود لو اسألك ذات مرة عن ايزموند دونللي » .

نظر الي وابتسم .

قال : « اظن ان بوسعي ان اخبرك ببعض الاشياء الهامة . ولكن يمكننا ان نناقش ذلك فيما بعد . فان لدينا الان اشياء اخرى يجب ان نقوم بها » .

تبعته ، بشيء من الاجهاد ، على السلم . استدرنا الى اليمين ، وظننت اننا ذاهبان الى مهجع الفتيات المخصص لنومهن . ولكنه فتح بابا عاليا لباب حجرة النوم ، ودخل . تبعته . كانت الحجرة صغيرة . ربما كانت مخزنا ، ولكنها كانت الان خالية باستثناء بعض المقاعد الصغيرة المرتفعة . كان لاحد الجدران نافذة واسعة . ولدهشتي ، رأيت جوينيث واقفة امامها ، تعيد ترتيب شعرها وتحقق نحونا .

« هذه مرآة عاكسة ذات اتجاهين ، بالطبع » .

كانت هذه اول مرآة من نوعها اراها في حياتي . سألته :

« أنت واثق من انها لا تستطيع ان تراقنا ؟ »

« ليس الا اذا فعلت هذا » مد يده وادار ذراعا صغيرة . وعلى الفور ، اصبحت

النافذة مرآة كان بوسعي ان ارى وجهي على سطحها . قال :

« تستطيع هي الان ان تراقنا . لقد قلبت اتجاه الانعكاس في المرآة » .

ادار الذراع مرة اخرى ، فابتسمت جوينيث لنا ، ولوحت بيدها عبر

النافذة . لوحت ردا عليها ، ناسيا انها لم تعد تستطيع ان تراقنا .

« ما الفرض منها ؟ »

« للملاحظة . سوف ترى ان النساء يبدلن ملابسهن الان » .

كان هذا صحيحا . ففي المهجع المزدحم ، كانت النساء يخلعن ثيابهن ، وقمصانهن الداخلية ، والاحزمة رافعة الجوارب . اما جوينيث ، فانها دون وعي بما تفعله قد مدت يدها الى ظهرها وفكت زرا في ثوبها ، ثم جذبت الزمام . خلعت الثوب بعناية ثم فردته على الفراش . كانت ترتدي قميصا داخليا ناعما اسود اللون

ذا حافة حريرية مشفولة بدت مغرية جدا وجذابة . بدا عليها انها نسيتنا . خلعت حمالة القميص عن كتفها ، ثم تركته يسقط حول قدميها . من الواضح انها لم تكن تفضل اللون الاسود وحده للملابس الداخلية . كانت ترتدي حمالة صدر بيضاء ، وحزاما اسود اللون يرفع الجوربين وسروالا داخليا ابيض من النايلون الناعم . من الواضح انها كانت مستثناة من القاعدة التي توجب على النساء ارتداء سراويل داخلية لا يمكن ان تمط الى درجة كبيرة . اما اكثر النساء اللواتي كان بوسعي رؤيتهن فقد التزمن بهذه القاعدة . لم تكن احدهن ترتدي السراويل الصغيرة الحجم . كانت اكثريتهن يرتدين تلك الاشياء الوردية او الزرقاء التي تغطي كل المعدة ، والمزودة بشريط مطاطي عند الوسط ، رغم ان تجربتي الخاصة مع ذلك النوع اثبتت لي ان المطاط عند فتحة الساق يمكن ان يخضع للمط بدرجة كبيرة ، فاذا ما جذب الى اسفل بوصة واحدة او اثنتين ، لم يعد يمثل اي مشكلة .

انضم الينا عدد اخر قليل من الرجال بينما نحن واقفان امام المرأة . ورايت انهن جميعا كن يرتدين الان تنانير قصيرة جدا رمادية من الصوف من النوع الذي كنت قد لاحظت وجوده في كل الحقائب التي فحصها بول امامي . كنت قد لاحظت ان اكثر الرجال اصبحوا يرتدون الان زيا مماثلا يتكون من بنطال رمادي من الصوف وقميصا رياضيا ابيض اللون . ذهنا نحو عنبر نوم الرجال في الطابق التالي . حصلت على اجابة السؤال الذي كنت على وشك ان اطرحه حينما فتح باب مجاور لباب العنبر فرايت عدة نساء واقفات هناك ومن الواضح انهن كن يراقبن الرجال اثناء خلعهن للملابس من خلال مرآة اخرى ذات اتجاهين . نادي كورنر بحدة :

« هيا ياسيدات . لا فرجة اكثر من هذا . لقد آن وقت تغيير الملابس » . اسرعن كلهن الى الخروج ، ولاحظت ان تيسا كانت بينهن . وبينما كنا ندخل العنبر ، رايت انها تسللت عائدة الى حجرة المراقبة . قال كورنر : « تعال . لقد آن وقت استبدال ملابسنا » . في عنبر نوم الرجال ، بدا اكثر الرجال عراة تقريبا ، وكان الشخص الواقف بالقرب من المرأة عاريا تماما بالفعل . سألت كورنر :

« ما الهدف من هذه المراقبة بالتحديد ؟ »

« اكثر الناس يتسمون بصفات الرغبة في الاستعراض ، حتى اكثرهم ثباتا ورزانة . واكثر الناس كذلك يحملون صفات « نوم البصا » . وهنا يمكنهم اشباع هذه الرغبات دون احساس بالاثم . لا تكاد تكون هناك اية رغبة جنسية لابد من اخفائها هنا في هذا المكان . اننا نحاول ان ندفعها جميعا الى السطح المكشوف ، ان نجعلها صريحة مباشرة وتحت الانظار المتطلعة . والان ، اظن ان هذا البنطال الذي ترتديه سيكون مناسباً . انك لا تحتاج الا الى قميص » .

استدعى بول ، الذي كان يرتدي ملابسه كاملة لكي يعثر لي على قميص . وبعد بضع دقائق ، عاد بول حاملا قميصا رياضيا دون « ياقة » من القطن . لاحظت

انه كان طويلا بشكل غير عادي ، فادخلته في فتحة بنطالي . لاحظت ان اكثر الرجال كانوا يرتدون سراويل داخلية - من النوع الصغير الذي تجد اعلاناته في مجلات الصحة والقوة ، وكانوا يرتدون احذية « التنس » البيضاء . كان الكثيرون منهم يستحمون في الحمام المجاور . صفق كورنر بيديه وصاح قائلا :
« هيا ياسادة . آن وقت ارتداء الملابس . ليست هناك سيدات في الحجرة المجاورة الان » .

تذكرت - مجفلا - ان تيسا كانت هناك ، وانني كنت اخلع ملابسني على بعد اقدام قليلة من المرأة . تمنيت ان تكون قد استمتعت بالمنظر . او ربما كانت تراقب الرجال الاخرين .

في الحجرة الرئيسية ، كانت شاشة ضخمة قد وضعت امام المدفأة ، التي كانت منخفضة الارتفاع . رايت انجيلا وقد بدت حلوة جدا في تنورتها القصيرة الرمادية . ولاحظت انها كانت ترتدي جوربا مثل نساء اخريات كثيرات . وكان من الواضح ان ارتداء الجوارب اجباري . اقتربت مني وامسكت يدي . قلت :
« بم تشعمرين ؟ »

« انني بحالة طيبة . ولكنه امر يؤدي قليلا الى الصدمة اذ تفقد الكثير من الكوابت في عطلة نهاية اسبوع واحدة . ولكنها تجربة رائعة . لا استطيع ان اقول لك كم انا ممتنة لمقابلة كورنر » .
« ترى ، ماذا سيحدث الان ؟ »

« الا تعرف ؟ مزيد من الالفة . كانت الفتاة التي تنام على السرير المجاور لي تصفها الان . هذه هي اللحظة الكبيرة . ارجو ان احصل عليك . لا استطيع ان احتمل واحدا من الرجال الاخرين ، فانا اكره الذكور ذوي الشعر الكثيف » .
« ولكن ماذا ؟ »

قبل ان اتمكن من استكمال سؤالي ، صاح كريس قائلا :

« هل نحن هنا جميعا ؟ »

قالت اصوات عديدة : « اجل » .

« حسنا . كونوا الدائرة . بول ، هل ستأخذ النور ؟ »

تساءلت عن المكان الذي سياخذ بول النور اليه . وبينما كنا نتحرك لكي نشكل الدائرة ، والايدي فوق الاكتاف ، اخذت الاضواء تخفت تدريجيا . رتب الرجال انفسهم في سرعة لكي يصبح كل رجل تاليا لامرأة ، ولكن لما كان عدد النساء يزيد قليلا عن عدد الرجال ، فقد كان من اللازم ان تصاحب بعض النسوة نساء اخريات . ثم اطبق ظلام كامل . سألت انجيلا :

« ماذا نفعل الان ؟ »

ولكن صوتا غريبا اجابني :

« اننا نتحرك الان جميعا نحو المركز ، نختلط ببعضنا ، ثم نختار اول من

نصادفه من الجنس الاخر » .

بدانا نتحرك الى الامام ،حلت لحظات قليلة من الفوضى . عجبت كيف اميز الرجال من النساء ، وانتهيت الى ان لمس الصدر هو الوسيلة . (واكتشفت فيما بعد ان هذه كانت هي الوسيلة المعتادة) . عثرت على فتاة فامسكت يدها بقوة .
صاح صوت بول :

« الكل مستعد ؟ »

تعاليت صيحات متضاربة : « اجل ، لا » .

ولكن الاضواء راحت تسطع بالتدرج . اكتشفت انني كنت امسك يد فتاة ضئيلة الحجم ، شقراء الشعر كنت قد لاحظتها من قبل . لم تكن جميلة جداً ، ولاحت لي عيناها مصابتين بقصر النظر ، ولكن وجهها كان جذابا ساحرا مفعما بالحيوية . سألتها :

« ثم ماذا ، الان ؟ »

« يمكننا اما ان نشترك مع الأزواج الاخرين ، او ان نبقي منفردين . ايهما تفضل ؟ »

فلنبق منفردين الان . » .

« وهو كذلك » .

نظرت الى جارتي الملاصقة لي - الفتاة النحيلة الطويلة التي كنت معها في لحظة سابقة من النهار - فجفلت حينما رايت انها كانت توشك ان تخطو لكي تتخلص من سروالها الداخلي الذي كان ساقطا عند قدميها . وكان الرجل الذي يقابلها يفعل نفس الشيء ، وهو رجل وسيم الى درجة ملحوظة ، عصبي ، يكاد يبلغ منتصف عقده الرابع ، بينما احمر وجهه . ناولته سروالها واخذت سرواله ، واخذ كل منهما يرتدي الآخر وهما متواجهان .
« ما الفرض من كل هذا ؟ »

« هذه هي بداية الالفة . يمكننا ان نتبادل الملابس دون تقييد باي حدود . وهذا هو القسم الذي رسم من أجل المولعين جنسيا باشيء معينة ، فيما اظن . هل تعني السراويل الداخلية شيئا بالنسبة لك ؟ »
« ان لها دلالة جنسية محددة » .

« في هذه الحالة ، يحسن ان نتبادل سراويلنا » .

ودون ان يبدو عليها اي حرج ، خلعت بسرعة سروالا وورديا من النوع الطويل ، ثم ناولته لي . استفرقت انا وقتا اطول في خلع بنطالي ثم في خلع سروالي الداخلي .

قالت : « وماذا عن قميصك ؟ »

« هل تتبادلون القمصان ايضا ؟ »

« اذا راق لك ذلك » .

كان ملتقى ساقي سروالها مبتلا ، وولد احتكاكه بما بين فخذي ومضة من التهيج الجنسي قضت على اخر آثار التعب . ومن الواضح ان مثل هذا الاحتكاك

انما هو اساسا احتكاك بين الاعضاء التناسلية الذكرية والانثوية يتم بحركة واحدة . وبدأت ادرك ما عناء كورنر بتعبير « النشوة الجنسية المعلقة » . كان ما فعله هو ان ملا حجرة بالرجال والنساء ، وجعلهم يمشون لحظة احتكاك جنسي - فعلي او رمزي - احدهم بالآخر ، حيث يكون المثير الجنسي في اقصى حالات قوته ، ولكن الانضباط الجماعي يضع كل شيء تحت المراقبة . وقف كورنر الى جوار المدفأة ، يرقبنا بعينين طبيبتين سعيدتين ووجدت نفسي اتساءل عما يشعر به الان او ما يفكر فيه .

اعطيت زميلتي - وكان اسمها نورما - قميصي الرياضي ، واخذت منها قميصها القصير الذي كان بنفس الطول تقريبا . لاحظت حينما خلعت ثوبها ان حمالة صدرها كانت من النوع ذي الفتحة الهابطة التي تكاد تسمح للشدي بالخروج منها .

ارتديت بنطالي ثانية ، واحكمت خطاف حزامه . قلت :

« لا اعرف لماذا تهتم بان ترتدي هذه الملابس ثانية . هذه القمصان الفصيرة طويلة بما يكفي للاحتفاظ بمظهر حسن » .

« اعرف ذلك . ولكن الدكتور كورنر يظن ان عملية خلعه الفعلية لبنطاله تدمر الكوايت لدى الذكر . اما لدى الفتيات فان العملية تتم بخلع سراويلها الداخلية » .

ادركت ما كانت ترمي اليه . بدا لي ان بعض الاخرين يريدون ان يتبادلوا الملابس . وما ان انتهى الرجل الوسيم المجاور لنا من ارتداء بنطاله حتى اقتربت فتاة اخرى . ورايت انه - في هذه المرة - ام يتبادل الملابس مع الفتاة ، ولكن مع زميلها الذي كان - او المفترض انه كان - يرتدي بالفعل سروالها وقميصها الداخلي .

قالت نورما : « هذا القسم من العملية يضجرني . دعنا نبتعد عنهما » .

تحركنا حتى اصبحنا عند طرف الجماعة . قالت :

« هل ابدا انا معك ، ام تبدا انت معي ؟ »

قلت : « من الافضل ان تبدئي انت معي . انني لاثق في كيفية قيامي بالعمل » .

« هل تفضل ان تقف ام ترقد ؟ »

« سيان ، لا يهم » .

رايت ان بعض الازواج كانوا يأخذون مناخذ مطوية : من كومة كانت في الركن ، ثم يقيمونها في المساحات الخالية . كانت المناخذ مصنوعة من الالونيوم ، وبدا ان طولها يبلغ ستة اقدام . كان الرجل او المرأة يرقد على المنضدة ، كما لو كان يوشك ان يتلقى علاجا قوامه التدليك ، ثم تبدا « الالفة » بنفس الصورة السابقة . اثبتت نورما انها اكثر خبرة من كل شريكاتي السابقات : او ربما كنت انا اكثر استثارة . وقفت امامي ، وجرت يديها على صدري ، ومعدتي وفخذي حتى هبطت الى القدمين . وحينما وقفت ، حلت حزام بنطالي ، وللحظة

تساءلت انا ان كانت ستمضي الى ابعد مما ينبغي . ولكنها لم تفعل اكثر من ان مدت يدها الى الداخل ودستها الى اسفل حتى لمست ساقي ، وهي تقرصني برقة او تربت بلطف حتى بلغت ركبتي . جعلتني اجلس ، ووقفت ورائي ، وجرت يديها في شعري ، وداخل قميص - او بالاحرى ثوبي النسائي - وفوق صدغي ، وداخل شفتي . مددت يدي الى زمام البنطال لكي اغلقه ، ولكنها جذبت يدي بعيدا وقالت (

« امزيد من الكوابت ؟ »

« آسف » .

انحنت الى الامام ، ومدت يدها الى الداخل ، ووصلت الى فخذي فربتتهما ، وتركت يدها تتجول بحرية . كنت قد تخليت عن كل محاولاتي لكبت ردود فعلي الطبيعية ، مدت يدها فدستها في خصر بنطالي ، وتركت اطراف اصابعها تجري برقة صاعدة هابطة فوق معدتي ، ثم الى اسفل اكثر . سيطرت على صوتي لكي اسالها :

« أهذا مسموح به ؟ »

« اوه ، اجل . الامر الان كله منزوك لنا . هل اتوقف ؟ »

« اظن انه يكون من الافضل لو توقفت » .

انفجرت قهقهات ضاحكة الى جوارنا . كانت امرأتان ورجل يضحكون على الرجل الذي استبد به الخجل واحمر وجهه . وبدا آخرون يضحكون بينما وجهه يزداد احمرارا . ولكن كورنر ، الذي كان يقف الى جوار المدفأة بدت عليه الصرامة وهز راسه ببطء . استدار الرجل واسرع خارجا من الحجرة . قالت نورما :

« مسكين مستر مالك كان . انه لا يستطيع ان يسيطر على نفسه ابدا . اخشى ان تكون النساء يتبادلنه لكي يجعلنه يفقد سيطرته على نفسه » .
كان الامر الغريب هو انني لم اعد اشعر باي ارهاق . كان تيار متوهج غريب قد بدا يحتاجني من الداخل .

قاطعتنا مجموعة من ستة اشخاص : اربع نساء ورجلان ، ارادوا ان يتبادلوا الملابس مرة اخرى . بدا الامتعاض على نورما ، ولكنها خلعت سرواها الداخلي على مضض ، وتسلمت بدلا منه سروالا نسائيا صغير الحجم اسود اللون . اما انا فاخذت السروال الفرنسي الطويل الذي عرفته عصر ذلك اليوم . استبدلت اثوب النسائي القصير باخر اطول منه ، كانت ترتديه فتاة شاحبة عميقة النظرات .
وحينما انتهت عملية الاستبدال قالت نورما :

« هيا . لقد حل دوري » .

وحينئذ ، اعتصرتني صدمة حينما تبينت انني كنت ايزموند خلال الدقائق الخمس السابقة ، وان هذا هو ما يفسر السبب فيما شعرت من ارتباك ازاء تلك الثياب الغريبة الشكل بالنسبة « لي » . كان الامر كما او ان ايزموند

قد برز طافيا من قلب اعماق ما في وعيي انا لكي يكتشف لنفسه ما يجري .
وحالما اصبحت واعيا بوجوده ، تزايد تأثير النظرة المزدوجة ، حتى انني للحظة
شعرت بانني موشك على الفئيان ، واخفى التهيج الجنسي .

كنا قد عثرنا على مكان هادئ عند حافة الجماعة المتراخمة . كانت
جوينيث - التي لم تعد تحمل اقل سمة من سمات المدرسة الثانوية ، منحنية الى
الخلف مستندة الى الجدار ، وقد اغمضت عينيها وارتمت على وجهها تعبير يكاد
يكون مزيجا من النشوة المتألمة . وكان رجل راكبا امامها ، وصدغه مستند
الى فخذه . حينما ادار راسه عرفت انه الستير . قال له ايزموند : « تحياتي ،
ايها الصديق » . وبدا الستير كمن جفل فجأة . هبطت جوينيث فجأة الى
الارض ، فاصبحت نصف جالسة نصف راقدة ، وقد اغمضت عينيها ، وانفجرت
ركبتها . حينئذ غمز لي الستير بعينه وقال :

« لا بد ان تجربها . انها رائعة » .

كان التعبير الشهواني الماكر الذي علا وجهه - اشبه بوجه اله الرعاة
الروماني فون - جديدا عليّ ، ولكنه لم يكن جديدا على ايزموند . تحققت انه
كان سليلا مباشرا لهوراس جليسي .

لم يعد تأثير الرؤية المزدوجة سيئا ولا مضادا للسرور ، كما لو كنت انا
وايزموند قد عقدنا صفقة نحتل بمقتضاها جسدا واحدا دون مباحكة ولا
نزاع . كان الاحساس الان اكثر وضوحا مما كان من قبل في اي مرة ، ولم اعد
قادرا على الاعتقاد بانه لعبة غريبة يقوم بها وعيي الباطن في الخفاء .

وضعت ذراعي حول نورمان من الخلف ، وداعيت نهديها ، ثم بحركة سريعة
من اليدين ، حررتهما من قيد المشد الذي يمسكهما . ألقت بنفسها برقة
لتستند عليّ ، فشعرت بخشونة ثوبها على لحمي العاري . احنت راسها حتى
استند الى كتفي ، ورفعت وجهها ، فانحنيت عليها ولمست شفيتها . وحينما
فعلت ذلك مدت يدها وراء ظهرها وامسكتني بقوة . قالت : « انك تزداد تهيجا
اكثر من اللازم » .

مضيت اربت عليها ، مستمتعا باستجاباتها ، كانت مثل قطعة قوست ظهرها
حتى لمستني وهزت في اطمئنان . تبينت ، في جزع مفاجيء ، انها قد بلفت
« النشوة المعلقة » ، ثم تبينت بعد لحظة ، ان ايزموند هو الذي عرف ذلك ، رايس
انا . لقد كان اكثر خبرة مني بشكل لا نهائي في مثل تلك الامور .

فجأة قالت نورما : « انظر ، هناك منضدة خالية . فلنذهب اليها . لا
يمكنني الوقوف اكثر من هذا » .

وفي الحقيقة ، لقد بدت ركبتها وكأنهما تصطكان . ساعدتها حتى تسلقت
منضدة بالقرب من المدفأة ، حيث كان يقف كورنر ، ناظرا بارتياح ومحبة الى
الحجرة ، يوميء براسه من حين الى حين ويبتسم . ربت على كتفي . سقطت يد
كورنر .

قال له ايزموند :

« تحياتي ايها الداكن البشرية »

سقطت يد كورنر ، وشحب وجهه شحوبا شديدا . انحنى الى الامام وحدق

في وجهي .

« اكنت تعرف هذا من البداية ؟ »

« انني لست ابله ، ايها المشرف . » كذلك قال ايزموند . فقال كورنر بهدوء ؟

« اذن فقد كنت تلهو بي . »

لم يكن هذا سؤالا . فاضاف قائلا ! « ولكن ، لماذا ؟ »

اثارني تعبيره المفعم بالوقار الحزين . اردت ان اشرح له الحقيقة ، ولكنها

كانت ستبدو امرا يدعو الى السخرية . ثم لاح على كورنر انه يتماسك . لوى

شفتيه ، وابتمس ابتسامة مريرة ، وهز كتفيه . ثم خرج من الباب وترك الحجرة

ومضى . قلت :

« ماذا تعني بحق الشيطان ؟ »

كنت اسأل ايزموند . ولكنه تجاهلني .

كانت نورما راقدة على المنضدة ، وتبدو كالنائمة . ذهبت اليها ، وخلعت

حذاءها . بدا قدمها الصغيران ابيضين جدا . انحنيت وقبلت باطن قدمها ، ثم

اخذت اطراف اصابعها في فمي . جفلت وتنهدت . حركت رأسي الى اعلى وقبلت

فخذها ، وفي نفس الوقت دسست يدي في وسط سروالها . في هذه المرة ،

شهقت ولم تبذل اية محاولة لكي توقف عمليات اكتشافي . وعلى الرغم من وجود

الناس حولنا ، فقد كان من الصعب مقاومة الاغراء بالصعود فوقها .

درت ببصري حول الحجرة ، فرايت انني وايزموند ، كنا من بين آخر من ظلوا

على اقدامهم . ادركت الآن لماذا كان البساط سميكاً الى هذا الحد . كانت الاجساد

الممددة راقدة في كل مكان . استطعت ان ارى آنجيلا راقدة على ظهرها ، وساقها

مفتوحتان ، دون سروال داخلي ، وبدا انها غارقة في النوم . كان بول راقدا الى

جوارها ، واحدى يديه على فخذها ، وقد اغمض عينيه هو الآخر . اما جوينيث -

التي بدت غير قابلة للتعب - فكانت عارية في تلك اللحظة ، راقدة على البساط ،

ورجل يرضع نهدتها ، وآخر يربت على ساقها وبطنها ، بينما راحت اردافها ترتفع

وتنخفض برقة . كانت اجساد اخرى متداخلة في اشكال وتكوينات لا معنى لها ،

فبدت كما لو كانت صورة تخيلها رسام صور داعرة لحظة احساس ساخر متهمك .

كانت نورما تمسك يدي بشدة ، لكي تمنعها من الهرب ، وراحت تحرك فخذها

صاعدة هابطة ويدي ممسوكة بينهما . حينما نظرت اليها ، سطعت في ذهني ذكرى

قديمة . حاولت ان اثبتها ، ولكنها راوغتني . بذلت مجهودا آخر ، وانا احقق بقوة

في لحم فخذها الذهبي المنحني . خطر لي ان ايزموند نادرا ما مارس الجنس مع

نساء لوحتهن اشعة الشمس . ورغم ان عصره لم يكن يتميز الا بالقليل من

الاجتثام ، كما هو عصرنا ، فان الثياب كانت تعتبر جزءا رئيسيا من انسانية الرجال

والنساء ، وكان التعرض العاري لاشعة الشمس يمكن ان يعتبر نوعا من الحدقة القريبة والخروج على المألوف . ولذلك فان اخاذ عشيقات ايزموند كانت دائما بيضاء ناعمة .

حينذاك ، وبشكل فشلت في فهمه ، لم اعد انا وايزموند رجلين يحتلان جسدا واحدا ، وانما تطابقنا فجأة واصبحنا رجلا واحدا . ان تفسير هذا لا بد ان يكون اكثر اهمية من وصف مجرد الاحداث الجسدية التي وقعت خلال الساعات القليلة التالية ، ولكنني لا استطيع هذا التفسير . ان اللفة لم تصنع لكي تعبر عن احوال الروح الانسانية البالغة الشفافية والدقة . لا يمكنني اذن ان اقول سوى التالي : يكاد يكون من المستحيل - ابتداء - ان تنسى الكائنات الانسانية نفسها ، ولا ان تفلت من انشغالها الغلاب والمسيطر بنفسها ، ولا من ان تتحقق من ان ثمة عالما يقع خارجها . لقد ادرك بليك ان كل طائر يقطع الطريق الهوائي هو : « عالم هائل من البهجة ، قريب من حواسنا الخمس » . ولكنني في تلك اللحظة وفي ذلك المكان ، كنت فجأة وبسرعة الومض الخاطف ، قد اصبحت داخل وعي شخص آخر ، كائن انساني كانت حياته وتجربته مختلفة من كل جوانبها عن حياتي وتجربتي . وقد جاءني هذا الوضع باحساس هائل من البهجة والحرية ، كان اشبه بالخروج من منجم فحم منهار . وكان الشيء الذي اختفى فجأة . اختفاء كاملا - هو ذلك الخوف الاساسي الذي يتسلل الى عقول كل الاذكاء والمثقفين من الناس في لحظة ما من لحظات حياتهم : الخوف من ان الواحد منهم هو حقا الشخص الوحيد في الكون ، وان الحياة فكاهة محكمة ، عرض سينمائي يقدمه رب تملكه الضجر يعرف انه وحيد تعاطى - او اعطى لنفسه - عقارا ينسى به وحدته . ذلك انه في تلك اللحظة ، كان هناك وعي ايزموند ، حقيقي ومكتمل بصورة لا تقبل الشك او الإنكار مثل وعيي انا ، ممتزج بوعي ومتداخل فيه .

وفي ومضة خاطفة ادركت معنى الجنس . انه سعي دائب الى تداخل الوعي وامتزاجه ، رمزه هو تداخل الاجساد . ففي كل مرة يروي فيها رجل او امرأة عطشه - او عطشها - في مياه شخصية اخرى غريبة - فأنهما يلقيان نظرة بارقة على ضخامة حريتهما الشاسعة .

كانت ذاكرة ايزموند اكثر من قوة ذاكرتي بكثير . فبسبب القدرات التي استطاع ان يطورها في نفسه ، كان يستطيع ان يستعيد المراحل الماضية من حياته في صورة من الحيوية لا يمكن تصديقها . وقد عرفت الآن ان هذا هو السبب الذي دفعه الى اختياري . لقد كنت اعرف دائما ان الحياة الانسانية شبيهة بالحلم لان اكثر الكائنات الانسانية تعيش بشكل سلبي . ان وعيهم لا يزيد الا قليلا عن كونه انعكاسا لبيئتهم . وعند حدوث النشوة الجنسية ، تشتد قوة تيار عقولهم فجأة الى حد الاصطحاب ، فيدركون اللحظة - مؤقتا - انهم لم يعودوا مصباحا كهربائيا لا تتجاوز قوته الاربعين « واط » ، وانما مائتين وخمسين ، خمسمائة ، الفا ... ثم ينخفض التيار ، فيعودون ثانية الى مستوى الاربعين « واط » دونما احتجاج ، انهم مثل البلهاء الفارغي العقول الذين لا يستطيعون تذكر شيء ما لاكثر من ثوان

قليلة . ان الكائنات البشرية كائنات متوسطة القدرة والدكاء حتى يكاد يكون من الصعب القول بانهم يملكون عقولا بأي معنى حقيقي . في ومضة خاطفة ادركت الحقيقة الواضحة العابثة : لا شيء يستحق ان تمتلكه الا عمق الوعي . هذه هي الحقيقة التي نلمحها لحظة النشوة الجنسية . فاذا ادركتها الكائنات الانسانية - لو ان عقولهم لم تكن بهذا العجز عن فهم حتى ابسط الاشياء - لكانوا جديرين بأن يهجرؤا كل مطمح آخر من اجل تحقيق هذا الهدف . ما الذي يهم حقا في اين تكون ، وماذا تفعل ، وكم تملك ، اذا كان عقلك محدودا ضعيفا قاصرا ؟ تماما مثلما لا تعني اكثر الاشياء جمالا اي معنى بالنسبة لرجل يعاني من الحمى . ومن الجانب الآخر ، ولان ايزموند قد ادرك هذا ، وراح يطارد السر ويسعى وراءه ، فانه قد حل المشكلة التي شغلت بروست طوال الاثني عشر مجلدا من روايته « البحث عن الزمن الضائع » ، مشكلة الكيفية التي نفتح بها المخازن الهائلة غير التالفة التي تمثلها ذاكرتنا . انني اذا حاولت ان اتذكر طفولتي ، فان ذكرياتي سوف تكون نسخة معتمدة بالكربون عن الشيء الحقيقي الاصيل . ومع ذلك فان حادثة ما ، مثل كعكة بروست المغموسة في الشاي ، تستطيع للحظة مؤقتة ان تبعث الى الحياة زمنا بعيدا بصورة تماثل في حيويتها تذكري لحادثة وقعت بالامس . فلماذا تكون الذاكرة بهذا الضعف ؟ لان الوعي قانع بأن يجري بقوة اربعين « واط » . بينما كل ما في الكون من طاقة وقوة قريبة منه وفي تناول يده .

في هذه اللحظة ، تذكرت فجأة حادثة كان من الممكن ان تعلمني ما عرفه ايزموند . فمئذ سنوات قليلة ، ارسلت الي تلميذة صغيرة خطابا عن احد كتبي . شعرت من الخطاب بدكائها ، فقابلتها في كورك - حيث كانت تدرس في مدرسة داخلية . كانت فتاة تسبب الدوار - واحدة من تلك المنتجات الجميلة ، الهافة الواثقة بنفسها والتي ينتجها بيت ثري مزود باصطبلات الخيول والحدائق الواسعة كالروج . وقد سحرتني - لا لانها كانت تؤثر اي تأثير على عواطفني التي كانت متعلقة كل التعلق بديانا - وانما لان الكمال يسحر دائما ، سواء تبدى في صورة منظر جواد سباق فاره ، او سيمفونية قوية . وكان من الواضح انني سحرتها ايضا ، لانها اعلنت عن انها تنوي ان تتزوجني ، رغم انها كانت كاثوليكية وكانت تعرف انني متزوج . وقد توقعت ان تستخدم اسرتها نفوذها للحصول على اذن من البابا بذلك . وفي اثناء العطلة السنوية ، ارسلتها اسرتها الى دبلين لكي تقيم مع عمة لها ، فاصبحت قادرا على ان اجد فرصا لرؤيتها مرة واحدة كل اسبوع تقريبا . كانت المسألة كلها بريئة كل البراءة ، من الناحية الجسدية . فانها وهي في السادسة عشرة ، كانت عذراء رومانتيكية . كانت مفتتنة بي ، ولكنها تخاف من الجنس . وذات يوم ، وقبل الموعد المحدد لعودتها الى المدرسة بوقت قصير ، بدا عليها بوضوح انها قررت ان الوقت قد حان للسماح للعلاقة بان تتقدم الى الامام خطوة واحدة . كان عصر يوم ممطر من ايام اغسطس ، وكنت قد اوقفت السيارة في غابة ما على حافة مزرعة كبيرة . وبعد عشر دقائق او نحوها من بداية جلوسنا متعانقين في مقعد السيارة الخلفي ، تبينت انها قد قررت ان تسمح لي باكبر قدر ممكن من

الحريات دون أن تسلم عذريتها تسليما فعليا ، ولكن هذا التحديد نفسه - الذي حددته لنفسها - غرس الخوف في قلبها . سمحت لي بأن أحل رباط حمالة صدرها ، وأن أخلع سروالها الداخلي ، ثم فجأة بدأت تبدي خشيتها من أن يتطلع أحدهم من زجاج السيارة - الذي كان مجللا بالبخار الى درجة تمنع الرؤية تماما . متوجعا من الإحباط والشعور بالخيبة ، أحكمت إغلاق ابواب السيارة لكي اطمئنها . ثم شرعت أعمل لكي انسيها احساسها بالانتم بسبب تهيجها الجسدي . واستغرق هذا وقتا طويلا - وقتا طويلا جدا . وخطر لي انها قد شعرت بأنها أصبحت كالعاهرة دون سروالها الداخلي - وهكذا فقد البستها السروال مرة ثانية . وجعلها هذا تشعر بالاطمئنان الكافي لكي تسمح لي بالرقاد فوقها ، وقد ارتفع ذيل ثوبها حول وسطها ، ولكن حينما حاولت ان اتحرك لكي اتخذ وضعا يمكن للاحتكاك فيه ان يشبع استشارتي كما يشبع استشارتها ، ثار خوفها مرة أخرى ، وكان علي ان اعود فأبدا من البداية . كنت قد وجدتها لذيدة لدرجة انني كنت على استعداد لان ابدا من جديد مائة مرة ، لقد اثارت في شهية الرجل الجائع ، ولاح لي وجودي في هذا الموقف ، الاطف اجمل فتاة قبلتها في حياتي ، لاح لي اكثر شيئا بحلم يقظة جنسي منه بالحقيقة . ولم تكن عملية ممارسة الجنس النهائية امرا هاما ، فقد كان امتصاص نوئتها كافيا لارواء عطشي . وبعد ساعة ، حينما تحققت من انها قد بلغت حالة من التهيج ازاحت كل العقبات ، تعمدت ان احافظ على وعدي ، فتركت نتائج استشارتي المتراكمة لكي تنفجر دون ضرر . وكان هذا كافيا لجعلها تسحب كل اوامر التحريم السابقة .

ولكن بينما كنت اقود السيارة عائدا الى البيت ، بعد ان انزلتها في طريق العودة عند « كوليج جرين » ، كنت اعرف ان وعيي لم يعد مستقرا عند مستواه القديم من الاجهاد . كانت الساعتان اللتان قضيتهما في تركيز مكثف قد غرستا في « اعادة » التكثيف العميق ، عادة رفض السماح لطاقتي بأن تفرق ثانية لكي تختفي في منبعها من الوعي الباطن . وبينما كنت اسير بالسيارة ببطء في الظلام ، كنت اعرف ان عقلي قد بلغ مستوى جديدا من القوة ، كانت ضربات قلب حيوبتي اكثر عمقا وقوة ، وكانت ذاكرتي تعمل بشكل احسن من المعتاد ، وكانت قدرتي على الحدس قد تعمق ... ولم يستطع طريق العودة الطويل ان يقلل من هذه الكثافة العميقة ، ووصلت المنزل عند الفجر ، شاعرا بنفس الانتعاش الذي احسنت به حينما بدأت رحلتي للذهاب من دبلن .

ومع هذا فقد سمحت لنفسي بالانتكاس ثانية الى المستوى القديم . لقد ضاع اكتشافي هذرا : معرفة ان ساعتين من المجهود المركز يمكن ان تعمق العقل وان تكثفه حتى يقترب من رؤية المتصوفين . ولكنني الآن ، في هذه الحجرة ، وانا محاصر بالرجال والنساء الممددين على الارض ، اعدت اكتشاف هذه الرؤية الداخلية التي ابصرتها ذات مرة . لم تكن هذه الحجرة مألوفة لي . ان التعود على شيء (أو الإلفة ، بمعنى مختلف عن معنى تدريبات كورنر) وظيفة او نتيجة من نتائج اجهاد الوعي ، اما بالنسبة لعقل مكتمل اليقظة ، فان كل شيء يبدو جديدا وطازجا .

كنت متحررا من التهيج الجنسي . وكان احساسى الرئيسى ازاء هؤلاء الناس هو الاحتقار المتسلل . وحينما كانت نورما تتحرك حركة متشنجة محتكة بيدي ، شعرت بانها وقعت في قبضة فعل منعكس لا سيطرة لها عليه . وفي نفس الوقت ، طرا لي بقوة عزيمة انني املك زمام رغبتى الجنسية بشكل كامل . وسواء اجتذبتني هؤلاء النسوة ام لا ، فسوف يكون بوسعي ان اقوم بوظيفتي الذكرية بصورة تامة . كانت هذه فكرة مثيرة للاهتمام ، رغم انها لم تكن جذابة بشكل خاص . كان الاكثر اثارا للاهتمام بكثير ان استعيد ذكرى تفهيم صوت الدكتور جونسون والكيفية التي مط بها شفته السفلى في تعبير عدواني واضح حينما قال : « سيدى ... » ، او ان ا تذكر الالتواء الماكرة الخبيثة التي جعلت الركن الايسر من فم فولتير يتشنج قبل ان يطلق واحدة من تعليقاته اللاذعة الذكية ، او صوت شيللي المرتفع المتوتر وهو يقرأ لي قصيدته « ادونيس » بصوت مرتفع النبرة . ولكن كان لايزموند هدف اراد ان يصل اليه ، وطالما انه كان معلمي الخاص ، فقد كنت على استعداد للانتظار . في هذه اللحظة ، اراد ان يظهر لي ان الرغبة الجنسية بشكل كامل مرجعها الى الخيال - او الى « العمد » كما يحق لي ان اقول ، ان اتجاهي ازاء نورما يمكن ان يتغير تبعا لارادتي الخاصة . كان بوسعي ان اراها في صورة فتاة غبية شبة لا تستطيع ان تفكر في شيء ابعد من اللذة التي تحسها بين فخذيها ، او في صورة تجسيد لربة الارض ، فاذا اخترت ان انظر اليها على هذا النحو ، فسوف يكون علي ان اسدي لها الاحترام والتوقير اللازمين ، مثل كاهن يقف امام المذبح . وتبعا لهذا ، فقد خلعت سروالها ، ثم خلعت سروالي ، وصعدت فوقها . فتحت عينيها دهشة اللحظة واحدة ، ثم شهقت بحدة حينما ولجتها ... ولما كان هذا عملا من اعمال طقوس العبادة ، وليس من الاعمال التي تدل على الرغبة ، فقد ركزت على اعطاها اقصى قدر ممكن من المتعة ، موثما بين حركتي الى الامام وبين حركاتها .

ورغم الفاصل القائم بيني وبين ما افعله ، فقد كنت اشعر كما لو انني امارس الجنس للمرة الاولى في حياتي . واكثرنا يعرف ان الجنس يكون احيانا افضل منه في احيان اخرى . ومن الممكن ان يولد ولوج فتاة صدمة كهربائية تماثل الصدمة التي تحدث اذا وضعت اصبعك داخل توصيلة كهربائية بالصدفة ، او يمكن ان تبدو هذه العملية كثيبة وعادية ، عملا جسديا لا يختلف عن اي عمل غيره . وهذا يرجع الى القدرة الانسانية على الدخول في حلة من البلادة اشبه بحالة النوم مغناطيسيا ، حالة من تقبل كل شيء على علاته . ولم اكن اتقبل نورما على علاتها فقط ، كامر بديهي من المسلمات ، بل كنت مدركا لانها في نفس الوقت تشبه كل فتاة اخرى في العالم . شعرت كما لو كنت نسرا يحوم ثابتا في الهواء دون حركة ، محدقا الى اسفل نحو فجوة هائلة بين الجبال .

كانت الطاقة التي ولدها عملنا تؤثر على الآخرين . في الحجرة : شعروا بها كما لو كانت مهيجا غامضا : « عطرا خاصا تحمله الريح » كما قال بليك . كان بعضهم يراقبوننا . وراح آخرون يقلدونني متجاهلين قواعد كورنر التي وضعها ضد الجماع

الفعلي . شعرت بيد تجري برق على ظهري ، وعلى ردفني ، ثم بين ساقني . كانت تيسا ، منحنية فوقني وعلى وجهها تعبير حالم بشكل غريب ومناقض لما كانت تفعله . تذكرت من كانت تذكرني بها ، انها مينوبوير ، اولى عشيقات ايزموند ، لم اكن قد عرفت اسم اسرتها من قبل ، ولكنني تذكرته الآن . زدت من سرعتي ، وانا اشعر بتصاعد استشارة نورما ، ثم بينما كان بطنها ينحني الى اعلى وتضغط بقوة على بطني، تظاهرت بانني بلغت ذروة نشوتي ، شاعرا في نفس الوقت باصابع تيسا وهي تخمشني وتقبض على لحيي . استرخت نورما ببطء ، فسحبت نفسي . قال شخص ما :

« يا الهي » . وكانت جوينيث ، التي كانت تقف الى جوارنا من الجانب الآخر محدقة باعجاب في العضو الذي بدا - حتى لعيني - منتفخا بشكل غير عادي . اما آلستير ، الذي كان لتوه قد نهض من فوق فتاة ظننتها للوهلة الاولى أنجيلا فقد صاح مدهوشا :

« غير معقول ! »

امسكت تيسا بعرقفي وقالت :

« والان ، انا » .

دفعتهما جوينيث جانبا ، ممسكة بي حتى لا انهض تماما وقالت بتصميم :

« كلا : انا . »

لم يكن هناك اي فرق بينهما بالنسبة لي . كان ايزموند - لاسباب تتعلق به ... مصمما على ان يتم المظاهرة حتى يبلغ بها نهايتها . ورغم ان ذاكرته كانت واضحة لي ، فان وعيي لم يستطع ان يدرك الفاية القصوى من نواياه . لم اعرف سوى انه قد انتوى ان يستخدم جسدي لكي يشبع اكبر عدد ممكن من النساء اللواتي قد يخترن ان يطلبن منه خدماته . وهكذا ، فحينما استندت جوينيث بظهرها الى الجدار ، ضاغطة اداة المتعة ... مددت يدي من ورائها ، وارشدته الى المدخل الضيق ... لم يكن الوضع مريحا بشكل كامل ، لانني كنت اطول منها . كانت هناك مائدة قريبة خلفي ، تحركت الى الوراء وارحت نفسي على ركنها ، جاذبا المرأة معي . اتت وهي تنضغط الى اسفل ، ثم رفعت نفسها وهبطت مرة ثانية بسرعة . جذبتها حتى التصقت بي ، ممسكا بها بقوة امامي ، وقد شعرت بشكل ما بانها قد اصبحت مثل اداة موسيقية مألوفة لي . كان في نيتها ان تبقى في مكانها لاطول وقت ممكن . فقد كادت قدرتها على التماسك الجنسي دون حدود تقريبا ، وقد تجاوب الموقف الحالي مع نزعة الاستعراض الكامنة في غلمتها . ولكن ايزموند كانت له خطط اخرى . كان متمرسا في استخدام مبداء رد الفعل المنعكس الشرطي . دفعات حساسة رقيقة قليلة دمرت سيطرتها ، ثم جاءت دفقة لا يسعني ان اصفها الا بانها نوع من الكهرباء الجنسية جعلت نقاط اتصالها الحساسة - نقاط الحلمتين وفتحة الشرج المتمددة - تتوهج بقدر من اللذة لا يمكن احتماله حتى اقتربت من الالم . اطلقت صيحة الم ، وهي تتلوى وتتقبض ، وكان علي ان امنعها من السقوط من امامي . وبينما امسكت بها ملتصقة بي ، خفت حدة التقلصات ، وتحولت الانات

الى تنهيدة عميقة . ابعدها برقة عن حجري ، وامسكت بها بينما كانت تهوي ببطء على البساط . . ففز راس الآله الذي لا يكل الى اعلى مثل « عفريت العلبة » ، وجفلت حينما سمعت انفجارية التصفيق . جالسا وقد اوليت ظهري الى بقية الحجر ، لم اكن واعيا بجمهور النظارة الذي تجمع للفرجة . كان بول وآنجيلا يقودان التصفيق وبصيحان . قال بول : « انك استاذ » ، فتبينت مصدوما انه كان يعرف عن جماعة العناء اكثر مما كنت اعتقد . كبحت جماح التعليق غير المتواضع الذي كان ايزموند قد شرع يطلقه . اندفعت آنجيلا تجاهي ، ولكن تيسر كانت قد وصلت قبلها وهي تقول :

« كلا . انها انا . » ثم دفعني الى الوراء على المنضدة ، وهي تحاول ان تصعد فوقي . اعنتها على ذلك - طالما انها كانت اصفر حجما حتى من جوينيث . ورفعتها قليلا قبل ان اتركها تسقط فوقي . انحط راسها فوق كتفي ، واطلقت تنهيدة طويلة ، ثم بدأت تتحرك ببطء ، كما لو كانت متعبة ، وهي تطلق صيحات خفيضة . مثل حيوان ضئيل الحجم يتلقى الضربات . دسست احدى يدي تحت قميصها الرياضي وقرصت حلمتها ، تقلصت برقة ، واندفع لسانها الصغير في فمي وراح يدفعني من داخل فمي . وبينما كنت ادفعها برفق بعيدا عني ، صاح رجل بلكنة اسكتلندية وصوت مرتفع : « ان الرجل فلتة عجيبة لا تكرر . »

كانت آنجيلا هي صاحبة الدور التالي ، جذبتني حتى ارقدتني على البساط ، امام المدفأة ، والقت بنفسها الى اسفل وقد ثنت ركبتها . ومعها ، اكتشفت اكتشافا جديدا . كانت العملية مثيرة مثلما كانت بعد زيارتنا لاسرة دانكان . من الواضح انها كانت تتمتع بشيء ما ، او انه كانت هناك صفة خاصة في تركيبة كل منا الجسدية النفسية ، جعلت كلا منا قادرا الى درجة عجيبة على اعطاء صاحبه الحد الاقصى من المتعة . وهذا عنصر نادرا ما لاحظته الكتاب الذين كتبوا عن الجنس ، الذين يبدو انهم يشعرون بان الاختلاف بين عملية جماع وبين عملية اخرى انما هو بشكل كامل مسألة تتعلق بالمعاني التي يختار الشخص ان يسقطها عليها . كانت العملية مبهجة مع آنجيلا حتى انني شعرت بما يفريني ان اهدى من سيطرتي على نفسي وان اكف عن حبس رغبتي في المشاركة ، على الاقل بدافع من التهذيب . كانت خمس دقائق كافية لاسترداد طاقتي . ولكن هذا لم يكن جزءا من العرض الذي يرمي اليه ايزموند ، فقد لاح انه مصمم على الاستمرار في العرض ، لاسباب خاصة به . بدأت اشعر كما لو كنت محرك سيارة قوية وصل الى درجة الاداء الكامل . لم يكن ثمة اجهاد او نصب ، وبدا جسدي كما لو كان يندفع بسرعة ثمانين ميلا في الساعة ، واكتسبت حركات اردافي حركة موزونة الى درجة غريبة ، كما لو كانت بندولا مضبوط الايقاع . زدت من سرعتي لكي اصل بآنجيلا الى ذروة نشوتها ، وانا اجذبها لكي اضغطها على جسدي حتى خبت حدة عنفها ، ثم انتقلت الى المرأة التي كانت تنتظر بالفعل الى جانبي من الناحية الاخرى . شيء ما كان يحدث لي ، اشبه باحساس بالانفصال عن جسدي ، وكان عقلي قد انفصل عن الجسد وطار في الهواء محدقا فوقنا . انني حينما افكر متذكرا حياتي الجنسية العادية ، فانها تبدو لي

ضائعة لا نظام فيها . ففي كل مرة يلج فيها رجل فتاة ، يستيقظ اله في داخله : اله لا ترضيه الحياة الجافة ولا الوجود الشبيه بوجود الخنفساء الذي نعيشه ، يعرف ان الانسان قد صنع لكي يفز آفاقا شاسعة ، غزوات لا نهائية ومن اجل ان يحقق نقاء ساميا وجليلا للارادة . وحينما يصطدم اللحم باللحم الغريب ، يقع عقله في قبضة نوع حاد من وضوح الهدف يرفض ان يتسامح مع تشوش الجسد وثقله ، يصبح مثل الضابط القائد العظيم : انه يستطيع ان يجعل من هذا الركاب من الاخلاط المشوشة التي ندعوها الجسد ، شيئا متناسقا صلبا مثل فصيلة جيدة التدريب منسجمة الافعال . ثم تعبر ذروة النشوة الى ما وراء الوعي ، ويغيب الضابط في طيات النسيان ، ويعود التشوش المضطرب من جديد .

لم يكن ايزموند يقوم بهذا متفكها او بهدف التسلية . فعلى المستوى الاول ، كانت هذه مظاهره او استمراضا . بدون كلمات كان يقول لنا ان الهدف الحقيقي الذي سعى وراءه كازانوفا ودون جوان وفرانك هاريس وزملاؤهم ، هو ان يجعلوا من عمليات الاغواء التي قاموا بها واحات من « القصد » في صحراء من الفوضى وعدم النظام ، لقد خلقوا عاليا لثانية واحدة كالنسور ، ثم انحطوا هابطين ثانية الى المستنقع . كان ايزموند يقول لي ان الهدف هو ان « ابقى في الهواء » . ماذا يمكن ان نقول عن قائد ساق قطعان الفزاة الى خارج بلاده ، ثم تراجع من المنطقة التي احتلها وسمح لهم بان يعودوا على الفور ؟ ليس هذا سوى ما حدث للبشر ، وقد بالفوا في تسليمهم بهذا كما يسلمون بالبداهيات حتى ان الفزاة عادوا مباشرة في اعقاب المؤخرة المتراجعة ، دون محاولة للتعزية او للمساومة . وقد اراد ايزموند ان يظهر ان الكثافة الجنسية تهيب لنا بصيرة داخلية في مثل حيوية الرؤية الصوفية ، واسهل في تحقيقها بكثير ، ولكنها - لكي تكون مؤثرة ، فلا بد ان يتم تنظيمها بحرص وانفعال مساو لحرص من يمارس البوجا او التنسك والصوم الطويل .

بعد المرأة الخامسة ، لم يعد الجنس يهمني او يمتعني ، كنت مبهورا بالحقيقة التي كانت تحرق في وجهي طوال حياتي . ففي كل مرة نشعر فيها بسعادة عميقة ، فلاننا نعرف انه ليس هناك سوى خير واحد : قوة الارادة ، وانه ليس ثمة سوى شر وحيد : ان نتنكر للارادة . فلو ان الحياة طيبة خيرة مثلما نعرفها في لحظات ابتهاجنا ، لكان من الواجب ان ننظر الى كل العقبات كما لو كانت من حصى الطريق ، ولكان المفروض الا يكون الانسان قابلا للهزيمة . وحينما كنت انظر حولي في الحجرة الى هؤلاء الربات العاريات ، نبع في داخلي فرح عميق . هؤلاء كن الامهات ، والذات جنسنا ، اللواتي استعبدهن الرجال دائما وحقروهن . لقد عبدتهن مثل كائنات الهية مقدسة . ان ما بين افخاذهن هو مدخل الرجل الى عالم الاحلام ، والى العظمة ، والى الهدف الاول الذي يكمن وراء المادة . لم ار اي فرق بين الواحدة منهن والآخرى ، بين الصغيرة والجميلة وبين متوسطة العمر المجعدة . الرغبة في خدمتهن جميعا كانت رغبة غير شخصية ومتحررة من الشهوة . وقفت واخذت يد فتاة نحيلة عصبية الشكل كانت تنتظر ، ومضينا معا الى ركن الحجرة . وقف جزء من كياني خلف مذبح مكلل بقطيفة حمراء شيد في مذبح مبني من الحجر الرملي .

المنحوت . وارتديت قناعا على شكل رأس طائر عظيم . ووقفت اربعون امرأة عارية في صف واحد امام المذبح ، اجسادهن تلمع بالزيت ، وكل منهن تمسك في يدها قارورة ممتلئة بسائل فوار متوهج الخضرة ادركت انا طبيعته وكنهه على حين فجأة .

استيقظت حينما لامست اشعة الشمس وجهي . يحتاجني احساس مدهش بالسعادة . كانت عضلاتي تؤلمني ، ولكن جسدي ينبض بطاقة مكبوتة . نظرت الى الفتاة الراقدة الى جوارى - فتاة لم اكن اعرف اسمها . وشعرت بدفقة من الاشفاق تجتاحني . ومن القريب تماما انها كانت عذراء ، وكانت قد قبلتني زوجا لها . ولكنني كنت زوج ديانا ووالد موبسي . انني لم اذكر ديانا كثيرا في خلال سردي لهذه القصة ، ولكنني كنت اطلبها بالتليفون كل يوم ، وكنت افكر فيها وقتما تكون لدي الفرصة للاسترخاء والتفكير . انني عاشق للبيت - بعكس ايزموند ، وقد اردت في تلك اللحظة ان اعود اليه .

انزلت خارجا من الفراش برقة ، واتخذت طريقي عائدا الى حجرتي واخذت من حقيبتي ثوبا فضفاضا من القطن ومنشفة من فوق المشجب ، وهبطت الى الطابق الاسفل . كان الصباح لذيذا ، مفعما بروائح حشائش ابريل . اتخذت طريقي الى المجرى المائي الذي كان يجري على الجانب البعيد من صف من شجيرات الفوشيا عند حافة الحديقة الكبيرة . هرع ارنب مدهوش الى الحشائش الطويلة يختفي فيها دون اسراع . كان مجرى الماء ضحلا ، ولكن عمقه كان يبلغ خصر الرجل بالقرب من المنتصف . كان شديد البرودة حتى كان علي ان اخرج قدمي من الماء بعد لحظات قليلة ، لكي اترك الالم يخف بالتدريج . ثم هبطت بجسدي في الماء بالتدريج ، وغسلت بالماء جسدي بأسفنجة جئت بها معي . بقيت في الماء حتى بدأت اشعر بالبرودة ، ثم فردت المنشفة فوق الحشائش التي بلطها الندى وتمددت تحت اشعة الشمس . وبعد عشر دقائق كان جسدي قد جف .

كنت اعرف ان علي ان اغادر هذا المكان قبل ان يستيقظ الآخرون . . ولو انني بقيت ، لنشأت ارتباطات شخصية مع عدد كثير جدا من الناس . فكل امرأة مارست معها الجنس كانت جديرة بان تشعر بان من حقها ان تأخذ معها جزءا من حياتي . واعتراضي الوحيد على هذا هو انهن كن كثيرات جدا . وكنت جديرا بان استمتع بالارتباط مع كل واحدة منهن والدخول معهن في علاقات شخصية ، ولكن لم تكن لي سوى حياة واحدة .

عدت الى المنزل فايقظت آنجيلا وقلت لها انني اريد ان ارحل . كانت نائمة في حجرتها فثأبت ، وابتسمت وفتحت ذراعيها . قبلتها وهززت رأسي وقلت :

« ليس الآن . »

« لا بد انك متعب . »

هبطت بيدها ودستها تحت ثوبي الواسع .

« يا الهي الرحيم ! » وولج لسانها فمي . طوحت بالاغطية من علي الفراش ،

وصعدت فوقها . كانت ما تزال ناعسة . وكانت العملية دافئة وممتعة ، ولكنها لم تكن متفجرة . حاولت ان انسحب قبل بلوغ ذروة نشوتي ، ولكنها هزت رأسها وامسكت بي بقوة . بعد ذلك ، غطيتها ثانية .

« أيمكنني ان آخذ سيارتك ؟ »

« بالطبع . ولكن ليس عليك ان ترحل . »

أخذت مفتاح سيارتها من حقيبتها وأخذت مفتاح باب الشقة . قلت :

« اعتذري لكورنر ، وقولي له ان بوسعه ان يجдени في الشقة اليوم ، في اي وقت ، وسوف يفهم . »

بعد عشر دقائق كنت اقود السيارة باتجاه لندن ، وقد تملكنتني سعادة مفاجئة غامرة ، وعقلي يشع بالافكار والرؤى .

كانت مسألة ايزموند هي ما شغلتي اكثر من اي شيء آخر بالطبع . كانت دراساتي في علم النفس والظواهر الخفية ذات الطابع السحري (والتي كتبت تاريخا لها) قد اقنعتني بأنه من الممكن ان توجد شخصيتان في جسد واحد . ان الحالة الغريبة التي تمثلها « وجوه حواء الثلاثة » هي حالة كلاسيكية (نموذجية وتقليدية) في علم النفس لم يحاول احد ان يفسرها : ربة البيت المتزوجة الهادئة الحسنة السلوك التي تتحول فجأة الى محبة لاهية لفن العشق . واكثر ملامح هذه الحالة غرابة وهي الحالة التي صورها كل من تيجبين Ingpen و كليكي Clochleg (※) هو انه بينما كانت ربة البيت المتزوجة جاهلة تماما بما حدث حينما استولت على جسدها الفتاة العاهرة ، فان العاهرة ، كانت مطلعة على كل نشاطات « الانا - الاخرى » التي تشاركها نفس الجسد . وقد اخبرتني ديانا بحالة شهادتها بنفسها في صباحها الاول : فقد ذهب احد اعمامها لكي يتسلق الجبال في سويسرا ، وذات يوم بدأت شقيقة زوجته - التي كانت ديانا تقيم معها - تحدث بصوته ، مستخدمة نفس امتدادات لهجته ونغمة صوته ورغم ان صوتها بالطبع ظل صوتا انثويا (. واستمر هذا لمدة ثلاثة ايام ، حتى عثر على جسد عمته في اخدود عميق بين الجبال ، ثم توقفت عن الكلام بصوته .

انا لا نملك اي تفسير لمثل هذه الاشياء ، وقد لا يهم كثيرا ان اصبح لدينا اي تفسير ، فمن المحتمل ان يكون تفسيرا خاطئا . ان كل ما همني - بمعنى ما - هو ان ايزموند لم يكن ميتا . كانت هذه هي الحقيقة الوحيدة اللافتة للنظر والهامة . كانت هناك مشاكل اخرى . ماذا كان ذلك الذي قاله ايزموند فانتج ذلك التأثير العنيف على كورنر ؟ وما الذي عرفه كورنر عن ايزموند ، وكيف تأتي له ان يكتشفه ؟

ولكن هذا لم يكن سوى جزء صغير مما شغل عقلي بينما كنت اقود السيارة

(※) « وجوه حواء الثلاثة » ، تأليف كورديت هـ . تيجبين ، هيرفي م . كليكي . لندن ، سيكر

وداربودج ، ١٩٥٧ . وكان « الوجه الثالث » هو حواء ذات الانسجام الداخلي ، بعد علاجها .

عائدا الى لندن . اما الشيء المهم حقا فهو ما تعلمته في الليلة السابقة . لقد اكتشف ايزموند طريقة ما يمنع بها نفسه من بلوغ ذروة نشوته ، فيجعلها متوهجة طوال ساعات . وكان معنى هذا انه قد خطا خطوة ابعد من اي انسان شعر بالتهيج قبله . وكان ما سحرني فكرة جوانب الوعي والارادة التي تفتحت امامي . كنت قد شعرت بارادتي اكثر قوة بالفعل ، وشعرت بان وعيي اصبح اكثر اتساعا وعمقا . لقد شعرت بنفسى - طوال حياتي - بانني واقع بشكل ما في قبضة قوى تقع خارج ذاتي ، وانها بشكل ما ، تحركني بطريقة من طرق التوجيه البعيد . فاذا كنت متعبا ، وشعر عقلي بالبلادة ، فأنني افقد همتي بسهولة . فاصبح اداة سيئة لتلك القوى . ومن ناحية اخرى ، اذا حافظت على ايماني . وسقت نفسي سوفا شديدا ، وحافظت على مستوى عال من التفاؤل عن طريق الارادة الخالصة والخيال ، فأنني اشعر بأنني استخدم لخدمته غرضا يتجاوز اغراضى الخاصة ، وابدو كما لو كنت احظى بقوى جديدة تفوق قوتي . هناك - احفظها - يكون احساسى بالحتمية والارتياح ، واشعر بدهشة عميقة ، مثل عصفور يجد نفسه فجأة طائرا بسرعة طائرة نفاثة .

في قصيدة « فيفاين في السوق » يقول براونينج ان الانسان يشبه السباح اذ يطفو على ظهره فوق سطح بحر هادى . انه لا يستطيع ان يطير مثل الفراشة ، فاذا حاول ان يرفع كتفيه الى اعلى مما ينبغي فوق سطح الماء ، غرق باقي جسده . فاذا هبط براسه تحت المياه غرق . ويقول براونينج ان هذا هو وضع الفنان ، راسه فقط هو الذي يستطيع ان يبرز من بحر الحياة ، وان يكتشف الحرية في عالم من الخيال ، اما ما بقي منه فهو محكوم عليه بأن يظل في المياه ، خاضعا لقانون الاجسام الطافية . وانى - باعتباري وجوديا ارتقائيا - لم اقبل ابدا هذه النظرة الرواقية الباردة . اني متيقن من ان قوى الخيال والنشوة تلك ، التي طورها ونماها الرومانتيكيون ، كانت فاتحة مرحلة جديدة من التطور الانساني . وفي قصيدة « فيفاين » ، وهي عن « دون جوان » يقبل براونينج فكرة ان الانسان ليس ثابتا مطردا مستقر التكوين ، وان رغباته الجنسية تمنحه لمحات بارقة من حقيقة مراوغة من نوع ما ، تختفي فتفادره مذهولا مرتبكا مأخوذ اللب . وكان ما ظننته دائما هو انه ليست هناك ضرورة لان يكون الامر على هذا النحو . اننا نمتلك قوى نادرا ما نص وجودها في اثناء دوران الحياة اليومية الكثيبة ، قادرة على ان تجعل الروح تمور مثل عاصفة ، او تفرق في هدوء ساكن الهواء متلهفة الى النشوة المستحيلة . ومن اجل ان نكتشف تلك القوى ، يجب علينا ان ندفع انفسنا الى آفاق جديدة . ان الرجل الذي يتمسك بالعادة اليومية لا يستطيع ان يحصل على اية لمحة مزعجة من لمحات اكتشاف الذات . ولكن عملية ارتياد عالم الجسد لا تقدم اية امكانية لكشف جديدة . علينا ان نتدرب - وان نجيد استخدام - تلك الحيلة القريبة التي تؤدي الى اتاحة الفرصة للجسد لكي يظل ساكنا او هامدا ، بينما يندفع العقل لكي يكتشف الادغال وسلاسل الجبال الداخلية .

وفي وضوح كامل ، استطاع ايزموند بمعونة الجنس ان يخطو خطوة هائلة

في هذا الاتجاه . فلا عجب انه كان قادرا على ان ينتفع بجسدي وعقلي وان يستخدمهما . فقد كرس كل منا حياته للوصول الى نفس المثل الاعلى . وعبر قرنين من الزمان ، التقى عقلانا كما تلتقي يدان امتدتا للمصافحة ، فتماسكا وتعاونا . هناك جوانب عديدة استطعت انا فيها ان اتقدم الى ابعد مما كان في مقدور ايزموند ان يتقدم فيها ، لانني حصلت على فرصة معرفة ثمار قرن ونصف قرن اخرين من تطور الثقافة الاوروبية . ولكن ارادته استطاعت ان تبلغ الى ابعد واعمق مما بلغته ارادتي . فما الذي يمكن ان يكون مستحيلا بالنسبة لعقلينا المعتزجين ؟

* * *

وصلت الى الشقة بعد الساعة العاشرة بقليل . كنت جائعا الى درجة فظيعة . وجدت قطعة جيدة من فخذ خنزير في الثلاثة فطهوت ست شرائح منها مع ثلاث بيضات . شعرت بتحسن بعد ان اكلتها مع الخبز الجاف والمربي وعصير التفاح والقهوة . واستمر الاحساس بالسعادة والادراك العميق الممتد الافاق . خطر لي ان مشكلة الوعي الانساني الاساسية هي انه يتركز على الحاضر معظم الوقت . وفي لحظات الاسترخاء وحدها - لحظات الاجازات - نستطيع ان نحقق حالة هي في نفس الوقت « يقظة كاملة » ولكنها « غير متركزة » . وهذه حيلة ، ان نقهر العادة القديمة ، عادة السماح للوعي بأن يسترخي حينما لا يكون متركزا . ها هنا انا ، مغمم بالاحساس بقدرة غريبة ، وعقلي يقظ يقظة تامة ، ومع ذلك فانه غير متركز على شيء . بالتحديد . وكانت النتيجة هي ان يملاني كل ما انظر اليه تقريبا او ما افكر فيه بالاستثارة والرؤى الداخلية الدقيقة الى درجة لا يمكن القبض عليها او امساكها .

كان لدى أستير - على رف الكتب - طبعة جميلة من قصائد تشاترتون (١)، ولم اكن قد قرأت ما نحلّه له رولاي من قصائد ، ومع ذلك فحينما نظرت اليها ، اتابني احساس بالمعرفة ، بالالفة . اخذت كتاب القصائد من على الرف ونظرت الى تاريخ حياة تشاترتون : ١٧٥٢ - ١٧٧٠ . كان اصفر من ايزموند بأربع سنوات ،

(١) توماس تشاترتون ١٧٥٢ - ١٧٧٠ - اشهر الشعراء الانجليز في عصر « الاحياء القوطي » . تمتعت كتاباته في الشعر وفي الدراما الشعرية بقيمة فنية كبيرة اصبح لها تأثير عظيم على الشعر الانجليزي والادوي من بعده في العصر الرومانسي اذ انه يعد من اوائل الرومانتيكيين ، ومن بناة موسيقى الشعر الانجليزي والادوي ومن رواد الشعر العاطفي والوجداني . بعد وفاته كتب عنه كل الشعراء الانجليز العظام بتقدير كبير : كولريج ، وردزويرث ، شيلي ، كيتس ، كراب ، بايرون ، سكوت . وقد تأثر به كيتس تأثرا كبيرا ، وكتب عنه الفريد دي فيني (الفرنسي) مسرحية باسمه اصبحت اساسا لاوبرا الفها الايطالي ليونكافاللو واعتبره الرومانتيكيون الفرنسيون رائدا لهم . كل هذا رغم انه بدأ حياته بتقديم بعض اشعاره باعتبارها من تأليف قسيس شاعر من القرون الوسطى اسماء « توماس راولي » ، فلما هاجمه النقاد والناشرون واتهموه بالتزييف (رغم اعترافهم بجمال الشعر) رد عليهم بقصيدته المرية : « بالامتيان من اجل الخير » ثم تناول سم الارسينيك في ليلة ٢٤ اغسطس ١٧٧٠ . (م.ه) .

ومن الواضح انه كان في لندن طوال الشهور الاربعة الاخيرة من حياته - قبل ان يتناول جرعة من سم الارسنيك . كان في وسع ايزموند ان يقابله . جلست على المقعد القريب من النافذة ، والكتاب مفتوح على ركبتي ، وافرغت عقلي . على التو كنت انا ايزموند : ظهر مثل صديق قديم وراء عيني ، ناظرا الى الكتاب . عرفت اجابة سؤالي . انه لم يقابل تشاترتون ابدا - فقد كان في جوتينجين حينما كان تشاترتون في لندن ؟ ولكن كان قد تحدث مع البول عن تشاترتون في عيد الميلاد السابق . وكان البول غاضبا بعنف لان الصبي كان قد ارسل اليه بعضا من شعره نسبها الى شخص يدعى جون آبوت ، وخدع والبول بالقصائد حتى اعلن الشاعر جراي انها قصائد منحولة ومنسوبة خطأ الى جون آبوت . وكتب والبول الى تشاترتون ، واشار له برقة الى ان من واجبه ان يستخدم مواهبه من اجل اغراض احسن ، فجاءه جواب وصف بانه « مقالة مسيئة للادب وبذيئة » . وحينما سرد والبول على ايزموند هذه القصة اغفل ان يذكر ان جراي قد اكتشف عمالية النحل ، ونسب الفضل في الاكتشاف الى نفسه .

دق جرس التليفون ، فافترضت انه لا بد ان يكون المتحدث هو كورنر او آنجيلا . ولكن حينما سأل الصوت الالماني اشقيل قائلا : « هل المستر سورم موجود ؟ » علمت انني اخطأت بالاستجابة للرنين . قلت : « انه هو المتحدث » بخشونة مفتعلة .

« آه ، شكرا لله . انا « آناليزا دانكمان » . كنت احاول الاتصال بك طوال عطلة نهاية الاسبوع . كيف حالك ؟ »

تبادلنا المجاملات المؤدبة للحظة ، ثم قالت :

« اسمع . من المهم جدا ان اراك . هل يمكنك ان تأتي الى هنا ؟ »

« انني متأسف للغاية ، فان هذا مستحيل . فانا راحل الى ايرلندا . عصر هذا اليوم ... »

بينما كنت اتكلم معها ، شعرت بوخزة غريبة بين افخاذي ، وعادني فجأة بوضوح عظيم صورة فخذيها المفتوحين واعضاؤها التناسلية تحت الحرير الوردى اللون . خطر لي ان ايزموند جدير بأن يفهم هذا ، ولكن كان شيئا بالغ الصعوبة ان احاول تصفية عقلي وتركيزه وهي تتحدث . فجأة انتقطع الخط وانقطعت المكالمة . افترضت ان عطلا فنيا قطع الاتصال ، فوضعت السماعة . وخطر لي ان هذه اللحظة ربما كانت هي اللحظة المناسبة لكي اتصل بديانا في ماي كوللان - حتى اذا اتصلت انا دانكمان مرة ثانية وجدت الخط مشغولا . اتصلت بعاملة الخط ، وبعد بضع دقائق كنت اتحدث مع موبسي ، التي قالت لي ان « ماي » في بيت تدفئة الزهور ، في الحديقة . بعد دقائق قليلة جاءت ديانا الى التليفون ، وقالت انها كانت تحاول الاتصال بي منذ امس ، فقد استطاع فليشر ان يحصل على عرض من شركة سينمائية لانتاج فيلم عن المادة المتجمعة لديه عن دوللي ، وانه يريد اجابة فورية . كان المبلغ المروض كبيرا جدا بالطبع . ولكن فليشر اقترح ان يأخذ

خمسین بالمائة ، وهي نسبة بدت لي مبالغا بها جدا . تحدثنا لمدة تقرب من العشرين دقيقة ، وقلت لها انني ارجو ان اعود في غضون يومين ، وقلت لها الا تفعل شيئا بخصوص البرقية التي ارسلها فليشر . وحينئذ دق جرس الباب . قلت لها « الى اللقاء » بسرعة ، وذهبت لكي انظر من النافذة . كانت آنا دانكمان تقف عند عتبة الباب الخارجي .

شعرت بما يفريني الا اجيب ، ولكن بدا لي هذا نوعا من الجبن ، الى جانب ان من المحتمل ان تكون قد سمعت صوتي وانا اتحدث بالتليفون - فقد كنت فتحت النافذة - . ذهبت وفتحت لها .

ابتسمت لي بطريقة آسرة مليئة بالود .

« آه ، يا عزيزي جيرارد . جميل ان اراك مرة ثانية . »

امسكت بكلتا يدي ، والصقت نفسها بي في انفعال للحظة . وجدت نفسي اتساءل ان كانت ترتدي السروال المخرم ، وشعرت بوخزة بين فخذي .

الامر المدهش هو انها كانت امرأة كنت جديرا بشكل طبيعي ان اراها منفرة على الفور وبشكل مباشر . لم تكن سيئة المظهر وكان جسدها جميلا - وان كانت تميل الى البدانة - ولكنني كنت اشعر انها ذات مظهر رجولي بشكل اساسي . وبشكل مناقض للطبيعة، لاح ان هذا يزيد من جاذبيتها عن طريق اذابة الحاجز الطبيعي الذي يفصل بين الذكر والانثى ، ويقيم بدلا منه نوعا من الصراحة الرفاقية . وكان علي ان اعترف بانها كانت تتمتع بجاذبية الشيطان وحسنه الظاهري .

كانت من الحكمة لدرجة انها لم تشر الى محاولاتها للاتصال بي ، الامر الذي كان من الممكن ان يتضمن نوعا من التائب او اللوم . كانت مفعمة بالدفع ، فقد كنا - في نظرها - صديقين قديمين عادا الى الالتقاء ، وقد ابهجهما ان يرى احدهما الآخر .

سألني عن صديقي الشابين اين هما . فقلت لها انهما سيبقيان بالخارج طوال النهار . ظننت انني اكتشفت على وجهها شبح ابتسامة تهنيء بها نفسها . قالت :

« يا للخسارة . لقد اردت ان اقابل هذا الشاب . انه يبدو ذكيا واسع الافق . »

فكت ازرار معطفها . فاعتنتها على خلعها . كانت ترتدي ثوبا من نسيج بني ناعم ، فجعلته نهذاها الكبيران مشدودا الى الخارج . وكان الثوب بالغ القصر . جلست على الاركة . بطريقة اقرب الى الاحتشام ، وقد ضمت ركبتيها ووجهتهما الى الخارج ، ولكن قصر ثوبها جعلها تعري ساقيها حتى طرفي جوربها بشكل حتمي ، كما تعرت منطقة من الفخذين . عرضت عليها قدحا من القهوة . قالت :

« كلا اشكرك . انما اريد ان اتحدث معك عن اشياء كثيرة . ولنبدأ بمسألة هامة . انك باقامتك في ايرلندا تحتاج الى مساعد ادبي « اليس كذلك ؟ »

قلت بحذر شديد ان هذا محتمل ، ولكن لا بد ان اعترف بأنني كنت قد بدأت اتساءل ان لم يكن كورنر يبالغ بشأن دانكمان وزوجته . كانت تشع بالدفع وبحيوية عطوف . قالت :

« حسنا . ان لدي الشخص المناسب تماما . هناك فتاة شابة تدمي كلارافيبيج ، وهي سويسرية . حينما اخبرتها بأنني قابلتك ، لم يكن بوسعها ان تصدق ذلك الا بصعوبة . انها تملك كل كتبك ، وملفا كبيرا يضم كل ما كتب عنك في الصحافة . »

ابتسمت بثقة مطمئنة ، ثم استطردت تقول :

« هذا بالطبع نوع من الافتتان انذي يحدث للفتيات الصغيرات - فانها قد اتمت تعليمها في الكلية منذ وقت قصير جدا . وقالت انها كتبت لك مرتين ، ولكنها لم تحصل على اي جواب . » (ومن الممكن ان يكون هذا صحيحا ، فأنني لا اجيب على الخطابات الا اذا لم يكن علي ان اكتب شيئا آخر .) « وهذه الفتاة لديها الكثير من وقت الفراغ - فان والدها يرسل اليها مبلغا جيدا كل شهر ، وهي تقوم بدراسة ما في جامعة لندن . وحالما اخبرتها عن عملك في موضوع دونللي ، عرضت ان تقوم بعمل مراسلتك الادبية في لندن . وهي لا تريد شيئا في مقابل هذا . انها لا تريد الا ان تعمل معك . . . »

وجدت في الامر ما يتماق غروري . فانه لا يوجد كاتب اصبح متخما بالملدات، غير مبال بها للدرجة الا يستمتع باعجاب النساء به . ووجدت نفسي اسيرا لسحر موضوعية السيدة دانكمان وعدم تحيزها . فمن الواضح انها لم تكن من النوع الغيور . قالت :

« طيب . لقد قلت لكلارا اننا قد نذهب لكي نراها اليوم في اي وقت . انها تقيم في نوتينج هيل جيت ، وبهذا فانها قريبة من هنا . لدي صورة لها . » فتحت حقيبة يدها ، واخرجت حافظة اوراق صغيرة . وقفت لكي آخذها منها ، ووقفت هي ايضا وبدأت تبحث في الحافظة . كانت تضع نوعا خافت الرائحة وان كان ممتعا من العطر ، وقد زادت نعومة نسيج ثوبها من استدارات نهديها وردفيها . قالت :

« آه ، ها هي . »

تحركت لتقترب مني ، وضغط اعلى فخذها بخفة على فخذي . شعرت بوخزة من الرغبة كادت تجعلني افقر . كانت الصورة التي اطلعتني عليها الفتاة في ثياب الانزلاق على الجليد ، واقفة على قمة المنزلق الجليدي المرتفع . بدت الفتاة جميلة ونحيفة ، ولكن كان من الصعب التأكد من ذلك بسبب ثيابها الثقيلة .

ولكن ما ادهشني كان المتعة التي كنت استمدها من الانحاء على انا دانكمان . كانت ملتصقة بي التصاقا خفيفا ، تقاب صور الحافظة المثلثة بها ، وبدأ لي ان الدفء المنطلق من خلال ثوبها يتصل مباشرة بعصري الجنسي . لاح لي انها تحمل صوراً عديدة لكلارافيبيج . اطلعتني على صورة قريبة اوجهها فرايت فتاة على شيء

قليل من الذكورة ذات صدغين مرتفعين - جميلة - وشعرها الاسود منسدل على كتفها . ذكرني بشكل غامض بمظهر انا دانكان نفسها .

واذ وقفت في مكاني خلفها ، ناظرا من فوق كتفها ، اربكني عنف رغبتني . ان استجابانا الجنسية من التعقيد بحيث انه من الصعب ان نقول بثقة لماذا يتمتع شخص معين بجاذبية خاصة علينا ، وفي هذه الحالة لم اكن مستعدا للتسليم بالقاء كل المسؤولية على وعيي الباطن . نظرت دون وعي الى صورة الفتاة ، محاولا ان اتذكر شيئا ما . وفجأة قالت انا دانكان .

« اتشعر بدفع ؟ »

ودون ان تعي بذاتها ، مدت يدها وراء ظهرها فدهستها بين اعلى فخذها وبين فخذي . تركت يدها في ذلك المكان لحظــة قصيرة ، مفتوحة ... حينذاك فعلت ما كنت افكر في فعله منذ ان دخلت الشقة اذ مددت يدي الى ذيل ثوبها ، ودسستها فوق طرف جوربها . قالت :

« هذا جميل . انا صديقان . ليس هناك سبب يمنعنا من ان يعامل احدها الآخر بصراحة . انني اكبر جدا من ان اكون عشيقتك ، بالطبع ، ولا يريد احدها ذلك . ولكن ما يزال هناك قدر كبير من التجاذب الطبيعي ، تجاذب الانثى والذكر - فيما بيننا . ويمكننا ان نكون صريحين فيما يتعلق بهذا . »

كانت هذه هي الزاوية الصحيحة للنظر الى المسألة ، فان فكرة حمل انا دانكان الى الفراش كانت جذيرة بان تزعجني . ولكنها لم تتوقع شيئا من ذلك . قالت :

« سوف تجد ان كلارا اقرب جدا لان تكون النوع الذي يروق لك . انها فتاة حلوة . يمكننا ان نذهب لكي نراها . »

فكرت في ان هذه قد تكون فكرة طيبة . كنت قد بدأت اشعر بنفس الاشتهاء غير الصحي الذي شعرت به في سيارة الاجرة مع آنجيلا ، ذلك النوع من الشعور الذي من المحتمل ان يحس به الشخص الميال الى الاستعراض ... ومن الناحية الاخرى ، دلني الحذر على انه قد يكون من الافضل ان اطرد هذه الفكرة من ذهني . قلت :

« اجل . لماذا لا نذهب الى هناك الان ؟ »

« طيب ، جميل . ولكنني احب ان اقول لك شيئا عن خططنا ... »

اخذت يدي بشكل طبيعي تماما ، وقادتني الى الاريكة . من حقيبة يدها اخرجت عددا من الاوراق المكتوبة بالالة الكاتبة . قالت :

« هذا الكلام بالمانية . هل تقرا الالمانية ؟ اذن سوف اقوم بالترجمة . »

كانت جالسة في الوضع المألوف ، مستندة بظهرها الى المسند ، وفخذاها مكشوفان فوق ذيل ثوبها المشدود الى ما فوق اطراف جوربها . كان فخذها يلمسانني ، وشعرت بشيء مثل صدمة كهربائية واهنة تجري منهما مباشرة الى ما بين فخذي .

حينذاك ، وعلى حين فجأة تماما ، كان ايزموند في مكاني ، وتغير كل شيء .

شعرت كما لو كنت قد خطوت فجأة خارجا من جسدي ، وانني انظر الى نفسي من جزء آخر من الحجرة . عبرت موجة الحمى وابتعدت . وفي نفس الوقت ، فهمت ، دون ان اشعر ببذل اي جهد عقلي محدد . كانت انا دانكمان تملك نوعا من الطاقة ، نوعا غريبا بدائيا من الطاقة التي تملكها كل النساء بشكل غريزي . ولكن هذه الطاقة - لدى معظم النساء - تكمن تحت الطبقات التي تكونها « الشخصية » ، تكونها « الكوابت » . وقد تعلمت انا دانكمان ان تحرر هذه الطاقة وان توجهها . لن يكون تعبيراً دقيقاً ان نتحدث عن هذا الانجاز من جانبها باعتباره شكلا من اشكال السحر ، وان كانت الطاقات الفعلية التي تملكها الساحرات تتمتع بنفس الطبيعة . وقد رايت في ومضة خاطفة ان هذا هو السبب الذي يجعل من التقليدي ان يكون « يوم سبت الساحرات » حيث يجتمعن بالشيطان ، يوما مليئا بالاعمال الشهوانية ، مع خلع ملابسهن كلها ، والمسافدة مع ذكران الماعز ، وما الى ذلك ، فالساحرة تلقي عن نفسها كل انواع الكبت وتعلم كيف تركز كل طاقتها الجنسية الطبيعية .

لقد فهم ايزموند انا دانكمان ، فانه كان قد عرف الكثيرات من نوعها ، واكثرهن كن اكثر موهبة منها . وجدت نفسي انظر الى داخل عقل انا دانكمان ، فاشعر بافتتان مخيف . لم تكن مثل زوجها منحرفة جنسيا . فالانحراف ينبع بسبب عقبة سيكولوجية غائرة في نفس الانسان . وكان كلاوس متسمرًا عند فكرة « المحرم » والمنوع . وكانت فكرة ان اي شيء يمكن ان يكون محرما او ممنوعا كافية لكي تجعله ينتصب . انه مثل دي صاد ، اراد ان يكون شريرا ، وان يمضي حياته في البحث عن اشياء جديدة مذهشة يفعلها . وقد تلاءمت نزعة انا دانكمان الجنسية الفياضة مع نزعته تلك واشبعته اشباعا كاملا . فان غريزة الامومة لديها كانت قد تشوهت وتحولت الى نوع من النهم الشره . رايت بوضوح انها كانت مزدوجة الرغبة الجنسية ، وان كلارافيبيج كانت عشيقته . فان موقفها من الجنس كان موقفا ذكريا بشكل غريب : كانت تحب ان يأخذها كل رجل في العالم ، وان تملك هي كل امرأة جميلة . وكانت تتمتع بفضول لا يشبع ، كانت تريد ان تكون « في » داخل وفوق كل شيء . وقد رايت ان هذا هو دافعها الى البحث عني والاندفاع نحوي . فقد كان بوسعي ان اضيف جوا من الكفاءة الثقافية على « مجموعتها » فتجذب بذلك الاتباع والتلاميذ . وكانت خطتها هي انه لا بد لي من ان آخذها هي وكلارافيبيج قبل ان ينقضي النهار ، ثم تكون مهمة كلارا هي ان تحافظ علي وان تشدد قبضتها ، من خلال ما تشيعه حولها من جو التابعة المفتونة .

لا ادعي انه كان بوسعي ان اقرا ما بداخل عقل انا دانكمان . فقد كان كل هذا - بمعنى من المعاني - نوعا من التأمل ؛ ولكنه كان تأملا قائما على اساس من تجربة ايزموند الهائلة . وقد بدا لي كل هذا واضحا شديد الوضوح . ثم ادركت الآن ، انه - ايضا - قد بدا مشيرا للعاطفة الى حد ما . كانت تمتلك الكثير جدا من الطاقة ، وفرصة محدودة جدا لاستخدامها . فلماذا لا تقبض على اية فرصة تلوح لها ؟ كان هذا امرا مفهوما .

لم تكن واعية بأنها قد « فقدتني » ، فقد جاء « استبصاري » الداخلي لها سريعا كالوميض ، بينما كانت لا تزال تقلب الصفحات . امسكت بالاوراق مفتوحة باحدى يديها ، وراحت يدها الاخرى تتحرك فيما بيننا ، لكي تزيد من قوة الاحتكاك . وفي تلك النقطة بدأ ايزموند يسلي نفسه . كان ما فعله ببساطة هو ان يضبط على قواي الجنسية ، وان يوجهها ضدها . وفي الحقيقة ، لم يكن هذا غريبا علي غربة كاملة ، فاني كنت افعل هذا دائما دون وعي ، في لحظة الاتصال بفتاة كانت قد اجتذبتني . ان امرأة - اذا رغبت في اجتذاب رجل ما - فانها قد ترمش بجفניה او تتأود لكي تبرز مفاتنها ، ولكنها اذا كانت رزينة محتشمة فانها ستحافظ على هدوء السطح الخارجي ، ثم تستخدم السحر الداخلي القادر على الاتصال المباشر غير الظاهري الذي كانت انا دانكمان تستخدمه الان . اما الذكر فانه نادرا ما يستعرض مراكز جاذبيته بشكل صريح . ان اسلوبه من البداية يعتمد على الظهور بمظهر غير المبالي ولا المهتم . وعلى ذلك فأنني - بمعنى ما - كنت متفوقا على انا دانكمان في هذا الصدد . ولكنني ما كنت استطيع ان اعرف هذا دون المعونة التي اسدتها الي خبرة ايزموند .

شعرت بالاثم بسبب هذا الموقف ، فاني لم ارد حقا ان اجتذبها . ولكن علي ان اعترف بأنه كان في ساوكي هذا نوع من « العدالة الشعرية » ، العقاب الذي ينزل بالآثمين في المأساة التقليدية . كان الموقف قد تحول الى مباراة ، مبارزة بسيوف خشبية .

بدأت تترجم الكلام المكتوب بالالمانية ، وحينئذ ارتعشت اليد المسكة بالاوراق ، كانت تقاوم . كانت قد اعتادت ان تكون هي الساحرة لا « المسحورة » ، وفي هذا الوضع الجديد ازعجها الاحساس الجديد المصاحب له واخافها . قلت بادب : « استمري » ، وزدت من التيار الضاغط . بدأت تقرا : « ان القواعد التي تتبعها جماعة تعاونية من تلامذة راينج ... » ثم توقفت ، وقالت :

« يجب ان نعرش على اسم آخر لهم » .

قلت : « اجل ، يجب ان نفكر في اسم آخر ... » فاستعادت ثقتها وعادت تقرا .

كنت قد لاحظت ان لثوبها زماما من الخلف ، وان الزمام يفلق عند قمته بزر ضخم . وقد ادركت في تلك اللحظة اهميته . كان فخذها سلاحا عدوانيا ، فحا للذكور اشبه بفخ العناكب للذباب ، ولكن نهديها كانا جزءا من اونيتها ، الجزء الاموي منها . اشرت الى جملة في الورقة تقول : « ماذا يعني هذا ؟ » فلمست عظمة ساعدي قمة نهدها . جفلت جفلة ضئيلة وابتعدت . وضعت يدي بقوة على النهد وامسكته ، للحظة فقدت السيطرة على نفسها وحاولت ان تبعد يدي بعنف دون حساب مثل فتاة صغيرة . ثم استعادت سيطرتها على نفسها مرة اخرى ، وقالت بصوت ثابت بدرجة ملحوظة .

« انها اقتباس من راينج ... » وشرعت تترجم الجملة كاملة . مددت يدي

وراء ظهرها ، وفي حرص حلت الور الضخم ، غبت هي رغبتها في ايقافي ، لقد كانت هي - على كل حال - التي تحدثت عن « ضرورة ان يعامل احدانا الآخر بصراحة . » جذبت الزمام الى اسفل ، فرايت ان ظهرها كان عاريا ، باستثناء شريط حمالة الصدر . حالت رباط حزام صغير عند خصرها ، وجذبت الزمام الى اسفل حتى اقصى مجراه ، تحت الطرف العلوي لسروالها الداخلي . قالت :
« انك شئت انتباهي ! » ، « انك شئت انتباهي » ،

حاولت ان تضغط بظهرها على مسند الاريكة ، ولكن محاولاتها كانت متاخرة جدا ، فقد كنت نجيحت في فك مشبك حمالة الصدر . ضغطت بظهرها على مسند الاريكة بقوة ، وفقدت سيطرتها على نفسها تماما للمرة الاولى ، أصبحت فجأة غير واثقة من نفسها ، وهي تشعر بما يغريها على قتالي . دون ان انظر الى وجهها ، امسكت بكتفي ثوبها ، وجذبتها الى الامام . ابتعد الثوب عن كتفيها اللذين كانا ابيضين مستديرين مثل كتفي تمثال . كانت جذيرة بان تبدو في هيئة ممتازة وهي ترتدي ثوبا دون اكتاف في بهو حفلة راقصة في عصر الامبراطورية الثانية . كان نهدها كبيرين ، وما زالا بحالة جيدة . ادهشني بياضهما ، واحمرار الحلمتين المناقض لذلك البياض . وضعت كلا من احدي يدي على احد النهدين وشعرت بالدفع يتسلل طافيا في داخلها . كان هناك شيء يدعو الى الاعجاب بالطريقة التي حاولت بها ان تستعيد سيطرتها على نفسها ، ونجحت في ذلك جزئيا . كنت اعرف ما كان يحدث لها ، من الطريقة التي انفجرت بها ساقاها . كانت تشعر بنفس الوخر المحموم الذي شعرت انا به من قبل . مدت يدها ووضعتها فوق بنطالي . . فقلت :
« قفي . » . ترددت ثم فعلت كما امرتها . سقط الثوب على الارض ، ووقفت في مكانها بسروالها الداخلي الوردي ، وحزام الجوربين فوقه ، مع الجوربين . جذبتها حتى التصقت بي . . . ارقدتها على الاريكة ، وخلعت كل ملابسي . . .

جفنا كلانا عند سماع صوت جرس التليفون . . .

قال صوت رجل : « مستر سورم ؟ »

« يتحدث . »

« انك لا تعرفني . اسمي نيجيل سانت ليجير . ترى ، هل يمكنني ان اجيء

لكي اراك ؟ »

« انت الـ « نيجيل سانت ليجير » ؟ »

اطلق ضحكة تدل على الحرج وقال :

« اعتقد ان بوسعك ان تقول هذا . هل يمكنني ان آتي لكي اتحدث معك عن

موت هوراس جليني ؟ »

« طيب ، نعم ، بالطبع . متى ؟ »

« انني قريب منك جدا هذه اللحظة . ايمكنني ان اجيء اليك الان ؟ »

« بالطبع . هل تعرف العنوان ؟ »

« اوه ، اجل . ساكون معك بعد دقائق قليلة . »

حينما التفت ورائي ، كانت انا دانكمان تشبك حمالة صدرها بالفعل . . . ثم

قالت :

« اعتقد انك تظنني بالغة القباء ؟ »

« كلا . » ولكنني لم اعرف ما اقوله عدا هذا .

كان بوسعي ان اشمر بها وهي توشك ان تفضب . امكت بمعطفها .

قالت :

« لماذا لم تخبرني ؟ »

قلت اول شيء خطر على ذهني .

« ربما لم يكن هذا مسموحا لي به . »

حدقت في وجهي ، وقد ثار اهتمامها فجأة . وللحظة طويلة ظلت عيناها

تحدقان في عيني . قالت :

« اظنني افهم . »

وكان هذا اكثر مما بوسعي ان اقول .

تحركت متجهة الى الباب .

قالت بأسلوبها الدافئ الودي المخادع :

« حسنا ، اننا نظل صديقين . »

كانت قد عادت الى سيطرتها على نفسها مرة اخرى . وقفت في مكانها ، معطفها

مفتوح ، ويدها ممدودة ، وساقاها منفرجتان ثابتتان على الارض . ولكن الموقف بدا

سخيفا ولا معنى له . نظرت الى النهدين البارزين ، وخفضت بصري الى الفخذين ،

كانت امرأة تتظاهر بأنها رجل .

حينئذ ، احمر وجهها فجأة . لم اكن قد تبينت ان نظرتي واضحة كل هذا

الوضوح ، انزلت يدها ، واستدارت دون كلمة ، وجذبت الباب بعنف ففتحنه . لم

ابدل اية محاولة لمتابعتها . فاني ، اولا ، كنت مسرورا لرؤيتها ترحل . وثانيا ،

شعرت فجأة بالاسف . فربما كانت مباراة ايزموند لعبة ممتعة ، ولكنها غادرتها

مكشوفة ومعرضة للاختراق من اي نقطة . ماذا عساها تستطيع ان تفعله الآن ؟

اتحاول ان تنمي جانبها الانثوي ؟ هذا امر لن يؤدي فقط الى الاحباط او حاولته .

طرا لي فجأة ان هناك فارقا واحدا اساسيا بيني وبين ايزموند . لقد كان ينتمي الى

القرن الثامن عشر ، قبل عصر « الحساسية » . لم تكن هزيمة اتنا دانكمان بالنسبة

اليه سوى شيء مضحك ، والاكثر من هذا ، لا اهمية لها .

ذهبت الى النافذة حينما سمعت السيارة تتوقف بالخارج ، تعرفت على نيجيل

سانت ليجير قبل ان يخطو خارجا منها الى الرصيف . لم اكن قد رايتة ابدا في

المسلسلة التليفزيونية التي جعلته معروفا لعدد كبير جدا من الناس . ولكن كان

لدي كتاب عن قضاياها وحالاته ، مزود بعدد كبير جدا من الصور . كان اصغر حجما

مما توقعت ، ولكن مشيته كانت تنسم بنوع من التدفع القوي الى الامام دلت على

شيء ما في شخصيته .

قابلته عند الباب . سألني : « مستر سورم ؟ »

صافحني ولكن ابتسامته بدت لي باردة قاسية . تقدمته الى داخل الشقة .
كان رجلا وسيما ، قوي البنية ، في اوائل عقده السادس . وكان بوسعي ان اتخيل
ان نظراته المحدثه النافذة الباردة قد اخافت عددا كبيرا من المساجين في قفص
الانتهام .

قلت : « من اخبرك بانني هنا ؟ »
نظر الي بحدّة ، كما لو كان يشعر بما يفريه لان يقول : « انا الذي القى
الاسئلة » ثم قال :

« الدكتور كورنر ، بالطبع . »

اخرج علبة سيجار من جيبه ، وقدمها الي . هزرت رأسي . اقترب مني وأنا
واقف بالقرب من النافذة وحدق في وجهي . قال :
« انني لم اقرا اي كتاب لك من قبل ، ولكن سوف احرص على ان افعل
ذلك الآن . »

لم اقل شيئا . اتجه الى منضدة للعب الشطرنج عند النافذة ، ودون وحي ،
حرك احد ييادق الشطرنج . قال :

« هل تلعب الدومينو ، يا مستر سورم ؟ »

لم اقل شيئا . كنت احاول ان احتفظ بنقاء عقلي . وقف سانت ليجير ينظر
الي ، مثبتا اياي بأفضل ما يملكه من نظرات الاتهام .
قال ايزموند :

« تحياتي ، ايها المشرف . » (١)

جفل سانت ليجير ، وبان عليه الانزعاج . ولكنه استرد سيطرته بالذهاب الى
الاريكة والجلوس عليها . قال :

« افهم من هذا انك تعرف الكثير يا مستر سورم . ولكنك لا تنتمي الى منزلنا .
والاستاذ الاعظم لم يسمع بك من قبل ابدا . »

كنت اعرف ان من الافضل لي ان اترك هذا الموضوع لايزموند ، فلم يكن هناك
وقت اضيق في محاولة الاعتماد على نفسي . قال ايزموند :

« اذن فلا بد ان عليك ان تسمع عني . اليس كذلك ؟ »

اشعل سانت ليجير سيجارة .

« هذا هو الواضح ، ان كان كل ما اسمعه صحيحا . » حاول ان يسترخي ،

ثم استطرّد يقول :

« اسمح لي بأن اوضح موقفني . انني لا انكر حقك في الانتماء اليّنا . ان

مؤهلاتك عظيمة بشكل مبين واضح . وبهذه المناسبة ، أين تعيش ؟ »

« في ايرلندا . »

« آه . »

(١) الكلمة الانجليزية هي : domino . ومن الواضح ان سانت ليجير كان يلعب بالكلمات

بسؤاله السابق ، اشارة لما قاله سورم في الحفل الجنسي للدكتور كورنر . ه.م.

ظننت انه قد بدا عليه الانسراح والتفاؤل . قال :

« طبعاً . لم يكن هناك اي شيء في ايرلندا منذ سبعين عاماً . ربما كان علينا ان نفعل هناك شيئاً ما . »

حدق في طرف سيجارة ، كان لدي احساس بأنه ليس واثقاً من الكيفية التي يعالج بها هذا الموقف . ثم نظر الي . قال :

« كيف استطعت ان تكتشف الامر ، يا مستر سورم ؟ »

لم يقدم ايزموند الي اي معونة . فقررت ان اقول الحقيقة .

« لقد طلب مني ناشر اميركي ان اكتب عن ايزموند دونلي . وطوال الشهور القليلة الماضية كنت احاول ان اكتشف مذكراته واوراقه . »

« ولم تكن تعلم شيئاً قبل هذا ؟ »

« كلا . »

« ارى ذلك . »

بدا عليه الارتياح . دق جرس الباب ، فتحرك كل منا لدى سماعه . قال :

« هل تتوقع مجيء شخص ما ؟ »

« كلا . »

« جميل . اذن اظنني اعرف من يكون . هل تسمح ؟ »

ولكن كانت آنجيلا هي القادمة . قالت :

« لقد اوصلني كريس ، وقد اشتبك في مناقشة عنيفة مرعبة مع اوتو . . . »

دخلت الى الحجرة ، ورات سانت ليجير الذي وقف بأدب لكي يحييها . تعرفت عليه على الفور وبان عليها ذلك . قدمت احدهما الى الآخر ، فتصافحا ، واطهر هو قدرا من التهذيب اكبر بكثير مما كان قد ابدا . حتى الآن . قال لها :

« انت عضو في جماعة الدكتور كورنر . شيء ساخر ! اعتقد انك انت التي قدمت المستر سورم اليه ؟ »

سألته : « هل تعرف بأمرهم ؟ »

« اوه ، اجل انا اعرف بأمرهم . »

نظرت الي آنجيلا ، ترجو الحصول على بعض المعلومات لكي تفهم الموقف .

قلت :

« ان السير نيجيل هو المشرف على المنزل الانجليزي لجماعة العنقاء . »

شحب وجه سانت ليجير . للحظة ظننت انه على وشك ان يفقد سيطرته على نفسه . قالت آنجيلا :

« اهو يمزح ؟ »

بدا على سانت ليجير انه فقد شهيته للكلام تماماً . قال :

« من المؤكد ان لديه احساساً فكاهياً سيئاً التقدير والحظ . »

قالت آنجيلا :

« يظن كورنر انك من جماعة العنقاء . ماذا قلت له ؟ »

قطع سانت ليجير كلامها وتدخل ايقول :

« اذا سمحتما لي . اظن ان هذا موضوع من الواجب الا نتحدث فيه . انه قد يكون خطيرا . »

قالت آنجيلا : « خطير ؟ »

حدق فيها سانت ليجير لعدة ثوان ، ثم وقف واتجه الى النافذة . تولد لدي انطباع بانه شعر براحة اكبر وهو واقف على قدميه . اطل من النافذة ثم قال :
« لقد سألتني عن اغتيال اللورد جليبي . وهذا موضوع لا اعرف عنه الكثير ، ولكن بوسعي ان اقول لك شيئا واحدا . ان جليبي لم يكن هو الضحية المقصودة . كان المقصود هو ايزموند دونللي . »

حينما قال هذا ، عصف بي احساس عابر بالدوار ، كما لو كان قد احترق شيء ما داخل عقلي . واپس بوسعي ان افسر ما حدث ، انما كان صوت سانت ليجير وهو يقول : « ايزموند دونللي » هو ما فعل بي هذا . لقد قلت انني كثيرا ما شعرت خلال الاسبوع السابق كما لو كنت انا وايزموند نحتل عقلا واحدا . ولكننا كنا كالتقريبين ، ولم تكن ذاكرته في متناولي . ولكن حدث في تلك اللحظة شيء ما جعل كل تلك الذكريات واضحة ومعروفة ، مثلما ينضب مجهر فجأة لكي يكبر الكائنات الدقيقة تحت عدساته ، كما لو كان عقلي وعقل ايزموند قد ارتبطا فجأة بمشبك فولاذي اذا بهما معا . كنت قد عرفت ان هذا من الممكن ان يحدث منذ نحو اسبوع ، ولكن التكييف النهائي بين العقل والواقع كان ما يزال مطلوبا . اما الان فلم يعد هناك المزيد من الاسئلة ، فقد امتزجت ذاكرة ايزموند بذاكرتي . وفي تلك اللحظة ، حينما سألت آنجيلا سانت ليجير عن كيفية معرفته بهذا ، وجدت نفسي اقول :

« يمكنني ان اخبرك بذلك . »

قال سانت ليجير : « ليس من المحتمل ان تستطيع معرفة هذا . »

قلت : « كان خطأ جليبي الاكبر هو انه حدد الاسماء . ففي النسخة الاصلية من كتابه « خطابات من فوق احد الجبال » حدد اسماء عبدالله يحيى والاستاذ الاعظم ، وذكر ان هندريك فان جريس كان هو المشرف على هولندا . واقنعه ايزموند بأن يغير الاسماء في النسخة المطبوعة ، ولكنها ظلت تسبب تمردا وانفجارا داخل الحركة . واراد فان جريس ان يتم اغتيال ايزموند . ورفض يحيى ذلك . وفي عام ١٧٩١ سمم فان جريس يحيى وقتله . ومنذ ذلك الحين عرف ايزموند انه لا بد مقتل في اي وقت . وقد استيقظ ذات صباح في باريس ، فوجد خنجرا مغروسا في وسادته . وكانت هذه احدى حيلهم المفضلة - لكي يحطموا مغنويات الرجل بالخوف قبل ان يقتلوه . وقد استخدم الحشاشون الاصليون - الاسماعيلية . هذه الخدعة على سبيل التهديد . وقد اجبروا صلاح الدين مرة على رفع حصار كان قد ضربه على قلعة الاستاذ الاعظم بأن غرسوا خنجرا في وسادته . وادرك ايزموند هذا التحذير ، فذهب الى روسيا ، ثم الى اليونان . وحينما عاد ، اكتشف ان جليبي قد ارتكب حماقته النهائية : كان قد نشر نشرته التي يهاجم فيها الجماعة ، ويحدد اسم فان جريس بوصفه الاستاذ الاعظم الجديد . وكانت هذه هي القشة

الاخيرة التي تقسم ظهر الجمل في عرف فان جريسن وكان لديه قاتل فرنسي محترف كان قد تدرب في تركيا - وهو رجل يدعى جاك كريفا - فأرسله لمطاردة ايزموند . وكان كريفا هو الذي قتل هوراس جليني - في فراش ايزموند . « ولكن ما الذي كان يفعله هوراس في فراش ايزموند ؟ »

« كان قد سرد على ايزموند قصة سخيفة عن رؤيته لشبح في حجرته هو . ووافق ايزموند على ان ينام في الحجرة لمدة اسبوع - فقد كان لا يؤمن بالاشباح . ولم يكن جليني بالطبع يصدق انه يعرض نفسه لخطر حقيقي - فقد كانت الحجرة على ارتفاع سبعين قدما ، وكان يوصد الباب من الداخل . ولم يكن يعرف ان كريفا معروف باسم الذبابة . »

كان سانت ليجير ينظر الي مدهوشا . قال :
« قد يكون كل هذا صحيحا ، ولكنني اشك في ذلك . لا احد يعرف التفاصيل . فقد اصبحت هذه التفاصيل بعضا من اكثر اسرار الجماعة بعدا عن تناول الناس واشدها حماية . ومن المحتمل الا يكون هناك في العالم الآن من يعرفها سوى شخص واحد . »

انتظرت منه آنجيلا ان يستمر في الحديث ، ثم لما رآته يصمت ، سألت :
« ومن هو ذلك الشخص ؟ »
قلت : « الاستاذ الاعظم الحالي . »

قالت : « اذن « فانها » ما زالت موجودة ؟ » ونظرت الى سانت ليجير ، واضافت :

« ولم يكن يعزح ؟ »

سرف سانت ليجير نظره عنها ، وادار رأسه بفضب وهو يقول :
« يا سيدتي الشابة العزيزة ، نصيحتي لك هي ان تلقي اقل قدر ممكن من الاسئلة . انني آسف جدا لعودتك في الوقت الذي عدت فيه ، وانني لاكثر أسفا لان مستر سورم لم يكن كنوما الى هذه الدرجة . »

كنت قد بدأت اشعر بالفضب من سانت ليجير ، كان اسلوبه المليء بالتفاخر قد بدا يضغط على اعصابي . كنت الآن قد ادركت الكثير وفهمت عنه الكثير . كان يتمتع بالاحتياج الرئيسي الذي يحتاجه مشرف في الجماعة : خضوعه للجنس كهاجس متسلط . وكان هذا ماثلا في سلوكه واسلوبه في التعامل مع آنجيلا ، كانت بالنسبة له وسادة فراش مناسبة ، وكان بالفعل يتخيلها راقدة تحته وعيناها مغمضتان . كان رجلا جذابا ، جنسيا وشخصيا . وكان بعيدا جدا عن الالهة . ولكنه كان ممثلا . وقد ظهر هذا في الطريقة التي سار بها عبر الحجرة قبل اعلانه عن اغتيال هوراس جليني . وكنت انا امثل تهديدا جديا له ، وهذا يفسر السبب الذي جعل اسلوبه معي حادا الى هذه الدرجة ، شعرت بخيبة امل لان اول اتصال لي بالجماعة يتم عن طريق رجل مثله .

سمعت سيارة تتباطأ بالخارج . قال سانت ليجير :

« والآن ، اظن ان علي ان اترككما . »

ذهبت فوقفت الى جواره . كانت سيارة اجرة من مطار لندن . وكان هو قد شرع يتحرك نحو الباب .
قلت:

« لا اظن ان رحيلك يغير شيئا . فطالما انك كنت تتوقع حضوره ، يمكننا نحن ايضا ان نراه . »

قال بهدوء : « هل تسمحان لي ؟ » ثم استدار الى آنجيلا وقال : « ارجو ان نلتقي ثانية . »

تقدمت فتجاوزته ، وذهبت الى الباب . جاء خلفي وهو يقول بغضب : « حقا يا مستر سورم ، ان هذا ... »

كان رجل قد خرج من سيارة الاجرة وراح يتطلع الى ارقام المنازل . كان بالغ الضخامة ، وجهه بني اللون مليء بالندب . التقت عيناه بعيني ، ثم رأى سانت ليجير الى جوارى فابتسم . فجأة قال سانت ليجير بلهجة متسلطة :

« سوف اكون ممتنا اذا انتظرتماني هنا لحظة واحدة . » ثم تجاوزني وهبط الدرج . لم اجد نفعا في محاولة الامساك به اكثر من هذا ، فدخلت المنزل مرة اخرى . كانت آنجيلا تقف وراء النافذة . قالت :

« ماذا يحدث الآن بحق الجحيم ؟ من هو هذا الرجل ؟ »

« اعتقد ان له علاقة بجماعة العنقاء . ولا اعرف شيئا اكثر من هذا . »

من وراء الستائر ، راقبت سانت ليجير وهو يتحدث الى الرجل الاسمر .
قلت :

« انه منزعج من وجودك هنا . »

« اتحب ان انصرف ؟ »

« قد يكون هذا هو ابسط الحلول . »

اقترب الرجلان في تلك اللحظة من المنزل . خرجت انا لاستقبالهما . قلت :

« السيدة الشابة سوف تخرج الآن ، اذا كنتما تريدان الدخول . »

حدق في الرجل الضخم بطريقة مبهمة . ظننت انه يوشك ان يتجاهلني .
وحينئذ قال سانت ليجير :

« هذا هو المستر سورم . مستر السيد نوري . »

وهنا مد الرجل يده ليصافحني وقال كيف حالك . تبينت ان صمته كان نوعا من الحرص الشرقي على الشكليات . قال نوري :

« لا اظن ان هناك حاجة الى ازعاج صديقتك . ان مستر سانت ليجير لديه سيارة . ويمكنه ان يأخذنا الى بيتي . »

« ان هذا ليسعدني » كذلك قال سانت ليجير في عصبية ظاهرة . لم يكن هذا

يوم سعهه .

قلت : « هل تسمح لي بلحظة ؟ »

عدت فدخلت المنزل واخبرت آنجيلا بانني ذاهب معهما . ثم سألها عما اذا كانت سمعت في حياتها عن رجل يدعى السيد نوري . بدت كما لو كانت قد جفلت ،

وقالت ! « باطبع »

« من هو ؟ »

« انه مليونير من نوع ما . اليتروول فيما اظن . ان اسمه يذكر دائما مع اسماء اوناسيس وبول جيتي . لا بد انك رايتنه . »

قلت لها ان عالم الشؤون المالية العليا هو ابعد شيء عن اهتماماتي . قالت :

« انظر اليه . انه شخص من النوع الذي يملك سلطة حقيقية . »

خرجت ثانية واغلقت الباب خلفي . تحركت سيارة « ديمر » رمادية يقودها سائق خاص فاقتربت من المنزل . فتح السائق الباب لنا . وبينما كنا نجلس ، قال نوري بطريقة تنم عن عدم موافقته : « بعيد جدا عن اللياقة . »

احمر وجه سانت ليجير وقال : « انني استخدمها دائما . »

رايت ظل آنجيلا من وراء الستائر الشفافة بينما كنا نبتعد . من المحتمل انها كانت تتسائل ان كانت جماعة العنقاء ما تزال تحتفظ بفرقة من القتلة المحترفين . لم يتكلم احدهما حتى استدرنا متجهين الى بارك لين . ثم قال سانت ليجير ! « كان عطفنا منك ان تقطع كل هذه المسافة لكي تأتي . »

اعتبر نوري ان هذه كانت مجاملة ، فقبلها بهزة من راسه . ثم قال :

« ربما كان الامر كما تقول ، هاما . »

لم يكن فيما قاله اساءة او غلظة ، ولكن وجه سانت ليجير احمر ثانية .

فان احساسني بحضور ايزموند قد اختفى . كانت تلك الاحداث شيئا غير مألوف لدرجة لا بد معها ان تدفعني الى التوتر ، وهذا التوتر هو ما جعل شخصيتي انا هي الغالبة بشدة . استرحيت بالتفكير في انا دانكان . لقد كانت تجربة مرضية دون شك ، وكانت تجربة ما كنت استطيع خوضها بنجاح دون ايزموند . كانت شخصيته تتمتع بنوع من الثقة ، بدافع لا يفتأ يدفعه الى الامام ، وجدته انا دافعا مساعدا على التحرر الحقيقي .

كنا قد توقفنا امام منزل في شارع بروك . قال نوري : « لقد وصلنا » ثم نظر الى سانت ليجير وقال : « شكرا لك على توصيلنا الى هنا . » . كان ما يرمي اليه واضحا . قال سانت ليجير :

« هذا يسعدني ... » ثم فتح الباب لنا .

وقفت على الرصيف ، ارمش بعيني تحت ضوء الشمس الساطع ، ناظرا الى ثياب الصيف المرحلة التي ترتديها النسوة في ميدان جروزفينور ، شاعرا بان ما يحدث الآن ، غير مناسب بشكل ما مع هذا الانطلاق الحيوي الفياض .

افتتح الباب الامامي قبل ان نصل اليه . بشكل ما كنت اتوقع خادما شرقيا وراء الباب . ولكن الرجل الذي رايتنه كان رئيس خدم انجليزيا عاديا ، انسحب وراء مصراع الباب لكي يسمح لنا بالدخول . وبدا ان نوري اصبح اكثر راحة وانطلاقا بعد اختفاء سانت ليجير . قال :

« انني لا اعيش هنا ، ولكنني احتفظ بهذا المكان للاقامة فيه اذا قضيت عطلة

نهاية الاسبوع في لندن » انه مناسب لي . «

ثم ضفط على زر جرس .

كان منزلا نموذجيا للرجل الثري ، بما بدا عليه من راحة وتأثير فاخر . ولم يشر الى انتماء صاحبه الى الشرق سوى سياج الدرجات الداخلية ، فقد كان مصنوعا من الحديد المشغول بشكل دقيق ، ربما كان قد أتى به من « حريم » أحد السلاطين .

صعدنا الدرجات الى الطابق العلوي ، وعبرنا حجرة للجلوس مزودة بآلة بيانو من النوع الكبير وبعض لوحات لماتيس (١) على الجدار . ودخلنا مكتبة . اشار الي لكي اجلس على مقعد كبير عميق ذي مسندين .

« ايمكنني ان اقدم لك كاسا ؟ ام ربما تفضل الشاي او القهوة ؟ انني لا اشرب سوى القهوة . »

نظرت في تلك اللحظة الى نوري عن قرب اكثر . وبدا لي انني اتعرف عليه . ربما كنت قد رايت بعض الصور له . كان طوله يزيد على ستة اقدام ، وجهه وملامحه اقرب الى وجه وملامح جندي محترف . كان يرتدي بذلة رمادية ، سترتها ذات صفين من الازرار . وكان شعره قصيرا - وقد تعمد هو ذلك - وبدا الشيب يفزوه . وكانت في وجهه بعض الندوب ، ولكنه كان وسيما بتلك الجاذبية الباردة التي يتميز بها طائر من الجوارح . كانت حركاته اقتصادية ، مختصرة كما لو كان يحس بالرشاقة اذا تشبه بالنساء .

جلس في مواجهتي وعرض علي سيجارة رفضتها . اخرج سيجارة روسية سوداء ذات طرف ذهبي ونقر بها على غلبة السجائر . قال :

« لقد جئت من باريس لكي اراك يا مستر سورم . لانه اذا كان نصف ما اخبرني به سانت ليجير صحيحا ، يكون لدينا الكثير الذي يمكن ان يقول احدنا الآخر . اذن فانت تعرف من انا ؟ »

« اجل . انك الاستاذ الاعظم الحالي . »

« لقد خمنت ذلك . بالطبع . »

« لقد كان هذا استنتاجا عادلا . انك لست مشرفا ، والا لما كان سانت ليجير

قد اصبح عصيبا من وجودك بهذا الشكل . »

ضحك فأبدى اسنانا بيضاء في حالة ممتازة . قال :

(١) هنري اميل بينوا ماتيس ١٨٦٩ - ١٩٥٤ يعتبر اهم الرسامين الفرنسيين في القرن العشرين.

بدا حياته بالتدريب لدى الفنان ادولف برجير ثم في استوديو الفنان جوستاف مورو ، ولكنه بدا حياته الابداعية عندما اكتشف التايرين العظيم (وخاصة بيسارد) واصبح واحدا من رواد حركة فن الطليعة ، مثل جورج روو واندريه ديران وموريس دي فلانك الذين اطلقوا على انفسهم اسم « الوحوش البرية » عام ١٩٠٥ . ظل ماتيس ينتج طوال حياته المدينة على مراحل تتنوع فقط في حيز التأثيرة ومن حيث الموضوعات دون تنوع كثير في الاسلوب . جذبه الحياة المراكشية في نيس على البحر الابيض ، ولكن موضوعات تنغم الالوان ثم الشخصية الانسانية كانت اهم مجالاته (م.٥)

« ان هذا الرجل ابله . لا ينبغي له ان يكون مشرفا . »
« اذن ، فلماذا يحتل هذا المنصب ؟ انك تملك سلطة ابعاده . »
« لم يعد هذا ممكنا ، فياللخسارة . ان منظمنا قد اصبحت اكثر ديموقراطية
مما كانت عليه ايام ايزموند دونللي . »

دخل رئيس الخدم ، وهو يدفع « عربة تقديم » سفيرة امامه ، ثم خرج على
الفور . وبينما كان نوري يصب القهوة ، قال :

« لا ينبغي لنا ان نضيع الوقت يا مستر سورم . فان لدينا الكثير الذي
ينبغي ان نقوله ، وعلي انا ان اعود الى باريس هذه الليلة . هناك الكثير مما يحيرني
بشأنك . انك تبدو كما لو كنت تعرف قدرا كبيرا من المعلومات . وهذا يعني اما ان
شخصا ما لم يكن كتوما كما ينبغي ، واما انك حصلت على بعض الوثائق التي لم تكن
نعرف بوجودها . »
لم اقل شيئا ، فمضى يقول :

« كان من الممكن - حتى الآن - ان تكون اي انسان بالنسبة لي . ولكنني اعرف
الان انك اشبه بالعقري ، او بالطفل المعجزة . لقد اخبرني صديقنا كورنر انك
انهيت عملا استمر عامين بصبر وداب بما يشبه ضربة خط عبقرية مستحيلة . وانا
ازعم انه لم يكن يبالغ ! »

لم اقل شيئا ايضا ، فاستمر هو يتكلم !
« انني افهم من صحتك انه لم يكن يبالغ . »
وضع قدح القهوة التركية الصغير امامي ، وهو يقول :
« من انت ؟ من اين جئت ؟ وكيف عرفت كل ما تعرفه ؟ »
« اسمي جبرارد سورم ، وانا كاتب . اما عن كيف اعرف كل ما اعرفه ،
فلاجابة هي انني لا اعرف شيئا . »

قدم الي نوري صحنا مليئا بملوى صغيرة مستديرة ، وكانت فيها نكهة
القرفة ، وراق لي طعمها .
قال :

« هذا قول غريب . اتعجب ان كان يزعجك ان اتحقق من صحته ؟ »
لم افهم ما عناه بقوله هذا ، ولكنني قلت ان هذا لا يزعجني ، بالطبع . مد
يده وضغط على زر جرس آخر . لم يتحدث احدا طول الدقائق القليلة التالية .
كان الجاوس في صمت يولد لدي احساسا مريحا ، كانت هناك سمة في شخصية
نوري تجعل هذا الوضع طبيعيا الى حد كبير . فتح الباب بهدوء شديد ، ودخل
الحجرة رجل . كان علي ان انظر اليه بتدقيق شديد لكي اتبين انه رجل . كان
شعره ذو اللونين مجعدا وطويلا ، والوجه يبدو كما لو ان شخصا ما قد امتص من
جسده كل قطرة من الدم ، لكي تنهار العروق وتجف . كانت عيناه شاحبتا اللون
حتى بدتا ولا لون لهما . ورغم انه كان يرتدي ثوبا عربيا - عباءة صفراء قدرة -
فانه كان غريبا دون مظنة للشك . لم يولد نوري اي اهتمام . جلس الرجل على
مقعد صغير واطىء يكاد يكون بيننا نحن الاثنين . رايت اصابع قدميه طويلة بارزة

العظام ، مثل شيء خارج من قلب فيلم من افلام الرعب ، وكانت اظافرها صفراء ملتوية مليئة بالنقاط البيضاء .

قال نوري : « هذا هو بوريس كاهن . »

تجاهلنا الرجل ، وهو يحدق في الفضاء . قال نوري :

« لقد كان يكسب رزقه بالعمل في الملاهي كقارئ لافكار الناس . ثم تطورت قدراته الى درجة اخافته هو نفسه ، فاصبح مدمنا على الهيرويين . وقد عثرت عليه ذات ليلة يزحف عند مدخل المنزل وعنقه مكسور - وكان قد سقط من نافذة في الطابق الثاني . وهو الآن يسافر معي حينما يكون لدي عمل هام . انه بلا عقل على الاطلاق ، ولكنه يعرف الحقيقة حينما يتكلم الناس ، ايكذبون ام يصدقون . »

اخذ سيجارة اخرى من العلبة ، ثم قال :

« هل اخبرك سانت ليجير انني الاستاذ الاعظم ؟ »

« كلا . »

« انني لم اظن هذا . ولكنني اردت ان اتأكد . »

كنت انظر الى « بوريس » بفضول شديد . كان يرمق شطائر القرفة في صحنى بلهفة . قلت :

« كيف يفعل حينما يكذب احدهم ؟ »

« قد يكون من السهل ان اطلعك على نموذج عملي . »

اشار بيده الى النافذة وفرقع بأصابعه . اسرع بوريس فعبّر الحجرّة وانحنى مرتين على الاقل مثل كلب مذعور ، ثم اندس فاخفى وراء ستارة ثقيلة من القטיפيّة . ضغط نوري على زر ثالث على المائدة . بعد حوالي ثلاثين ثانية ، سمعت صوت خطوات رقيقة ترحف على البساط في الحجرّة المجاورة . فتح باب ، واندفعت فتاة تجري الى داخل الحجرّة . وقفت عند الباب ، ورمقتني بنظرة غريبة مليئة بالشك ، ثم اندفعت تجري نحو نوري وطوحت ذراعيها فأحاطت عنقه وهي تصدر اصواتا غريبة كالصياح ولا معنى لها سوى الترحيب بمقدمه . كانت ترتدي سروالا عربيا طويلا وصدارا صغيرا من نفس الطراز ، ولكنهما كانا من الشفافية بحيث كان الافضل ان تكون عارية . يمكنني ان اقول انها كانت في نحو السادسة عشرة من عمرها ، ولكن جسدها كان ناميا نموا معقولا ، وشعرها طويل داكن اللون . كانت تقبل نوري وتعود الى تقبيله ، مثل طفلة صغيرة ترحب بعمها الذي تحبه . ابتسم في صفاء وتركها تستمر في تقبيله اللحظة ، ثم قال لي :

« هذه هي كريستي ، طفلة جماعتنا المدلّة . »

اجلسها على ركبتة وقال : « وكيف حال طفلتنا ؟ » واندست يده داخل سروالها الشفاف . فتحت ساقيها طائعة ، فتسللت يده بينهما ولمست ملتقى فخذيها . قال :

« هل كانت طيبة ؟ »

اومات الفتاة براسها بحماس ، ووجهها خال من اي تعبير مثل دمية . خطر

لي ان نوري يفضل من لا عقل لهم من الناس . سالها :
« هل كان لها اي عشاق منذ كنت هنا آخر مرة ؟ »

ارتسم على وجهها تعبير ينم عن الفضيلة ، وهزت رأسها بتأكيد . من وراء الستار جاء صوت غريب ، « شاك ، شاك ، شاك » كما لو كان حيوانا يسعل . اندفعت الفتاة نحو الستار ، وجذبته جانبا ، وجذبت بوريس من شعره فأخرجته ، صرخت : « كذابي » .

رقد مستسلما على الارض ، وخده ملتصق بالبساط ، وردفاه مرفوعان في الهواء - وحينما رجعت بقدمها المفطى بحدائنها الرقيق الى الوراء وركلته في ضلوعه لم يتحرك . اندفعت عائدة الى نوري والقت ذراعيها حول عنقه ، وقالت :

« الطفلة ليست كذابة . هو الكذاب » .

لاطف نوري ظهرها بحنان ، وسالها : « كم كانوا ؟ »

« لا احد . » عاد تعبير الفضيلة الكاملة مرة ثانية وهي تهز رأسها . عاد الصوت المبحوح مرة أخرى يتعالى من حلق بوريس . كانت على وشك ان تقفز لكي تندفع اليه مرة أخرى ، ولكن نوري امسك بها من معصمها ، وكرر سؤاله : « كم كانوا ؟ » .

تجهمت ومطت شفنها استياء . قالت :

« ثلاثة . »

سمعت الصوت المبحوح المتقطع ثانية . صرخت في بوريس :

« سوف أقتلك . »

قال نوري باستياء :

« طفلتنا بها شيء من الفلعة الشبقة السيئة ، اليس كذلك ؟ »

قالت الفتاة ، وهي تبدو في صورة احدي بنات طائفة المهترئين المتزمتة ، الذين يربعهم ذكر الخطيئة : « لا . ليست كذلك . »

« طفلتنا تستحق الضرب بالحزام . اليس كذلك ؟ »

« كلا . » كانت تنوسل : « انه كذاب . »

« كم كانوا ؟ »

نظرت الى بوريس بحقد وهي تقول : « سبعة . »

لم يصدر عنه اي صوت . قال نوري :

« سبعة رجال ، ام سبع مرات ؟ »

« رجال . »

« سبع ضربات بالحزام ، اذن . »

وقفت ، وجذبت سروالها الى اسفل حتى ركبتيها ، ثم رقدت على بطنها فوق ركبتيه . وجذب هو من تحت المقعد شريطا من الجلد ، ورفع في الهواء ، وهوى على الردف المستدير الوردي بضربة قوية . صرخت دون حرارة . أصبحت صرخاتها اعلى واكثر تعبيرا مع توالي الضربات الست التالية . وعند الضربة السابعة قفزت

من فوق ركبتيه . هز رأسه وقال :

« واحدة أخرى . »

انحنى امامه ، فهوى عليها نوري بضربة واحدة قوية . ثم قال :

« الآن ، اجري . »

حينما اختفت ، قال نوري :

« والآن يا مستر سورم ، اتقول انك لا تعرف شيئا عن جماعة المنشاء ؟ »

« انني لم اقل ذلك . انما قلت انني اعرف اقل بكثير مما تعتقد . »

« انني لا افهم كيف يمكن ان يكون هذا صحيحا . »

نظر حوله الى بوريس . ونظرت انا ايضا الى بوريس ، الذي كان يجلس الآن على البساط ، محتضنا ركبتيه . كانت الحيرة تبدو على بوريس .

كان نوري ينظر الى بوريس . قال : « ماذا يعني يا بوريس ؟ »

نظر اليه بوريس دون تعبير بعينه الشاحبتين ، كما لو كان يحاول ان يتجنب السؤال بان يتظاهر بعدم الفهم . ولكن حينما ظلت نظرة نوري الجامدة مثبتة عليه ، قال بصوت متلعثم فيه فافاة :

« انه .. انه .. انه يو .. يو . يعني انه ، أك ، أك ، اكثر من شخص

و .. وا .. واحد . »

قال نوري : « اهذا ما تعنيه يا مستر سورم ؟ »

قلت : « أخشى الا يؤدي الشرح الى اي نتيجة . انك قد تشك في عقلي . »

نظر الي بوريس ، وقال في صوت مثل فحيح سوط يهوى :

« ماذا يعني ؟ »

جفل بوريس ، وقال في صوت ضعيف خارج من الحلق :

« انه شخص ما ، يدعى ايزموند . »

زحفت عينا نوري الي وراحتا تنفحصان ، كان بوسعي ان ارى ان وجهه

يستطيع ان يكون معبرا عن التهديد العنيف . قال :

« الست انت جيرارد سورم ؟ »

« اجل . »

« من هو ايزموند ؟ »

« انك تعرف . ايزموند دونلي . »

حديق في بقوة بالغة ، كما لو كان يتساءل ان كان قد فهم ما قلته على الوجه

الصحيح . ثم ، لدهشتي ، انسحب الدم من وجهه ، وشحب لونه ، واصبحت نظره ثابتة لا حركة فيها . قال :

« هذا مستحيل . »

ولكن صوته كان قد اصبح عريضا مشروخا .

حينئذ ، راح ايزموند ينظر اليه بعيني ، محدقا في عينيه بقسوة . تغير وجه

نوري . لكم كنت احب ان انظر من مرآة لحظتها لكي ارى ما كان يراه . واياما كان

ذلك الذي رآه ، فقد رايت انه اقنعه . تطلب منه الامر بضع ثوان لكي يستعيد السيطرة على نفسه . كانت شفتاه قد شحبتا حتى ابيض لونهما ، وبرزت الندوب الحمراء على وجهه الرمادي .
قال :

« اذن فقد كنت على حق . لقد عرفت كيف تعود .

لم يفعل ايزموند الا ان اواماً براسه (براسي) . كان بوريس ينظر الى نوري نظرة خائفة ، مثل حيوان لا يعرف ماذا حل بسيده . وقف نوري وعبر الحجرة الى صوان جانبي . التقط قنينة الخمر وراحت يده تهتز وهو يصبها في كأس المزج الكبيرة ، ثم ابتلع كل ما صبه دفعة واحدة . وايا كان نوع ما شربه - كانت خمرا صافية مثل العرق - فقد جعلت عينيه تفيضان مثل المياه العكرة ، وجبست انفاسه للحظة . مسح العرق عن وجهه ، ثم جاء فجلس ثانية ، وجعل يرمي ايزموند بنظرات خائفة كما لو كان يأمل ان يكون الامر كله خطأ من الاخطاء . قال :

« سامحني . انك لا تتوقع مني ان اقبل هذا الامر بسهولة . »

اسند ظهره الى مسند المقعد منحنيا الى الوراء واغمض عينيه . واذا كنت احدق من خلال عيني ايزموند وجدت نفسي متحيرا مما ابداه من اقتناع سريع . انتظر ايزموند . كانت هذه هي لحظة انتصاره . اعتدل نوري في جلسته و اشار الى بوريس قائلا : « اخرج » فاسرع بوريس خارجا من الباب . قال نوري :

« ماذا تريدني ان افعل ؟ ان استقيل من الاستاذية ؟ »

« كلا . لا استطيع ان اكون استاذا اذا اردت . . فان لدى مستر سورم اشياء اخرى ينبغي عليه ان يقوم بها . ولكن لا بد ان تكون هناك عودة الى اتفاقية عام ١٨٣٠ . »

ذهب نوري الى الصوان الجانبي مرة اخرى ، وصب لنفسه كأسا اخرى دون اعتذار . قال :

« لا ارى كيف يمكن ذلك . سيفني هذا ان نحنت في قسمنا . »

« هذا هو الطريق الوحيد . صدقني . »

كان ايزموند قد اصبح صبورا يحاول ان يفرس الثقة في صدر نوري . قال : « اصغ الي يا السيد ، انني لا الوملك . لقد كنت استاذاً ممتازاً . ولكن هناك اشياء هامة تحدث . وحتى هذا الابله كورنر « ليس سوى نذير - او بشير - بالمستقبل . هناك بشر من نوع جديد في طور النشوء الآن . ان اعقل الانساني يكاد الان يباغ الافاق والطاقت التي ام استطع انا الا ان المحها من بعيد . وفي جوانب عديدة ، يعرف سورم هذا اكثر جدا مما اعرف انا . وان عليكم ان تكونوا مستعدين لان تلعبوا دورا هاما . . وانتم لن تستطيعوا القيام بهذا الدور وانتم جمعية سرية . »

قال نوري : « المشرفون الآخرون لن يوافقوا بأي حال . »

« لن يكون امامهم خيار . هذا الرجل سورم يعرف كل شيء عنا . وسوف ينشر كل ما يعرفه . وسوف يكون عليك انت ان تحميه . »

اعتدل نوري في جلسته مرة ثانية . كان على وشك ان يستعيد سيطرته الكاملة على نفسه ، ولكنني ظننت انه قد كبر في العمر عشرة اعوام دفعة واحدة . قال ايزموند بعطف :

« اسمع يا سيّد ، اسمح لي بان اشرح لك . حينما انضممت الى الجماعة ، منذ مائتي عام ، كانت جمعية من الفاسقين الفجار . وكانت فكرتهم الاساسية هي انه لا بد ان تملك اقلية ممتازة صغيرة الحرية الجنسية الكاملة . وكانت هذه فكرة جيدة حتى ذلك الحين ، وقد قبلتها انا . ورحت افعل كل ما فعله الآخرون — فرحت اتجول متغنيا بالسحر والشعر والنشوة الصوفية التي تنزل كلما غرست فكري في عضو امرأة غريبة . وامتلكت طاقة داخلية ، وتطورت تلك الطاقة حتى لم يعد في وسع اي امرأة ان تقاومني لاكثر من يوم او بعض يوم . وانت تعرف بعض ما قمت به . لقد اقنعت فتيات مذعورات في مدارس الاديرة الداخلية بان يسلمن عذريتهن في خلال امسية واحدة . وقد نمت مع ثلاث ملكات ، وثمانى اميرات . وقد امتلكت نساء بعد ان عرفتهن بعشر دقائق فقط — نساء مكبوتات تخيلن بعد ذلك انني سحرتهن . وفي سن الخامسة والثلاثين ، صار من المحتمل انني عشت تجربة جنسية اكثر اكتمالا من اي تجربة مماثلة عاشها اي رجل قبلي . ثم بدأت انا انمو واشب عن طوق هذه التجربة . تعبت من الاستمرار في ان اكون مجرد اداة في يد قوة لم افهمها . حينما شعرت بانني شبيه برب من الارباب في لحظة التحقق الجليل ، طرحتم على نفسي ذلك السؤال : هل هذا هو ايزموند دونللي الحقيقي ؟ ام انه الافاق من النوع الجديد الذي يستخدم ذكاءه واخلاصه لكي يوقع بالنسوة الماهرات ؟ لقد رايت ، ذات يوم في موسكو ، سائق عربية يضرب حصانه ، وقبل ان اضربه حتى اطرت اسنانه من فكه ، كنت قد شعرت بنوع من الفتيان بسبب « صاديته » الطافحة . وفي وقت متأخر من نفس هذا اليوم ، اخذت صفري بنات القيصر الى منزل صيفي صغير في مروج حدائق القصر ، واقنعتها بان تدعني استولي على عذريتها . وبينما كنت آخذها ، استولت علي فجأة رؤية رايت فيها وجه سائق العربية ، فعرفت انني كنت افعل الشيء نفسه : استمد المتعة من خلال « فرض ارادتي » على مخلوق اضعف ، فاستمتعت بالاحساس بالقوة . وتبينت لحظتها انني كنت اقوم بعمل نفس الشيء طوال عشرين عاما ، مكررا نفس الفعل الذي كما لو كنت اسعى الى ان اؤكد لنفسي انني لست الابله المضجر الذي يشبه بقية النبلاء — اصحاب الدم الازرق — الشبان . وفجأة شعرت بنفسي بانسا مجللا بالعار . واتخذ انقلابي النفسي هذا شكل الاحساس بالاسف على الفتاة ، وهكذا فقد اندفعت حتى الى التفكير في ان اسألها ان تهرب معي ، ولكنني اكتشفت في اللحظة المناسبة ان هذا لن يكون سوى طريق مسدود آخر . هذه هي نهاية اكثر الافاقين شهرة ، انهم يحاولون ان يجعلوا انفسهم يشعرون بالسمو الاخلاقي بان يعاملوا الفتاة كما لو كانت انسانة بدلا من معاملتها كمدينة تحت الحصار . ولكن هذا السلوك لا يزيد اخلاقية في الحقيقة عن القاء قطعة نقد معدنية في صندوق شحاذ لكي ترضي ضميرك وتهدئه . لم يكن الحل هو ان استبدل نوعا من القباء

بنوع آخر ، بل كان هو ان احاول ان افهم طبيعة الامل السرابي المخادع الذي ظللت اطارده تحت اذيال ثياب النساء .

« وحينما عدت الى ايرلندا ، رأيت فتاة كنت قد عرفتها منذ سنوات طويلة ، فتاة كنت قد اغويتها منذ خمسة عشر عاما . ودفعت رؤيتها الى ذاكرتي بصورة ذلك الصيف في الحظيرة خلف منزلنا . وقفت في الحظيرة وتذكرت كل شيء . وحينذاك عرفت الخطأ الذي وقع منذ البداية واستمر بعد هذا على الدوام . فحينما امتلكت في البداية مينو ودلفين ، توقعت لنفسى مستقبلا من القدرة اللانهائية على الامتلاك . توقعت ان تعاملني الحياة مثل طفل مدلل مفضل . ولقد عاملتني الحياة بهذا الشكل بالتأكيد . ولكنني سمحت لنفسى بان اصبح سلبيا اكثر من اللازم . لقد قبلت الحصول على المتعة ، ولكنني فشلت في ان ابدل في سبيلها اي مجهود . في اول مرة ولجت فيها مينو ، شعرت بانني مثل اله من الالهة القديمة . ولكن مئة انتصار آخر ، وولوج مئة امرأة اخرى لم تفعل شيئا لكي تفتدي هذا الموعود بالالوهية . على العكس ، لقد دمرت انتصاراتي وعدي القديم ، لانها لم تكن انتصارات حقيقية ، وانما اصبحت عادة تمارس مثل بقية العادات الباردة . »

كف عن الكلام . وكان لصوته - الذي لا يسعني ان اقول انه صوتي ، لانه كان يبدو مختلفا حتى بالنسبة لاذني انا - التأثير الذي اراده بالضبط على نوري . ولا بد ايضا ان نتذكر ان ايزموند كان يستخدم دماغي انا ولفتي وتداعيات ذاكرتي ، ولما كانت هذه الادوات - ادواتي - تستطيع ان تعبر عن افكاره بدقة اكبر من لفته هو الخاصة فان الكلمات كانت تنطلق من لسانه بسرعة فائقة حتى لكان من الصعب احيانا ان يتابعه من يسمعه . وكان مجهود التركيز قد هدأ نوري ، وجعله يستعيد سيطرته على نفسه . قال ايزموند :

« هل تتابع سلسلة تفكيري ؟ »

« ليس ما تقوله غريبا بالنسبة لي : كثيرا ما تخطر لي افكار مشابهة ، ولكنني

لا استطيع ان اعثر على اي حل . »

« الحل اقرب مما تظن . ويكاد مستر سورم ان يكون قد عثر عليه بنفسه .

لقد كانت لي ميزة طبيعية واحدة عظيمة - فقد فكرت في نفسي دائما باعتباري الطفل المفضل . وهذا شيء مهم - التغاؤل ، الدافع المحرك الى الامام . وكانت لدى الجراحة الكافية التي تدفعني الى التساؤل عما اذا كانت حالات التشبه بالرب تمثل حقيقة وجودي الداخلي ام لا تمثله . وحينما قررت ان الاجابة على ذلك السؤال هي « اجل » ، لم يبق امامي - ببساطة - سوى سؤال احد : لماذا اذن يعود العقل فيغرق في حالة من البلادة الكثيبة حينما تنتهي لحظة ذروة النشوة الجنسية ؟ »

« بالتأكيد لاننا لا نستطيع ان نصمد لمثل كل هذه الكشافة ، ليس لدينا ما يبقينا

لنا ، وليس لنا ما يحفظها في ايدينا . ان اناء ماء لا بد ان يفرغ سريعا اذا ترك على النار . »

« كلا . هذا تفكير مختلط مشوش . ان نشوة الدروة الجنسية ليست نتيجة

انطلاق الطاقة المحبوسة ، وانما نتيجة الرؤية التي تصاحبها . يمكنك ان تحصل على الدروة الجنسية دون الرؤية ، اذا كان عقلك متعبا . او يمكنك ان تحصل على الرؤية دون الدروة الجنسية ، اذا كان العقل مشبعاً بالشعر او الموسيقى . هل يمكن ان تصبح متعباً اكثر من رجل اعمى لانك ترى الأشياء التي لا يراها ؟ كلا ، العكس هو الصحيح ، لان الرجل الاعمى اكثر قرباً من احتمال الضجر ، والضجر يؤدي الى التعب . والمسألة هنا هي مسألة الرؤية ، وسرعان ما اكتشفنا اننا نفقد الرؤية لاننا نكف عن محاولة رؤيتها . اننا نسترخي ، ننصرف عنها ونوليها ظهورنا ، مثل رجل يتشأب ويغمض عينيه . »

« لقد عرفت في حياتي رجالاً مقدسين ، رجالاً ساروا فوق الجبال وعبر الصحاري يبحثون عن نفس الرؤية ، الادراك الدائم للعلم باعتباره لغزاً غامضاً . ولقد عرفت الآن لماذا تسلط عليهم عشق الخلاء المكتشف . لقد طور الانسان قدرته على التركيز على الأشياء الصغيرة ، مثل صانع ساعات سويسري . ومثل صانع الساعات ، اصبح قصير النظر ، وتزايد قصر نظره حتى لم يعد بإمكانه ان يحدق في المسافات البعيدة . وكان الرجال المقدسون يحاولون تصحيح نظرهم بالبحث عن مساحات الخلاء المفتوح . واني لارى الآن لماذا كان سعيهم اضاعاً للوقت والجهد ، لقد كانوا يحاولون ان يستبدلوا ملكة بملكة اخرى ، ويبحثون عن الجبال بنفس الطريقة المتعشرة المتكررة التي كنت ابحث بها عن النساء .

« هل تفهمني ؟ اصبحت واعياً مكتمل الوحي بإمكانية الحصول على رؤية اكثر اتساعاً . اعترفت بان هذا لا بد ان يعتمد على تطور ملكات اخرى وقدرات جديدة للإرادة . في البداية ، فعلت اوضح شيء يمكن ان افكر فيه . ففي اللحظة التي تفيض فيها قوة الدروة الجنسية فتغرق عقلي ، كنت احاول ان امسك بها فلا ادعها تفلت ، وارفض ان اسمح لها بالهبوط ثانية الى المستوى العادي . وسرعان ما اكتشفت انني كنت احاول ان اطور قدرة كبيرة على التركيز . من الحق انني لا استطيع ان اتمسك بكثافة لحظة الدروة الجنسية او ان امسك بها . ولكن حالماً يتحول عقلي الى الخارج ، مثل نسر صغير يحدق في السماء من عشه المرتفع فيحاول ان يقذف بنفسه الى الهواء ، فقد كان بوسعي ان اركز على توسيع نطاق رؤيائي . ان مشكلة الانسان الرئيسية هي انه جبان خائر العزم . ففي كل مرة يفقد فيها احساسه بوجود هدف امامه ، يقف ساكناً ، ثم يتراجع . ويجعله الضجر يسير دون هدف من دوائر مغلقة ، فيضيع معظم حياته في هذه الحالة . ان سعيه وراء الحب يمنحه اتصالاً واحتكاكاً مؤقتاً بالينابيع الخفية للقصد او الهدف ، وقد كان هذا هو اعمق تعبير لوجود جماعتنا . ولكن احتياجنا الحقيقي بوضوح ، هو ان نحول تلك الينابيع الصغيرة الى منابع كبيرة لا يمكن ابداً ان تجف . لا بد ان يصبح الضجر مستحيلاً . انه المعادل الوجداني لفقدانك الطريق في الصحراء . ولكن حالماً يمكن ابتكار البوصلة التي تحدد الاتجاه ، فان هذا لن يكون مشكلة بعد . ولقد رايت ان مهمتي هي ان اركز حتى استطعت ان اطور هذه البوصلة ، وهي المعرفة الواضحة لهدفي . لقد رايت ان الضجر هو عدو شبيه الرب ، وان كل قواي ينبغي ان توجه

نحو القضاء على هذا العدو . »

قال نوري : « ولقد انجزت هذا . لقد نجحت . »

« أجل . وسوف تنجح انت ايضا ، الآن ، وقد رايت انه ليس بالهدف المستحيل . وسوف ينجح سورم . وحينما ينجح اثنا عشر رجلا ، سوف تتبعهم بقية الجنس البشري . ان ينابيع القصد او الهدف ليست مدفونة الى عمق كبير تحت الارض . وحتى هذه الفتاة الصغيرة التي كانت هنا تملك القدرة اللازمة اذا عرفت فقط كيف توجهها . انها حيلة عقلية ، مثلها مثل القفر من الارض لامتطاء حصان يجري . »

كانت الصورة التي وضعتها في عقل ايزموند هي صورة رجل يستفيد من موجة قوية لكي تحمل لوحه الطفلي فوق الماء ، ولكنه لم يستطع ان يفهم الصورة . كان ايزموند يفتقر الى التصورات والمفاهيم اللازمة للتعبير عما يريد تعبيراً كاملاً ، فكرة « الارتقاء » من مستوى للوجود الى مستوى آخر ، ومعرفة ان الشخصية الانسانية سلسلة من المستويات . ولكنني كنت املك تلك التصورات والمفاهيم . قال نوري : « هل لي ان اطرح بعض الاسئلة ؟ اين انت الآن ؟ هل هناك عالم آخر - بالمعنى الحرفي لكلمة العالم - وراء او تحت هذا العالم الذي نحياه ؟ » ضحك ايزموند . قال :

« ان ما تدعوه « هذا العالم » هو ما يمكنك ان تراه من خلال شق صغير في الباب المفلق . وهذا يماثل ان تسمى هذه الغرفة التي نجلس فيها الآن عالماً بأكمله . بوسع مستر سورم ان يشرح لك هذا بشكل افضل مني . انه يتحدث عن حياة - العوالم . اما فيما يتعلق بأين انا الآن ، فليس بوسعي ان اوضح هذا بسهولة . فحينما استطعت ان اطور قوة ارادتي ، بدأت افهم اشياء لا بد ان تكون واضحة من تلقاء نفسها كالبديهيات . فحينما يملكك التعب ، تصبح الروح مقيدة بشدة بين اضلاع الجسد . وكلما زدت صحة وحيوية ، كلما زدت احساساً بأنك تسيطر على جسدك من مسافة بعيدة ، مثلما يسيطر مدرب الصقور على صقره الطائر في الفضاء . وعند نقطة معينة من الدائرة العقلية ، يصبح من الممكن ان نحقق درجة من السيطرة على هذا الجسد لا يمكنك حتى ان تتخيلها . وحينما يحدث هذا ، تصبح كل الاشياء الغريبة ممكنة الوقوع - فاني استطيع ، على سبيل المثال - ان اعرض ما تدعوه انت بجسدي الوهمي من على مسافة عظيمة . »

« وكان هذا هو ما حدث حينما ظهرت في اجتماع برلين عام ١٨٣٠ ؟ »

« بالضبط . ولكن لا تبالغ في تقدير اهمية تلك القدرة ، انها ليست سوى منتج ثانوي . ان ما يهم حقاً هو درجة السيطرة الجديدة على الجسد . لان هذه القدرة اذا ما تحققت مرة ، يكاد يكون من المستحيل ان تموت بعد ذلك . »

قال نوري : « ولكنك مت . »

مثلما ترى . »

« ولكن جسدك مات في عام ١٨٣٢ . ولقد دفنت في « سرداب مدفن الاسرة في ايرلاندا » . »

لم يقل ايزموند شيئا ، كانت ذاكرته مغلقة مطبقة نائية حتى بالنسبة الي
انا . قال بعد لحظة :

« لا تدعنا نضيع وقتنا على ما لا اهمية له . ولنصرح فقط بأن مستر سورم
قد كان اداة ثمينة لا تقدر ، وانك ينبغي ان تعامله بنفس الثقة التي تعاملني بها .
وسوف يكون قادرا في مقابل هذا ، على ان يقدم لك الكثير من المعونة . ان مستر
سورم ، مثلي انا ، ليس مهتما بالجنس بصورة اساسية . انه رجل كالمتطهرين .
ولكنني اظنه قد اكتشف بعض الامكانيات ذات الاهمية في جماعة كورنر . وتستطيع
انت ان تطلعه على اشياء اكثر اهمية بكثير ، انني اعتمد عليك . »
« وماذا عنك انت ؟ هل سترحل الآن ؟ »

« كلا . واكنني حقا لا استطيع ان اظل افرض نفسي على مستر سورم . ان
لديه عمله الخاص الذي ينبغي عليه ان يقوم به . »
قلت بصوت مرتفع - لصالح نوري : « انني ارحب بمقدمك وقتما تحب
ذلك . »

« اشكرك . انك مضياف حقا . »

قال نوري : « ما الذي تريد مني ان افعله على الفور ؟ »

« لا شيء . ركز على تعلم حيلة التقفز فوق صهوة الجواد السريع . وتذكر
شيئا واحدا . التثاؤم ثقل من الرصاص يحيط بالقدم . الهزيمة دائما نتيجة اختيار
ذاتي . يستطيع مستر سورم ان يشرح تلك الاشياء بشكل افضل مني - ان له
نسقه الخاص في الفلسفة الذي يقوم على افكار رجل يدعى هوسرل . والان يا
عزيزي السيد . سوف اغادرك . وانني سأكون ايضا في غاية الامتنان لك لو انك
مددت حمايتك لكي تشمل لورد جليني الحالي ، ابن ابن ابن ابن ابن صديقي
هوراس . انه يملك عددا كبيرا من نفس العناصر التي كان هوراس يمتلكها وبذلك
فأنك تستطيع بمعنى ما ان تعتبره تجسيدا جديدا لجده الاكبر وتلك العناصر . لا
تقل شيئا عما حدث لذلك الابله سانت ليجير . انه ليس جديرا بالثقة . »
بعد ذلك اختفى ، واصبحت انا ونوري وحيدين . لم يكن نوري واثقا من انك
حتى قلت : « لقد رحل . »

وقف وقال : « حسنا ، يا مستر سورم . اظننا نستحق كأسا . ويسكي ؟ »

« كأسا صغيرة . مع الشكر . »

وبينما كان يصب الكأسين ، سألت : « كيف عرفت ان ايزموند كان ينوي ان
يعود مرة اخرى ؟ »

« هناك قصة تقول يا مستر سورم بأنه لم يمض ابدا ، وان الجسد الذي دفن
في سرداب مدفن الاسرة كان جسد شحاذا عجوز . ولقد قال هو نفسه شيئا يقرب
من هذا في يومياته الموجودة الآن في منزلي على جزيرة هيندورابي . وسوف تكون
انت واسرتك ضيوفا مكرمين هناك اذا شئت ان تأتي لكي تفحص تلك اليوميات .
وهذه اليوميات تتوقف بعد عام ١٨٠٠ ، الامر الذي حيرني دائما . ولكنني افهم
ما حدث الآن . »

« هناك شيء واحد احب ان اسالك عنه . هل اقلع عن الجنس بعد ما حقق من استبصار وادراك ؟ »

« اظنني استطيع ان اجيبك على هذا السؤال . انك تعرف انه قد اختار صفري الشقيقات انجستر لكي تكون شيئاً مثل الكائن المقدس ، وقد اصبحت فيما بعد كاهنة في قيادة الجماعة في القسطنطينية ؟ يمكنك ان تقرا عن هذا في اليوميات . وانا اعتقد انه قد اختارها لانه قال عنها انها تمتعت بنوع سري خاص من النعم الالهية جعلها اكثر نقاء في انوثتها من اي امرأة عرفها من قبل . وعاملتها الجماعة باعتبارها كائناً مقدساً ، بعد ان اصبحت ايزموند استاذاً اعظم في عام ١٨١٠ ، وبعد ذلك احتلت ابنتها ثم حفيدتها مكانها . ومما يصدق كل العارفين ان ايزموند كان والد ابنتها الحقيقي . »

« من الذي كتب الكتب المنسوبة الى ايزموند : « افتراع العداري » وما الى ذلك ؟ »

« لقد كتب جليبي نفسه هذا الكتاب ، في وقت اراد فيه ان يزعم ثقة ايزموند بالجماعة . ولكن كانت هناك تزييفات اخرى كثيرة بعد هذا . فان ايزموند باعتباره استاذاً اعظم كان جديراً بان ينحل اعمالاً مزيفة مثلما نحل كتاب عصر اليزابيث الصفار اعمالهم لشيكسبير ، وخاصة المسرحية منها . »
« ماذا كان السبب المباشر لموت ايزموند ؟ »

قال : « هذا شيء يحيرني : فالقضية التي يوردها كاتب ترجمته ، عصمت الاصطخري ، تقول بانه اصاب بنزيف دموي في الدماغ بعد احتفال ضاجع فيه خمس عشرة امرأة . وهذا بالطبع محتمل ، فباعتباره استاذاً اعظم ، كان من مهامه احيانا ان يشترك في مثل تلك الاحتفالات . ومع هذا فاني لم اكن قادراً ابداً على ان اقبل هذه القصة قبولاً كاملاً . وانا الان اقل ثقة منها مما كنت من قبل . »
« هل هذه الترجمة مكتوبة بالانجليزية ؟ »

« انها بالعربية لسوء الحظ . ولكن يمكنني ان آمر بترجمتها لك . »

نظرت الى ساعتني فدهشت حينما وجدتها قد تجاوزت السادسة . خطر لي ان آنجيلا ستكون الان منزوعة علي . ولذلك فقد سألت ان كان يمكنني ان اطلبها بالتليفون . وكنت على حق ، فقد كانت آنجيلا والستير يتناقشان في تلك اللحظة حول ان كان عليهما ان يتصلا بالشرطة ام لا ، فان تلميحات سانت لجير المعتمة حول اغتيال جليبي ازعجتهم . وبينما كنت ما ازال اتحدث في التليفون ، تسلس الى جانبي رئيس الخدم الصامت وقال :

« اعدني يا سيدي ، ولكن مستر نوري اقترح انك قد تحب ان تدعو صديقك لتناول العشاء هنا . »

بلغتهما الاقتراح ، فقبلاه على الفور .

حينما عدت الى المكتبة ، كان نوري يرتدي عباءة فضفاضة مزخرفة بشكل جميل ، وقد وقفت خلف مقعده ، اربع فتيات في ملابس شفافة . قال :

« آه ، مستر سورم ، ارجو ان يكون صديقك قد قبل الدعوة ؟ ما زال امامنا ساعة اخرى حتى يحين موعد العشاء . هل حدث ابدا ان جربت ما يتمتع به حمام الامراء من قدرة على بعث الراحة في الجسد والاسترخاء في الاوصال ؟ لقد اخترعه استاذ اعظم تركي في القرن السابع عشر . وهؤلاء السيدات الصغيرات قد تعلمن فن الكمال . انني اقترح ان نستحم الان على طريقة الامراء ، قبل العشاء ، وربما امكنك في اثناء ذلك ان تروي لي كيف حدث ان سمعت بايزموند دونللي . »



كانت هذه هي المقدمة التي ادت الى واحدة من امتع الامسيات التي قضيتها في حياتي ، ولكن ليس هذا هو مكان وصفها بالتفصيل . ان تاريخ جماعة العنقاء موضوع يبلغ من التعقد والثراء حدا يجعلني اشعر بأنه ليس من العدل ان اتحدث عنه هنا . وحينما يكتمل اعداد اوراق دونللي للنشر ، سوف ارجو ان اقوم بهذا العمل بنفسي . وقد سرد علينا نوري ايضا جانبا من تاريخه هو ، وانتهى بأن استعرض امامنا بعضا من تلك القدرات الهائلة التي ادت الى تعيين استاذ اعظم . (وقد حدث هذا بعد صراع مشهود مع لودفيج بينديج ، المشرف الالمانى الذي كان ايضا نازيا سابقا . وقد ادار بينديج « المعسكر الجنسي » المشهور ، الذي انكر المؤرخون الالمان المعاصرون وجوده .)

لجانا الى سررنا ، منهكين الى اقصى حد ، في ساعات الصباح الباكرة . وحينما استيقظنا ، كان نوري قد رحل الى باريس . وفي وقت متأخر من نفس اليوم طرت عائدا الى شانون حيث قابلتني ديانا . وحينما عدنا الى البيت ، وجدنا برقية من نوري يسألنا فيها ان كان بوسعنا ان نلحق به في منزله في هيندورابي في عطلة الاسبوع التالية . اقلنا طائرته الخاصة من شانون . وفي الشهور الاربعة التالية منذ ذلك الحين ، تمتعنا بأشعة الشمس ، وكتبت انا هذا التقرير عن بحثي عن ايزموند .

اما ابجائي في محفوظات السيد نوري - التي ساعدني فيها منظم مكتبته الممتاز الدكتور فائق خصة فقد اجابت على معظم ما تبقى من اسئلة حول ايزموند وحول تاريخ الجماعة في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر . وسوف تنشر هذه النتائج في موعدها الملائم . اما آنجيلا التي تعمل هنا هي الاخرى، فقد جمعت المواد الاساسية المطلوبة لتأليف ترجمة حياة ايزموند ، هذه الترجمة التي من المحتمل ان نتعاون في كتابتها .

وقد كانت المشكلة الرئيسية التي واجهتني في عملية الكتابة عن « بحثي » هي مقدار ما استطيع ان استخدمه من الصراحة في بعض المواقف او الاحداث . ولقد قبلت اقتراح هوارد فليشر بان اكتب كل شيء كما حدث ، ثم اترك له مهمة تقرير كمية التفسيرات ونوع ما قد يكون ضروريا منها (١٤) . وعلي ايضا ان اعترف

(١٤) حينما كان هذا الكتاب في مرحلة تجارب الطبعة ، سمعت ان بقايا كولونيل دونللي قد عثر عليها في منزل مزرعته الذي احترق عن آخره ، ولم يكن ثمة اي شكوك في وقوع عمل اجرامي متمدد . وعلى ذلك فقد اعنت كتابة الفقرة الخاصة بالكولونيل دونللي ووضعتها بالشكل الذي كتبتها به هنا .

بأنني لم اسمح لديانا - حتى الآن - بأن تقرأ المخطوطة ، وانها - لحسن الحظ -
فتاة قادرة على الفهم ، ويمكنني ان القي اكثر اللوم على ايزموند .
وماذا عن ايزموند ؟ فمئذ عصر ذلك اليوم في شارع بروك ، لم احس بحضوره
الا على فترات متباعدة . ولكنني لا استطيع ان اكون واثقا من ان هذا الحضور ليس
من وحي خيالي . انني كثيرا ما اجد نفسي افكر في حادثة غريبة حدثت في بيت
نوري في تلك الليلة . كان بوريس يستعرض قدرات حاسته السادسة امام
آنجيلا وألستير . وكان نوري قد نومه تنويما مغناطيسيا ، وكانت اجاباته على
اسئلة حول حياة كل منا الخاصة دقيقة الى حد مخيف . وقبل ان يوقظه نوري ،
سألنا ان كان لدينا اية اسئلة نحب ان نطرحها على النائب . قالت آنجيلا :
« اجل . هل يمكن ان يخبرنا ابن ايزموند في هذه اللحظة ؟ »
استدار وجه بوريس المغمض العينين الي ، وقال :
« انه هو ايزموند » .



حول « إله المتاهة »

في وقت ما من عام ١٩٦٨ ، نشرت جريدة « الديلي تلجراف » مقالة افتتاحية، تنمي فيها تزايد كمية المشاهد المكشوفة فيما ينشر من اعمال ادبية ، وأشارت الى والي ميس بريجيد بروفي Brigid Brophy باعتبارنا كاتبين « جادين » يهدفان الى المزيد من المبيعات بان يزودا كتبهما ببهارات قوامها مشاهد ومواقف كان يمكن ان تؤدي الى ادانتنا في ازمة اقل تحررا . ولم اتحفظ بشيء على هذه المقالة ، لانه من الصحيح انني كتبت عن الجنس في عدد من كتبي بطريقة ما كانت تواجه بالقبول او يسمح بها منذ خمسين عاما . ولكنني لا افكر في نفسي باعتباري من كتاب الادب الداعر Pornography ولكن اذا رغب شخص اخر في ان ينظر الي بهذه الصفة ، فلا شك ان هذه مسألة تتعلق بوجهة نظر صاحبها . ولكن حدث بعد بضعة اسابيع قليلة ، ان اعيد نشر مقالة التلجراف اللندنية في جريدة في نيوزيلاندا ، فكتب قاري نيوزيلاندي خطابا يدافع فيه عني بقوة . اشار هذا القاري الى ان اكثر من نصف كتبي تدور حول موضوعات من مثل الفلسفة والفن والموسيقى والادب ، وانه من بين رواياتي السبع ، لا تحتوي اربع منها الا على القليل من الجنس، او لا تحتوي شيئا منه على الاطلاق . وقد اقتنعت حينما قرأت هذا الخطاب ، انني لست من كتاب الادب الداعر . حقا ان ناشر كتب من نيو انجلاند (احدى الولايات الامريكية - المترجم) قد قدم الى المحاكمة بسبب عرضه كتاب « يومية جيرارد سورم الجنسية » في واجهة مكتبته ، ولكن هذه المحاكمة لم تؤدي الى ادانته . وكان رأي القاضي انه رغم انني كنت محروما بشكل كامل من اي موهبة ادبية ، فان الكتاب لم يكن منحطا ولا مسيئا للاخلاق من الناحية الفنية .

وبعد بضعة اسابيع من ظهور مقالة التلجراف ، طلب مني احد مكاتب المحاماة ان اتقدم الى احدى المحاكم كشاهد اشهد في صالح ناشر كتب من برادفورد ، كان يحاكم بتهمة بيع كتاب « حياتي السرية » وهو ترجمة ذاتية كتبها احد كتاب العصر الفيكتوري المجهولين ، واجبت على هذا الطلب بانني مشغول لدرجة تمنعني من الذهاب الى يوركشاير - وهذه رحلة تستغرق يومين من كورنول حيث اقيم - ولكنني رحبت بان يعتمدوا على قلبي بان الكتاب لم يكن من نوع الادب الداعر ، وانه

من الممكن ان ينشر علنا في انجلترا . واشرت الى انني مستعد لان اكتب خطابا بهذا المعنى . وحينما بدات كتابة الخطاب ، اكتشفت صعوبة المهمة الملقة على عاتق الدفاع . ان كتاب « حياتي السرية » ليست له اية قيمة ادبية . وحينما نشرته دار نشر « جروف هريس » في اميركا ، قال المسؤولون عنه انه وثيقة اجتماعية ثمينة عن العصر الفيكتوري ، ولكن هذا ايضا غير صحيح . ان عالم الاجتماع يستطيع ان يعرف من عشر صفحات من كتابات تشارلز بوت (١) او هنري مايبيو (٢) اكثر مما يمكن ان يعرفه من الثلاثة الاف صفحة التي يضمها كتاب « حياتي السرية » . ان مؤلفه لم يكن سوى الصورة الذكورية لامرأة مصابة بالقلمة الجنسية nymphomaniac ولم يكن الجنس عنده سوى نوع من التنفيس عن طاقة مكبوتة . لقد جرب كل نوع ممكن من انواع التجارب الجنسية لما يزيد على اربعين سنة او نحوها ، ثم قرر ان كل ما فعله كان شيئا ساحرا فائنا وانه ينبغي ان يكتب عنه . فمن الذي يستطيع ان ينكر انه كان على حق ؟ من الصحيح انه لن يقبل على قراءته كل الناس ، ولكنني اقول انه ليس كل الناس يقبلون على قراءة التراجم الذاتية التي يكتبها جنود او سياسيون او رحالة ، وليست هذه حجة تؤخذ ضدهم .

بل ان المرء لا يستطيع ان يقول ان كتاب « حياتي السرية » قد كتب « دون نية بذية ودون قصد الاساءة الى الاخلاق » ، او ايا كانت العبارة التي استخدمت ضده . كان الرجل قد استمتع بالجنس ، ولقد استمتع بالكتابة عنه . وكان الرجل شخصا مضجرا قدر العقل ، طالما انه كتب كل تلك الصفحات عن الجنس مدافعا عن فراغ العقل بصورة كاملة . ورغم كل شيء فان الكتاب واقعي ، انه حياة رجل ، انه « حقيقة » ، تماما مثلما كانت « حقيقة » تلك المجلدات الهائلة التي قراها ويب وزوجته (٣) ودرساها من « الاوراق البيضاء » من اجل كتابة مؤلفهما في التاريخ . انني اوافق الان - رغم هذا - على ان هناك شيئا ما يقف ضد نشر انواع معينة من الحقائق غير السارة - على سبيل المثال ، تفاصيل هجوم جنسي قد تظهر في اثناء محاكمات جرائم القتل ، فان نشر تلك التفاصيل قد يؤدي الى ارتكاب جرائم

(١) تشارلز بوت ١٨٢٠ - ١٩١٦ مالك سفن ومصلح انجليزي ساهم في القضاء الاضواء على الاوضاع الاجتماعية في عصره (وخاصة اوضاع الطبقات الفقيرة) وفي تطوير مناهج الاحصاء الاجتماعي . من اهم كتبه « حياة الناس في لندن واعمالهم » في ١٧ مجلدا وصدر في عام ١٩٠٣ ، ثم « قانون اصلاح حالة المفرد » عام ١٩١٠ ، وقد زودها برسوم بيانية لاول مرة في مؤلفات الدراسات الاجتماعية الميدانية . (هـ . م)

(٢) هنري ماي هيو - صاحب مجلة « بونش » الساخرة الكاريكاتيرية في العصر الفيكتوري ، جمعت اشهر رسامي الكاريكاتير الاجتماعيين والسياسيين في انجلترا ذلك الوقت وقاومت طغيان الملكة واشتركت في الهجوم على مفاسد الرأسمالية من وجهة نظر اجتماعية وإنسانية . (هـ . م)

(٣) ويب المقصود هنا هو جيمس سبني ويب وزوجته بياتريس الاقتصاديان الانجليزيان اللذان كونا « الجمعية الغابية » ودرسا تاريخ الطبقة العاملة الانجليزية طوال خمسين عاما واصلدا تاريخا طويلا للحركة النقابية في انجلترا . (هـ . م)

معائلة يقلدها فيها المجرمون . ولكن اي شخص يمكن ان يقلد ما قام به مؤلف « حياتي السرية » فانه لن ينزل باحد ضررا حقيقيا ولن يقترب من الحاق مثل هذا الضرر ، وبذلك فان اعتراضه لا ينطبق عليه ، انني لا استطيع ان افكر في اي اساس يصلح لان استند اليه من منع الكتاب – وبالتأكيد لا اجد ما يبرر الحكم على من باعوه بقضاء عامين في السجن – مثلما حدث لبائع الكتب في برادفورد .

ولكن حجة « الحقيقة » يصعب ان تطبق على اعمال دي صاد و « فاني هيل Fanny Hill » التي يمكنني ايضا ان ادافع عن نشرها وخاصة اذا ما كانت اسعارها مرتفعة ، حتى تعمل الاسعار المرتفعة عمل « المشرح » بالنسبة لصغار السن من القراء . انني لا احب دي صاد . وانا لا اظنه « هاما » او ذا دلالة خاصة ، بالطريقة التي تظهر بها اهمية ودلالة جان بولهان والانسة دي بوفوار (٤) . ان الروح الاساسية السائدة في كتبه هي روح تمرد يقوم به تلميذ – يشبه كتابة الكلمات القدرة على الجدران . ولكنني لا يمكن ان اقف في صف منع نشر كتبه . اما بالنسبة لكتاب « فاني هيل » فان كيللاند يعترف بانه كتبه لكي يحصل على المال ، وهذا الكتاب مثال نموذجي للكتب التي دعاها سانت بوف بانها « الكتب التي يقرأها المرء بيد واحدة » . انه كتاب مسل ، كتب بشكل جيد ، وليس فيه شيء لا يعرفه بالفعل اي قارئ تجاوز سن الرشد . اننا لا بد ان نعرف بان منع اصدار اي كتاب – وان نعلن انه ليس صالحا لان يستهلكه الجمهور – هو الشبيه الادبي لعملية اعدام مجرم ، او احراق ساحرة ، او القاء معارض سياسي في السجن . وانه لمن المصعب ان ندافع عن مثل هذا الاجراء دون تحيز – وفي تباعد او انعزال موضوعي . انه لا يمكن الدفاع عن مثل هذا الاجراء الا على اساس من التعصب الفكري وضيق الافق ، مثل الاساس الذي قام عليه « فهرس الكنيسة الكاثوليكية » او احراق النازيين للكتب : اي على اساس مقدمة عقائد جامدة لا بد من القبول بها . يمكننا ان نهاجم عملية بيع العقاقير المخدرة دون رقابة ، او مزج عصير الفاكهة بالكحول لكي يشتريه صغار السن ، على اساس نفعي وعملي : فان هذه الاعمال يمكن ان تنتج تدمير الاجساد . ونحن نعرف كل شيء تقريبا عن امكانيات الجسد ، ولكننا لا نعرف شيئا عن امكانيات العقل . فهذا النوع من الحجج « النفعية » لا يستطيع ان ينتقل الى مجال الكتب .

انني اوافق على ان كل هذا يبدو في صورة التماس خاص – مثل التماس يقدمه محام ماكر يعرف ان قضيته لا يمكن الدفاع عنها ، فيقرر ان يحاول خلط الصفوف المستقلة ومزج القيم التي لا تمتزج . يجتاحني هذا الاحساس وانا اقرأ عددا كبيرا من آراء معارضي الرقابة . ولكنني حينما انظر داخل نفسي ، اجدني

(٤) سيمون دي بوفوار ، زميلة سارتر ورفيقته ، مؤلفة العديد من كتب الفلسفة والادب والابداهي والنقد . مثل سارتر بدأت مدرسة للفلسفة متأثرة بوضعية هيوم وبوجودية هيجر وباسيرز ، ولكنها سبقت سارتر الى التائر بالماركسية ، والاشارة الواردة هنا هي الى كتابها « الجنس الاخر » . هـ . م .

مالكا لنوع بالغ الوضوح والتحدد من الحدس الذي يدلني على ما يكون الادب الداعر
وعلى ما لا يدخل في تكوينه . فاسمحوا لي بأن احاول توضيح طبيعة هذا الحدس .
وقد يمكنني ان اتخذ نقطة انطلاقي من فقرة جاءت في ترجمتي « الذاتية » :
« رحلة نحو البداية » :

ان بطل رواية « طقوس في الظلام » يسيطر عليه الاحساس بأن « ثمة » معنى
في الوجود الانساني ، وان هذا المعنى يمكن ان يصل اليه العقل - فقط اذا عرف
العقل الطريق المؤدي الى العثور عليه . وان واحدة من اكثر « تجارب المعنى »
شيوعا تأتي عن طريق الجنس ، ولهذا فان الجنس يقدم « نقطة بداية » ثمينة في
سبيل البحث عن المعنى . (وانني اضع خطأ تحت عبارة « نقطة بداية » لانه يبدو
لي انه لا شيء يمكن ان يكون اكثر عقما من الجنس اذا مارسه الانسان كنوع من
التفيس عن الطاقة - مثلما فعل كازانوف او فرانك هاريس) .



« يمكن » ان يكون الجنس نقطة بداية « للبحث عن المعنى » ، انكار ما اكده
سارتر من انه : « لا معنى لان نحيا ولا معنى لان نموت » . ومن الواضح ان هذه
الحجة تنطبق على د.ه. لورانس (ه) كما تنطبق على كتيبي التي كانت التلجراف
تعنيها في مقالها . ان الدفاع عن دي صاد ايضا امر ممكن لانه هو الآخر رأى ان
الجنس يحتوي بشكل ما على معنى الوجود الانساني . من الحق ان ثمة اخطاء
جوهرية في تفكيره - الفشل في التفكير في « قانون ردود الافعال المتلاشية » ،
هذا الفشل الذي يفسد عمله ويخيب مسعاه في التحليل الاخير ، وهذا اثر عجيب
من آثار الاخطاء الشهيرة ، مثل نظرية الكون التي تقول بان الارض هي مركزه ، او
نظرية عنصر الفلوجيستون الذي قيل يوما انه اساس الخليفة ، ويبقى هذا الخطأ
في صورة رمز نافع للخطل الذي يمكن ان يكتسب شيئا من الاهمية . والجنس يقدم

(ه) ديفيد هوبرت لورانس ١٨٨٥ - ١٩٢٠ شاعر وقصاص وروائي انجليزي ، اشتهر بانشقائه
الادبي طوال عمره بمشاكل الجنس والاخلاق وتأثيرها في العلاقات الانسانية والبناء الاجتماعي . جذبته
موضوعات الاديان البدائية وفلسفات التصوف والوله بالطبيعة والبطولة ، وعرف برفضه للقرن العشرين
وللمجتمع الصناعي وبهجمات على النزعة التطهريه والتقاليد الاجتماعية في المجتمع الانجليزي وبحثه
المستمر عن طريقة في الحياة يستطيع من خلالها ان يطبق نظرياته عن الجنس والاخلاق والتكوين
الاجتماعي . تميزت كتاباته الكثيرة بتنوع مستوياتها الفني ، وفي احسن حالاتها تبرز صفات عبقرية
لورانس الادبية في عهق الاحساس والتلون ، وغنائية صوفية حالة ووصف فذ للطبيعة ومهارة في
المعالجة الساخرة لشخصيتها او رسمها بشكل مليء بالطف القريب من الحنان . افضل اعماله هي
« ابناء عشاق » ولكن اشهرها هي « عشيقه اللادي تشارلي » التي ظلت ممنوعة في انجلترا لفترة
طويلة . (م.ه)

ايضا نقطة بداية ممتازة لفلسفة وجودية . يقول « كيريلوف » (٦) احد ابطال
دستوفسكي انه اذا لم يكن هناك اله ، اذن فان الانسان اله ، وعليه ان يثبت هذا ،
ثم ينطلق بهذا المنطق حتى يصل الى الانتحار . اما دي صاد فانه ينطلق به حتى
يصل الى الدفاع المطلق عن اللااخلاقية . وفي كلتا الحالتين يستطيع المرء ان يبدأ
في مناقشة مثمرة .

انني احس بادب الدعارة الحقيقي حينما اقرا كتبا معينة لن يفكر احد مطلقا
في منعها - كتب من نوع : « لا زهور اوركيد من اجل ميس بلانديش » او « صانعو
الابسطة » او حتى بعض روايات جيمس بوند . يتهم فورستر جيمس جويس
بمحاولة تغطية الكون كله بالوحل . ولكنه كان مخطئا . ان ما يبدو في رواية
« يوليسيز » من عنف وقذارة وضع عمدا وقد قصد به ان يؤثر تأثيرا عكسيا ، مثل
دواء قابض ، ويعترف جويس نفسه بقرابته للكاتب سوفيت . اما جيمس هادلي تشيز
وهارولد روبينز فقد مارسا الكتابة لكي يمتعا القراء فقط ولكي يربحا النقود عن
طريق الامتناع . ان الجنس والعنف - والعنف بشكل خاص - يقصد منهما ان يجعلا
الوجبة اكثر لذة وشهية . انهما مثل حراس بيوت الدعارة وملاكها الذين يبدوون
استعدادهم لخدمة اي شخص مستعد للدفع . فاذا جر المرء حججهم الى ضوء
المناقشة ، يجدها نسخا اخرى من حجج دي صاد ، مثل فولتير او اي وضعي منطقي
حديث اخر ، الذي كان يهاجم الافكار « الميتافيزيقية » عن الطيبة والخير . انه
يقول قولة مؤثرة : « يقول الناس ان الفضيلة ، وانكار الذات ، والتضحية بالنفس ،
والروح العامة والشرف والشجاعة ، كلها خير . اما انا فاقول ان هذا ليس سوى
تفكير مختلط مشوه . فاللذة وحدها هي الخير بالنسبة لاي واقعي معتدل التفكير » .
ان ما يوشك حينئذ ان يفعله هو ان يرفض نفسه بمحاولة توضيح فكرته في اقصى
امتداد لها . والشيء الوحيد الذي يدهشنا هو انه لم يصب هو نفسه بالضجر الى
حد المرض قبل وقت طويل من اكمال روايته « جوليت » . على انه من الواضح انه
كان يدرك القيم التي كان يحاول ان يفرسها وان يبعث فيها الحياة .
لا احد الان ينتقد كونان دويل (٧) او رايدر هاجار (٨) لانهما لا يتمتعان بالتمعق

(٦) اليكس فيليش كيريلوف ، بطل رواية « المجانين » لدستوفسكي . وهو عضو في جماعة من
الثوريين نصف مجنون ، تسيطر عليه فكرة تحقيق حرية ارادته عن طريق الانتحار ، او ان « يصبح
اله » بنفس الطريق . وقبل ان يقتل نفسه في النهاية ، يقتعه احد زملائه في الجماعة - في مشهد
عنيف - بان يكتب اعترافا زائفا يقر فيه بانه قاتل احد الخونة من اعضاء الجماعة ، اي انه يسلم
ارادته - ومعنى انتحاره - للآخرين وللمجتمع ، في نفس اللحظة التي يقن نفسه فيها قد تحرر نهائيا
من كل التزام او قيد . (هـ . م .)

(٧) سير آرثر كونان دويل ١٨٥٩ - ١٩٢٠ . رواي انجليزي اشتهر بسلسلة رواياته التي كان
« شرلوهولمز » هو بطلها . ولكنه انشغل بالمسائل الروحية وكتب تاريخا لها ، كما كتب عددا من
الروايات التاريخية اشتهرها « البريجاير جيرار » و « البروفيسور تشالنجر » . (هـ . م .)

(٨) سير هنري رايدر هاجارد ١٨٦٥ - ١٩٢٥ . كاتب رواي انجليزي بدأ حياته في البحرية =

الذهني الذي تمتع به توماس مان او الدوس هكسلي . فلقد خرجا الى الناس باعتبارهما « مسليين » او مسامرين و « القيم » التي دافعا عنها ، الشرف والشجاعة وما الى ذلك ، هي من القيم التي لا يمكن الاختلاف حولها بأي حال . ومنذ زمن ظهورهما ، اصبح الكاتب المسلي او « المسامر » اكثر واقعية ، واكثر تعقيدا من الناحية الثقافية . ولكنه لسوء الحظ لم يصبح اكثر تعمقا في التحليل الذهني - انه يرفض القيم الاقدم عهدا - ولكنه لا يفعل ذلك باسم عقل باحث لا يكل عن طرح الاسئلة ، وانما فقط باسم تسلية : « اعطاء الناس ما يريدون » . ولكن رفض القيم - اذا كان لهذا الرضا ان يكون نشاطا مفيدا - يجب ان يكون واعيا تمام الوعي بطبيعته الخاصة . انا حينما نلتقي باناس يؤمنون بآراء لا يريدون التفكير فيها ، فاننا ندعوهم بحق اغبياء او متعصبين . والاعتراض على مثل هذا النوع من الغباء او التعصب ، هو انه بشكل ما نوع من « انكار الحياة » . انني املك جهازا هضميا ومخارج للتعامل مع الطعام الذي احتاجه لكي يبقي على حيائي . واملك ايضا جهازا هضميا عقليا ومخارج للتعامل مع تجاربي . ونموي باعتباري كائنا انسانيا انما يعتمد على هذا الجهاز مثلما يعتمد نموي الجسدي على الجهاز البدني . فاذا ما انطلق او انسداي من الجهازين ، فاني سأكون عرضة للتسمم البطيء . ان كتابا من نوع ايان فليمنج (٩) او هارولد روبينز لا يملكون اجهزة هضمية ومخارج للتعامل مع القيم التي يرفضونها . والنتيجة هي ان تفوح رائحة التعفن والتحلل ، رائحة جهاز تسده فضلاته التي ينتجها بنفسه . فاذا ما قرا شخص ما اعمالهما لمدة طويلة ، كانت النتيجة هي الاحساس بالصداع ، بتسرب الدم من الدماغ ، بالعقم ، هذه هي ، نتيجة الامساك القاسي .

وهذا القانون ينطبق بالطبع على عدد كبير جدا من الاعمال الادبية . يشعر المرء بنفس الاحساس بالعقم اذا قرا طويلا رواية رومان رولان « جان كريستوف » او رواية بوديس « الذنب المنفرد » او حتى « الحرب والسلام » . هذه الكتب تمتلك جهازا هضميا ، ولكنه ليس كبيرا الى الدرجة الكافية للتعامل مع مثل تلك التجربة الكبيرة . ومن الجدير بالملاحظة ان الجهاز الهضمي ليس - ببساطة - هو القدرة على التفكير المجرد . ان امثال هكسلي او مان اذكاء وعلى عمق ذهني كاف ، ومع هذا فان كتبهما تتصف بجمود غريب . ان الشيء الهام هو قدرة الكاتب على « مهاجمة » تجربته ، وليس مجرد ان « يعانيتها » ، وانما ان يتجاوزها . لا يمكن ان يبعث دستوفسكي على انضجر ، على الرغم من اسلوبه الوعر الثقيل واطالته

= البريطانية واشترك في كشف منطقة الترانسفال الافريقية ، واشتهر بروايات المغامرات الافريقية . اشهر اعماله هي « كنوز الملك سليمان » عام ١٨٨٥ ثم « هي » ١٨٨٧ ، وكتب عددا من الروايات التاريخية العاطفية مستمدة من التاريخ الفرعوني . (م.هـ)

(٩) ايان فليمنج - اشهر كتاب القصة البوليسية الجاسوسية المعاصرين ، بدأ حياته في اوروبا ثم في الشرق الاقصى حتى تركها بعد الحرب العالمية الثانية . خلق في اعماله شخصية « جيمس بوند » . (م.هـ)

المسبهة ، بسبب ما نشعر بما لديه من هذه النيران الملتهبة التي تحاول ان « تأكل » مادته ، مثل اتون يصهر خام الذهب ..

هذا هو ما يحدد ما قلت عنه انه حدسي لطبيعة الادب الداعر . انه مرتبط بمسألة الجهاز الهضمي ، اننا لا نطعم طيور البط بالارز ، ولا نرضع الاطفال الصغار بالحلوى الثقيلة ، لاننا نعرف ان اجهزتهم الهضمية لن تصمد لمثل هذه الاطعمة ، فاذا فعلت هذا وانا اعرف ما ستكون عليه النتيجة . فاني اكون مدانا بتهمة الاهمال الاجرامي . وهذا هو ما ينطبق على كاتب ينتج خليطا لزجا رديء الطهو من الجنس والعنف ، هادفا بذلك الى الوصول الى « اكثر الفئات الهابطة شيوعا » من القراء .

وهذا هو ايضا ما يفسر السبب الذي يجعلني لا اعتبر كتابا من نوع « حياتي السرية » و « فاني هيل » او اعمال دي صاد من الادب الداعر الحقيقي . والمحك الحقيقي هو التساؤل عما اذا كانت تحتوي على هذا المنصر السام ، عنتر انكار الحياة . ان كتاب « حياتي السرية » بالغ الكتابة مليء بال تكرار بعد عدد قليل من مئات الصفحات الاولى ، ولكنه ليس اكثر تسميما من كتاب « هانسارد » (١٠) او « سجل المؤتمر » . فالحقاص ، او الروائي في هذا الكتاب خشن وغبي ، ولكنه ليس قاسيا ولا وضيعا . وقد يعترض المرء على قيمه الاساسية : على شعوره بأن الجنس هو اكثر التجارب الانسانية اهمية . ولكن يستطيع المرء ان يؤمن بهذه القيمة او ان يرفضها . وليس هناك شيء يمنع القاريء من ان يضع احدى رباعيات بيتهوفن على الحاكي بعد ان يقرأ اثنتي عشرة صفحة او نحوها ، وينطبق نفس الشيء على رواية « فاني هيل » . اما بالنسبة لدي صاد ، فان قراءته تثير رد الفعل الذي يمكن بالفعل ان يوسع من آفاق رباعية لبيتهوفن . اما المشكلة التي نواجهها مع هادلي تشيز او هارولد روبينز ، فهي انه بعد قراءة عدد قليل من الصفحات ، فان المرء لا يعود قادرا على الاستمتاع بسماع بيتهوفن . فاذا حاول المرء سماعه مع ذلك ، فان بيتهوفن سوف يبدو شيئا غير متناسب مع هذا العالم الفارغ الشرير الخطير العنيف الذي نعيش فيه ، سوف يبدو في صورة « ملاك جميل لا فاعلية له » ، يعيش في عالم احلامه الموسيقي السخيف .

باختصار ، يتضمن الادب الداعر احساسا بالتحقير من شأن القيم ومهانتها . واذا كان الفن معركة بين عقل الانسان والعالم المادي ، اذن فان كاتب ادب الدماره يقف الى جانب العالم ضد عقل الانسان . ومن المهم ان نلاحظ ان كلا من فليمنج وهارولد روبينز وهادلي تشيز يستغلون الجريمة مثلما يستغلون الجنس ، وكثيرا ما يبدو عليهم انهم يساوون بين الاثنين باعتبارهما نوعا من النشاط الهدام المدمر .

(١٠) المقصود هنا هي المجلة الاسبوعية « هانسارد » التي يصدرها البرلمان الانجليزي والتي

تضم النص الحرفي لمناقشات مجلس العموم واللوردات وتباع للجمهور الا اذا اراد البرلمان حذف بعض النصوص . وقد اخذت المجلة اسمها من الناشر الاول توماس كيرسون هانسارد الذي عين ظاهبا اول لبريطانيا عام ١٨٠٢ ، وتمتد هذه المجلة من اهم ملامح الديموقراطية الليبرالية والانجليزية ، وقد وصلت مجلداتها عام ١٩٦٠ الى ٢٠٠ مجلد لمناقشات اللوردات و ٦٠ مجلد لمناقشات العموم . (م.ه)

وقد اشار برناردشو الى اننا نحكم على الفنان من خلال اعلى ذروة يبلفها ، ونحكم على المجرم بادنى قاع يهبط اليه . وهذا يعني ان الفن قد ينظر اليه باعتباره دفاعا من اعلى ذروة يمكن ان يبلفها الانسان ضد ادنى قاع يمكن ان يتدنى اليه . والكاتب الذي يستغل الجريمة والجنس ، لا لشيء الا لان يثير القاريء ويستفز مشاعره انما قد اصبح مدافعا عن ادنى تلك القيعان المظلمة . اما اذا مضى الى معانجة الجنس بالطريقة التي تجعله في سلة واحدة مع الجريمة باعتباره لحظة من اكثر لحظات الانسان انحطاطا ، فان اتهامه يصبح اتهاما مركبا .

* * *

ولكن ، فلننتقل الان الى المرحلة التالية من المناقشة . سوف نلاحظ هنا ان كلا من توماس مان وآلدوس هكسلي قد انشغلا ايضا بالمعركة بين العالم المادي وبين العقل ، وان كلا منهما قد اتجه الى ان يكون انهزاميا ، مؤمنا بانهمزام العقل في تلك المعركة . وانا شخصا كثيرا ما اشعر بأن هكسلي كاتب مقبض مثل جراهام جرين (١١) لان العالم المادي عنده يبدو دائما قادرا على ان يكسب السباق بمقدار طول راس واحد . انه يتحدث عن تأكيد الحياة ، ولكن شيئا من هذه الحياة المؤكدة — بشكل ما — لا يستطيع ان يصمد حتى النهاية في كتبه ، ان اناسه « المؤكدين » او الايجابيين يبدون دائما غير مبهمجين واغبياء ، واصحاب الحساسية من شخصياته دائما ضعفاء . ونفس الشيء يصدق ايضا على توماس مان ، ولكن « موضوعيته » تجعل تلك السمات اقل في تأثيرها المقبض .

اذن ، فان انكار الحياة ، بينما يكون عنصرا اساسيا من عناصر الادب الداعر ، فانه ليس مقصورا على هذا الادب . وهذا يثير التساؤل عن المدى الذي يصل اليه صدق العكس . هل يكون الادب الداعر ممكنا اذا لم يكن انكارا للحياة قائما ؟ وهذا السؤال اكثر اهمية من مجرد مظهره . فان هذا التساؤل عن الاخلاقية والالاخلاقية ، عن الصحة والانحلال قد ظل يشغلنا لمدة تقرب من قرن كامل ، منذ ان بدأت مناقشات ابسن (١٢) وزولا (١٣) في ثمانينات القرن الماضي . وقد كانت

(١١) جراهام جرين (١٩٠٤ -) احد كتاب الرواية الانجليز الكبار في هذا القرن ، عرف بمعالجته للشخصيات ذات التكوين النفسي الشاذ والميالة الى الشر او الى التمرد الاجتماعي ، ويعتبر احد اساتذة « ادب التوتر » . اهم اعماله كانت « القوة والمجد » . (هـ.م)

(١٢) هنريك جون ابسن ١٨٢٨ - ١٩٠٦ - الشاعر المسرحي والكاتب النرويجي العظيم ، خالق تيار الدراما الواقعية الاجتماعية الحديثة واحد اعظم الكتاب المسرحيين في كل العصور . كان له تأثير فني وفكري كبير ، فبقية كتاب كثيرون في اشكاله الفنية ومضامينه ، خاصة منذ كتب جوردج برنارد شو كتابه عن « الابستية » حيث كشف عما تحويه اعماله من قيم فنية واجتماعية عظيمة . ومن ناحية اخرى اعتبره اصحاب الاتجاهات السيكلوجية الصوفية في الفن من اعظم روادهم باعماله الشعرية الرمزية الكبرى وخاصة مسرحيته « بيرجنت » و « براند » حيث تجلت حساسيته النفاذة في دراسة النماذج البشرية ومطامح الانسان في التمرد الروحي الشامل . (هـ.م)

(١٣) اميل ادوارد تشارلز انتوان زولا (١٨٤٠ - ١٩٠٢) - الروائي الفرنسي الكبير - وان كان =

حجج كل من الجانبين هي نفس الحجج تقريبا على الدوام . فقد كتب توماس جيفرسون (١٤) منذ عام ١٧٨٢ - يقول : « هؤلاء الذين يعملون في الارض هم شعب الله المختار ... ان فساد الاخلاق بين جماهير المربين والمهلبين اهو ظاهرة لم يخل من بعض نماذجها عصر ولا امة من الامم » . ان تلك المجتمعات البسيطة البدائية شبيهة بالجسد القوي الصحة . وان رفض « الفساد » هو وظيفة آلية من وظائف الصحة . وحينما يبدأ الشيء « المريب » ، غير الصحي ، الفاسد ، في العثور على موطيء قدم ، فان هذا يعني - بحكم الامر الواقع - ان الانحلال قد بدا . ان جسدي العضوي اذا ما بدا يصبح اكثر سرعة في التأثر بالجرائم ، فاني جدير باتخاذ الخطوات اللازمة لمعالجته ، لكي يستطيع ان يلفظ الجرائم ، ومن المؤكد انني لن اقبل تلك الجرائم على اعتبار انها تقدم فرصة لاحداث تغيير ممتع بديل لحالة الصحة الثابتة الدائمة المضجرة . وهذا هو الخط الذي يتبعه ماكس نوردو (١٥)

= من اب ايطالي - واشتهر بريادته للمدرسة الطبيعية في الادب الفرنسي (وخاصة في الرواية) في القرن الماضي . تميزت اعماله بثقة غير عادية في رسمها للخلفية الاجتماعية ، واللهجات والخصائص النفسية وبخضوع الشخصيات الفنية لنوع من الحتمية القائمة على الوراثية وتأثير البيئة . مال زولا الى النزعة الانسانية وتعاطف مع المصطهدين السياسيين (حادثة دريغوس المشهورة) ومع العمال ونشر مجموعة قصص عن الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠ صدرت بعد الحرب بعشرة اعوام . كان غزير الانتاج الى درجة غير عادية . اشتهر بروايته « تيريز راكان » عام ١٨٦٧ ، ثم بسلاسل رواياته الكبيرة : سلسلة « روجون - ماكارث » ١٨٧١ - ١٨٩٣ ثم سلسلة « المدن الثلاث » ١٨٩٤ - ١٨٩٧ ، ثم سلسلة « الاناجيل الاربعة » (١٨٩٧) (التي لم تتم موت زولا) . انفق معظم حياته في عزلة كاملة على التقيض من بلزاك وفلوبير ودودييه والاخوان جوتكور ، لانه كان يحتاج الى وقت وجهد عظيمين لجمع المادة الواقعية اللازمة لاعماله ولشخصياته كما لو كان يكتب تاريخا حقيقيا لاشخاص حقيقيين . وقد انهم زولا بالاخلاقيات في اعماله وبالاقتدار الى اللوق ، ولكن فلما نجد ادبا كان له تأثير في عصره مثل تأثير زولا المباشر . وقد كتب ايضا عددا من الاعمال النقدية ، مثل « الروائي الطبيعي » عام ١٨٨١ ، وقد اعتبر كتابه عن الحرب السبعينية بيانا للمدرسة الطبيعية في الادب . (م.ه)

(١٤) توماس جيفرسون (١٧٤٣ - ١٨٢٦) الرئيس الثالث للولايات المتحدة الاميركية ، والمؤلف الرئيسي لاعلان استقلالها وبيان حقوق الانسان صاحب له ، فاصبح بذلك - وبكتابه واعماله الاخرى - من اعلام الفلسفة السياسية الليبرالية واهم المعبرين عن البورجوازية الغربية في عصر تحررها النسبي . قامت فلسفته على اسس مستمدة من فكر الموسوعيين الفرنسيين وفكرة الحقوق الطبيعية للانسان ، وضرورة حماية هذا الحق عن طريق القوانين الوضعية الاجتماعية) . رفض الوضع الاعطائي والاحتكاري للملكية (واعتبر الملكية نفسها حقا ثانويا) ونظر الى الثورة على الدولة التي تمنع او تشوه القانون الطبيعي باعتبارها حقا واجبا على المصطهدين . ادان نظام العبودية الامريكي وقال ان الولايات المتحدة لا بد ان تدفع ثمنها غالبا لجريمتها « الاولى ضد الانسانية » . (م.ه)

(١٥) ماكس سيمون نوردو (اسمه الاصلي صادفيل) (١٨٤٩ - ١٩٢٣) كاتب يهودي من اصل مجري ، عاش في باريس وكان طبيبا . من غلاة المفكرين الصهيونية (بطل اسمه الي نوردو في عام =

في كتابه « الاضمحلال » عام ١٨٩٣ . فلا بد ان نعرف الانحلال بصفاته الحقيقية، فلا تتسامح معه او نشجعه . ان كتاب شو الهجوم المضاد « صحة الفن » كان يحمل عنوانا فرعيا يقول : « كشف وفضح للهرء الشائع عن كون الفنانين من عناصر الاضمحلال » . ومن الممكن ان نلخص الحجة التي ساقها في الكلمات التالية : « ليس اضمحلالا ، وانما هو تطور » . اما توماس مان ، الذي كان يكتب اولى اقايصه في تلك الفترة ، فقد اتخذ موقفا اقل ايجابية (وهو الموقف الذي تمسك به طيلة حياته) يقضي بأنه : بينما يصبح الفن اكثر حساسية ورقة ، فانه « يتطور » و « يضمحل » ، فالتطور هنا يعني الاضمحلال ، اذا ما مضى الى وراء نقطة معينة . وقد قال شبنغلر نفس الشيء في كتابه « اضمحلال الغرب » .

ولا يتفق شو مع هذا الرأي بصورة اساسية . لقد كان جديرا بان يقول : « بالطبع ، ان التطور « يمكن » ان يعني الاضمحلال ، اذا ما زادت الحساسية على الحيوية . ولكن هذا لا يتبع ذلك بالضرورة » . ومن الواضح ان هذا شكل آخر للسؤال الذي اثرناه نحن بالفعل ، لقد كان مان وهكسلي كاتبين زادت عندهما الحساسية على الحيوية ، فانها يجب - في النظرية - ان تكون قادرة على ان تزيد الحيوية الى الدرجة المناسبة لها . ولكن لم يؤمن احدهما بإمكان ذلك . ولكن هل هذا صحيح ؟ ولنفترض ان لدي رايا فجاء وبالغ البساطة عن شيء ما . ان النتيجة هي ان يصطدم رأسي بالحقيقة صدمة تجعلني اكثر حكمة - اي اكثر حساسية - ولكنها صدمة ستجعلني - في لحظة وقوعها - اقل ثقة واكل قدرة على اليقين والتأكيد . فهل ينبغي ان اظل على هذه الحالة طوال ما بقي من حياتي ؟ من الواضح ان لا . انني ابذل مجهودا عقليا ، انني « اتمثل » التجربة او اهضمها ، واتأملها حتى امتص كل معانيها ودلالاتها : اي حتى يمكنني السيطرة عليها . حينئذ تعود الثقة وتفيض بناييع الحيوية مرة اخرى . وهذا يعني القول بأن الامر يعتمد على نفس عملية « الهضم » التي ناقشتها بالفعل اثناء الحديث عن الادب الداعر .

وهذه النظرة تقدم بديلا للموقف الجيفرسوني : ان البساطة والصحة والشباب تمضي كلها معا وتصاب احداها الاخرين . انك اذا قلبت ميزان الثبات ، فسوف تقلب ميزان البساطة والصحة ، ولكنك عن طريق مجهود معين وقدر معين من التفاؤل ، فان هذه الموازين يمكن ان تستعاد في مستوى اكثر سموا ، وسوف تكون النتيجة تطورا حقيقيا واصيلا ، ان البدائل ليست محافظة اشبه بانفراس الاقدام في الوحل او اضمحلال سريع لا مناص منه .



قد تبدو النتيجة مجردة او مطلقة ، ولكنها بالنسبة لي كانت ذات اهمية

= ١٨٧٣) . اشتهر بكتابه « الاكاذيب التقليدية لعضارتنا » عام ١٨٨٢ ثم « الاضمحلال » عام ١٨٩٥ ، اللذين هاجم فيهما اوضاع المجتمع في اوروبا الغربية . التقى بالفكر الصهيوني الاول هيرتزل وآمن بدعوته الى اقامة دولة يهودية . وكان نائب رئيس للمؤتمرات الصهيونية الستة الاولى حتى اختلف مع زعماء الحركة حول نقاط تفصيلية واستقال منها عام ١٩٢١ . (ه.م.)

عملية مباشرة . فأنني حينما بدأت كتابة روايتي الاولى ، في اواخر سنوات العقد الثاني من عمري ، كانت تسيطر على نفسي المشكلة التي دفعت جويس الى اختيار ملحمة الادوية يستمد منها بناء لروايته المتداخلة الاطراف والتي تسودها الفوضى والتي تتحدث عن دبلين الحديثة . وقد غير بيتس (١٦) عن هذه المشكلة في الايات الثلاثة التالية :

سمكة شيكسبيرية تسبح في البحر ، بعيدا عن اليابسة ،
سمكة رومانتيكية تسبح في الشباك لتقترب من يد الصياد ،
ولكن ، ما كل تلك الاسماك الراقدة تشفق على رمال الشاطئ ؟

ومعنى هذا هو ان الفن الشيكسبيرى قد رفع مرآة في مواجهة الطبيعة : او ربما كان على المرء ان يقول انه رفع في مواجهتها عدسة مكبرة ، وكانت وحدتها الاساسية هي الحدث او القصة . الشخصية مهمة ، ولكنها مهمة فقط « في اطار » القصة ، فان الامر - على اي حال ان بهم حقا - سواء اذا كان هاملت هو الذي استبدت به الفيرة فقتل زوجته ، ام ان لير هو الذي اصبح امير كودر (١٧) . اما شخصية فيرتر عند جوته ، او « اوبرمان » عند سينانكور ، او هيبرتون عندهولدرلين (١٨) فان احدا لا يستطيع ان يحل محل اي منها ، لان كل واحد منهم « هر » التهمة . ان العدسة المكبرة تقترب اكثر ، حتى لا يمود الحدث هو الوحدة الاساسية ، وتصبح الوحدة الاساسية هي الشخصية .

(١٦) ويليام بطلر بيتس (١٨٦٥ - ١٩٣٩) الشاعر والكاتب الدرامي العظيم ، ورائد حركة الاحياء الايرلندية . تأثر بكل من ويليام بليك وشيلي وبزعة الايمان الهندي بالقوى الخفية وبالرمزية الفرنسية . تدور اكثر قصائده ومسرحياته حول موضوع النزعة الصوفية معتمدة على تراث الاساطير الكائبة . اسس بيتس حركة الادب والمسرح الايرلنديين (اواخر القرن الماضي) بعد انفصاله عن جماعة « الانحلال » الانجليزية بزعامة اوسكار وايلد وصار على راس جماعة الشعراء المسرحيين من وطنه : لادي جيرجودي وجورج موروجون ميلينجتون سينج حينما اسسوا الجمعية الادبية الايرلندية ومسرح الادب الايرلندي في دبلين (الذي اصبح مسرح الابيه المشهور هناك) . فاز بجائزة نوبل عام ١٩٢٣ ، ولكنه كان ضد النزعة الواقعية في الادب الايرلندي (وعلى راسها شون اوكيزي) رغم قوتها . (ه.م.)

(١٧) امير كودر هو اللقب الذي منحه الملك دانكمان للقائد ماكبث في مسرحية شيكسبير ، وكان حصوله على اللقب هو اول ما تحقق من نبوءة الساحرات لماكبث ، الامر الذي دفعه - مع عوامل اخرى - الى استعجال تحقيق النبوءتين الباقيتين واثار الطمع في نفسه . (ه.م.)

(١٨) جوان كريستيان فريدرش هولدرلين (١٧٧٠ - ١٨٤٢) احد كبار الشعراء الالمان . كان صديق شيللر وتلاهذه حتى تخلص من تأثيره وخلق لنفسه موسيقاه وابنيته الشعرية والفكرية . ولكن تم اكتشافه كشاعر عظيم في القرن العشرين على ايدي الناقدين هيلينجرات وبيسنر . مزج بين ثقافته الاغريقية وتصوره الوثني عن الطبيعة في البداية ، ثم تحول الى التصورات المسيحية وعبادة المسيح لكي يصبح واحدا من اهم المبرين عن روح الثقافة الفرية المسيحية وتجسيد الفكر التاملي في الشعر . (ه.م.)

ان قصة ما ، سوف تحكي نفسها لك اذا انت سمحت لها بذلك . اما الشخصية فلا بد ان يعيشها المؤلف . لقد كان على جوته ان « يصبح هو » فيرتر او ويلهلم مايستر بطريقة لم يعرفها شيكسبير في مطابقة نفسه مع هاملت او الملك لير . ومع هذا ، اذا ولج المؤلف الروائي « داخل » الشخصية ، فان الاحداث سوف تتطور حينئذ بشكل طبيعي ، فيصبح ويلهلم مديرا لفرقة مسرحية ، ويصبح فاوست محسنا عاما ومشرفا على مؤسسات خيرية .

هذا ، مع ضرورة ان تكون الشخصية واضحة الملامح محددة القسمات . ولكن جوهر النزعة الرومانتيكية كان هو انقسامها الذاتي ، احساسها بالافتقار الى هوية محددة وواضحة . وببطء ، يخلي فيرتر السبيل لكي يأتي ستيفن ديدالوس ، ولكي يأتي « مالتى لوريدس بريجي » عند ريلكه ، ولكي يأتي روكانتان عند سارتر وميرسو عند كامى ، ثم يأتي اخيرا البطل الاستاتيكي الكامل – «ك» عند كافكا ، فالسمكة لم تعد تملك قوة تعينها على السباحة ، ولا حتى على الثقل على جانبيها ، فهي لا تفعل عند بيكيت اكثر من ان تشهق وهي تضرب بذيلها . هناك كسب تحقق في التفاصيل – فالعدسة المكبرة الان اصبحت على بعد بوصة واحدة من انف السمكة – ولكن لم تعد القصة ممكنة القيام . وبدون « القصة » ، كيف يمكن ان تكون هناك رواية ؟.

لم يكن الحل الذي تقدم به جويس قابلا للتطبيق بشكل عام ، وفي الحقيقة ، وبقدر ما اعلم ، كان هو الشخص الوحيد الذي حاول استخدام «المنهج الميثولوجي» . لقد كفت الرواية عن محاولة حل المشكلة ، وقد ارتدت الى مرحلة احدث عهدا ، وتصلحت مع ما حدث لها من خسارة في وضعها ومكانتها .

وقد عبرت الدراما بازمة مشابهة في القرن العشرين ، فقد انجرفت هي الاخرى نحو النزعات الذاتية والرمزية والتعبيرية ، بل والى نوع من الكابوس المتعمد في مسرح القسوة عند آرتو (١٩) . ولقد كان بريخت (٢٠) هو الذي حاول ان يقيم اتصالا جديدا مع البدايات ، مع منبع المجرى ومصدره . لقد بدأت الدراما بوصفها

(١٩) انتونين آرتو – احد الرواد الفنين والفكرين لحركة العبث في الفنون الاوروبية المعاصرة . في بداية حياته القصيرة اقترن بالحركات الدادائية والسيريايية . تأثر برامبو وفرويد ولورانس ونييتشه ، وتأثر بالديانات الهندية وآمن بفكرة ان الحياة الانسانية (وان ظاهرة الحياة عموما) اثر من اثار السحر . في كتابه « المسرح وشبيهه » عام ١٩٢٨ فكر في « مسرح القسوة » قبل ان يكتب جان جينيه اعماله ثلاثين عاما ، واعتقد ان المسرح هو وسيلة تحقيق الثورة الروحية والثقافية على بلادة العالم البورجوازي وبلأته وسفخه . (م.ه).

(٢٠) برتولت بريخت (١٨٩٨ – ١٩٥٦) – الشاعر والكاتب المسرحي الالماني الكبير ، واحد الشخصيات البارزة في المسرح المعاصر ان لم يكن ابرزها جميعا ، لا بأعماله المسرحية الفذة فقط ، وانما بالفكره الاصيله عن فنون التأليف والاخراج والتمثيل لمسرحية هذه الافكار التي بلورت تيارا مسرحيا جديدا معارضا للتيار الارسطي الذي ساد في الدراما الاوروبية منذ القرن الخامس ق.م. ورث بريخت=

استعراضا ، بوصفها قصة تروى على جمهور من النظارة يعرف انها ليست حقيقة من الواقع . اذن فلماذا تحاول ان تتنافس مع السينما ؟ لماذا لا تحاول ان تحصل من آفاقها المحدودة على افضل ما فيها ، اي في الحقيقة ان « تؤكد » وجود الفجوة القائمة بين النظارة والممثلين ؟ كان يتس يداعب نفس الفكرة - فكرة مسرح الطقوس - ولكن بريخت كان يملك عبقرية المزج بين مسرح الطقوس وبين منصة المحاضر ، بين صالة الموسيقى والرقص وبين صندوق الصابون .

كنت قد كتبت عددا من الروايات قبل ان يخطر لي ان ما كنت افعله هو ان ادفع تأثير « التفريب » البريختي الى مجال الرواية . لقد بدأت روايتي الاولى « طقوس في الظلام » ببناء ميثولوجي مستمد من الكتاب المصري : « كتاب الموتى » ، حتى طرأ لي انني اذا لم يكن في نيتي ان استخدم اطارا نابعا بشكل طبيعي من المعاني الداخلية في القصة ، فان الاجدري ان استخدم اطارا يمكن ان يقبله القارئ الهادي وهكذا اخترت قصة جرائم قتل جاك الخناق ، وبنيت القصة السيكلوجية المثيرة . ولكنها كانت ما تزال بشكل اساسي رواية واقعية تقوم على تقاليد دستوفسكي في الواقعية . وفي الروايات الاخيرة ، قصدت الى « عامل التفريب » بشكل واع اكثر عن طريق اختبار اشكال تقليدية ، هادفا في نفس الوقت الى تأثير قريب جدا من تأثير الاستعراض . ففي رواية « ضياع في سوهو » كان الاطار هو اطار الرواية التصويرية ، وفي رواية « الشك الضروري » ، كان الاطار هو اطار « الرواية البوليسية » ، وفي رواية « عالم العنف » كان الاطار هو اطار « الرواية الكبيرة » الالمانية مع نضات كوميدية مصاحبة تتخلل البناء ، وفي رواية « طفيليات العقل » ، « حجر الفلاسفة » كان الاطار هو القصص العلمي الخيالي ، وفي رواية « الحجرة المعتمة » كان الاطار هو رواية الجاسوسية (١٤) ، وفي رواية « القفص الزجاجي » عدت مرة اخرى الى اطار الرواية البوليسية .

اما الان ، فان الخطاب الذي دافع عني ضد اتهام كتابة الادب الداعر قد اثار في ذهني سؤالا : وهل يستطيع المرء ان يستخدم شكل الرواية الداعرة التقليدية ، بطريقة كليلاند او ابولونير ، باعتباره الاطار الاساسي لاحدى الروايات ، ثم يصل الى نفس التأثير التفريبي ؟ لقد حاولت شيئا مشابها في رواية « رجل بلا ظل » ، (التي تم تغيير اسمها فيما بعد دون استشارتي الى « اليومية الجنسية لجيرارد

== أناركل المسارح الثورية الاوربية في فرنسا وروسيا والمانيا ، حيث يصبح المسرح وسيلة تعليمية من ناحية ومظاهرة فنية وسياسية من ناحية ثانية ، وامتزاجا بروح الفن القصص والتشخيص الشعبين من ناحية ثالثة . في الفن تأثر بريخت بالنزعة التعبيرية الالمانية والواقعية الفرنسية وفي الفلسفة انتقل من العدمية الى الماركسية ، وله في النظرية المسرحية كتاب « الاورجانون الصغير » ، ولكن اهم اعماله المسرحية هي : « الام شجاعة » عام ١٩٤١ ثم حياة غاليليو عام ١٩٤٨ ثم « دائرة الطباشين القوقازية » عام ١٩٤٨ ، ثم « السيد بونتيلا وتابعه ماتى » عام ١٩٤٢ - (هـ . م .) (١٥) لم تكن قد نشرت وقت كتابة هذه السطور .

(سورم) وقد لاحظت في ذلك الحين ان الكتابة عن الجنس تميل الى تدمير التأثير التفريري لان القارئ يصبح منغمسا وادخلا فيما يقرأه . ولكن « اليومية الجنسية » لم تستخدم « شكل » الرواية الداعرة ، وانما شكل المذكرات الاعترافية ، لقد كانت رواية افكار لا تأخذ الجنس الا باعتباره نقطة انطلاقها . ولكنه نوع من التحدي المتع ، لان رواية الادب الداعر اكثر صراحة من الناحية الشكلية من اي نوع روائي آخر يمكنني ان اتذكره ، انها تتمتع بشيء من الصراحة الرمزية التي يتصف بها الباليه . وهذا شيء افضل ما يكون من اجل انتاج التأثير التفريري . والتحدي الموجود هنا بالطبع ، هو ان تضفي الحياة على البناء . والمشكلة القائمة في رواية الادب الداعر التقليدي – ورواية «جوستين» (٢١) يمكن ان تؤخذ هنا كمثال – هي ان المرء يعرف انها سلسلة من « القطع المستقلة » يربطها خيط قصصي معتسف مفروض عليها ، مثل احدي اوبرات مونفيردي . وانا اكثر اهتماما بكثير بالقصة والافكار مني بالقطع المستقلة المفتعلة الارتباط . ولا بد لي ايضا من الاعتراف – ونحن بصدد الحديث عن الشكل – بان هذا الكتاب (اله المتأه) لا يخضع لقواعد رواية الادب الداعر بقدر ما يخضع لقواعد القصة البوليسية – وبوجه خاص لقواعد القصة البوليسية الادبية من النوع الذي شاع في روسيا على يدي الكاتب ايراكلي اندرونيكوف . وحكاية « جماعة العنقاء » قمت بتطويرها اعتمادا على اشارة عابرة وردت عند جورج لويس بورجيس . وفي الحقيقة ، اذا صح ان يقال ان روايتي « طفيليات العقل » ، « حجر الفلاسفة » قد استعارتا الميثولوجيا التي وضعها « ه. ب. لوفركرافت » ، فان هذا الكتاب يمكن ان يقال عنه انه قام على اساس من اشارات بورجيس ذات الطابع الميثولوجي .

ان نجاح هذه الرواية او فشلها باعتبارها تمرينا في المعالجة التفريرية ، لا ينبغي ان ينظر اليه كمقياس لقيمة هذا النوع من المعالجة . وانا مقتنع بان حل مشكلة السمكة الشيكسبيرية ، ومشكلة السمكة المطروحة على الشاطئ انما يمكن في تطبيق طريقة التأثير التفريري على الرواية ، سواء نجحت هذه الطريقة او فشلت في هذه الحالة بعينها او تلك ، ولكنني يمكنني ان اقول – محتجا – بانها اذا «امكن» ان تنجح في هذه الحالة ، فانها يمكن ان تنجح في اي مكان آخر .



هناك نقطة اخيرة ، اثيرها بشيء من التردد ، طالما انها تبدو لي واضحة . فنحن حينما ننمو لكي نخرج من طور الطفولة الى الرجولة ، فاننا نجد مجالات جديدة من التجربة يمكن الا تكون عملية او غير مرغوب فيها بالنسبة للطفل ، من شرب

(٢١) جوستين ، الجزء الاول من رواية لودانس داريل ، الكاتب الايرلندي الانجليزي المصاصر « ربامية الاسكندرية » التي حاولت الاستفادة من لاسلوب تيار الوعي والمناجيات الذاتية ، ومن اوائل الاعمال الادبية التي استفادت من منهج هوسرل الظاهراتي . (٢٠٥٠)

الكحوليات والتدخين ، الى تسلق الجبال والاستماع الى الرباعيات الوترية . ان الجنس يقف خارج كل انواع التجارب الاخرى باعتباره تجربة لا بد ان تعالج في شكل سر من الاسرار ، كما لو كانت طقسا قبليا غريبا يتضمن اسما لا يصح ان ينطقه اللسان .

وقد يكون هذا امرا جوهريا بالنسبة لبعض القبائل البدائية او المجتمعات الابوية (البطريركية) ، ولكن الى اي مدى يمكن ان يكون امرا مرغوبا فيه بالنسبة لحضارة مثل حضارتنا ، هدفها الاساسي (مهما كانت كآبة وتشاؤمية ما يقوله المؤرخون) هو « الحلاوة والنور » ؟ لقد كان تطور الحضارة الغربية هو تطور العقل ، رفض العنصر القطعي الجامد والسلطوي المتعسف في الدين ، وايضا (فيما نرجو) في السياسة ، وهذا التطور لم يتوقف حينما رفضت انجلترا سيطرة البابا ، او حينما رفض فولتير المسيحية . وحتى رسالات نيومان واوكسفورد ينبغي ان ينظر اليها باعتبارها تطورا لنفس الاتجاه ، اصرارا على مطالب عقل اكثر رقة وتهذيبا وعمقا متعلقة باحتياجات الانسان المتنافيزقية . وقد كان على فرويد ان يخوض نفس المعركة ، كان عليه ان يكبح سيطرة المحرمات الاجتماعية والقيود الضاغطة وان يقهرها بمطلب الصراحة وانفتاح العقول ، وكذلك فعل د. ه. لورنس . ويمكن ان ننظر الى معسكرات الابادة النازية باعتبارها محاولة للعودة الى شكل للمجتمع اكثر بدائية – وغير معقد – حيث تحل المشاكل عن طريق القوة والعقائد الجامدة القاطعة ، وليس عن طريق العقل .

يبدو لي ان هذا التطور يفترض بشكل مسبق فرضا انسانيا هاما : ان « التحريم » رديء في حد ذاته ، رغم انه قد يؤدي في بعض الاحيان الى الخير في مجال محدود . فعلى سبيل المثال ، فان جرائم القتل الجنسية لا يرتكبها اناس يفكرون في الجنس ويتحدثون عنه دون كبت ، وانما يرتكبها اناس تصاعد عندهم الاحباط حتى وصل الى درجة الشيء المحرم الشديد الاغراء . ولذلك لا ينبغي ان نخلط بين « التحريم » والنظام الذي هو بشكل اساسي عنصر محرر . ان جيشا جيدا يشبه آلة جيدة التشحيم ، ونظامها هو العنصر الذي يسمح لها بان تدور دون عوائق او عقبات .

واذا كان كل هذا صحيحا – وانني لاجد انه من الصعب ان اتصور اي شخص عاقل يمكن ان ينكره – اذن فلا بد ان يتلو ذلك انه ينبغي للراشدين الناجحين ان يكونوا قادرين على التفكير في التجربة الجنسية مثلما يفكرون في اي شكل آخر من اشكال التجارب – في الفن او العلم او الرياضة او المفامرة . حينما قرأت رايدر هاجارد في طفولتي – شعرت بالانفصال والمشاركة في وقت واحد . جاء الانفصال من الجلوس على مقعد وانا اقرأ كتابا جامد الحركة ، ولكن الاستثارة جاءت من السير عبر الاحراش المليئة بالثعابين مع البطل آلان كاترمين . وهذه هي الخاصة الجوهرية للتجربة المتحضرة : « الانفصال » و « المشاركة » . ولكن حيث يتعلق الامر بالجنس ، لا تزال هذه الفكرة بعيدة عن القبول . فمن المفترض فينا اما

ان تكون مشاركين بشكل مباشر – في الفراش مع شريكنا في الجنس – او بعيدين منفصلين بشكل كامل ، اي مثلما يحدث حينما اقرأ عن حالي في كتب هافلوغ اليس ثم اغمغم قائلا : « يا له من امر ممتع ! » هنا يبدو عنصر سخيـف ولا معنى له . لقد عاش معظم القراء الراشدين التجربة الاساسية التي وصفها كيلاند او د. هـ. لورانس ، وعلى العكس القسوة او الجريمة ، لا ينظر الى هذه التجربة باعتبارها شيئا غير مرغوب فيه من الناحية الاجتماعية . فهل هناك حقا مثل هذه الهوة بين موضوع الجنس وموضوعات من مثل التاريخ او المغامرة او الرياضة ؟ هل هناك اي سبب يمنع الراشدين ، اذا كان هذا هو احتياجهم العقلي ، من القراءة عن الجنس مع الاحساس بالانفصال ، او التفكير ، او حتى مع قدر معين من الاحساس بالمشاركة ؟ اننا اذا كان بوسعنا ان نقول عن شيء ما انه « صادم » دون ان نعني انه قبيح او شرير ، اذن فانها تبدو لي كفكرة ممتازة ان استخدم هذا الشيء لكي اصدم اكثر عدد ممكن من الناس ، حتى يفقد تأثيره الصادم ، وحتى يمكن ان ننظر اليه بهدوء ودون تشويه . ففي مجتمع متحضر حقا – ونحن ما نزال بعيدين عنه – لن تكون هناك كتب محرمة ، ولا افكار محرمة .

مؤلفات كولن ولستون

من منشورات دار الآداب

- ضياع في سوهو
- ترجمة يوسف شرورو وعمر يعق الشك
- ترجمة يوسف شرورو وعمر يعق المعقول واللامعقول في الادب الحديث
- ترجمة آتيس زكي حسن اصول الدافع الجنسي
- ترجمة يوسف شرورو وسهير كتاب اللامنتمي
- ترجمة آتيس زكي حسن ما بعد اللامنتمي
- ترجمة يوسف شرورو وسهير كتاب القفص الزجاجي
- ترجمة سامي خشبة طقوس في الظلام
- ترجمة فاروق محمد يوسف سقوط الحضارة
- ترجمة آتيس زكي حسن رحلة نحو البداية
- ترجمة سامي خشبة الشعر والصرفية
- ترجمة عمر الديراوي الحالم
- ترجمة سامي خشبة

هَذَا الْكِتَابُ

ما هي الاشكال الاجتماعية التي تتخذها حركات « التحرير » الانساني في المجتمعات الغربية المتقدمة الان ؟ ما الذي يشغل المثقف الغربي الذي يرفض مجتمعه رفضا اخلاقيا وسياسيا وفكريا ؟ هل ينشغل بتغيير المجتمع نفسه ، علاقات القوى الاجتماعية فيه ؟

لقد قدمت مدرسة فرويد في التحليل النفسي اسلوبا آخر من اساليب رفض هذا المجتمع (بل هذه الحضارة) وأشارت الى طرق مختلفة لتغيير الانسان فيه. وبدلا من اسلوب العلاج النفسي للفرد ، اصبح هناك العلاج النفسي الجماعي : ما هي اشكال هذا العلاج ، وإلى اي شيء يطمح ، وهل له تاريخ مختلف عن التاريخ الفلسفي القريب المعروف منذ فرويد ؟ وما مقدار ارتباط هذا التاريخ بالاديان والفرق الدينية - القديمة الغربية في أوروبا ؟ وما مقدار ارتباطه بالكوارث الحضارية الكبيرة مثل الطاعون الاسود والحروب الدينية العظمى التي شهدتها أوروبا في القرون الوسطى وبعدها مباشرة ؟ وما هي اشكال الانحرافات النفسية في مجال الجنس المرتبطة بهذا التاريخ والتي حاولت استخدام انحرافها او التغلب عليه او علاجه ؟ هل كان الشكل الوحيد هو شكل دي صاد او كازانوفاف؟ وماذا يمكن ان يقال عن روسو وبايرون وصامويل جونسون ؟ وما الدلالة الاجتماعية لمثل هذه الاشكال من الانحراف ؟ وما دورها الحالي في حل الازمة الروحية لانسان هذه الحضارة الان ، وعجزه عن التفاهم مع نفسه ، وجسده ، والاخرين ؟

هذه بعض الاسئلة التي يتشكل نسيج هذه الرواية - شبه التسجيلية - من خلال الاجابة عليها : ان جيرارد سورم - احد ابطال ويلسون الذين يستخدمهم لكي يتحدثوا بلسانه - يتدفع في حبكة روائية معقدة وخصبة للبحث عن حقيقة رجل غير مشهور عاش منذ قرنين ، لكي يجد نفسه وسط نسيج معقد تصنعه هذه الاسئلة واجاباتها : يثيرها وي طرحها نفس هذا الشخص غير المشهور . ثم يكتشف سورم حقيقة اخرى غريبة عن نفسه : انه ليس سوى « تجسيد » جديد ، وفي عصر وباسلوب مختلفين ، لنفس الشخص : ايزموند دونللي الذي كان يبحث عنه والذي واجه كل الاسئلة واجوبتها من خلال ذلك البحث . ومع ذلك فان هذا « التناسخ » ليس سوى التجسيد الرمزي لوجود فكرة التحليل النفسي والتفسير الجنسي للسلوك البشري ، باعتبارها من الافكار الثابتة في جوهر التكوين الثقافي للحضارة الغربية .

وبذلك يخطو كولين ويلسون ، خطوة اخرى - عن طريق الفن وليس التفلسف التأملي - نحو بناء منهجه الفكري الذي يطمح اليه .

الترجم